

مُحَمَّدٌ
صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

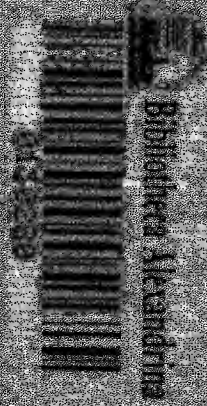
الْمِثَالُ الْكَامِلُ

تأليف

محمد أحمد جبار المولى بك

١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م

دار الكتب



مجلد
صلى الله عليه وسلم
المشاكل الكامنة

تأليف

محمد أحمد جبار المولى بك

عالم الكتب

عالم الكتب

نشر * توزيع * طباعة

الإدارة :

١٦ شارع جواد حسنى

تليفون : ٣٩٢٤٦٢٦

فاكس : ٣٩٣٩٠٢٧

المكتبة :

٣٨ ش عبد الخالق ثروت

تليفون : ٣٩٢٦٤٠١

صندوق بريد ٦٦ محمد حبيب

القاهرة الجديدة ١١٤١٨

١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م

مقدمة

كتاب « محمد (ﷺ) المثل الكامل » من ضمن مؤلفات المرحوم الأستاذ/ محمد أحمد جاد المولى بك وقد سبق طبعه ونشره فى حياة المؤلف وبعد وفاته . ونظرًا لأهمية الكتاب فى توجيه وإضفاء صفة المثل الكامل لسيد البشر النبى محمد عليه السلام ، رأى ابن المؤلف إعادة طبع ونشر الكتاب على نفقته الخاصة وعهد لعالم الكتب بالطبع والنشر والتوزيع بسعر التكلفة إحياء للتراث الإسلامى .

والكتاب المقدم لطبعه نسخة طبق الأصل من الطبعة الثالثة لعام 1937 بمطبعة الاستقامة بالقاهرة توزيع المكتبة التجارية الكبرى دون إضافة أو حذف .

دكتور مهندس

أحمد السعيد جاد المولى

أكتوبر 1997

فهرس الكتاب

صفحة	الباب الأول	صفحة
	(إلى محمد صلى الله عليه وسلم ترد	
	الفضائل جميعها)	١
	١ - إجمال	١
	٢ - تفصيل	٢
	١ - فضائله الذاتية :	٦
	١ - مولده وشرف نسبه	
	وكرم نشأته	٦
	٢ - حسن صورته وكال خلقته	١٠
	٣ - كال منطقه	١١
	٤ - كال عقله	١٦
	٥ - نجده وشجاعته	١٨
	٦ - رغبته عن الدنيا وخشيته	
	من ربه	١٩
	٧ - احترامه نفسه	٢١
	ب - فضائله الاجتماعية	٢٢
	١ - جوده وسخاؤه	٢٢
	٢ - حسن معاشرته	٢٥
	٣ - إغضاؤه عما لا يحبه وعفوه	
	مع المقدره	٢٩
	٤ - حسن سياسته	٣٢
	٥ - طريقته المثلى فى الهداية	٣٨
	٦ - ثباته على مبدئه	٤٦
	الباب الثانى	٥٧
	محمد صلى الله عليه وسلم بين الرسل)	
٦٣	الباب الثالث	
	(الأسباب الاجتماعية والاقتصادية	
	التي اقتضت بعثة محمد صلى الله	
	عليه وسلم)	
٦٣	١ - حال الفرس	
٦٤	ب - الرومان	
٦٦	ج - الهند	
٦٦	د - حال البلاد العربية	
٦٧	هـ - حال مكة قبل البعثة المحمدية	
٨٩	الباب الرابع	
	(مراحل حصول النبوة	
	واستقرارها)	
٩٦	الباب الخامس	
	(الأدلة القاطعة على صدق نبوته	
	صلى الله عليه وسلم)	
٩٦	١ - الأدلة العقلية	
٩٦	١ - احتمال صنوف الأذى	
	٢ - اشتهاره بمكارم الأخلاق	
٩٧	فى نشأته	
	٣ - شدة خوفه من عظمة	
٩٩	ربه ونسبته كل شئ إليه	
١٠٠	٤ - انتشار الإسلام بسرعة	
١٠٠	٥ - حرصه على هداية الخلق	

صفحة	صفحة
٢ - انشقاق القمر ١٤١	٦ - إخباره بالمغيبات ١٠١
٣ - تيسير الماء لقومه على يديه ١٤١	٧ - اهتمامه بسعادة أمته ١٠٣
٤ - تكثيره للأطعمة ١٤٢	٨ - تجرد نفسه من الخطوط البشرية ١٠٣
٥ - شفاؤه لبعض الأمراض ١٤٣	٩ - فرط حشه على تطهير النفوس من الأرجاس الطبيعية البشرية وأحوال الشهوات البهيمية ١٠٤
٦ - انقياد الشجر له ١٤٤	١٠ - وصفه أمراض المجتمع ودواءه ١٠٦
٧ - سقوط الأصنام بإشارة من قضيب كان في يده ١٤٤	١١ - عجز العرب عن معارضة القرآن الذي أنزل عليه ١٠٦
٨ - استجابة الله لدعواته ١٤٤	١٢ - تأييد الله له وخذلان أعدائه ١٢٦
٩ - الإسراء والمعراج : ١٤٥	١٣ - تكامل الفضل فيه ١٢٩
الموضوع ١٤٦	ب - الأدلة الحسية ١٣٤
الفريق الأول الذي يتمسك بالشبه العقلية ١٥٢	إلمامة بالمعجزات ووجه الحاجة إليها ١٣٤
براهين عصرية على ذلك ١٥٣	ضرورة المعجزة للرسول ١٣٤
الخلاصة ١٥٥	حقيقة المعجزة ١٣٥
الباب السادس ١٥٨	كيف تقع المعجزة للرسول ١٣٥
(محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلاً)	أنواع المعجزات ١٣٧
الباب السابع ١٧٧	خصائص محمد من بين الأنبياء ١٣٧
(محمد صلى الله عليه وسلم أكبر المصلحين نجاحاً)	دلائل الرسول تقوم مقام المعجزات ١٣٨
١ - نجاحه الاجتماعي والخلقي ١٧٧	معجزاته صلى الله عليه وسلم : ١٤٠
ب - نجاحه في سياسته : ١٩٦	١ - القرآن ... ١٤٠
١ - احتماله الأذى وتألفه من حوله ١٩٦	
٢ - حذقه في المعاهدات واستقبال الوفود ومراسلة الملوك ٢٠٢	

صفحة	صفحة
ب - تجميل ظاهره، وتهذيب ٢٥٣	١ - معاهدة الحديبية ٢٠٢
طبائعه بالعبادة ٢٥٣	ب - استقبال الوفود: ٢٠٨
المقصد الثاني ٢٥٣	١ - وفد نصارى نجران ٢٠٨
(إعداد الفرد ليكون عضواً نافعا ٢٦٤	٢ - وفد تميم الدارى وأصحابه ٢٠٨
فى المجتمع) ٢٦٤	٣ - وفد عامر بن صعصعة ٢٠٩
الزكاة ٢٦٤	٤ - وفد عبد القيس ٢١٠
الحج ٢٦٦	٥ - وفد عدى بن حاتم رضى الله عنه ٢١١
المقصد الثالث ٢٦٦	٦ - وفد كندة ٢١٢
(إصلاح المجتمع) ٢٧١	٧ - وفد نجيب ٢١٣
أولاً: إنصاف المرأة ورفع شأنها: ٢٧١	٨ - وفد بنى سعد هذيم من قضاة ٢١٤
إجمال ٢٧١	ج - مراسلته للولك ٢١٥
تفصيل ٢٧٤	د - نجاحه فى حروبه: ٢١٦
١ - المرأة فى نظر الإسلام ٢٧٤	مشروعية القتال ٢١٨
بوصفها بنتاً ٢٧٤	غزوة بدر الكبرى ٢٢٠
٢ - المرأة بوصفها زوجة ٢٧٦	غزوة الفتح ٢٢٢
٣ - المرأة بوصفها أما ٢٧٩	الباب الثامن
٤ - المرأة بوصفها عضواً فى ٢٨١	(محمد صلى الله عليه وسلم أوفى ٢٢٥
المجتمع الإنسانى ٢٨١	الأنبياء دينا)
٥ - موازنة بين الرجل والمرأة ٢٨٢	«تمهيد»
٦ - ما اختصت به المرأة دون الرجل ٢٨٣	مقاصد الإسلام: ٢٣٠
إباحة تعدد الزوجات: ٢٨٤	«تمهيد»
٧ - أسباب تعدد زوجاته صلى ٢٨٦	خصائص الإسلام ٢٣٣
الله عليه وسلم ٢٨٦	من المسلم حقاً؟ ٢٤٠
الأسباب العامة ٢٨٦	المقصد الأول
الأسباب الخاصة ٢٨٨	(إعداد الفرد فى ذاته) ٢٤١
٨ - إباحة الطلاق ٢٩٥	١ - غرس العقيدة الصحيحة ٢٤١
٩ - الحجاب ٢٩٩	وسائل تكوين العقيدة الصحيحة ٢٤٢

صفحة	صفحة
المقصد السابع	النساء في الإسلام ٣٠٥
٣٤٥ تعميم الوحدة الأخوية	ثانيا: الإكثار من وسائل إبطال الرق ٣١٠
المقصد الثامن	الاسترقاق في الأزمنة القديمة ٣١١
٣٥٠ وحدة الرياسة الإسلامية	الاسترقاق عند المصريين والهنود ٣١١
المقصد التاسع	الاسترقاق عند الآشوريين والبرانيين ٣١٣
طلب الخير لجميع الناس على اختلاف	الاسترقاق عند الصينيين ٣١٣
٣٥١ أديانهم	الاسترقاق عند العبرانيين ٣١٤
المقصد العاشر	الاسترقاق عند الإغريق ٣١٥
٣٥٤ التنويه بمكارم الأخلاق	الرق عند الرومان ٣١٦
المقصد الحادي عشر	وجوه الاسترقاق ٣١٧
٣٥٦ إقرار أن الناس طبقات ومنازل	أقسام الرقيق ٣١٧
المقصد الثاني عشر	قيمة الرقيق ٣١٨
٣٦٤ إصلاح المجتمع إصلاحا شاملا:	الاسترقاق في القرون الوسطى ٣١٨
٣٦٤ الأول - دين متبع	الاسترقاق في الأزمنة الحديثة ٣٢٠
٣٦٤ الثاني - حكومة رشيدة	القانون الأسود ٣٢٠
٣٦٦ الثالث - عدل شامل	الاسترقاق في الديانة المسيحية ٣٢٢
٣٦٨ ضروب العدل	الرق في الإسلام ٣٢٣
٣٧٠ الرابع - الأمن العام	سبل التحرير ٣٢٤
٣٧٠ الخامس - توفير أسباب اليسر	مميزات الرقيق ٣٢٦
٣٧١ السادس - غرس الآمال في نفوس	مزايا الإعتاق الاجتماعية ٣٢٦
الناس	معاملة الرقيق ٣٢٧
الباب التاسع	المقصد الرابع
محمد صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق ٣٧٧	مقت البطالة ووجوب العمل ٣٣٠
الباب العاشر	المقصد الخامس
محمد صلى الله عليه وسلم أجدر ٣٩٢	حسن المعاملة ٣٣٤
الناس بالإيمان به	المقصد السادس
	إقامة العدل ومحقق الظلم ٣٤٢

صفحة	صفحة
الضرب الثاني	٣٩٢ وجوب الإيمان به
٤١١ فضائل اجتماعية	٣٩٢ وجوب طاعته
الضرب الثالث	٣٩٣ وجوب محبته
٤٢٥ زواجر ذاتية	٣٩٥ درجات الناس في محبته
الضرب الرابع	٣٩٧ أمارات محبته
٤٣١ زواجر اجتماعية	الباب الحادى عشر
الباب الثانى عشر	محمد صلى الله عليه وسلم أوفى ٤٠١
٤٤١ إدحاض مقتريات بعض المفتين	مظهر للقرآن الكريم
الباب الثالث عشر	الضرب الأول
٤٥٨ موجز السيرة النبوية	٤٠٤ فضائل ذاتية

فهرس الصور

رقم الصفحة	الموضوع	الصورة	رقم مسلسل
٦	مولده صلى الله عليه وسلم	جزيرة العرب	١
٦	مولده صلى الله عليه وسلم	مكة والمسجد الحرام	٢
٩٠	مراحل حصول النبوة	غار حراء	٣
٢١٥	مراسلته للبلوك	كتاب النبي إلى المقوقس	٤
٢٢٠	غزوة بدر الكبرى	ما بين الحرمين الشريفين	٥
	الحج	الكعبة	٦
٢٦٦		جبل عرفات	٧
	وفاته الرسول عليه السلام	قبة النبي عليه السلام	٨
٤٧١		المدينة المنورة	٩

مراجع الكتاب

- (١) القرآن الكريم
- (٢) كتب الأحاديث الصحيحة
- (٣) خلاصة السيرة المحمدية للمغفور له السيد محمد رشيد رضا
- (٤) السيرة الحلبية
- (٥) مركز المرأة في الإسلام للمغفور له السيد الأمير علي الهندي
- (٦) روح الإسلام - له أيضا
- (٧) المعاهدات والمجالفات للأستاذ حسن خطاب الوكيل
- (٨) الرق، في الإسلام ترجمة المغفور له أحمد زكي باشا
- (٩) رسائل السلام للعالم الكبير الشيخ يوسف الدجوى
- (١٠) موجز في تاريخ الشرق للأستاذ فولديك
- (١١) سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لمولانا محمد علي الهندي

تقاريط الطبعة الأولى

١

كتب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله دراز :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

حضرة الفاضل التقى الأملى محمد بك جاد المولى

أما بعد ، فقياماً بواجب ديني ، ووفاء بوعد سابق ، وتلبية لرغبة حضرتكم ، استوعبت الكتاب قراءة . فاستفدت كثيراً ، ومتعت نفسي بنفائس جواهره ، ووجدت فيه كل ما تبتغيه لدينك القويم : هدياً للجامعين ، ورداً لكبد الملحدن ، وشفاء لصدور المستريين ، وتفقيماً لشباننا الجاهلين ، وتقوية ليقين المؤمنين . بارك الله فيك ! وإني أغبطك ، فهذا أحد مواضع الغبطة اللاتقة بالمؤمنين ، وأبشرك بخلة تاج القبول ، ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم . فهنئاً لك !

تجدون مع هذا بعض ملاحظات ، دعا إليها دافع الإخلاص في خدمة الدين وأهله . نسأله تعالى أن يرزقنا التوفيق في سائر الشؤون . إنه سميع مجيب .

٢

وكتب حضرة الأستاذ الكبير عبد الوهاب البرعى المحامى بالمنصورة

حضرة الأستاذ الجليل

إن محمداً صلى الله عليه وسلم ليغرب في قبره الشريف ، وتحريك روحه الطاهرة عليه الصلاة والسلام ، وتشرق أنواره الباهرة ، على كل ما تقوم به من عمل ، لأنك كتبت عنه تاريخاً نقياً ، وتحليلاً طاهراً ، هما حجتك في يوم المعاد ، وشفيعاك أمام رسول الله صاحب الشفاعة . فلقد والله بدأت كتابك ، في صباح يوم جمعة كنت أزور فيه بعض أقاربي ، في قرية من قرى الريف ، فلم أتركه من يدي ، ونمت وهو إلى جانبي ، أتقل من باب إلى

باب ، وكأنما أدخل في أبواب من جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ، ولم أستطع أن أفارق كتابك القيم ، حتى أتممت قراءته في اليوم التالي . وكنت كلما راقى فصل من فصوله القيمة الممتعة ، تلوته على جمهرة الحاضرين ، لآمتعهم ذلك المتاع الحسن معي ، ولاشركهم في هذا النعيم : من ذكر أفضل الكائنات ، وسرد تاريخ حياته الشريفة ، ومناقبه العظيمة ، ومعجزاته وأخلاقه ، وكل ما يتعلق بشخصه الشريف ، في عبارة لا أصفها إلا بأنها تسحر القارئ ، وتأخذ بلبه .

وإني لأشهد وأشهد الله ، أنك كتبت هذا الكتاب الكريم من قلب خالص ، وجعلته زلي تتقرب به إلى الله ورسوله . ولو أن رجلا بلغ الكفر من قلبه مبلغاً بعيداً ، وأوغل في الشرك وعدم الإيمان برسالة نبينا عليه السلام . أقول : لو أن ذلك الرجل قرأ كتابك ، لخرج منه وهو يرفع الصوت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله : حقاً وصدقاً . فطوبى لك أيها الرجل . طوبى لك إذ وفقك الله أن تكتب هذا الكتاب عن نبيه ، وأن تسلك فيه مسلكاً لم يسبقك إليه أحد ، وأن يبلغ عليك بالرسول الكريم وحياته الشريفة ، مبلغاً يجعلك من المقربين منه ، ويجعل لكتابك من المكانة أرفعها في نظر القارئ المنصف : من أي دين وملة . فلقد سقت الأدلة ، دليلاً يرتفع من فوقه دليل ؛ حتى بنيت بكتابك صرحاً للسلبين في مشارق الأرض ومغاربها يفخرون به ، وحجة يقيمونها أمام كل مكابر ومنافق . إني لن أوفيك ما يستحق كتابك من ثناء ، ولا أستطيع أن أكون نظيرك في التدليل والتحليل . ولكني أمام ذلك الكتاب ، لم أجد إلا أن أقول لك : طوبى لك وحسن مآب !

٣

وكتب حضرة النطاسي البارع الدكتور زكي علي ، الطبيب بمستشفى قصر العيني :
حضرة العلامة الجليل ، الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك
إن المؤلف العظيم (المثل الكامل) الذي أخرج جموه للناس ، هو أثر خالد

يتحدث بما لكم من عظمة الخاق ، وشرف النفس ، وقوة الإيمان ، وشدة التقوى ؛ وصدق الجهاد في سبيل نصرته دين الله ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وأعتقد أنه يجدر بكل مسلم تقى ورع يتمسك بدينه ، أن يطالعه بتمعن ، وكفاكم هذا نفراً دائماً ، وشرفاً كبيراً

أيها العلامة ، وأستاذنا التقى الجليل ، جزاكم الله عن دين الإسلام ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، خير الجزاء . وإنتى الآن أشعر بالسعادة والسرور العظيم ، حين أهدى إليكم رسالتى فى الطب العربى ، راجياً أن تتقبلوها بقبول حسن . وتفضلوا بقبول أشد إعجابى وثنائى ، ومزيد تحياتى واحترامى .

٤

وجاءنا من حضرة صاحب الفضيلة العالم الفاضل الشيخ محمود شويل المدرس بالمسجد النبوى الشريف :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نبيته من برّيته ، أفضل داع إلى توحيد ربه ، سيدنا محمد وآله وحزبه وصحبه .

إلى الأستاذ الهمام ، السيد محمد جاد المولى بك ، وفقه الله لمرضاته ، وجعله ذخراً للإسلام ينفع أبنائه ، ويربى أهله ، ويغذى رجاله آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فقد ورد علينا بالمدينة المنورة ، حاوية الجثة المطهرة ، التى أفاض صاحبها صلى الله عليه وسلم فى حياته على العالم نوراً . وأمدهم بحياة من الوحي المنزل عليه — كتابك المسمى (محمد المثل الكامل) . فألفيناه حقيقة مثلاً أعلى فى موضوعه ، لم يسبق إليه ناسج ، ولم يعرج على مثله كاتب ، فكان حقيقة كمعجزة بيانية ظهرت بقلبك أيها الفاضل ، كما أنها دلت على أن فى الأمة الإسلامية الآن رجالاً أفذاذاً ، لم تلعب بعة ولهم زخارف الاتحاد ، ولم تستلهم بروق المروق ، فحمد الله سبحانه أن أوجدك فى هذا الزمن ، محيياً آثار سلفك ، مجدداً تراث أجدادك ، إذ قت بتلك الفضيلة ،

وهاته المنقبة الفذة ، التي دلت على قوتك الدينية وعبقريتك الاسلامية ،

٥

وكتب حضرة صاحب الفضيلة ، العلامة الجليل ، الأملى التقي الورع
الشيخ يوسف الدجوى ، من هيئة كبار علماء الأزهر الشريف
حضرة صاحب الفضيلة والعزة ، الأستاذ الكبير ، والعلامة النيل ، محمد
جاد المولى بك .

أهدى إليك من التحيات أعطرها ، ومن الإكبار والإجلال المقرونين
بالاعظام ، بقدر ما منحت من فضل وكال ، وتقوى وإيمان .

وبعد فقد قرأت كتابكم (محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل) فإذا بك
كاتب مطبوع ، موفور الحظ من الإجابة ، يمتاز بصفاء الديباجة ،
وحال البلاغة ، ووضوح المعنى مع سمو النزعة . وإذا بك قد أودعته
كثيراً من طرائف الحكم التي شهدت بصفاء الروح ، وغزارة المادة ، وسعة
الاطلاع ، ودقة التعبير ، وشرف الغاية ، ونبالة المقصد . قد جمع
فأوعى : علماً وأدبا ، وفضلاً ونبلاً ، وأخلاقاً ونوراً وعلى الجملة فكله
حكم شافية كافية ، تضمنتها ألفاظ بليغة سهلة التناول ، بعيدة عن كد
الفكر ، شأن المطبوع . زانتها معان رفيعة ، مفعمة بقوة التحقيق ، وحسن
الاختيار ، مكسوة حللاً من التوفيق ، وبراهين من التأيد ، جعلت قطوفها
دانية لأبسط العقول ، وإن كانت من العظمة والجلال بمكان . قد صورت
هذا النبي الكريم ، ومثلته أبدع تمثيل : تمثيل جدير أن يحرك من النفوس
الصفائية عشقها البالغ لما انطوت عليه تلك الحياة من كمال ، وما اشتملت
عليه من جليل الخصال ، وروعة الاعتبار ، فكنتم مؤمنين حقاً ، من ورثة
الأنبياء صدقا ، تنظرون بنور الله

لجمعتم من الآداب الدينية ، والتعاليم الاجتماعية الخلقية ، مادل على عقل
ناضج ، ودين قويم ، وخلق عظيم ، ونظر متسع ، وقرينة وقادة ، وفطرة

سليمة ، ونظر ثاقب ، دل على أن العلم لا آخر له . وأن الفضل لاحد له ، وأن النبوغ لا يتناهى

تلك صفات قد أنارت لكم الطريق ، وأوضحت لكم الحقائق ، وجعلتكم من الذين اتخذوا من علمهم ودينهم ، وتقواهم ويقينهم ، أداة صالحة لإدراك المثل الأعلى من الكمال ، فأبرزتم للناس خير صورة دينية اجتماعية ، تدعو إلى الإعجاب والسرور ، كما تدعو إلى العبرة والخشوع : صورة يخر لها علماء الاجتماع لإجلالهم وإكبارهم ، وأساندة علم النفس دهشة وحيرة

فكنتم من رسوخ البحث وصحة التحليل في أعلى ذروة . ومن معرفة قدر ذلك النبي الكريم ، والرسول السيد السند العظيم ، محمد صلى الله عليه وسلم في المحل الأسنى ، والمقام الأسنى

محضتم الحقائق بأحسن أسلوب وأبداع نظام ، فلكتم المشاعر بما وفقت إليه من جمع شتى المزايا ، وأخر الشوائب . وهو توفيق عزيز ، يمن به الحق تعالى على من شاء من خاصة عباده :

جمعت به السعادة في نطاق وأسباب الهداية في قرآن فكان شافيا للنفوس ، مبرئا لها من سقامها ، رادا إلى العقول الشاردة ورشدها ، وإلى النفوس المجددة صوابها . فله كتاب حوى من الآلى أغلاها ، ومن التحقيقات أدقها ، ومن المباحث الأنيفة أوسعها وأعلاها ، ومن كريم الفضائل أجملها وأوفاها . ولاغرو فأنت نسيج وحدك !

وما أنسَ لأنسَ موقفك الذي أرضيت به الله ورسوله ؛ بمؤتمر المستشرقين (بأوربة سنة ١٩٢٨) ، إذ كنت تقرر البراهين الساطعة ، من التواريخ الإسلامية والفرنجية ، والأدلة العقلية ، على صحة ما تقول ، وعلو كعب الرسول ، حتى صفق لك أعداء الدين ، وزمر الماديين ، خضوعا لمنطقك ، وتأثرا بسحر بيانك ، فعجبا لك ! عالم ديني ، وفيلسوف اجتماعي ، وشرقي

وغربي... أأعجمي، وعربي!!

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
وبعد فقد بذلت لأمتك الخالص من حقائق الدين ، وصفو اليقين ،
وشمائل سيد المرسلين ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة .
فكان كتابك :

كالبيت أفرد لا إبطاء يدخله ولا سند ولا في اللفظ إقواء

فكان لزاما على المنصف أن يقدر لكم هذه المواقف المشهورة ، ويعرف
لكم تلك المساعي المشكورة ، التي ردت كثيرا من الشبهات ، وقضت على
تلك الحزبيلات التي أذاعها هؤلاء الزعاف الذين عميت بصائرهم ، فخطبوا
خبط عشواء ، ورددوا مقال العابثين ، وضدى صوت الناعقين ، فكانوا
أعظم الناس جهلا بمزايا هذا النبي الكريم ، وأكبرهم عدا لذنو اليقين من
الراسخين ، وأشدهم طعنا على ما جاء في الدين : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا
بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ . ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .
لقد وقفت لهم موقف المرشد الناصح الأمين ، فجزاك الله خيرا عن الإسلام
والمسلمين ، وجعلكم من الذين أنعم الله عليهم : من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين

وختاما أرجو أن تتقبلوا أسى عبارات الاحترام والإعظام ، والإكبار
والإجلال . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

تقاريط الطبعة الثانية

وكتبه فقيه عصره ، وآية رمنه ، حضرة صاحب العزة والفضيلة الأستاذ العلامة أحمد إبراهيم بك أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بالجامعة المصرية يوم الاثنين : ٧ ربيع الأنور سنة ١٣٥١ - ١١ يوليه سنة ١٩٣٢ : إلى ذى النفس الزكية القوية

صاحب العزة الأستاذ محمد جاد المولى بك (حفظه الله)
تناولت بيد الشكر هديتك القيمة ، كتاب محمد (صلى الله عليه وسلم)
المثل الكامل ،

فوجدت الكتاب بطبعته الثانية ، قد ازداد حسنا على حسن ، وجمالا على جمال ، بحسن إخلاصك فى العمل لله ولرسوله
ولقد سررت جد السرور ، بنفاد الطبعة الأولى ، فى أقل من الزمن الذى قدرته لذلك ، وتفاءلت بذلك خيرا ، من إقبال الناس عليه . وعلمت أن المجهود إذا كان مبذولا لله ، فهو غير ضائع ، بل النفع به لاجرم حاصل بإذن الله تعالى

وحسب المخلص جزاء فى هذه الحياة الدنيا ، أن يرى بعينه ثمرة عمله ، فيغتبط بذلك ، وتفرح نفسه ، ويرتاح ضميره ، والجزاء الأوفى عند الله تعالى فى العقبى

ولقد وفقت أيها الأخ ، (ولازلت موقفا بنعمة الله وفضله) بما صورته للناس بقلبك البليغ ، فى تلك الحياة الطاهرة التى كلها خير وبركة على العالم أجمع ، حياة واسطة عقد الأنبياء ، وخيرة المخلصين الأصفياء ، سيدنا ومولانا محمد صفوة الخلاق ، وسيد الوجود على الإطلاق ، (عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم) ؛ فأبرزت للناس بما ارتسم فى مرآة نفسك الصافية ، تلك الصورة المشرقة بنور ربها ، وذلك الجمال الباهر ، فكان ماصورته الحقيقة بعينها ، وإن كان التصوير بقلم ساحر . ثم تناولت كل ما جاء به سيد المصلحين ، وإمام

المهادين ، من كل نواحيه : من مسائل العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والاجتماع ، والتشريع ، والسياسة . . . فوفيته حقه من البيان ، بكلام موجز سهل متين فصيح ، يخرج منه القارئ ، وقد تجلت له صورة الإسلام ورسوله الأعظم كاملة ، وقد وضحت المحجة ، وقامت الحجة ، ونصع الحق ، وانقطع العذر . ولقد أحسنت كل الإحسان ، بما أوردته من المقارنات التي يستبين بها فضل الإسلام على غيره ، « وبضدها تتميز الأشياء » . وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد . وكان ذلك كله مما به جاد المولى ، على عبده جاد المولى ؛ فبارك الله فيك وفي عملك ، وشكر لك حسن ما صنعت . وسلام عليك وعلى عباده الذين اصطفى ، ورحمة الله وبركاته ؟

وكتبه : أحمد إبراهيم إبراهيم
وکیل كلية الحقوق بالجامعة المصرية ، وأستاذ الشريعة الإسلامية بها

وكتب إمام اللغة والأدب ، ونابغة المنظوم والمشور ، الأستاذ الكبير السيد حسن القاياتي :

القاهرة : في يوم الخميس ١٣ من يولييه سنة ١٩٣٢

العالم النبيل الأستاذ محمد بك جاد المولى
تحية وتكريما ، وبعد ؛ فقد جاءني تحفتك الكريمة ، بل كتابك المبتكر «محمد» (صلوات الله عليه) .

أما أنا ، فلست أدري (يشهد الله) ، بأية هاتين المتين الكبيرتين أنا مغتبط معجب ، وكلتاها تملك النفس ، وتستبي اللب ! أجميل التذكر ، وحسن التقدير ؟ أم بهذا الكتاب الذي أطلعت في سماء الأدب والعلم ، آية في طرفة التفكير ، وجدة الأسلوب ؟

أبعث إليك أيها الأستاذ النبيل ، من قلب مخلص بالتهنئة مرتين : مرة على

— ع —

برك بالآداب والعلم ، وثانية على أنك بصلاح نفسك ومبرتاك ، قد أرضيت
محمداً ورب محمد .

أكثر الله من أمثالك في العلماء العاملين ، وحمداً لك وشكراً
حسن القاياتي

— ٣ —

وكتب نابغة شباب فلسطين الأستاذ عرفات الدويك (بكالوريوس في
العلوم والفنون) مساعد مدير مدارس قضاء الخليل ، ومربي سمو الأمير
نايف ، نجل سمو الأمير عبد الله المعظم ، ومؤسس المكتبة الدويكية :

(محمد صلى الله عليه وسلم) المثل الكامل

إلى حضرة صاحب العزة محمد أحمد جاد المولى بك

مراقب مجمع اللغة العربية الملكي

ألق نظرة عجلي ، في لمحة خاطفة ، متفحصاً في ومضة بارقة ، على أحوال
البشرية في هذا العصر ، تجد عالماً مضطرباً ، بشرية متعثرة في دياجير مدلسة ،
لا تدري كيف تسلك السبيل إلى المثل العالي ؟ قتراها متباينة في أخلاقها ،
متصدعة في ألفتها ، قد انفصمت عرى أخوتها ، وبترت أسباب شملها ؛
فافترقت بها السبل ، وتشاكست النفوس ، واستمرت العداوة والبغضاء
بينها . فن قوى يحنف على ضعيف فيظلمه بقسوة لم تهتد إلى الرحمة سيلا ،
إلى أمير يسير رعيته لخيره وحده .

لم تتواضع هذه البشرية المصطنخة الجياشة ، على شرعة موحدة ، أو منهاج
يوضح السبل . بل ترى كل فرد قد ركب رأسه ، وولج مهيعه متعرجاً في
نزعة نائز صاخبة ، لم تلج باب الحكمة والأناة ، والتبصر والتدبر .

هنا أمة تتأهب لغزو أخرى ، وهناك شعب يئن من ظلم فادح ، وقسر
مرهق ، قد استحكمت ربة العبودية في عنقه ، فطفق يتلصق سبل الخلاص
فلا يجد لمعة من أمل ، أو ظهيراً يعينه على إدراك طلبته ، ونوال حرته .

— ف —

نرى هذا قد كشر عن أنياب دامية محدودة ، يتوَّج لينقض على أخيه ،
وذاك يقلب وجوه الرأى متربصاً دائرة السوء بمناجزته .
هذه هي الإنسانية تسير على أبواب مرداة بعيدة الغور ، تتقاذفها مؤثرات
نفسية ، وتقاليده مقوّضة ، ونظم وعادات فاسدة ، ووراثات جائحة جارية .
فلو التفتت مقلباً بصرك فيما حواليك ، لما وقع على نفوس تدرعت بالحلم ،
واستنارت بنور العلم ، نفوس وشجت فيها الرحمة ، أو تبّت غرس العطف .
لهذا ، حار علماء الاجتماع ، في تعرف سر هذا الداء الذي استطار شرره ،
وتعاطف ضرره . فمن قائل : إن « الرأسمالية » هي الداء الذي نغل في جرحها
وتمكن من تقويض هيكلها ، ذاهباً إلى أن خير مبضع لشطره ، ودواء
لاستئصال شافته ، الاشتراكية ، ولو أنهم أتّادوا ، وترثوا ونظروا بعين
خالصة من كل هوى ، لعلوا أن أصل الحياة وحدة هذا الكون ، وارتباط
ما فيه برابطة وثيقة من أصل الوجود . ينادى على ذلك قول الله : « يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ؛ إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ . » ، « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
تَنْتَشِرُونَ . » .

وقد ثبت في أحدث النظريات العلمية التي تسير مع القرآن جنباً إلى جنب
أن أصل الانسان واحد ، وإن ترامت به الأقطار ، واختلفت الألوان ،
وتباينت اللغات ، وافترقت النظم والعادات . فلم إذاً هذا التدابر ، وذاك
التناحر والتنافر ؟ ولم هذه الغواية المتأثلة في النفوس ، وتلك الضلالة المتمكنة
في الاقنعة والقلوب ، ودواء هذا الداء دان منا قريب ؟

وإذا كان لابد لبني الانسانية من اجتماع على خير ، فاعلم (قيض الله لك
الرشد) أن هناك شرعة بينة محكمة ، ومنهاجاً مشرقاً مضيئاً ، معبداً منقاداً ،

يوحد صفوفها ، ويؤلف بين قلوبها ، كما كان في عصر أقرب مثلاً ، وأدنى مشابهة من عصرنا هذا ، حينما كانت دولتا الفرس والرومان تسومان العالم ظلماً ، وترهقانه حيفاً . فمن شرائع فاسدة استغلها الأشراف لمصالحهم ، وتكميل دوايى سرفهم ، وتفنكهم ، إلى تدهور خلق شامل ، وفسادعات مستحكم ، وانتثار ألفة محصد ، وتصدع وحدة ترجف جوانبها ، وهى شعباً . لولا أن أشرقت تلك البعثة فى بطن واد غير ذى زرع ؛ فأضأت لها أرجاء العالم ، واقتطفت من ثمار هداية تلك الروح الملهمة رشدًا وعزة وسعادة ، فتوحدت جهودها ، وتضافرت على المجد أسس عزتها .

ولئن كان يقول بعض علماء النفس : إذا أردت أن تصيغ العالم بصبغة دينية أو علمية أو سياسية ، وتجعله يدين لفكرة واحدة ، ويسعى لهدف موحد ، فما عليك إلا أن تغرس تلك الفكرة فى نفوس الشئ الحديث ، فلن تمضى حقبة إلا وقد نما ذلك الزرع واستحص ، وآتى أكله ضعفين ، كل حين يأذن ربه .

وماهى تلك الفكرة النبيلة الغاية ، الشريفة المقصد ، التى تنتشر بها ألوية المحبة خفاقة ؟ وماهو ذلك الهدف السامى ، الذى إذا ولينا وجوهنا شطره ، وعملنا على تحقيقه ، بدل الضعف قوة ، والذل عزة ، والفقر غنى ، والتفرقة وحدة وألفة ، والجبن شجاعة ، والخول ذكاء ونباهة ، والكذب صدقا ، والاستنكاثة إباء ، والانحطاط رفعة ، والبغض محبة ، ونكث العهد وفاء ، والآثرة تضحية لصالح المجموع ؟

تلك هى فكرة وحدة الوجود ، والرجوع إلى الجرثومة الأولى . وذلك الهدف هو المثل الأعلى ، الذى يجب أن نوغل فى الاسراع إليه ، سيرا على تلك السنة . وتخلقاً بأخلاق تلك الشخصية الكاملة . المملوءة حياتها بمكارم الفعال ، وجلائل الأعمال ، والمترعة بالمثل العملية العليا ، التى أراد الأستاذ محمد نجاد المولى بك تصويرها فى كتابه محمد المثل الكامل ، فجاءت قبسا من

نور تلك الشخصية ، وصورة حية ناطقة ، بما أفرغ عليها من دقة إبداع ، وجمال أسلوب ، وحسن تحليل ، وقوة ربط . وإحكام سبك ، حتى كأن الحوادث تتساقط إليك أرسالا ، في يان زانه شدة عارضة ، وقوة لسن وفصاحة ، مع علم زاخر ، وخبرة ثرة ، واعتماد على الثبوت الصحيح فيما صححه الثقات . ينادى الاخلاص في تصوير ما يريد من هذه الحياة العبقريّة ، التي كانت لأعظم مثل سام في صفحة هذا الوجود وسجل تاريخه : حياة جديرة بأن تكون شرعة البشر عامة ، وحقيقة بأن تصبح مثلها الأعلى ، إذ اصطنع الله محمداً من سائر خلقه ، فهو أعلى رسله درجا ، وأكملهم شريعة ، وأشرفهم عنصرا . جملة الله بجميد السمائل ، وحلاه بأكمل الفضائل ، فرفع للفضيلة منارا . وشب لها في أعلى يقاع تارا ؛ إذ جاء بالسمحة البيضاء ، التي ليلا كنهارها ، فأحى بها الليل . ولئن أُرعد المبطلون في ذلك وأبرقوا ، فما كان إلا كما قال الله : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ،

سمحة بيضاء ، فيها توحيد للثقافة ، وتقريب للفكر البشري ، ورفع للمستوى الثقافي والاجتماعي . فإذا كان لابد لنا من لمّ شعث ، ورأب صدع ، وتوحيد جهة ، وجمع كلمة ، وخلق ألفة ، وسير حديث . حتى تتبوأ صهوة المجد ، وتقتعد غارب السؤدد ، ونعيد مجدا دثر ، وعزا عني وانطمس منه الأثر ، ونلحق بالأمم التي أدلجت ونمنا ، وتقدمت وتقهقرنا - فلاندحة عن ترسم سيرة هذا المصلح الأكبر ، والسير على سنته ، والتسك بشريعته التي تتفق وكل اجيل ، وتصلح لكل عصر . فإذا فعلنا ذلك أصبحنا أمة قوية عتيده منظمة مرهوبة ، واثقة من حياة ماجدة ، ممكنا لنا في الأرض كما مكن الله لأبائنا من قبلنا . فشر هذه الفضائل أمانة في عنق حاملها وجب أدائها ، إذ تلك السمائل هي الدستور الثقافي العام الشامل لجميع مناحي العمل في الحياة . وهناك يتم الله نوره ، ولو كره الكافرون .

هذه الفضائل التي دجت شيئا منها يراعة الاستاذ جاد المولى بك ، فكانت

رشفة من وابل مدرار ، وقطرة من زواجر البحار ؛ إذ كل إفراط في تصوير فضائله تقصير ، وكل إكثار في الكشف عن بدائعه (صلى الله عليه وسلم) اختصار ، فقال : «خير البرية طفلا ، وأنجبها كهلا ، أظهر المطهرين شيمة ، وأمطر المستمطرين ديمة . وهو خير أسوة للفرد في قبيلته ، والزوج مع زوجه ، والاب مع ولده ، والمربي مع تلميذه ، والواعظ مع مستمعيه ، والجندى في حومة الوغى ، والقائد في تديره ، والمتشرع في أحكام شريعته ، والقاضي في قضائه ، والسياسي في حكومته ، والملك في رعيته ، والمسلم لأوليائه ، والمحارب لأعدائه ، والعابد في محرابه ، والزاهد في قناعته . كل أولئك يجدون من حياته العملية مثلاً يحتذونها ، وروحا يقوون بها على مزاولة أعمالهم ، وإماماً يسرون عليه في تحقيق مآربهم ، ومرداً يرجعون إليه عند حيرتهم ، وإن اختلفت مشاربهم ، وتباينت ألوانهم ،

وماذا عساني أن أحبر فائقاً أبكار المعاني ، واصفاً هذا السفر الجليل في مقدمة وجيزة ! فإني إن فعلت ذلك فلا إخواني شاقا غبار الأستاذ ، من جمال معنى يترقق الإبداع في جبين لفظه ، وخلاصة رونق تغشى الأبصار بياهر بلاغتها . وإحكام تنسيق لحواث محكم نسجها . ولا نستبق القارئ الكريم بيان بعض ما فيه حتى يدخل هذه الروضة الأنف ، التي لن يخرج منها حتى يتفحصها زهرة زهرة ، ملتقطاً من درر مؤلف الغوالي كل واسطة عقد من هذه الحياة ، التي هي حلية جيد الدهر ؛ بأسلوب ناصع ، وبيان رائع ، وذخابة لسان متصل بجلال خالقه ، وسعة اطلاع صقلها الطبع الصافي والرغبة الصادقة في إظهار الحقائق العلمية

فله على جهاده المتواصل ، وشدة دأبه ، ومداومة طلبه ، أجر الصابر ، وجزاء الشاكر ، والله ولي العاملين .

خلاصة مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى له المثل الأعلى . والصلاة والسلام على محمد عبده المصطفى ،
ورسوله المجتبى ، وصفيه المرتضى ؛ المؤيد بالمعجزات الباقية ، والآيات الباهرة
التي وصلت إلينا بالأسانيد الصحيحة والأخبار المتواترة . وعلى آله مصاييح
الدجى وصحبه نجوم الهدى .

أما بعد : فإنى طالعت ما أدى إليه البحث من المثل الكاملة ، التي صورتها
العقول البشرية جيلا بعد جيل ، فألفيتها مظهرا لبينة الحكماء الذين تمثلوها
وأمزجتهم وعقائدهم وطرق تفكيرهم . وأنها على الدوام في تدرج وتحول
وفقا لمقتضيات الزمان والمكان ، وتخفيفا للأمانى التي تجول في صدور بنى
الانسان ، وأن أحدا منها لا يصلح لذلك أن يكون هداية عامة لبنى الانسان
جميعهم على اختلاف زمانهم ومكانهم .

لما كانت سيرة محمد صلى الله عليه وسلم من مولده إلى مماته ثابتة بثبوتها
لامرية فيه : لجميع أعماله مدونة ، وأحاديثه مسطرة ، شاملة لما يحتاج إليه
بنو البشر في معاشهم ومعادهم ، وحياتهم ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بإنهاض
بنى الإنسان ، من تثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم ، وإصلاح شؤونهم - كان
هو المثل الكامل .

والله أسأل أن يهدي الناس إلى اتباع سنته السنية ، واقتفاء سيرته الزكية ،
والاقتداء به في أخلاقه وأفعاله ، والتأسي به في حربه وسلبه ، والأخذ بقوله ،
والرضا بحكمه ، والعمل بدينه ؛ فهو آية لمن توسم ، وجنة لمن استلأم ، وعلم
لمن وعى ، وحديث لمن روى ، وحكم لمن قضى .

وقد جعلت الكلام على عشرة أبواب ليكون أنظم في البحث ، وأقرب
للعوى ، والله المستعان وبه التوفيق . سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

خلاصة مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذى الطول والإنعام ، والصلاة والسلام على خير الأنام ، وآله وصحبه الهداة الأعلام . وبعد : فلما طبع كتاب « محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل » ، طبعته الأولى ، أقبل الناس على اقتنائه ، حتى نفذ ما طبع منه فى أقل مما قدر له . وقد كان من حسن التوفيق أن تناولته يد طائفة كبيرة من جلة علماء الإسلام فى سائر الأقطار . فقرروه قراءة تمحيص ، ونظروا فى أبوابه وفصوله نظر تدقيق ، ثم كتبوا لنا بما عن لهم من آراء موفقة ومدح لانراه لإحسان ظن منهم بنا ، وتفضلا علينا ، وتشجيعا لنا . ونحن لا يسعنا إزاء هذا كله إلا أن نقدم لهم جزيل الشكر على ما أسدوا من خير ، وقدموا من نصح ، قياما بواجب الدين . وزيادا عنه

ولما نعيد طبع الكتاب فى ضوء ما بين أيدينا من الآراء السديدة ، وما بدا لنا حين أعدنا النظر فيه بعد الطبعة الأولى . ورجاؤنا فى الله . أن يبدو فى ثوبه الجديد أحسن وضعا وأحكم صنعا ، وأنقى ديباجة ، وأسلس عبارة ، وأوفى بالغرض المقصود منه . وأن يحقق سبحانه ما نصبو إليه من إحياء الفضيلة ، وبعث الهمة بالارشاد إلى المثل الكامل ، من أخلاق سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته الطاهرة ، ويهدينا إلى سبل الخير وخير السبل ، إنه سميع مجيب ، وبالإجابة جدير .

مقدمة الطبعة الثالثة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبحانك اللهم ، لانحصى ثناء عليك ، وهبت للإنسان نعمة العقل ، وخصصته بهذا الفضل ، فعرفك به كل العرفان ، وآمن بك حق الإيمان ، إلا من فسدت فطرته ، وكتبت شقوته .

وحمدا لك اللهم أن هديتنا إلى توحيدك ، فكنا في المؤمنين من عبيدك ، نرجو ثوابك ، ونخشى عقابك ، ونبتغي إليك الوسيلة . ونسلك إلى هداك سبيله . ثم الصلاة أذكر الصلاة ، والسلام أتم السلام ، على نبيك الأكرم ، ورسولك الأعظم ؛ مصطفىك لإبلاغ الرسالة ، وإخراج الناس من الضلالة نبراس الحق ، وإمام الخلق سيد ولد آدم ، محمد صلى الله عليه وسلم .

أما بعد : فقد نفذت نسخ الطبعتين الأولى والثانية من كتابي : ومحمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل ، فلما طلب إلى أن أعده للطبعة الثالثة ، جردت له سن القلم ، وبعثت له الهمم ، فطولت فيه غير المطول ؛ وفصلت منه المجمع ، وزدت عليه فصولا أخرى ، وأضفت إليه بحوثا شتى ، حتى بلغت فيه بحمد الله غاية المراد ، وبلغ حجمه الضعف أو كاد .

وليست طريقة هذا الكتاب بسبيل مما جرى عليه من ألفوا في السيرة ، على تبين كتبهم الكثيرة ، فهم إنما يؤرخون حياته الشريفة بحسب زمانها ، وما يتبعها من الوقائع ودورانها ؛ وإنما رأيت أن أعد ذلك إلى طريقة أخرى ، يصبح النفع بها أتم ، والفائدة منها أيسر ، والجلدة فيها أظهر ؛ وذلك أني

— خ —

عقدت الكتاب أبوابا ، وخصصت كل باب منها بشأن من عظام الشؤون التي تضمنتها حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو أسفرت عنها جهوده الفذة في بث الدعوة ، وإعلاء كلمة الله . وقد جعلت من همي في هذه الأبواب أن أدير الحديث في كثير من خصائص الإسلام ، وأفضل القول في سياسة هذه الشريعة الغراء في إصلاح البشر ، ولا سيما المسائل التي تثور فيها عجاجة البحث في هذا الزمن ، والشبهات التي تتقاذفها أقلام المعاصرين من الكتاب . وهأنذا أضع الكتاب بين يدي قارئيه فإن نفع الله به ناظرافيه ؛ كان ذلك غاية الآراب ، وأقصى ما يرتجى من الثواب .

والله المسؤول أن يوفقنا جميعا إلى القول الصالح ، والعمل الصالح ، وحسن الختام ؟

الباب الأول

إلى محمد صلى الله عليه وسلم ترّد الفضائل جميعها

(١) إجمال

اختص الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالمحامد الكثيرة، والمآثر الأثيرة، وأظهر على يديه الآيات، وأقام له الأولوية والرايات، وفضله على خاصته وأحبابه، وأثنى عليه في غير موضع من كتابه، ونصره بالرعب مسيرة شهر، وأبقى معجزته ما بقى الدهر، وكلاءه بعنايته وشمله برعايته، وأيده بالبراعة واللسن، وركب فيه كل خلق حسن، وآتاه جوامع الكلم، وحض على الاقتداء بهديه، وأمر بامتثال أمره ونهيه، وأجرى جوارى الخير على يديه، وأوحى إليه وناجاه، وأراه من آياته الكبرى، وكزّمه في الدنيا والآخرة، وأسبغ عليه من القبول أحسن المطارف، وأولاه كثيرا من الخصائص، وسوّاه فعدله، وأدّبه فأحسن تأديبه، وعلّمه ما لم يكن يعلم، وأرشده إلى حل كل مشكل ومبهم، وجبله على الصيانة والعفاف، وأقام به ميزان العدل والإنصاف، وأفرده بإيداع سره المصون، وعضّده بكتاب كريم في كتاب مكنون، ومنح جانبه العزيز لينا، وذاته الكريمة لطفا، وفتح به أبصار أعميا، وآذانا صما. وقلوبا غلّفا. ولم يبعث نبيا إلا ذكر له نعته ومسلكه. وأخذ عليه الميثاق بالإيمان به ونصره إن هو أدركه. ولم يعط أحدا من الأنبياء فضيلة إلا أعطاه مثلها وزيادة: نزه لسانه عن النطق بهواه. وفوّاده عن الكذب فيما رآه.

وجنبه الزينغ وزكاه . وعصمه من الاغراض ، وأناله من نيل الكرامة غاية السول ، وقرن طاعته بطاعته في قوله تعالى : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) وسماه في كتابه نورا بقوله تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) وشرح له بالرسالة صدرا . ورفع له بذكره معه في الشهادتين ذكرا ، وأيده بأظهر البراهين ، وأبهر المعجزات ، ودرأ العذاب عن أهل مكة لكونه بواديهم ، فقال تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) وطهره من الأقدار والأدناس ، ودل على عصمته في قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعَصُكَ مِنَ النَّاسِ) وأحسن مخاطبته في سورة ن ، ووعدته فيها بأجر غير ممنون ، وأثنى عليه الثناء المستطاب العظيم ، بقوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

(٢) تفصيل

إذا تصفحنا سيرة العطاء الذين شاد بذكرهم التاريخ ، وجدنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام أرفعهم ذكرا ، وأبقاهم أثرا ، فسا عهد التاريخ رجلا من عظمائه قدأهاب بأمة كالعرب ذات بأس وصراحة وحمية وإباء ، وذات خيال وتصور ، يدعوها أن تخلع نفسها مما هي فيه ، وأن تضع أعناقها للحق الذي لم تألفه حقا ، وأن تعطيه مع ذلك محض ضمائرهما ، وهم لا يرون من أمره ذلك إلا قلة وهوانا واستخفا ، وإن كانوا يعرفونه من قبل بحسن الخلق ، وصفاء الذمة ، وطهارة الضمير . ويعرفون أنه لا يريد ملكا ، ولا يبغي شيئا من عرض الدنيا ، بل قالوا : (قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقُرْءَانٍ مِّنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ) ثم مع هذا كله لا يداخلهم بالبنفاق ، ولا يتألفهم على باطلهم ، ولا ينزل في العقيدة على حكمهم دهاء

ومخاتلة: كما يصنع دهاة السياسة وقادة الأمم، وكما صنع نابليون في مصر: إذ تظاهر بحب الإسلام، وكما قال: «لو كنت أحكم شعبا يهوديا لأعدت هيكل سليمان عليه السلام».

أما صاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم فلم يفعل شيئا من ذلك: قد عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين، وهو في قلة وحاجة إلى رجل واحد، يزيد في عدد من معه؛ فأبى وقال: لا أتصرب بمشرك. ومع هذا قد اجتمع له ما أراد، وأعطته الأمة العربية عن يد وهي صاغرة للحق، وبذلت له نصرها بعد التخذيل عنه، وتعطفت عليه بقلوبها الجائعة، وهو الراغب عن ستمهم، والمسفه لأحلامهم، والطاعن على شرائعهم.

إن نظرة يامعان في التاريخ، تدلنا على أن العظماء يظهرن بين أقوامهم محاشاة لتدريجهم ورقيمهم: فإن كان رقيمهم في باب الحقائق الفكرية، ظهر من بينهم حكيم يضئ لهم السبيل بثاقب فكره وسديد رأيه؛ وإن كان رقيمهم في باب الفتح وبسط الملك، ظهر من بينهم فاتح عظيم يقودهم إلى الأقطار المتاخمة والنائية.

وكذلك القول في العلماء والشعراء والخطباء وغيرهم، من عظماء الرجال الذين يترجمون عن وجهة أقوامهم: فكل عظيم من هؤلاء هو روح عصره، وظهوره جار على سنة النشوء والارتقاء — يَدُّ أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن جارياً على هذه السنة، بل جاء والعرب قد نزلوا إلى هاوية الانحلال الاجتماعي، بما لم يعهد له مثيل في تاريخ الأمم: فكانوا في جهل مطبق بأحكام الدين الصحيح، ومبادئ السياسة، والحياة الاجتماعية، ولم يكن لهم فن يذكر، أو صناعة تنشر، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية

وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها ، تتحفر لشئ الغارة على جارتها ، فلم يكن من المألوف أو المعقول ، أن بيثة كهذه البيثة تتمخض عن هذا العظيم الذى اجتمع له مالم يجتمع لمصلح من قبله : لأنه كَوْن أمة ، وأسر دولة ، وأقام ديناً . أمور ثلاثة لم تجتمع لأحد من قبله ولا من بعده . ولا يعدّ ظهور بعض الأفراد النابهين ، أمثال أَكْثَم بن صيفى دليلاً على صلاحية البيثة الغريبة لإخراج أكبر المصلحين . الحق أن العناية الإلهية القادرة التى تخلق الحيات فى ظلمات البحار ، هى التى أبرزت هذا الإنسان العظيم ، وأمدته بعنايتها ، وجعلته نوراً ينسخ الظلمات جميعها ، فيضى أطراف الأرضين .

العظمة ليست وقفاً على ما يتم على يد صاحبها من المعجزات أو العجائب وليست وقفاً على ماهو عليه من الفصاحة والقدرة على استنباط النظريات ، فكل هذه مظاهر لا تلبث أن تزول : إنما العظمة الحقيقية هى الشخصية القوية الثابتة ، وهى التى تأتى بالعجائب . وتأخذ بالباب المحتفين بصاحبها ، وتملك مشاعر الذين يحيثون من بعده ، وينظرون فى سيرته .

الشخصية الكاملة هى التى تلقى فى قلوب أهل جيلها احتراماً وهبة لصاحبها ورغبة فيه ، وتحملهم على محاكاته ، وتحبب إليهم طاعته ، ثم تصبغهم بصبغته ، وتخلق فى نفوسهم أساساً جديداً لتقبل عقيدته وآرائه ، ويتصل تأثيرها هذا بقلوب الأجيال القادمة ، فتظل عظمتها خالدة .

كان محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب هذه الشخصية الكاملة ، فلم يجئ قبله ولا بعده من يدانيه فيها : فقد بهر معاصريه ، فأقزوا له بالرفعة والتفوق ، وكان كثير منهم من أصحاب البيوت الرفيعة ، والأحلام الراجحة ، والأموال الوفرة ، وكان كثير منهم من ذوى قرباه الذين يعلمون حق العلم حياته العامة

٥ إلى محمد صلى الله عليه وسلم ترد الفضائل جميعها

والخاصة . ولو علموا عليه من عيب لأذاعوه ، أو وقعوا على نقص لأشاعوه .
احتمل أصحابه في مدى الثلاث عشرة سنة من بدء البعثة كثيرا من الشدائد ،
وضروب الأذى والاضطهاد : فكانت كل قبيلة تعذب من دان منها له
أنواعا من التعذيب . يفزع قلب الحليم من ذكرها ، وهم يحملونها بصبر عجيب ،
حتى نصح المصطفى صلى الله عليه وسلم لبعضهم بالهجرة إلى الحبشة .
كما سيأتى . ومع هذا كله كان عدد أتباعه آخذاً في النماء .

فما سبب تهاقهم عليه ، واحتمال كل أذى في سبيله ؟ إن هو إلا شخصيته
الجزابة ، التي ملكت عليهم قلوبهم ومشاعرهم ، فانصاعوا له ، حتى استطاع أن
ينشئ منهم جيلافتيا ، ولم يستطع الفلاسفة على اختلاف عصورهم ، أن ينشئوا
جيلا كالذى أخرجه محمد صلى الله عليه وسلم أو يدانيه — فكانوا أنسلا حسنا في
علو النفس وصفاء الطبع ، ورقة الجانب ، وقوة اليقين ، وطهارة الخلق ، وعظم
الأمانة ، وإقامة العدل . والخضوع للحق ، إلى غير ذلك من أمهات الفضائل
من أجل ذلك وجب تفصيل طرف مما آتاه الله من الفضائل . في نسبه
ونشأته وأعماله : ليتبين للعالم أجمع أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، هو الأسوة
الحسنة الصالحة لرياضة الأفراد وسياسة الأمم ، وأن جميع الخلال الحميدة
المثمرة مقتبسة من حاله ، مأخوذة عنه .

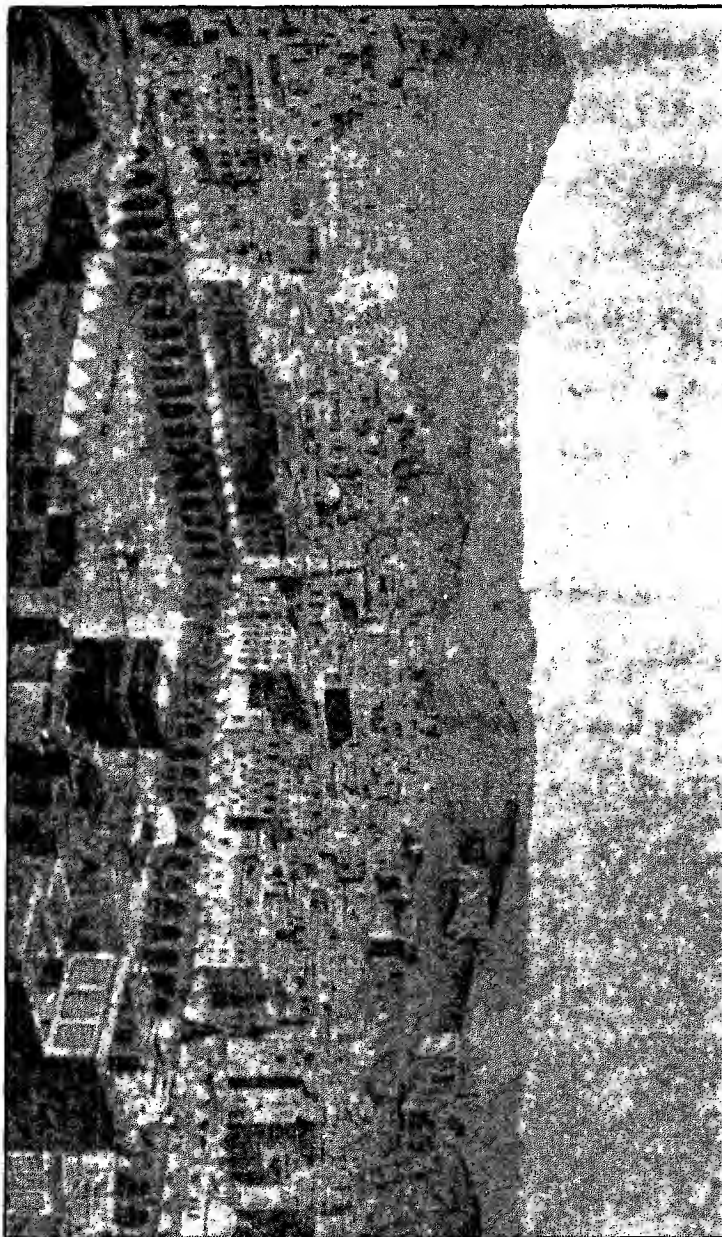
(١) فضائله الذاتية

١ — مولده وشرف نسبه وكرم نشأته

ولد صلى الله عليه وسلم ، في صباح اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل على المشهور ، أو صباح اليوم التاسع من هذا الشهر سنة ٥٧١ لليلاد على ماحقه المرحوم العالم الجليل محمود باشا الفلكي ، وكان مولده بمكة أشرف البلاد وأكرمها على الله سبحانه وتعالى : فهي بلد بركاها نامية ، وموارد فضائلها طامية ، وأركان بيتها بالأمن مأهولة ، وأدعية الطائف بكعبتها مقبولة ، بلد كان من أهم أسباب نموها حاجة الحجيج : إذ كانوا يطلبون المأوى فلا يجدون سواها . وأما كن الحج مازالت من قديم الزمان محط رحال التجار : لأن الناس إذا اجتمعوا في جهة لغرض من الأغراض ألفوا أنفسهم مديفعين إلى قضاء منافع لهم ، ولهذا صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، ومحط التجارة بين الهند والشام ومصر وغيرها . وقد بلغ سكانها في وقت من الأوقات مائة ألف نسمة من بائع ومشتري . وكانت حكومتها ضرباً من جمهورية الأشراف (الارستقراطية) عليه صبغة دينية : ذلك بأنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة عرفية عشرين رجلاً ، من أعظم القبائل ليكونوا حكام مكة ، وحراس الكعبة . وكانوا في عهد محمد صلى الله عليه وسلم من قريش . أما سائر الأئمة العربية فكانوا متفرقين قبائل في أنحاء الصحراء ، يفصل بعضها عن بعض البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء . وقل أن تخدم جذوة الحرب بين هذه القبائل ، ولم يكن يؤلف بينهم



مكة والمسجد الحرام



حلف على ، سوى رابطة القومية واللغة ، وتلاقيهم عند الكعبة ، حيث كانت يجمعهم على اختلاف وثنيتهم . وقد ظل العرب على هذه الحالة دهوراً طويلاً في قتال دائم ، ونزال مستحكم ، وسلب ونهب ، وتحاسد وتباغض ، وتقاتل وتناحر : حروبهم لا تخبو نارها ، ولا يهدأ سعيها ، تأكل الرجال وترمل النساء ، وتيتم الأطفال ، وخطباؤهم وشعراؤهم يستحثون العزائم ، ويستفزون العواطف ، ويشجعون الجبان ، ويحضون على الطعن والنزال . وحرب البسوس داحس والغبرا من شواهد ذلك .

من بين هؤلاء العرب نشأ محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو دعوة أييه إبراهيم ، وبشارة عيسى عليهما الصلاة والتسليم ، وصفوة سلالة قريش وصميمها ، ونخبة بني هاشم راحلها ومقيمها ، وأشرف العرب بدواً وحضراً ، وأفضلهم بيتاً ، وأعزهم نفراً .

لم يزل صلى الله عليه وسلم ينتقل من خير الآباء إلى خير الأبناء ، حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش في الجاهلية ، عبد المطالب بن هاشم ، ثم إلى أييه عبد الله والد المصطفى أشرف الناس نسبا ، عجا وعربا ، فهو ذونسب زكي : إبراهيم خليل الله دعاه ، وإسماعيل سنامه ، وكنانة زمامه ، وقريش نظامه ، وهاشم تمامه . اختاره الله من أرفع البيوت والمنازل : لأنه اصطفى من ولد إبراهيم الخليل رافع قواعد البيت إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، ومن بني كنانة قريشا المعروف بالشرف والمكانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، ومن بني هاشم سر السراة أبا القاسم . وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم

واصطفاني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار). وقول عمه أبي طالب :

إذا اجتمعت يوما قریش لمعشر ۞ فعبد مناف سرها وصميمها

وإن حُصِّلَت أنساب عبد منافها ۞ فني هاشم أشرافها وقديمها

وإن نَفَرَت يوما فإن محمداً ۞ هو المصطفى من سرها وكريمها

ولا غرو : فلم يكن في آبائه مسترذل ولا مستبذل ، بل كلهم سادة قادة .

نشأته : شب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يحرسه ويرعاه ، ويحفظه

من أدناس الجاهلية ، لما يريد من كرامته ورسالته . فجعله أفضل قومه مروءة ،

وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسبا ، وأعظمهم جواراً ، وأرجحهم حلباً ،

وأصدقهم قولاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش ، حتى عرف بين أهل

مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين : لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كل

مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده ، ولأنهم لم يشاهدوا نشأة كعجيب نشأته ،

فقد ملك عليهم مشاعرهم بصبره وحلبه ، ووفائه وزهده ، وجوده ونجدته ،

وصدق لهجته ، وكرم عشرته ، وتواضعه وعلمه ، وعفوه ووثباته .

عاش بين قومه وهم فقراء . وكان حاله كحال بني عمه وصية قومه ، يزيد

عليهم اليتيم بفقد الأبوين ، ولم يكن له مؤدب ظاهر يعتنى بتثقيفه ، أو مرب

معروف يتولى تهذيبه ، إلا سلامة الفطرة ، وسمو الغريزة ، وطهارة العقيدة ،

والاعتصام بالفضيلة . وكل عشرائه أهل الوثنية وحراسها ، وجميع خلطائه أولياء

الآصنام وخدامها ، ولا عجب : فقد حدث عن نفسه : « أَذِنَ رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي » .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم في نشأته ، جارياً على المألوف في الصبيان

من تأثر عقولهم ونفوسهم ، بما يرون ويسمعون ويمسسون في بيئتهم . ولو

جرى الأمر على ذلك لشارك - حاشاه - قومه في تعظيم الآصنام وعبادتها

وَلَا نَعْمَس - عصمه الله - في ضلالات الوثنية وأوهامها ، ولكن عناية الله قد تكفلت بتربيته ، فنشأ على أكل ماتتحلى به النفوس من جميل الصفات ، وحيد الخصال : لم يسجد لصنم من الأصنام ، ولم يشارك قومه في عيد من أعيادها ، ولم يذق لحوم قرايينها .

ظل المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يأكل من ثمرة عمله وكسب يده ، حتى استفاض بين الناس ما هو عليه من كريم الأخلاق ، وعظيم الأمانة ، وصدق الحديث . فعرضت عليه خديجة بنت خويلد أن يخرج في مالها للشام ، ومعه ميسرة غلامها . فشاهد ميسرة من أماته ، وطهارته ، وبركته ، ويسر معاملته ، ماجعله يترنم بمدحها ، والثناء عليه عند سيده ، فما وسعها إلا أن تخطب المصطفى لنفسها ، وكانت سنّها إذ ذاك أربعين سنة ، وسنه خمساً وعشرين سنة ، فرضى المصطفى صلى الله عليه وسلم زواجها ، ثم عاش معها على أتم وفاق وألفة ، وصفاء وغبطة ، يُخلص لها الحب وحدها قانعاً بالعيش الهادئ ، يثني عليه جيرانه ، ويحبه إخوانه ، ولم يفكر في الزواج بغيرها حتى وافقها منيتها ، لأنها هي التي آزرته في أول أمره بمالها وعقلها . ولذلك قال في شأنها : «أمنتُ بي حين كفر بي الناس ، وصدقتني حين كذبنى الناس . وأعطتني مالها حين حرمني الناس» .

غير أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، كان كلما تقدّمت به السنّ قوى فيه حب العزلة ، والانقطاع إلى مراقبة الله تعالى ، والتعبد بمناجاته ، فأخذ يخلو بغار حراء متعبداً فيه الليالي ذوات العدد : ليتوجه روحه الشريف إلى عالم المعاني ، ويستعد لتلقى الوحي الإلهي . وبدهى أنه لم يتلق درساً على أستاذ قط ، ولم يمارس القراءة ولا الكتابة ، ولم يعرف من العالم وعلومه ، إلا ما تيسر له

أن يبصره بنفسه في ظلمات صحراء العرب ، أو يصل إلى سمعه من حجاب جهالتها . وليس مطعنا فيه أنه لم يتعلم علوم العالم قديمها وحديثها ، وأنه لم يفترف من مناهل غيره : لأن الله أغناه عن ذلك ، وكفاك بالعلم في الأُمى معجزة ،

٢ — حسن صورته وكمال خلقته

إذا كان فن التصوير لم يشرف بصورة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد نال القلم هذا الشرف الرفيع : (إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

وحسبك ماجاء عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال : سألت هند ابن أبي هالة عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان وصافا — وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئا أتعلق به ، فقال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم غفما مفخما : يتلألا وجهه تلاءم القمر ليلة البدر ، أطول من المربع (١) وأقصر من المشدب (٢) ، عظيم الهامة ، رجل (٣) الشعر ، إن انفردت عقيقته (٤) فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج (٥) الحواجب ، سوابغ من غير قرن (٦) ، بينهما عرق يذره الغضب ، أقي (٧) العرنين ، له نور يعلوه ، ويحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، أدعج (٨) ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب (٩) ، مفلج (١٠) الأسنان دقيق المسربة (١١) كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ،

(١) بين الطول والقصر . (٢) البائن الطول في نحافة . (٣) ليس بسبط ولا جمد .
(٤) شعر الرأس . (٥) الحاجب الأزج : المقوس الطويل الوافر الشعر . (٦) القرن : اتصال شعر الحاجبين . (٧) القنا : احدياب في الأنف . (٨) شديد سواد الحدقة .
(٩) الثنب : روتق الأسنان وحسنها . (١٠) الفلج : فرق بين الثنايا . (١١) خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة .

١١ إلى محمد صلى الله عليه وسلم ترد الفضائل جميعها

بادنا (١)، متماسكا (٢)، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس (٣). أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط عارى الثديين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر، طويل الزندين، رجب الراحة، شثن (٤) الكفين والقدمين، سائل (٥) الأطراف، عبل (٦) الذراعين، نُحصان (٧) الأخصمين؛ مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء. إذا زال زال تَقْلَعَا (٨)، ويخطو تكفؤا (٩)، ويمشى هونا (١٠) ذريع (١١) المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب (١٢) ارتقاه، وإذا التفت التفت جميعا خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام.

٣ — كمال منطقه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم يعرف السنة العرب، ويعلم لغة من بعد منهم واقرب، ويخاطب كل طائفة بلسانها، ويمرّ مع كل قبيلة في ميدان بيانها، فصاحته إليها المنتهى، وبلاغته أذهلت أرباب النهى، وجوامع كلبه مأثورة، وبدائع حكمه مشهورة، وطلاوة قوله تجل عن الصفة، وحلاوة منطقه لا يدوقها إلا أهل المعرفة.

أنزل القرآن الكريم بلسانه تعظيما لأمره، ورفعته لشأنه، نشأ في بني سعد ورتبته في قريش عالية. فجمع من الكلام رونق الحضارة، وجزالة البداوة،

(١) البادن. ذو اللحم. (٢) التماسك الذي يمسك بعضه بعضا. (٣) الكراديس: رموس العظام. (٤) شثن الكفين والقدمين: غليظهما. (٥) طويل الأصابع. (٦) عبل الذراعين غليظهما. (٧) متجانس أخص القدم. (٨) التقلع: رفع الرجل بقوة. (٩) التكفؤ: الميل إلى سنن المشي وقصده. (١٠) الهون: الوقار. (١١) الذريع: الواسع الخطو. (١٢) الصبب: الملو.

وأيد ببراعة خصه بها من حكم بتوفير قسمه : لأن مدده الوحي الذي لا يدركه
البشر ، ولا يحيطون بشيء من علمه . كان صلى الله عليه وسلم حلو المنطق ،
حسن الترتيل ، كلامه فصل لانزول ولا هذر ، بين ، يحفظه من جلس ،
 ويفهمه كل من سمع ، كأنما هو درر نظمت ، لافضول فيه ولا تقصير .
نزه الله منطقته عن التكلف ، وتعقيد الصوت ، والتمتمة ^(١) والفأفة ^(٢)
والرثة ^(٣) والتنعط ^(٤) والتمطق ^(٥) والتفريق ^(٦) ، وجعل منطقته مساوقا
لطبيعة اللغة ، قتم له إحكام الضبط ، وإتقان الأداء : فجاء لفظه مشبعا ، ولسانه
بليلا ^(٧) ، وتجويده فخا ، ومنطقته عذبا .

ومصدق ذلك قول عائشة رضي الله عنها :

ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان
يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه ، وفي رواية أخرى : كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحدث حديثا ، لو عدته العادة لأحصاه .

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم ، بأنه أوتي من الفصاحة وحسن البيان ،
ما استطاع به أن يخاطب - كما تقدم - جميع القبائل العربية ، كل واحدة بلحنها
وعلى مذهبها ، وكان في خطابه إياهم بلحونهم أحسنهم بيانا ، وأقومهم منطقا .
ولم يعرف في التاريخ أن إنسانا لم يمارس القراءة ولا الكتابة ، ولم يرحل في
طلب تعرف لغات القبائل ، يفوق أهلها في وضوح الحجّة ، وظهور البرهان

(١) التمتة : رد الكلام إلى التاء والميم . (٢) الفأفة : ترديد الفاء في الكلام .
(٣) الرثة : العجمة ، (٤) التنطق : التسق في إخراج الحروف . (٥) التطق :
ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الفك الأعلى . (٦) التفريق : التثرة : ملء الفم بالألفاظ .
(٧) يقال : ما أحسن بلة لسانه ، إذا كان واقعا على مخارج الحروف

ولا غرو : فقد منحه الله سلامة الفطرة ، وصفاء الحس ، ونفاذ البصيرة :
ومكنه من الإحاطة بلغات القبائل كلها على الوجه الأكمل ، فكان في تبليغها
قوى العارضة : لا تغيب عنه لغة ، ولا تضرب له عبارة ، ولا ينقطع له نظم ،
ولا يشوبه تكلف .

أوتي الحكمة البالغة وهو أُمى من أمة أمية : لم يقرأ كتابا ، ولا درس علما ،
ولا صحب عالما ولا معلما ما : بهر العقول ، وأذهل الفطن من إتيان ما أبان ،
ولإحكام ما أظهر ، فلم يُعثر فيه على زلل ، ولم يعرض له ما يعرض للخطباء من
التخاذل ، وتراجع الطبع .

فمن الخطباء والفصحاء من إذا أطال استوعبت الإطالة جهده ، فيبدو عليه
الضعف ، ومنهم من يواتيه الكلام في مقام دون مقام .

أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان كلامه سردا مفصلا مرتلا واضحا ،
عليه مخايل النبوة . وكل ما كان فيه من روعة الفصاحة ، وعذوبة المنطق ،
وسلامة النظم ، إنما هو منحة إلهية لم يتكلف لها عملا ، ولا عانى من
أجلها رياضة .

ولهذا عجب أصحابه من لسانه وبيانه : فقد قال له أبو بكر رضي الله عنه :
لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟
قال : « أدبني ربِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي » وجلى أن أبا بكر قد بلغ في علم العرب
وأنسابها وأخبارها شأوا بعيدا . حتى قيل : « أنسب من أبي بكر » وخلق بنا أن
نورد هنا كلام هند بن أبي هالة ، وكلام الجاحظ في وصف منطق المصطفى
صلى الله عليه وسلم .

قال ابن أبي هالة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحران ،

دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت (كان سكوته صلى الله عليه وسلم على أربع : على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر) يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم شيئا ، فلم يكن يذم ذواقا^(١) ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها فضرِبَ يابهامه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غَضَّ طرفه . جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام اهـ

وقال الجاحظ : هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصفة ، ونزه عن التكلف . لم ينطق إلا عن ميزان حكمة ، ولم يتكلم إلا بالكلام قدحُف بالعصمة ، وشُدَّ بالتأييد ، ويُسر بالتوفيق .

ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وهو مع استغنائه عن إعادته . وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أخفه خطيب . بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق . لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه . ولا أئين عن فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم اهـ بتصرف

(١) ما يتلوه من الطعام .

لقد بلغ صلى الله عليه وسلم ما جاء به بأقوم دليل وبينه بأوضح تعليل ، فلم يخرج منه ما يوجب معقول ، ولا دخل فيه ما تدفعه العقول ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أُوتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ ، وَأُخْتُصِرَتْ لِيَ الْحِكْمَةُ أُخْتَصَارًا » . كان صلى الله عليه وسلم يقتصر في كلامه على قدر الكفاية ، فلا يترسل فيه هذرا ، ولا يحجم عنه حصرا ، وهو — فيما عدا حالي الحاجة والكفاية — أجمل الناس صمتا ، وأحسنهم سمتا . حلا كلامه فاستعذبه الأفواه ، حتى بقي محفوظا في القلوب ، مدونا في الكتب ، سالما من الزلل ، لا تظهر فيه هجعة التكلف ، ولا تتخلله فيهة التعسف . كان إذا سئل شئ جوابه ، وإذا جودل ظهر فليحه . لا يحصره عي ، ولا يقطعه عجز ، ولا يعارضه خصم في جدال إلا كان جوابه أوضح ، وحججه أرجح . حفظ لسانه من تحريف في قول ، أو خبر يكون إلى الكذب منسوبا ، وللصدق مجابا . فلم تحفظ عليه كذبة في صغره ، ومن لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم ، ومن عصم به في حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أعصم ، وحسبك بهذا دفعا لجاحد ، وردا لمعاند .

فن كلامه الذي لا يجارى في إيجازه ، قوله صلى الله عليه وسلم : « النَّاسُ بِزَمَانِهِمْ أَشْبَهُ الْعَقْلِ الْوَفِّ مَالُوفٍ . الْعِدَّةُ عَطِيَّةٌ . الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ السُّفْلَى ، الْخَيْرُ كَثِيرٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ . إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ جَعَلَ لَهُ وَأَعْظَمَ مِنْ نَفْسِهِ » . ومن قوله الذي لا يداني في الفصاحة :

« لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرَ الْأَمَانَةَ مَغْنَمًا وَالصَّدَقَةَ مَغْرَمًا . ثَلَاثٌ مُنْجِيَّاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : فَأَمَّا الْمُنْجِيَّاتُ فَخَشْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ،

وَالْاِقْتِصَادُ فِي الْغَنَى وَالْفَقْرَ، وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ .
وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَشَحْطَاطٌ ، وَهُوَ مُتَبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ .

٤ — كمال عقله

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم كما أحسنت خلقي فحسن خلقي .
ولما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من خصال الكمال ما لا يحيط به حد ،
ولا يحصره عد ، أثنى الله سبحانه وتعالى عليه في كتابه الكريم فقال :
(وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ) .

وجلى أن حسن الخلق ملكة نفسية ، يسهل على المتصف بها الإتيان
بالأفعال الجميلة . وإنما كان خلقه صلى الله عليه وسلم عظيما لاجتماع مكارم
الأخلاق فيه : فقد جاء في الموطأ في رواية مالك : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ
الْأَخْلَاقِ » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن » .
وكما أن معاني القرآن لا تنتهى ، كذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم
لا تنتهى : إذ في كل حالة من أحواله صلى الله عليه وسلم يتجدد له من مكارم
الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وما يفيضه الله تعالى عليه من معارفه وعلومه ما لا
يعلمه إلا الله تعالى ، فالتعرض لحصر جزئيات أخلاقه الجميلة تعرض لما ليس
من مقدور الإنسان . وقد كان صلى الله عليه وسلم مجبولا على الأخلاق الكريمة
في أصل خلقته الزكية النقية ؛ لم يحصل له ذلك بريضة نفس بل بحدود إلهي ، ولهذا
لم تزل تشرق أنوار المعارف في قلبه ، حتى وصل إلى الغاية العليا ، والمقام الأسنى .
وأصل هذه الخصال الحميدة كمال العقل : لأن به تقتبس الفضائل ، وتجتنب

الذائل ؛ وهو أمر روحاني ، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية .
وقد كان صلى الله عليه وسلم ، من كمال العقل والعلم ، في الغاية القصوى التي
لم يبلغها بشر سواه .

ومن تأمل حسن تديره للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة ، في طباعها
المتنافرة المتباعدة ، وكيف ساسهم . واحتمل جفاهم ، وصبر على أذاهم . إلى أن
انقادوا إليه ، فالتفوا حوله ، وقاتلوا دونه أهليهم ، وآباءهم ، وأبناءهم ،
واختاروه على أنفسهم ، وهجروا في رضاه أوطانهم ، وأحباؤهم ؛ من غير
ممارسة سبقت له . ولا مطالعة كتب تعلم منها أخبار الماضين - تحقق أنه
أعقل العالمين صلى الله عليه وسلم .

ومن عقله العظيم ثقب رأيه ، وجودة فطاته ، وحسن إصابته ، وصدق
ظنه ، وحسن نظره في العواقب والمصالح ، وكال التدبير ، واقتناء الفضائل .
وحسبك جوامع كله . وحكم حديثه . وعلمه بما في الكتب المنزلة ،
وحكم الحكماء ، وسير الأمم الحالية ، وضروب الأمثال ، وسياسة الأمم .
هذا إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة . وإشارته حجة :
كالطب ، وسنن الكون

جمع الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ما لا يحصى من المعارف الوافرة . والعلوم
التي لم تزل عن وجوه الهداية سافرة . وخصه بالاطلاع على جميع مصالح
الدنيا والدين . وتعرف قوانين شريعته ، وحفظ أسرار وديعته ، وسياسة
عباده ؛ ونبأه بسير الأنبياء والرسل والجبابرة ، وما كانت عليه الأمم قبل
بعثته الزاهرة ، وأحاديث القرون الماضية ، ومقدار مددهم وأعمارهم ، وحكم
حكائهم ، وأخبار أحبارهم ؛ ولقنه الحجة على الكفرة ، ومعارضة أهل

الكتاب بما في كتبهم المسطرة : فأعليهم بمخباتها وأسرارها ، والمكتوم والمغير
والمبتدل من أسفارها ؛ ومنحه جل وعلا إحاطة عظيمة بلغة العرب وشوارد
ألفاظها ، وضروب فصاحة خطبائها ، وبلاغة وعاظها ؛ وآتاه جوامع
كلها ، وعرفه أيامها وأمثالها ، وحكمها ومعاني أشعارها ؛ وجعل هذه اللغة
لسان قواعد الشرع المطهر ، المشتغل على محاسن الأخلاق ، ومحامد الآداب ،
وطرائف طرائق الصواب ، وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث ، وصون
الأعراض والأموال بالحدود ؛ هذا إلى ما حواه من سائر الفنون : كالفرائض
والحساب ، والتعير ، والأنساب ، إلى غير ذلك مما اتخذه أهل هذه الفنون
لهم قذوة ، وجعلوه أصلاً ليفرغوا عليه ، ويحذوا حذوه ، مع أن صاحب
هذا الشرع كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولا عُرف بصحبة من يعلم الكتابة
أو يحسب ، ولا نشأ بين قوم لهم مدارس ، ولا اختلف إلى حبر من الأجار ،
ولا اجتمع بكاهن أو صاحب أخبار :

ومعالم العلم الشريف به سمت ه وطريقها وضحت بطالع فخره

ه — نجاته وشجاعته

كان صلى الله عليه وسلم ذا شجاعة ونجدة ، وبسالة وشدة ، وبأس وشهامة ،
وحاسة وصرامة ، وصوله وإقدام ؛ يشنت شمل الكفاة ، ويبطل حيلة الأبطال
نفوذ النبال من شدة عزماته ، ومضاء المرفقات من صدق رأيه ؛ أذهب
الشك بحق اليقين ، وأرهب العدا بسيفه المتين ؛ وسفه أحلامهم ، ونكس
أعلامهم ، وزيف أقوالهم وأفعالهم ، واستباح أرضهم وديارهم وأموالهم ؛
وأباد أهل العناد بعضه البتار ، وأظهر دين المسلمين بصحبه الاشتاء على

الكفار . حضر الوقائع ، وشهد الملاحم ، وتولى الكفاة عنه وهو مستقر ، وفزع المسلمون من حوله يوم حنين وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزعزع . ما لقي كتيبة إلا كان أول ضارب ، ولا توانى القوم لحدوث صوت إلا كان أسرع واثب . لم ير أثبت منه جأشاً في الجهاد ، ولا أقرب لجهة المشركين وقت الجلاء .

طالما ثبت في الشدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب ؛ ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة : لا يتحير في شدة ، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة . ولقد لقي صلى الله عليه وسلم بمكة من قريش ما تشيب له النواصي ؛ وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلى ، ويثبت ثبات المستولى . تصدى لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته ، وأحدقوا بجنباته ؛ وهو في قطر مهجور ، وعدد محقور . وبذلك جمع بين التصدى لشرع الدين حتى أظهره ، ومكافحة العدو حتى قهره : فلقد صابر العدو وأبلى معه بلاء حسناً ، فلم يشهد حرباً إلا صابر حتى انجلت عن ظفر أو دفاع ؛ وهو في موقفه لم يزل عنه هرباً ، ولا حار فيه رعباً .

ما سمعنا بشجاع إلا أحصيت له فرة ، سوى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد ثبت في جميع المواقف الصعبة . ولذلك قال علي رضي الله عنه : (بكنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو) . ولم يكن مثله مثل قواد هذا الزمان : يكونون أقرب إلى المنعة والأمنه منهم إلى مرمى القنابل والمهلكات .

٦ — رغبته عن الدنيا وخشيته من ربه

كان صلى الله عليه وسلم زاهداً في الدنيا ، متقللاً منها ، معرضاً عن زهرتها ،

غير ناظر إلى نضرتها ؛ متحليا بالطاعة ، مستشعرا العفاف والكفاف ، مقتصرًا من نفقته وملبسه على ما تدعو إليه الضرورة ، يلبس البرد الغليظة ، ويقسم حلل الديباج على أصحابه . عيشه ظليل ، وماأكله طفيف ، وفراشه من آدم حشوه ليف ؛ بيت جائعا طاويا ، ويصبح صائما خاويا ؛ ماأكل قط على خوان ، ولاشبع من خبز شعير يومين متواليين ؛ ماخلف دينارًا ولادرهما ، ولم يترك إلا سلاحه وبغلته ، وأرضا جعلها صدقة . على أنه قد جاءته هدايا أهل التيجان ، وحملت إليه الجزى والصدقات ، وانهاالت عليه الأموال ، وسيقت إليه الدنيا بمناعها ؛ فما استأثر منها بدرهم ولا دينار ؛ بل أنفق كل ماوصل إليه في الخير ، وردّ به فاقة من مسهم الضر ، وفرقه في مصالح المسلمين ، وكف به أكف المشركين .

ومن أظلم ممن يفتري على محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان رجل شهوات ولذات ؟ لقد كان متقشفا في مسكنه ، وماأكله ، ومشربه ، وملبسه ، وسائر أموره وأحواله . وكان طعامه في مجرى العادة الخبز والماء ؛ وكان يرقع ثوبه ، ويحلب شاته ؛ يقوم الليل في عبادة ربه ، ويقضى النهار في نشر دين الله ، غير طامح إلى ما تطمح إليه النفوس ، من رتبة أو دولة أو سلطان ، ولا راغب في ذكر أو شهرة . ومن أجل ذلك لقي من هؤلاء العرب توقيرا واحتراما ولا كبارا ، على ما كانوا عليه من الجفاء والغلظة ، والتواء الشكيمة ، وما كان يستطيع أن يقودهم ويعاشرهم ويقاثل بهم ثلاثا وعشرين سنة ، لولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل . ولو جاءهم بدل محمد صلى الله عليه وسلم قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه ، ماأصاب من طاعتهم مقدار ما ناله محمد صلى الله عليه وسلم في ثوبه المرقع يده . وكذلك تكون العظمة !

وكان صلى الله عليه وسلم شديد الخوف دائم التعبد ؛ موصول الطاعة . وكانت طاعته نظير حبه ، وخوفه على قدر علمه بربه ؛ يصلي طويلا ، ويقوم الليل إلا قليلا . اليقين قوته ، والرضا مطيته ؛ والمعرفة رأس ماله ، والطاعة منتهى آماله . والشوق مركبه ، والفكر أنيسه ، والثقة كنزه ، والتقى نغره . والعقل مصباحه ، والجهاد خلته ، والعلم سلاحه . وقرة عينه في الصلاة ، وثمره فؤاده في ذكر من لا إله سواه .

٧ - احترامه نفسه

كان محمد صلى الله عليه وسلم بريئا من الرياء والتصنع ، مستقل الرأي ، لا يدعى ماليس فيه ؛ ولم يكن متكبرا ، ولا ذليلا ضرعا ، بل كان في ثوبه المرقع يخاطب بقوله الحق المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه في هذه الحياة ، وما يجب أن يعدوه للآخرة .

كان يعرف لنفسه قدرها ، ماضى العزم ، لا يؤخر عمل اليوم إلى غد ؛ ماعبث قط ، ولا ظهر شيء من اللهو واللعب في قوله أو فعله ، بل كان الأمر عنده أمر فناء أو بقاء ، ولم يكن من شأنه التلاعب بالأقوال والقضايا الجدلية المؤدية إلى العبث بالحقائق ، بل كان يكره أن يحوط نفسه بمظاهر كاذبة .

ولم يكن - حاشاه - بمن عاشوا وأقوالهم وأعمالهم أكاذيب ، فكانوا هم أنفسهم أكذوبة شرأ كذوبة ، ضعف فيهم الشرف والصدق ، وكل ما فيهم أن كلامهم مصقول معسول ، وحواشي كلامهم رقيقة ، فكان مثلهم كمثل حامض (الكربون) تراه على لطفه سما ناقعا ، وموتا ذريعا .

(ب) فضائله الاجتماعية

١ - جوده وسخاؤه

كان صلى الله عليه وسلم يعجل بالإحسان والصدقة والمعروف ، ولذلك كان أشرح الخلق صدرا ، وأطيبهم نفسا ، فإن للصدقة والبذل تأثيرا عجيبا في شرح الصدر ؛ وكان على الهمة ، وافر الفضل والكرم ، كريم الشئائل ، جميل العواطف ، جليل العوارف ، مطبوعا على السخاء ، سهل الإنفاق ، جزل الإرفاق ، مهتما بوصل الأرزاق ؛ يحقق الوسائل ، ولا يخيب أمل الآمل ؛ يبذل الرغائب ، ويعين على النوائب ؛ يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ؛ يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ، لا يدخر شيئا من يومه لغيره ، أسخى من الغنائم المثقلة وأجرى بالخير من الريح المرسل . ماسئل عن شيء فقال : لا ، ولا أعرض عن طالب . وحسبك شاهدا أنه رد سبايا هوازن وكانوا ستة آلاف . وكان يجود بكل موجود ، ولذلك لما توفي كانت درعه مرهونة عند يهودى على مقدار من شعير لطعام أهله ؛ مع أنه قد ملك جزيرة العرب ، وكان فيها كثير من الملوك والأقيال لهم خزائن وأموال يقتنونها ، ويتباهون بها ، وقد حاز صلوات الله عليه ملك جميعهم ، فما اقتنى دينارا ولا درهما . وكان لا يأكل إلا النزر الهين ولا يلبس إلا الخشن ، وكان مع ذلك يعطي الجزل الخطير ، ثم لا يبالي أن يتجزع مرارة الإقلال ، والصبر على الجوع والسغب .

وكان إذا سئل وهو معدوم وعد ولم يرد ، وانتظر ما يفتح الله به ، وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا ، وأوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذقة ، وألينهم

عريكة ، وأكرمهم عشرة ؛ من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .
 حُمِلَ إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ،
 فما رَدَ سائلا حتى فرغ منها . وجاء رجل فسأله فقال : ما عندى شيء ، ولكن
 اتبع عليّ ، فإذا جاءنا شيء قضيناه . فقال عمر : يا رسول الله ؛ ما كلفك الله
 مالا تقدر عليه . فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال رجل : أنفق
 ولا تخش من ذى العرش إقلا لا ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وظهر
 السرور في وجهه . ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه
 إلى شجرة فخطفت رداءه . فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :
 أعطوني ردائي . لو كان لي عدد هذه العضة نَعَمًا لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدوني
 بخيلا ولا كذابا ولا جانا .

قال صفوان بن أمية : لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني ،
 وإنه لمن أبغض الناس إليّ ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ .
 إني أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي ، وإنما أعطاه صلى الله عليه وسلم العطاء
 الكثير : لأنه علم أن داءه لا يبرح إلا بهذا الدواء ، فعالجه به حتى برئ من
 داء الكفر وأسلم . وجاء في البخاري أنه صلى الله عليه وسلم أتى بمال من
 البحرين فقال : اثروه — وكان أكثر مال أتى به — فخرج صلى الله عليه
 وسلم إلى المسجد ، ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما
 كان يرى أحدا إلا أعطاه ، وما قام عليه الصلاة والسلام وثم منها درهم . وأتته
 امرأة بريدة فقالت : يا رسول الله : أكسوك هذه . فأخذها صلى الله عليه
 وسلم محتاجا إليها ، فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يا رسول الله ؛
 ما أحسن هذه ! فأكسنيها ، فقال : نعم ، فلما قام عليه الصلاة والسلام ، لام

الصحابه هذا السائل ، قائلين له : إنك تعرف أن النبي محتاج إليها ، وأنه لا يسأل عن شيء فيمسه . وقد شكت إليه ابنته فاطمة ما بلى من خدمة البيت ، وطلبت منه خادما يكفيها مثونة يبتها ، فأمرها أن تستعين بالتسييح والتكبير والتحميد ، وقال : لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله ، فقال : اجلس سيرزقك الله ، ثم جاء آخر ثم آخر ، فقال لهم : اجلسوا . فجاء رجل بأربع أواق فأعطاه إياه وقال : يا رسول الله ؛ إن هذه صدقة . فدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثاني فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية ؛ وبقيت معه صلى الله عليه وسلم أوقية واحدة ، فعرض بها للقوم ، فما قام أحد . فلما كان الليل وضعها تحت رأسه — وفراشه عباءة — فجعل لا يأخذه النوم ، فيرجع فيصلي ، فقالت له عائشة رضوان الله عليها : يا رسول الله ، هل بك شيء ؟ قال : لا . قالت : فجاءك أمر من الله ؟ قال : لا . قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله . فأخرجها وقال : هذه التي فعلت بي ماترين ، إني خشيت أن يحدث أمر من أمر الله ولم أمضها .

وكان جوده صلى الله عليه وسلم كله لله ، وفي ابتغاء مرضاته تعالى : فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج ، وتارة ينفقه في سبيل الله سبحانه ، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى به الإسلام . وكان يؤثر على نفسه وأولاده : فيعطى عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقصر ، ويعيش في نفسه عيش الفقراء : فيأني عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار ؛ وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع !

ولقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أنا أولى .

بالمؤمنين من أنفسهم : فمن ترك ديناً فعليّ ، ومن ترك مالا فلورثته .
تلك بعض شذرات من فضائله ومحاسنه التي لا يحصى لها عدد ، ولا يدرك لها أمد .

ولقد جهد كل منافس ومعاند ، وكل زنديق وجاحد أن يزرى به صلى الله عليه وسلم في قول أو فعل ، أو يظفر بهفوة في جد أو هزل ، فلم يجد إليها سبيلا ، وقد جهد جهده ، وجمع كثيره . فأى فضل أعظم من فضل تشهد به الحسدة والأعداء ، إذ لم يجدوا فيه مغمزا لثالب أو قادح ، ولا مطعنا لجارح أو فاضح ؟ :

شهد الأنام بفضله حتى العدا ٥ والفضل ما شهدت به الأعداء
وحقيق بمن بلغ من الفضائل غاياتها ، واستكمل لغايات الأمور أدواتها ،
أن يكون لزعامه العالم مؤهلاً ، وللقيام بمصالح الخلق مؤملاً — ولا غاية
لبشر بعد النبوة أن يعم به صلاح ، أو ينحسم به فساد — فاقضى أن يكون
صلى الله عليه وسلم لها أهلاً ، وللقيام بها مؤهلاً ، ولذلك استقرت به حين
بعث رسولاً ، ونهض بحقوقها حين قام بها كفيلاً ، فناسبها وناسبته ، والتناسب
وفاق ، وهو أصل كل انتظام ، وقاعدة كل الثام .

٢ — حسن معاشرته

مانهر خادما ، وماضرب بيده شيئا قط إلا أن يكون جهادا في سبيل الله :
قال أنس رضي الله عنه : « خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة فما قال لي :
أفّ قط ، ولا قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ »
وكذلك كان صلى الله عليه وسلم مع عبيده وإمائته . ماضرب منهم أحدا قط ،

وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية ، لولا التأييدات الربانية .
وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا
في بيته ألين الناس ، بساما ضحّا كا .

وكان يركب الحمار ، ويردف خلقه : فقد أردف بعض نسائه ، وأردف
معاذ بن جبل ، وأردف أسامة بن زيد .

وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام كان في سفر وأمر أصحابه بإصلاح
شاة ، فقال رجل : يا رسول الله ؛ على ذبحها . وقال آخر : على سلخها . وقال
آخر : على طبخها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب .
فقالوا : يا رسول الله ؛ نكفيك العمل . فقال : علمت أنكم تكفوتني ، ولكن
أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا
بين أصحابه . وقد جاء وفد النجاشي فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم ، فقال له
أصحابه : نكفيك ، قال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأنا أحب أن أكاftهم .
وجاءته صلى الله عليه وسلم امرأة كان في عقلها شيء فقالت : إن لى إليك
حاجة ، فقال : اجلسى فى أى سلك المدينة شئت أجلس إليك ، حتى أقضى
حاجتك . فخلا معها فى بعض الطريق ، حتى فرغت من حاجتها .

وجاء فى البخارى : كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم
فتنطلق به حيث شاءت .

ودخل الحسن — والنبي صلى الله عليه وسلم يصلى — فركب الحسن ظهره
وهو ساجد ، فأبطأ فى سجوده حتى نزل الحسن ، فلما فرغ قال له بعض أصحابه :
لقد أطلت بسجودك ، قال : إن ابني ارتحلنى فكرهت أن أنجمله .

وكان صلى الله عليه وسلم يلبس أصحابه . وكان رجل يسمى زهيرا يهادى

النبي صلى الله عليه وسلم بما يستطرف من موجود البادية . وكان صلى الله عليه وسلم يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وبما يستطرف منها . وكان المصطفى يقول : « زهير باديتنا ، ونحن حاضرتة » ، ولقد جاء إلى السوق يوما فوجد زهيرا قائما ، فجاءه من قبل ظهره ، وضمه يده إلى صدره ، فأحس زهير أنه الرسول ، فجعل يمسح ظهره في صدره رجاء بركته ، فجعل الرسول يقول : من يشتري العبد ؟ قال زهير : إذا تجدني كاسدا . فقال المصطفى : أنت عند الله غا ،

وكان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلا حقا : فن ذلك أن جاء له رجل فيه بله ، فقال : يا رسول الله : احلني ، فقال : أحملك على ابن الناقة فقال : ماعسى يغنى عنى ابن الناقة ؟ فقال الرسول : ويحك ، وهل يلد الجمل إلا الناقة ؟

وجاءت عجوز إلى المصطفى فقالت : يا رسول الله ؛ ادع الله لى أن يدخلني الجنة ، فقال : يا أم فلان : إن الجنة لا يدخلها عجوز . فولت تبكى ، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز . إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ .

ومن ذلك أن أنسا كان له أخ يقال له أبو عمير ، وكان له نغر (طائر صغير كالعصفور) يلعب به ، فمات ، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو حزين فقال : ماشأنه ؟ قيل له : مات نغره فقال : يا أبا عمير ؛ ما فعل النغير ؟ وصفوة القول أنه كان صلى الله عليه وسلم أجمل الناس ودا ، وأحسنهم وفاء وعهدا ، وأوفرهم للحقوق ذكرا ، وأكثرهم تواضعا ، وأجزلهم عفة وصيانة ، وأنضرم بهجة ، وأصدقهم لهجة ، وأجلهم سرا وإعلانا ،

وأغزهم فضلاً وإحساناً ؛ ذا مروءة وافرّة ، يرضى حق الصّحبة القديمة ، ويتعطف على ذوى رحمته بصلاته ، ويتلطف بالصغار س أولاده حتى فى صلّاته ، ويعرض عن تكلم بغير جميل ؛ مجلسه مجلس هدى وعلم ، ومحل خير وحياء وحلم ، لا تذكر فيه العيوب ، ولا تخفرفيه الذم ؛ إن تكلم أطرق جلساؤه ، وإن صمت زاد وقاره وبهاؤه .

لم يكن بالجاف ولا المهين . وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبوا صاروا عنده فى الحق سواء . يعطى كلّاً من جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جلساه أن أحداً أكرم عليه منه . يصبر للغريب على الجفوة فى منطقته ومساكنه . من جالسه أوفأوضه فى حاجة صابره حتى يكون المنصرف منه . يؤثر أهل الفضل على قدر فضلهم فى الدين والخلق . يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره . يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يكاد يواجه أحداً بما يكره ؛ أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم لديه أحسنهم مواساة ومواسرة . كان إذا رآه الناس لا يقومون له لما يعلون من كراهيته لذلك ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس . كان إذا جلس مع الناس : إن تكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدّثوا فى طعام أو شراب تحدّث معهم ، وإن تكلموا فى الدنيا تحدّث معهم ، رفقاً بهم وتألّفاً لهم .

يجيب دعوة المسكين والمسكينة ، وبعود المرضى فى أقصى المدينة . يقابل عذر المعتذر بالقبول ، ويأمر بالحسنة ويدنّ أهلها ، ولا يجزى بالسيئة مثلاً ، ولكن يعفو ويصفح ، ويتجاوز عن المسئى ويسمع ، ويدفع بالتى هى أحسن ، ويأتى من المعروف بما أمكن . يصل الرحم ، ويقرى الضيف ، ويقطع أسباب الجنف والحيف . وعده مقرون بالإنجاز ، ولفظه يشتمل على الإيجاز .

يدعو أصحابه بكنائهم وأحب أسمائهم إليهم ، ويميل إلى محادثتهم ، ومداعبة أبنائهم ؛ ولا يجيب أحدا منهم إلا بالتلبية ، ويعمم جميع جلسائه من مودته بالتسوية .

٣ — إغضاؤه عما لا يحبه وعفوه مع المقدرة

كان صلى الله عليه وسلم وافر الحلم والاحتمال ، كثير الفضل والإفضال : يصل من قطعه ، ويعطى من منعه ، ويبذل لمن حرمه ، ويعفو عن ظلمه ، ويُغضى طرفه على القذى ، ويحبس نفسه عن الأذى ، ويصبر على ما يشق ويكره ؛ ولا يزيد مع أذى الجاهل إلا صبرا وحلما ، وماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، ولم يواخذ الذين كسروا رباعيته ، بل دعا لهم ، وعفا عنهم . وكم عفا عن مثلهم ، وتجاوز عما بدا من المنافقين في حقه قولا وفعلا ، ولم يقابل من شتمه ولا من أراد به سوء ، طولا وفضلا .

جاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت ! فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم دخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي ، وزاده شيئا ، ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال : نعم ، فلما كان الغداة جاء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن هذا الأعرابي قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى . أ كذلك ؟

فقال الاعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال صلى الله عليه وسلم : إن مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإنني أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قُمام الأرض فردّها هَوْنًا هَوْنًا حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها واستوى عليها ؛ وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار . وكان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ، وأرغبهم في العفو مع القدرة : فمن ذلك أن رجلا من أهل البادية وقف — والمصطفى يقسم قلائد من ذهب وفضة بين أصحابه — وقال : يا محمد ؛ والله لئن أمرك الله أن تعدل ، فما أراك تعدل . فقال المصطفى : ويحك ! فمن يعدل عليك بعدى ؟ فلما ولي الاعرابي قال : ردوه عليّ رويدا .

وحدث أنه لما كان المصطفى يقسم بعض الغنائم يوم خير قال له رجل : يا رسول الله ؛ اعدل . فقال له المصطفى : ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقد خبتُ إذا وخسرت إن كنت لا أعدل ، فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق ؟ فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي .

وكان صلى الله عليه وسلم في حرب فرأى العدو من المسلمين غرة ، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : الله ! فسقط السيف من يده ، فأخذه المصطفى وقال له : من يمنعك مني ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ . قال المصطفى : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فقال : لا ، غير أنى لا أقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك . غلى سبيله ، فجاء الرجل أصحابه فقال :

جنتكم من عند خير الناس .

وقال على رضى الله عنه : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ (١) خَاشٍ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا حتى أتينا روضة خاش فقلنا : أخرجنى الكتاب ، فقالت : مامعى كتاب . فقلنا : لتخرجن الكتاب أولنزعن الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمراً من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا حاطب ؛ ما هذا ؟ قال : يا رسول الله ؛ لا تعجل علىّ ، إني كنت أمراً مُلصقاً فى قومي ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ؛ ولم أفعل ذلك كفراً ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام ، ولا ارتداداً عن ديني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم ، فقال عمر رضى الله عنه : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهيد بدار ، وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم ؟

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة ، فقال رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فاحتر وجهه ، وقال : رحم الله أخى موسى ! قد أودى بأكثر من هذا ، فصبر .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : لأبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر

(١) روضة خاش بين مكة والمدينة .

٤ — حسن سياسته

من تأمل حسن تديره صلى الله عليه وسلم للعرب الذين كانوا كالوحش الشارد ، مع الطبع المتنافر المتباعد ؛ وكيف ساسهم ، واحتمل جفاهم ، وصبر على أذاهم ، إلى أن انقادوا إليه ، واجتمعوا عليه ، وقاتلوا دونه أهلهم وآباءهم وأبناءهم ، واختاروه على أنفسهم وهجروا في رضاه أوطانهم وأجباهم ، من غير ممارسة سبقت له ، ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين — تحقق أنه أعقل العالمين . ولما كان عقله أوسع العقول ، اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعا لا يضيق عن شيء : قد اتسع خلقه للنافتان الذين كانوا يؤذونه إذا غاب ، ويتملقونه إذا حضر ، وعفا عن المقاتلين الذين كسروا رباعيته ، وشجوا وجهه يوم أُحد ، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف ؛ ولما شق ذلك على أصحابه شديدا قالوا له : لو دعوت عليهم ، فقال : إني لم أبعث لعانا ، ولكن بعثت داعيا ورحمة ؛ اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون !

وكان كاملا في قوة عقله وإدراكه ، وصحة قياسه الفكري ، وصدق ظنونه ، وصحة فهمه ، وقوة حواسه ؛ مفطورا على العلم والحلم ، والصبر والسكون ، والحياء والمرومة ، والمودة والرحمة ، والهداية للخلق ، وحب الخير لكل أحد ، وإعطاء الحكمة حقها في سائر أموره كلها .

وكان أصبر الناس على ما يكون من قبيح أفعال الناس ، وسيئ قولهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا نشرح صدره يتسع لما تضيق عنه صدور العامة ؛ فكانت مساوئ أخلاقهم وأفعالهم ، وسوء سيرتهم ، وقبيح سريرتهم ، في جنب سعة صدره الشريف ، معدومة الأثر .

نشأ عن حسن سياسته واستقامة سيرته أنه لفت أفته عن مآلوفها ، وصرفها عما كانت تعرفه إلى غير ما تعرفه ، فأذعن له الكثير طوعا ، وانقاد له القليل خوفا وطمعا ، وليس من السهل انتزاع عادات متأصلة إلا لمن كان مؤيدا بالتأييد الإلهي ، مُعَانًا بحزم صائب ، ورأى ثاقب وعزم متين .

جمع بين رغبة من استمال ، ورهبة من استطال ، حتى اجتمع الفريقان على نصرته ، وقاموا بحقوق دعوته : رغباً في عاجل وآجل ، ودفعاً لآمر نازل . وبذلك صار الدين بهما مستقرا ، والصلاح بهما مستمرا .

وقف موقف العدل في أحكامه : فلم يَفْلُ كما فعلت النصارى ، ولم يقصر كما فعلت اليهود ، ولم يمل بأصحابه إلى الدنيا كما رغبت اليهود ، ولا إلى رفضها كما ترهبت النصارى ، بل أمرهم بالاعتدال فيها ، وقال لهم : خيركم من لم يترك ديناه لآخرته ، ولا آخرته لديناه ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . وتلك هي عين الحكمة : لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال ، والجمع بينهما اعتدال . تمالا عليه العلية والدون من قومه ، فكلما كانوا عليه الأمام وألح ، كان عنهم أعرض وأصفح . قد قهر فعفا ، وقدر فغفر .

قد رجح عقله ، وصحت همته ، وصدقت فراسته ، فما اسْتَغْفَلَ أبدا في مكيدة ، ولا اسْتَعْجَز في شديدة ، بل كانت مخاطبه عواقب الأمور في أولها ، فيكشف عيوبها ، ويجلي خطوبها .

لم يهزه طيش ، ولم يستفزه خرق ، بل كان أحكم في النفاذ من كل حكيمة ، وأسلم في الخصام من كل سليم ، وقد منى بحفوة الأعراب ، فلم تقع منه نادرة ، ولم تحفظ عليه بادرة ، وما روى التاريخ زعيما غيره إلا له عثرة أو هفوة . كان يرى الغدر من كبائر الذنوب ، والإخلاف من مساوئ الشيم ، فيلتزم

ففيما الصعب حفظا لعهد ، ووفاء بوعده ، حتى يبدأ معاهدوه بنقضه ، فيجعل الله تعالى له مخرجا . وحسبك شاهدا صلح الحُدَيْيَّة .

اتصف بالسكينة : فمن رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، ولقد ارتاعت رسل كسرى من هيئته حين أتوه ، مع ارتياضهم بصولة الأكاسرة ، ومكاثرة الملوك الجبابرة ، فكان في نفوسهم أهيب ، وفي أعينهم أعظم ، وإن لم يتعاضم بأهبة ، ولم يتطاول بسطوة ، بل كان بالتواضع موصوفا ، وبالوداعة موسوما ، فاستحكمت محبته في النفوس حتى لم يَقْلِه مصاحب ، ولم ينفر منه معاند ، ولم يستوحش منه مباحد — إلا من ساقه الحسد إلى شقوته — وأصبح أحب إلى أصحابه من آبائهم وأبنائهم .

ولاعجب : فقد كان يتواضع لهم وهم أتباع ، ويخفض جناحه لهم وهو مطاع ، يمشي في الأسواق ، ويمتزج بأصحابه وجلسائه ، وهو بتواضعه متميز ، وبخفض جناحه متمزز .

ولقد دخل عليه أعرابي ، فارتاع من هيئته ، فقال له صلى الله عليه وسلم : خفض عليك : فإنما أنا ابن امرأة تأكل القديد بمكة .

كان أشد الناس إكراما لأصحابه : إذا قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره . يكرم كريم كل قوم ويوليهم أمرهم ، ويقبل معذرة المعتذر إليه .

والإليك قصة كعب بن زهير :

غضب كعب على بُجَيْر أخيه حين أسلم وآمن بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكتب إليه يلومه ، فأعلم بُجَيْر المصطفى ، فقال عليه الصلاة والسلام : من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله ، فكتب بجير إليه يخبره أن المصطفى أهدر دمه ،

إلى محمد صلى الله عليه وسلم ترد الفضائل جميعها ٣٥

فإن كان لك في نفسك حاجة فصر إليه : فإنه يقبل من جاءه تائباً ، ولا يطالبه بما عمله قبل الإسلام فلما بلغ الكتاب كعباً فر إلى قبيلته لتجويره ، فأبى عليه ذلك ، فأشفق على نفسه وأرجف به أعداؤه ، فقدم المدينة ونزل على سيدنا ومولانا عليّ ، كرم الله وجهه ! فأتى به إلى المسجد وقال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقم إليه ، واستأمنه . فسمع كلامه وقام إليه حتى جلس بين يديه ، فوضع يده في يده قائلاً : يا رسول الله ! إن كعب بن زهير قد جاء يستأمنك تائباً مسلماً . فهل أنت قابل منه ذلك إن أنا جئتك به ؟ قال : نعم . قال : أنا يا رسول الله ! كعب بن زهير ، فقال عليه السلام : آلاذى يقول ما يقول ؟ ووثب إليه رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله ؛ دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، فقال له الرسول : دعه عنك : فإنه قد جاءنا تائباً نازعاً . ثم أخذ في إنشاد قصيدة (بانت سعاد) المشهورة يمدح فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به إلى أن وصل :

إن الرسول لنور يستضاء به ٥ وصارم من سيوف الله مسلول
فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته الشريفة إليه ، وعفا عنه .
كان القوى والضعيف عنده في الحق سواء .

أمر بالرفق وحث عليه ، ونهى عن العنف وبغضه ، ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح .
وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه ، لسعة صدره ، وغزارة حياته .

وكان يزور ضعفاء المسلمين تلطفاً بهم ، وإيناساً لهم ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنازهم لشريف كانت أو لوضيع ، وبذلك كان خير أسوة .

وكان يردف العاجز والضعيف على ظهر الدابة ، ويحث على معوتهم والرفق بهم . وفي هذا أدب لأمير الجيش بأن يرفق في السير ، بحيث يقدر عليه أضعفهم ، ويحفظ قُوَاهُ أقوامه ، وأن يحمل ضعيفهم ومنقطعهم ، ويسعفهم بماله وحاله وقَّاله .

حقا كان ذا سياسة شريفة ، ومعارف منيفة ، ونظر ثاقب ، ورأى صائب وظن صادق ، وحُسن موافق ، وفضائل مقصودة ، وأخلاق محمودة . دينه الإيمان ، وخلقه القرآن ؛ يسخط لسخطه ، ويرضى لرضاه ، بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، محذرا للشرائع ، حافظا للودائع ، مجتهدا في المصالح ، راضيا للجوامع ، ناظرا في المهمات ، كاشفا للبلبات .

وكان كثير الإفضال : يصل من قطعه ، ويعطي من منعه ، ويبذل لمن حرمه ، ويعفو عن ظلمه . ويغضى طرفه على القذى ، ويحبس نفسه عن الأذى ، لا ينتقم مع القدرة ، ويصبر على ما يشق ويكره ، ولا يزيد مع أذى الجاهل وإسرافه إلا صبرا وحلما ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، ولم أعرض عن جاهل ومعاند ، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد ، وصبر على مقاساة الجاهلية وما لقي منهم من الشدة والبلية ، إلى أن سلطه الله عليهم ، وحكمه فيهم ، وأظفره بما لديهم .

كان أكثر الناس حياء ، وأوفرهم عن العورات إغضاء ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ، ولا مداح ولا عيَّاب .

كان يثابر على المعونة ، ويسارع إليها ، ويؤثر من دخل عليه بوسادته ، ولا يردّ ذا الحاجة إلا بها أو بميسور القول .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل مع الخادم ، ويبادر إلى خدمة القادم ، ويرقع

ثوبه ، ويخسف نعله ، ويقم بيته ، ويخدم أهله بحمل بضاعته من السوق ، ويقوم بما يتعين عليه من الحقوق . اختار أن يكون نبيا عبدا ، لانيب ملكا ، مع أنه سيد البشر بلا ريب ، وأكرم الخلق عند عالم الشهادة والغيب .

وكان أكثر الناس أمانة ، وأجزلم عفة وصيانة ، وأنضرم بهجة ، وأصدقهم لهجة ، وأجلهم سرا وإعلانا ، وأغزرم عدلا وإحسانا ، صادقا في الكلام ، وجاهرا بالحق في الأحكام ، وعده مقرون بالإنجاز ، لا يأخذ أحدا بقرف أحد ، يحكم عدلا ، وينطق فصلا .

عرفت الجاهلية فضله قبل الإسلام ، فتحاكموا إليه في خصوماتهم ، وشهد وليه وعدوه بعله وعدله . والفضل ما شهدت به الأعداء لأهله . كان يرعى حق^(١) الصلبة القديمة ، ويتعطف على ذوى رحمه بصلاته ، ويغنى عليهم جميل مآثره ويملك قلوبهم بإيثاره ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائبا دعا له ، وإن كان شاهداً أزاره ، وإن كان مريضا عاده : لأن الإمام عليه النظر في حال رعيته ، وإصلاح شأنهم ، وتدير أمرهم .

وكان إذا قدم عليه الوفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر علية أصحابه بذلك : لأن ذلك يرجحه في عين العدو ويعظمه ، ويعلى كلمة الله ، ويرفع دينه .

وكان صلى الله عليه وسلم رحيا حتى بأعدائه : ألم تر أنه لما دخل يوم الفتح مكة على قريش وقد جلسوا بالمسجد الحرام — وصحبه ينتظرون أمره فيهم من قتل أو غيره — قال لقريش : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أقول كما قال أخى يوسف : لا تريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء . ولا بدع : فقد انفرد بالإحاطة

(١) من ذلك ذكره السيدة خديجة والتصدق عليها بعد وفاتها

بالمحاسن والمعارف ، والتودد والرفق ، وكان بالمؤمنين رحيمًا ، وما أظهر في وقت قاطعة على أحد إلا عن أمر إلهي حين نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

قد عرف كما تقدم بالأمانة قبل نبوته ، ولذلك كانوا في الجاهلية يتحاضرون إليه ، ويفصل في خصوماتهم ، فيرضون بحكمه وعدله . وقد روى أن أبا جهل قال له : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، ولذلك جاء في القرآن الكريم : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

وسأل هرقل أبا سفيان فقال : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل نبوته ؟ قال : لا . قال هرقل : ما كان لينذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وقال النضر بن الحارث لقريش محتجا عليهم ومبينا خطأهم : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فعلا ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ! والله ما هو بساحر وليس بعجيب أن أعداءه صلى الله عليه وسلم ، يجحدون من ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ما ينفي طعنهم ، ويرد كيدهم في نحرهم . ولا ريب في أن العرب لو حفظوا عليه كذبة نادرة في غير الرسالة ، لجعلوها دليلا على تكذيبه فيها ، ومن لزم الصدق في صغره كان له في الكبر الأزم ، ومن عصم منه في حق نفسه كان له في حق الله تعالى أعصم ، وكان صلى الله عليه وسلم لم يزل مشهورا بالصدق في خبره ناشئا وكبيرا ، حتى صار بالصدق مرقوما ، وبالأمانة موسوما .

(٥) طريقته المثلى في الهداية

لقد جاهد صلى الله عليه وسلم حتى زلزل العقائد الفاسدة ، وقضى على

العادات المرذولة ، وما غرس في قومه أو القبائل الأخرى وعدا كاذبا أو ادعى الألوهية ، أو أحاط نفسه بمظاهر الآبهة من الحرس والحشم ، للنهول في نفوس الناس وإرهابهم ، وإنما كان يصارح قومه ، ويجاهرهم بأنه رسول رب العالمين ، جاء لهم مبشرا ونذيرا .

جاء بالمعجزات الكثيرة ، ولكنه ما ادعى أنه قادر على الإتيان بها ، بل كان يقول بلسان القرآن : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ . ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ .

جَرَدَ نفسه من كل ما من شأنه أن تستمال به الناس : فلم يتخذ وسائل الإغراء ، ولم يجعل همه كسب صداقة زيد أو عمرو ، بل قصد أن يبلغ ما أرسل إليه من عند الله : رحمة بالإنسانية ، وإقامة لملك الله في أرضه . وقصدا لتوحيد بني الإنسان ، وجعلهم أمة واحدة مرتبطين برابطة الإخاء .

قد تم له النجاح ، ولم يكن سبيله الفذ فيه الالتجاء إلى ما هو فوق مقدور الإنسان ، كما فعل من قبله من الأنبياء : إذا أعوزتهم الحيل جاءتهم المعجزات لإنقاذهم وإتمام مقاصدهم . ولو أنه التجأ إلى المعجزات في كل أمر حَزَبَهُ أو كَرَبَهُ ، لتعذر على من يحيثون بعده أن يتخذوه مثلاً يحتذى ، لانقطاع صلتهم بالمعجزات ، ولكنه قد اتخذ من الوسائل أنبلها ، ومن الذرائع أشرفها وأوضحها ، وبذلك كانت حياته الشريفة درسا بينا ، وعظة بالغة ، لمن يحيثون بعده ، بمن يجب أن يدركوا مقاصدهم وغاياتهم بالكفاح .

كلنا نعلم أن قوم موسى عليه السلام قد نجوا بمعجزة ، ولذلك لم يتيحوا له

فرصة لغرس روح الرجولة والمروءة فيهم . أما محمد عليه السلام فقد جاهد بالطرق الحربية والسياسية التي يفخر بها القواد الحريون والسياسيون ، ولذلك ربي جيلا من الصحابة كانوا أولى عقيدة نادرة ، وحب خالص له ، وكانوا ممتازين برجاحة الفكر ، ومتانة الخلق ، ولهذا لم تفزعهم تقلبات الدهر وتصارييف الحياة .

حقا أن كل خلة من الخلال الإنسانية تظهر في وقتها الملائم : فكما أن الشدائد تسبك الإنسان ، وتكون أخلاقه ، كذلك النجاح يظهر مافيه من نبل وهمة إن كان فيه شيء من ذلك .

ومن المصلحين من كان طريق وصوله إلى الكمال الفقر والشدائد ، ومنهم من كان طريق وصوله الغنى والرخاء ، وقليل منهم من خبر الحالين . غير أن محمدا صلى الله عليه وسلم — وقد أراد الله به أن يكون مثلا كاملا للإنسانية — قد خبر الحالين ، فما زاده الرخاء وهناءة البال إلا كرما وصفحا ، وما زادته الشدة إلا صبرا وجلدا ويقينا .

كان عليه الصلاة والسلام إذا سئل عن معجزة قال لسائله : حسبكم الكون معجزة : انظروا إلى الأرض فهي من عجائب صنع الله ، وآية على وجوده وعظمته ، خلقها لكم ، وسلك لكم فيها سبلا ، تمشون في مناكبها ، وتأكلون من رزقه ، ثم انظروا إلى السحاب المسير في الآفاق : يسبح بمائه فيحيي أرضا مواتا ، ويخرج منها زرا ونخيلا وأعنابا ، ثم انظروا إلى الأنعام خلقها لكم تجعل المرعى لبنا سائغا للشاربين ، ثم انظروا في أنفسكم فإنكم معجزة : لقد كنتم صغارا ، ومن قبل لم تكونوا شيئا مذكورا ، ثم وهب لكم الله العقل

٤١ إلى محمد صلى الله عليه وسلم ترد الفضائل جميعها

والقوة ، وخلق لكم الرحمة أشرف الصفات . وماتدرى كيف يكون حال العالم لولم يخلق الله الرحمة ؟ .

كان عليه الصلاة والسلام يوجه نظر معانديه إلى الكون وما فيه ، مما يدل على أن الله سلطانا على كل شيء ، وأن كل مكان لا يخلو من آية من آياته التي يسميها علماء العصر الحاضر بالقوة والمادة ؛ ولا يرون فيها شيئا مقدسا ، بل الكائنات عندهم تباع وتشترى ، وتستخدم في تسيير السفن البخارية والمراكب الهوائية ، وغفلوا باشتغالهم بالكيمياء والحساب ، عما هو كامن في الكائنات من سر الله .

ومن العجب أنهم يغفلون عن ذلك ، ولولاه ما كانت العلوم بأسرها . وفي الحق أن الإنسان لا يجد السبيل إلى العلم حتى يجده أولا في معرفة الخالق الحكيم : فلا علم إلا لمن عرف الله ، وقرت في نفسه قوته الباهرة . أما العلم وحده فشقيقة كاذبة ، أو كما يقول بعض العارفين من أهل الغرب : قطعة من الخشب بالية ، أو بقلة ذابلة .

كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة سلبية : أساسها البرهان والإقناع والموعظة الحسنة ، فأسلم كثير من اقتنعوا بصدق الداعي وصحة دعواه : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ بيد أن أعداءه من كفار قريش سكان مكة ، واليهود الذين كانوا ساكنين بالقرب من المدينة ، وغيرهم من قبائل العرب ، لم يقفوا عند إنكار رسالته ودعوته الإلهية ، بل أرادوا أن يسكتوا الداعي ، وبدموا يضاعفون إعتداهم عليه وعلى أصحابه ، فأذن الله الحكيم للمسلمين في القتال دفاعا عن أنفسهم ، ووقاية للدعوة بمن يصد الناس عن الدخول في دين الله ، أو يفتنهم أو يعذبهم إذا دخلوا فيه .

وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾. فدافع النبي وصحبه دفاع قوم يقول لسان حالهم: أما وقد أبت قريش وغيرها إلا الحرب، فليحتملوا عواقبها بعد أن صموا آذانهم عن كلمة الحق، وشريعة الصدق وقد جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم من طريق الرفق والأناة، فازدادوا عتوا وطينانا، وأبوا إلا تماديا في ضلالهم: يسلبون وينهبون، ويقتلون النفس التي حزم الله إلا بالحق. وليكن القول الفصل للحسام المهند، ولكل مسرودة حصّاء، وسابحة جرداء.

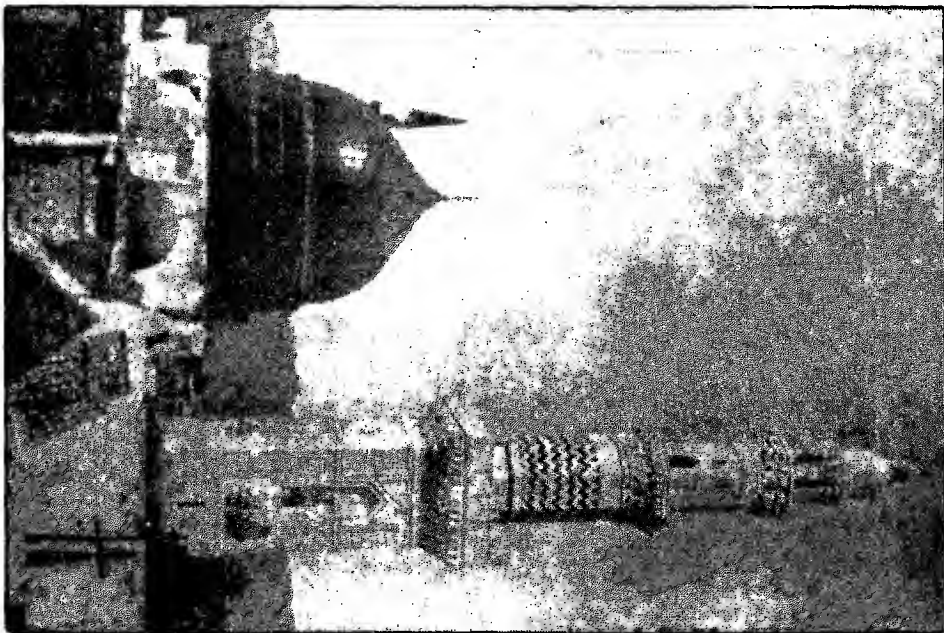
ليس معنى هذا أن دين الإسلام ما كان لينشر لولا السيف. كلا: فقد جاء — كما تقدم — بالحكمة والموعظة الحسنة، ولما لم يقدروها حق قدرها وتتابع منهم العدوان، لجأ إلى السيف دفاعا عن دعوته وحماية له ولأتباعه. والحق لا بد من نشر سلطانه، وحفظ كيانه، إما باللسان، وإما بالسيف، وإما بالقلم. ولقد جرت سنة الله في خلقه أن الحرب بين الحق والباطل، تتمخض دائما عن بقاء الحق ناميا زاكيا: فثله كمثل حبوب القمح، إذا دفنت في الأرض مخلوطة بقشر وقمامة، وكانت الأرض خصبة قوية، أخرجت قمحا خالصا، أما القمامة فإنها تهضمها في سكون، ثم تحيلها عناصر نافعة. تلك سنة الله في كونه: وهى سنة حق لا باطل، وسنة عدل ورحمة وحنان، تتكفل بحراسة كل أمر أسس على الأخلاق، واغتذى بروح الحق. والدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، إنما هو الحقيقة الكبرى، لبثت تنتقل من عصر إلى آخر دهورا وأحقابا، لم يتبدل جوهرها: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

والإسلام جوهر حق وروح صدق . وكل مانسبه المفترون أو الجاهلون إليه من البهتان والخزعات فليس منه ، ولا يضره ، ولا يحجب نوره ، ولذلك لا عجب من سرعة اتصاله بالقلوب ، وشدة امتزاجه بالنفوس ، واختلاطه بالدماء في العروق ، وقضائه على الملل الكاذبة ، والنحل الباطلة : فقد كانت حطبا هشيا أكلته نار الإسلام ، فاستحال الخطب رمادا ، والنار لا تزال باقية مشتعلة . لا يزال القرآن الكريم قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع في شئون الحياة ومسائلها ، هدى للناس وسراجا منيرا يضيء للعالم سبيل الحياة ، ويهديهم صراطا مستقيما ، وقد اقتضت حكمة الله أن يجعله قواعد كلية ، يستنبط منها ما يصلح لكل زمان ومكان .

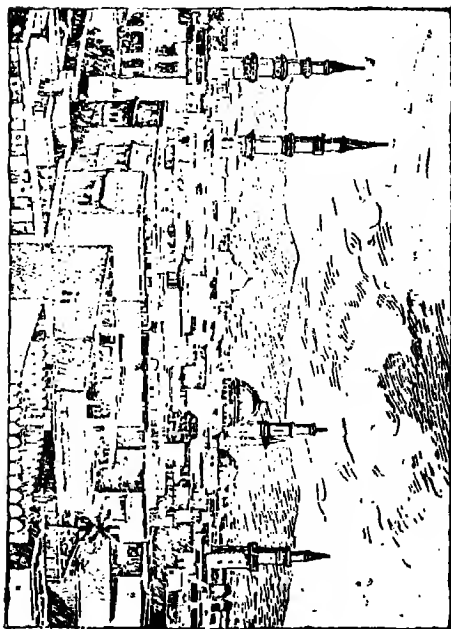
فما برح هذا الكتاب الكريم يتردد صوته في آذان الألوف من خلق الله ، ويصل إلى قلوبهم أكثر من ثلاثة عشر قرنا . فهو صوت الحق . إذا تلى نفذ إلى الأفئدة ، يجرى الإخلاص فيه من أوله إلى آخره . وهذا هو الذى جعل العرب المعاندين يخضعون لبلاغته ، ويقرّون بعجزهم عن محاكاته .

تأمل قصة عتبة بن ربيعة العبشمى ، من بنى عبد شمس بن عبد مناف ، وكان سيدا مطاعا فى قومه إذ قال : يا معشر قريش ، ألا أقوم لمحمد فأكله ، وأعرض عليه أمورا ، عليه يقبل بعضها ، فنعطيه إياها ، وكيف عنا ؟ فقالوا : لك ذلك . فذهب إلى رسول الله وهو يصلى فى المسجد وقال : يا ابن أخى ؛ إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبنا ونسبا ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم . فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد ؛ فقال : يا ابن أخى ؛

فيه النبي صلى الله عليه وسلم



المدينة المنورة



الباب الأول

٤٦

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وكيف يرجي الخير من قالوا : ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ اَوْ اِثْنًا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴾ ولم يقولوا : فاهدنا اليه .

ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة الإسلام بالبرهان اختاروا سياسة القوة كما فعل قوم إبراهيم عند ما عجزوا إذ ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ .

ولما أشير عليه بقتل بعض المنافقين قال : لا . لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه . ولا غرو ، فإخلاص محمد عليه الصلاة والسلام لا يدانيه إخلاص وليس كإخلاص العظماء الذين لا يرحون يياهون الناس بإخلاصهم : لأن هذا الضرب من الإخلاص حقير دال على الفتنة والغرور ، أما إخلاص محمد عليه الصلاة والسلام فغير مرتبط بإرادته : فهو مخلص بفطرته الطاهرة النقية ، لأن الله فطره على ذلك .

(٦) ثباته صلى الله عليه وسلم على مبدئه

إن الأخلاق إذا تعاورتها الشدائد والأهوال سبكتها ، وأخرجت منها خلقا قويمًا ثابتًا ، وكان مثلها مثل الذهب المصنّى ، فالشدائد تظهر ما هو كامن في الإنسان : فإما أن تجعل منه خلقا عظيما يظل مدى الدهر والاحقاب نبراسا يستضاء به ، وإما أن تقضى عليه فتجعله أثرا بعد عين ، ومن أجل ذلك وجب على من يطمحون إلى الظفر وبلوغ المقاصد العظيمة . أن يعتدوا أنفسهم لركوب متن الأهوال واحتمال الشدائد ، ويتخذوا من هذا النبي الكريم أسوة في ثباته وسائر أخلاقه .

فقد انفرد صلى الله عليه وسلم بخلة جعلته في أسمى درجات الكمال : تلك هي الثبات ، وتلك صفة امتازت بها مظاهر القدرة الإلهية ؛ فإنها تسير كلها على وتيرة واحدة ثابتة لا تتغير ، كما هو مشاهد لنا في سير الأرض وأتقائها حول الشمس في زمن مقدر لا تعدوه ، وفي سقوط الأمطار في مساقطها ، وهبوب الرياح من مهاها إلى غير ذلك . وقد تجلى هذا الخلق في أحوال كثيرة ، فما غيره . نجاح أو هزيمة ، ولا إقبال ولا إدبار ، ولا فقر ولا غنى .

انتصر في الوقائع الحربية فما داخله العجب ولا الزهو ، وملك أطراف بلاد العرب وخزائنها . فما زاد في طعامه ولباسه شيئاً . وبذلك تمت له السيادة العامة : الدينية والدنيوية .

لبث المصطفى صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين يعرض دعوته على أقوام جفأة ، لا دين لهم إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا حجة لهم إلا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم ، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزة ، مما كان سبباً في الغارات والحروب وإهراق الدماء ، فلم يصادف خلال هذه السنين الثلاث إلا جموداً وسخرية ، ولم يؤمن به أكثر من ثلاثة عشر رجلاً ، ومثل هذا نجاح بطيء لا يشجع في ذاته ، بيد أن المصطفى ظل ثابتاً في دعوته ، قويا في عزمه وإرادته .

ولما أمره الله بالجهار بالدعوة في قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ — أعلن لقريش الدعوة إلى توحيد الله تعالى والإخلاص له ، وترك تعظيم الأصنام وعبادتها ، فكان صلى الله عليه وسلم يطوف على الناس في منازلهم يقول : يا أيها الناس ؛ إن الله يأمركم أن تعبدوه

الباب الأول

٤٨

ولا تتركوا به شيئا، وأبو لهب وراعه يقول: يا أيها الناس؛ إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم. ووطئ عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ عنقه الشريف وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان، وخنقوه خنقا شديدا، فقام أبو بكر دونه، فحذبوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره، فقال أبو بكر: أقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟

ولقد حدث أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند الكعبة — وجمع من قريش في مجالسهم — إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرأى، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجىء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد عليه الصلاة والسلام وضعه بين كتفيه، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجدا، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، ثم جاءت فاطمة وهي جويرية فألقته عنه وهو ساجد.

أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة ممثلا أمر ربه، واثقا بوعد نصره، فصعد على الصفا ثم جعل ينادى: يا بني فهر؛ يا بني عدي؛ لبطن قريش. فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر، فقال لهم عليه السلام وهم مجتمعون: «أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟»، قالوا: نعم. «ما جزبنا عليك كذبا»، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبأ لك! ألهذا جمعنا؟ فأنزل الله في شأنه: ﴿تَبَّتْ يُدَا أُنَىٰ لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾.

والمراد من حمل الخطب : المشى بالنيمة ، لأنها كانت تقترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكاذيب في أندية النساء . ثم نزل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وهم بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو عبد شمس ، أولاد عبد مناف . فجمعهم عليه السلام ، وقال لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبتُ الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله ليموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ؛ وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا . »

من أجل ذلك استاء قريش حراس الكعبة وخدام الأصنام ، وجعلوا يقولون : من هذا الذى يزعم أنه أعقل منا جميعا ، ثم يعنفنا ويرمينا بالجهل والحق وعبادة الخشب ؟ فأجمعوا على عداوته ، وقام عمه أبو طالب دونه محاميا عنه : يحذب عليه ، ويمنع الأذى عنه ، وهو ماض على أمر الله ، لا يردّه عنه شيء . فتزايد الأمر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحث بعضهم بعضا على ذلك ، ثم مشى رجال من أشرافها إلى أبي طالب يقولون له : إن ابن أخيك سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أعلامنا ؛ فإذا أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ؛ فإنك على مثل مانحن عليه من خلافة ، فنكفيكه . فردّهم أبو طالب ردّا جميلا ، فانصرفوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه : مظهر لدين الله ، داع إليه . فهاهم الأمر ، حتى تباعد الرجال وتباغضوا ، ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى يقولون إنهم لا يصبرون على ابن أخيه ، فأصبح أبو طالب فى حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم ، وخذلان ابن

الباب الأول

٥٠

أخيه ومغاضبته . فتلطف معه ليستبقية عليه وعلى نفسه ، ولا يحمل من الأمر مالا يطيق ؛ ولكن القوة الإلهية أيدته ، فأياسهم من نفسه ، وقال لأبي طالب : يا عماء ؛ لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه . فقال له عمه : قل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم ، ويفتنونهم في دينهم ، وافترق أمر قريش ، فتعاهد بنو هاشم وبنو عبد المطلب مع أبي طالب ، على القيام دون النبي صلى الله عليه وسلم ، واشتد العذاب على المسلمين : فمن ذلك أن أبا جهل مرَّ بِسُمَيَّةَ أُمِّ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ وهي تعذب في سبيل دينها ، فطعنها بحربة فقتلها . ومما فيه العظة والعبرة للمسلمين ، ما رواه أبو ذر رضي الله عنه ، من أن أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وأمه سمية ، وصهيب . وبلال ، والمقداد ؛ فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون يعذبونهم ، فألبسوه أدرع الحديد ، وصهروهم في الشمس . وإن بلالا هانت عليه نفسه في الله عز وجل ، وهان على قومه ، فأسلموه إلى الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : «أحد ! أحد !» عند ذلك أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة ؛ في رجب سنة خمس من النبوة ، فهاجر إليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وكان أول من خرج عثمان بن عفان رضي الله عنه ، مع امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما رأت قريش استقرارهم في الحبشة وأمنهم ، أرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشي ، ليرد المهاجرين إلى قومهم ، فأبى ذلك ، وردَّهما خائبين بهديتهما . كل هذا والمصطفى صلى الله

عليه وسلم مثابر على نشر دعوته ، يعرضها على من يلتقي به بين الحبيج مدة إقامتهم بمكة — والكفار جاتون في منابذته ومناوآته، ومناصبته العداوة . وقد جعل الله تعالى من عمه أبي طالب حاميا يذود عنه ، ويقوم دونه في بعض ما يراد به من كيد وشر ؛ ومن زوجته السيدة العاقلة الفاضلة خديجة (رضى الله عنها) مواسيا يعطف عليه ويثبته ، ويخفف عنه وقع ما يلاقه .

وقد أصاب أصحابه الذين آمنوا به ، كثير من أذى الأعداء واضطهادهم ، فاحتملوا وصبروا على ما أودوا ، ابتغاء رضوان الله ومحبة في رسوله ، صلى الله عليه وسلم . حتى كانت السنة العاشرة من رسالته ، صلى الله عليه وسلم ، فدهمه مصاب عظيم : هو موت عمه أبي طالب ، وزوجه السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، فحزن بذلك حزنا شديدا ، حتى سمي عام وفاتها عام الحزن . وقد اشتد أذى الكفار من قريش بعد ذلك عليه وعلى أصحابه ، ونالوا منهم ما لم ينالوا في حياة عمه .

أصبح المصطفى صلى الله عليه وسلم وقشد في مقام ضنك : تهدده الحُتوف ، وتوعدده الهلكات ، وتفغره أفواها المنايا . وكان يخيل لغير أهل اليقين أن أمر محمد صار إلى الإخفاق ، ولكن هذا الأمر العظيم ، المؤيد من الإله القدير الحكيم ، ما كان ليتهى بالإخفاق .

ولما كانت السنة الثالثة عشرة من البعثة ، قدم إلى مكة من أهل المدينة عدد كثير يقصدون الحج ، فاجتمعوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وعاهدوه — إن هو هاجر إليهم — على أن يدافعوا عنه ، وينصروه على أعدائه . ولما سمع المشركون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حالف قوما عليهم ؛ ازداد أذاهم عليه وعلى أصحابه ، فأمر عليه الصلاة والسلام المسلمين بالهجرة إلى المدينة .

فصاروا يتسللون فراراً بدينهم ؛ ليتمكنوا من عبادة الله الذي امتزج حبه بلحمهم ودمهم ، حتى صاروا لا يجدون غضاضة في مفارقة أوطانهم ، والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم . ولما طرق مسامع قريش تنابح المهاجرين ، اجتمع رؤسائهم وقادتهم في دار الندوة ، للتشاور فيما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ؛ فقال قائل : نخرجه من أرضنا ، لنستريح منه . فرفض الباكون هذا الرأي ، لأنهم قالوا : إذا خرج اجتمعت حوله الجموع ؛ لما يروونه من حلاوة منطقته . وعذوبة لفظه .

وقال آخر : نوثقه ونحبسه . فرفض هذا الرأي كسابقه ؛ بخافة أن الخبر يبلغ أنصاره ، فيعلنون حرباً على مشركي مكة . وقال لهم طاغيتهم : بل نقتله ؛ ولمنع بني أبيه من الأخذ بثأره ، تقدم كل قبيلة شاباً جليداً ، ويجمع الكل أمام داره ، فإذا خرج ضربه ضربة رجل واحد ؛ فينفرق دمه في القبائل ؛ فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش ، بل يرضون بالدية . فارتضوا هذا الرأي ؛ ولما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام ، فأمر صلى الله عليه وسلم علياً أن ينام مكانه ، حتى لا يحصل الشك في وجوده في الليل ؛ فإنهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ؛ ثم سجد علياً ببردته . فكان عليّ كرم الله وجهه أول من شرى نفسه في الله . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذ الله على أبصارهم ، فلم يره أحد منهم ، ثم تقابل مع الصديق حيث تواعدا ، ثم سارا حتى بلغا غار ثور ، فاختفيا فيه ؛ ونظر صلى الله عليه وسلم حين خروجه إلى البيت ، فقال : والله إنك لأحب أرض الله إليّ ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ماخرجت . ولما لم تجد قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر .

طلبوها بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة إثرهما في كل جهة ، وجعلوا جائزة كبيرة لمن يأتي بهما ، فجدوا في طلبهما حتى وصلوا إلى باب الغار ، فعميت أبصارهم عن دخوله ، وجعلوا يضربون حوله يمينا وشمالا . وعند ذلك اشتد حزن أبي بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن قُلتُ فإنما أنا رجل واحد ، وإن قُلتَ أنت هلكت الأمة . فما لبث أن أجابه المصطفى صلى الله عليه وسلم بذهن مجتمعة ، وقلب مفعمة ثقة و يقينا : « لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » . وهذا ضرب من الثبات لم يرو التار يخ مثله في أحقابه ودهوره . ومكث صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر رضى الله عنه في الغار ثلاث ليال ؛ ثم غادراه إلى المدينة في طريق غير مألوف . وقد صادفهما في الطريق أعرابي ، فسأل أبا بكر عن معه ، فقال : هاد يهديننا الطريق . أراد أبو بكر طريق الخير ، وفهم الأعرابي طريق السير .

وبذلك تمت هجرته صلى الله عليه وسلم إلى دار ينشر فيها الإسلام ، ويكون فيها للرسول العزة والمنعة . وهذا من الحكمة بمكان عظيم : فإنه لو انتشر الإسلام بمكة ، لقال المبغضون : إن قريشا أرادوا ملك العرب ، فعمدوا إلى شخص منهم ، وأوعزوا إليه أن يدعى هذه الدعوى ، حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم . ولكنهم قد صاروا له أعداء ألداء ؛ آذوه شديد الأذى ، حتى اختار الله له مفارقة بلادهم ، والبعد عنهم .

كل هذا قد لاقاه محمد صلى الله عليه وسلم . وهو مستمر على دعوته ، يدعوهم ليلا ونهارا ، سرا وإعلانا ، منفذا لأمر الله ، لا يخشى فيه لومة لائم ؛ حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وخضعت له الجزيرة العربية ، وانقادت لدينه . ثم اختار من أصحابه ، أولى الحزم واليقين والبيان ، رسلا أرسلهم إلى الملوك خارج الجزيرة

الباب الأول

٥٤

ولم تؤثر عنه صلى الله عليه وسلم زلة أو هفوة : فقد رزق الحلم والاحتمال ،
والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ؛ وما كان يزيد الأذى إلا صبرا ،
وإسراف الجاهل إلا حلما . قالت عائشة رضى الله عنها : ما خير رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى أمرين قط ؛ إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، فإن
كان إثما كان أبعد الناس عنه ؛ وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم
لله لها . ألم تر أنه لما أصابه ما أصابه فى وقعة أحد ، قيل له : لودعوت عليهم !
فقال : إني لم أبعث لعلنا ، ولكنى بعثت داعيا ورحمة ؛ اللهم اهد قومى ! فإنهم
لا يعلمون . فلم يقتصر على السكوت عنهم ، حتى عفا عنهم ؛ ثم أشفق عليهم ،
ورحمهم . ودعا لهم ، وشفع فيهم ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

مما تقدم يتبين أنه صلى الله عليه وسلم احتمل ما لم يحتمله نبي قبله :
قتلونه عليه الأحوال من سلم وحرب ، وغنى وفقر ، وأمن وخوف ، وإقامة فى
وطنه ، وظعن عنه ، وقتل أحبابه وأولياؤه بين يديه ، وأذى الكفار له بجميع
أنواع الأذى : من الكذب ، والافتراء ، والبهتان ، وإيذائه فى جسمه . وهو
مع ذلك صابر على أمر الله ، يدعو إلى الله ؛ فلم يؤذ نبي ما أودى ، ولم يحتمل
فى الله ما احتمله ؛ ولم يعط نبي ما أعطيه . فرفع الله له ذكره ، وقرن اسمه باسمه ،
وجعله سيد الناس كلهم ، وأقرب الأنبياء إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاها ،
وأسمعهم عنده شفاعا . وكانت تلك المحن تنجلي عن كرامته . وهى مما زاده
الله بها شرفا وفضلا ، وساقه بها إلى أعلى المقامات . وهذه حال ورثته من بعده
- الأمل فالأمل - كل له نصيب من المحنة يسوقه الله بها إلى كماله بحسب متابعتة ،
ومن لا نصيب له من ذلك فخطه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له :
خلقه ونصيبه فيها ؛ فهو يأكل منها رغدا ، ويمرح فيها مراحا ، حتى يناله نصيبه من

الكتاب . فيمتحن الله أوليائه وهو في دعة وخفض عيش ، ويخافون وهو آمن ، ويحزنون وهو في أهله مسرور ؛ له شأن ولهم شأن ، وهو في واد وهم في واد ؛ همه ما يقوم به جاهه ، ويسلم به ماله ، وتُسمع به كلمته .

أما هم أصحاب الإرادة القوية، والعزيمة الثابتة، وإقامة دين الله ، وإعلاء كلمته ، وإعزاز أوليائه ، وأن تكون الدعوة له وحده . فيكون هو وحده المعبود لا غير ، ورسوله المطاع لا سواه . فله سبحانه من الحكم في ابتلاء أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ، ما تنقاصر عقول العالمين عن معرفته . وهل وصل من وصل إلى المقامات المحموده ، والغايات الفاضلة ، إلا على جسر المحنة والابتلاء ؟ كذا المعالي اذا مارمت تدركها ۞ فاعبرُ إليها على جسر من التعب

من أجل ذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم ، خير أسوة للبرين والمرشدين والقواد والقضاة والحكام ، والأئمة والناشئة ، والمعاهدين والمحاربين ، والعابدين والزاهدين ؛ فهو مثل أعلى : للفرد في قبيلته ، والزوج مع زوجته ، والآب مع ابنه ، والتاجر في تجارته ، والمربي مع تلميذه ، والواعظ مع مستمعيه ، والجندي في حومته ، والقائد في تدييره ، والمشتري في أحكام شريعته ، والقاضي في ولايته ، والسياسي في حكومته ، والمملك في رعيته ، والمسلم لأوليائه ، والمحارب لأعدائه ، والعابد في محرابه ، والزاهد في قناعته .

كل هؤلاء يجدون من صفاته صلى الله عليه وسلم مثلاً يحتذونها ، وروحا يقوون على مزاوله أعمالهم بها ، وإماما يسيرون عليه في تحقيق مآربهم ، ومردا يرجعون إليه عند حيرتهم .

ومن ثمَّ وجب اتباعه ، وامثال سنته السنية ، واقتفاء طريقة هديه وسيرته الزكية ، والاقتداء به في الأخلاق والأفعال ، والالتقياد لأوامره في

جميع الأعمال ، والتأسي به في حربه وسله ، والأخذ بقوله ، والرضا بحكمه -
خفير الهدى هدا ، ومن اتبعه أحبه الله .

وقد سعدت أمة امتثلت أوامره ، واجتنبت نواهيه ، وبذلت الجهد
في مناصرة دينه ومؤازرته ، وتأذبت بأدابه في عسرها ويسرها ، وآثرت
ما شرعه على هواها ، وثابتت على العمل بسنته ، وتفقهت في دينه وشريعته ،
وتخلقت بخلقه ، وتطبعت بطبعه ، وأحبت من أحبه ، وعظمت
آل بيته وصحبه ، وخالفت كل أمر يخالف شرعه ، وأعرضت عن حاول
إدخال محدثة فيه أو بدعة ، ونهضت للوقوف عند حدوده ، ورفضت أقوال
شائته وحسوده ، وبذلت دونه النفس والمال : فليس هناك كرم أجزل من
كرمه ، ولا نعم أكمل من نعمه ، ولا نوال أتم من نواله .

ولا عجب : فقد جاء بالراقة والرحمة . وعلم الكتاب والحكمة ، وأنذر
وبشر ، ونهى عن التعسير ويسر ، وبالغ في النصيحة ، وآتى بالحجة الصحيحة ،
وجاء بالهداية ، وأنقذ من العماية ، ودعا إلى الفلاح ، وبين سبيل النجاح .

قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ . فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ
مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الباب الثاني

محمد صلى الله عليه وسلم بين الرسل

انفرد محمد عليه الصلاة والسلام من بين الأنبياء والرسل ، بأن معاصريه قد وقفوا على جميع خلاله وأخلاقه ، الخاصة والعامة ؛ ثم تناقلها الناس جيلا بعد جيل ، واضحة لا خفاء فيها ولا لبس ، وأودعوها بطون الكتب . فهو الرسول التاريخي بالمعنى الصحيح ؛ لأن سيرته من مولده إلى مماته ثابتة بثبوتها لامية فيه : لجميع أعماله مدونة ، وأحاديثه مسطورة ، شاملة لما يحتاج إليه بنو البشر في معاشهم ومعادهم ؛ وأعماله مصدقة لأقواله ، لا تناقض فيها ولا تضارب ؛ وهي فوق ذلك نبراس لبني الإنسان ، يستضيئون به على مرّ الدهور والأزمان .

وهذا هو سرّ أن محمداً أفضل المرسلين ، وأرفعهم شأنا ، وأعلام قدره . ولولا ما جاء به من السمائل والأعمال ، ما فهم العالم قدر النبوة والأنبياء .

لو كانت رسالة الأنبياء مقصورة على إلقاء المواعظ والنصائح ، دون أن يكافحوا في سبيل إنهاض بني الإنسان ، وثقيف عقولهم ، وتقويم أخلاقهم ، وإصلاح شئونهم ، ما استطاع أحد أن يفهم وجه الحاجة إلى الرسالة والرسل : لأن المواعظ والحكم والأمثال ، قد جاءت في الأحقاب الخالية على لسان من لم يدعوا الرسالة : ففي كتاب كليله ودمته — وهو ما وضعه علماء الهند — كثير من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوها فيها أبلغ ما وجدوا

من القول فى النحو الذى أرادوا . وقد ضمنوه كثيرا من البحوث الخلقية والسياسية والاجتماعية والحربية ، على لسان البهائم والطير ، وقد قصدوا به أن يكون إرشادا وهداية لثرية الأمراء ، وأبناء الحكام ، وهو وأمثاله بلا ريب مظهر حكمة وأدب ؛ غير أن العقل — وقد بلغ من الرقى شأوا بعيدا — قد بان له أن تحقيق كثير مما اشتمل عليه عسير ؛ لأنه إلى الأمور النظرية أقرب منه إلى العملية ، وأن الاتفاع بطائفة من المواعظ والنصائح — التى لم يخرجها قائلها إلى حيز العمل — قليل .

وإن أمثل قاعدة يُستَرشد بها فى اصطفاء من يتخذة الناس زعيما وقدوة هى أعماله : فهى التى تجعله أهلا لأن يسلم إليه الناس قيادهم ، ويأتمنوه على عقولهم يثقوها ويغذيها ، وعلى أخلاقهم يقومها ويزكيها . وإن أثر الحكمة الخلقية تسمع من أفواه الوعاظ ، ليس بأبلغ منها وهى مكتوبة على الجدران . وما تقدم يتبين أن القاعدة فى اختيار الهداة هى أعمالهم لا أقوالهم . وأعظم هؤلاء الهداة هم الذين أرسلهم الله بنوره وهدايته . وما جاء على لسانهم من الأقوال الحكيمة ، والمواعظ الخلقية الاجتماعية : ولا يتحقق أثره إلا إذا كانت أعمالهم مظاهر لها . ومن أراد العمل بها ، دون أن يتواتر إليه كيف عملوا بها ، فقد يقع فى الخطأ ، ويضل سواء السبيل . أضف إلى ذلك أن الفضائل السلبية ، والفضائل القولية ، ليس لها وزن فى باب الأخلاق والفائدة : فقد نقرأ لكثير من الناس كلاما حسنا فى العفو والحلم وكظم الغيظ ، ولكننا لا نستطيع الجزم بأن هذه الخلال شعارهم الذى اتخذوه .

وليس هناك من دليل مقنع على أن الانسان يستشعر الفضائل من أن يكون قوله مقرونا بعمله . فأخلق بمن ينصح للناس بالصبر ومحامده ، واحتمال

الأذى والتجَلّد له ، أن يكون قد ركب متن الأهوال ، ولاقى الشدائد ، وأوذى
 فى سبيل رأيه وعقيدته ، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم .
 إن طائفة من المواعظ والمعجزات ، ليست كل ما يأتى به الرسول من
 الآيات والبراهين ؛ بل آيته أن يحيى بنى الإنسان ، بعد أن ذاقوا الموت العقلى
 والخلق والروحى ، وآيته أن يبعث فيهم بأقواله وأفعاله : الهمة والمروءة
 والنجدة ؛ وما إليها من الخلال السامية . آيته أن يبعث الإنسانية من رسمها ،
 فتخرج وقد سرت فيها الحياة الصحيحة : فاستيقظ شعورها ، وتحركت عاطفتها
 وانتبه عقلها ، وتبينت أخلاقها ، وانتعشت روحها ؛ لأن هذه الصفات هى
 ملاك أمرها ، لا تعيش ولا تنمى إلا بها ، وهى بعد متساندة ، لا تستقيم واحدة
 منها بغير انضمامها إلى أخواتها ، ولذلك كان من الخطل تقوية بعضها
 وإغفال سائرها .

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم بأن استثمر هذه الصفات ، ووجهها إلى أن
 يكون الإنسان ذا عقل راجح ، وشعور حى ، وعاطفة نبيلة ، وخلق رفيع ،
 وروح عالية . وقد توالى الدهور والاحقاب ، والامم منفصل بعضها عن بعض ،
 زاعمة كل واحدة أن العالم كله فيها ، وأنها أفضل من سواها ؛ لأن الله خصها
 بالرسالة والهداية ، فنجم عن ذلك القول بأن الله — تعالى عما يقولون علواً
 كبيراً — حابى بعض الامم ، وخصها بمزايا لم يمنحها غيرها .

ومن أجل ذلك أرادت الحكمة الإلهية ، أن تقضى على ما خالج نفوس بعض
 الامم ، من أنها أفضل من غيرها ، جنساً وخللاً وديناً ، وأن تجعل من
 الإنسان جسماً واحداً ، فن الله على الخلق جميعهم برسول عام ، معه رسالة
 عامة ، لا يخصها زمان ولا مكان : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ .

كان مثل من سبقه من النبيين صلوات الله عليهم وسلامه ؛ مثل المصاييح ، كل منها وضع في حجرة لا يضيء سواها ، فلما ظهرت شمس الرحمة من البلاد العربية ، لم يبق هناك من حاجة إلى هذه المصاييح الممدودة المدى ، وليس في مقدور أي نور آخر أن يقوم مقام هذه الشمس .

بعث كل رسول من تقدموا المصطفى صلى الله عليه وسلم تهذيب أفراد أمته ، وجعلهم صالحين لتكوين أمة متجانسة ، ولعمري هذا عمل جليل — غير أن محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو خير المرسلين ، أرسل ليجمع هذه الأمم ، ويجعلها أمة واحدة متكافئة ، مرتبطة برابطة الإخاء .

جاء كل رسول وأهم مقاصده تقويم خلق معين ، فكانت حياته أسوة لما أراد تقويمه . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء لتنمية الفطرة الإنسانية جميعها ، واستخدام ملكاتها ، وتقويم غرائزها . وكانت حياته العملية صلى الله عليه وسلم ، ملأى بالمثل الصالحة ، الكفيلة بتقويم أخلاق بني الإنسان جميعها . ولذلك كان مثلاً كاملاً للإنسان ، اجتمعت فيه الفضائل التي كانت في أنبياء بني إسرائيل وغيرهم ، تجمعت فيه شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وصبر أيوب ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وبساطة يحيى ، ورحمة عيسى ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

كانت له شخصية قوية ، أثرت فيمن حوله أثراً بليغاً ، فاقر له بالفضل العدو والصديق . أظهر من الثبات والمثابرة وحضور البديهة والسكينة ، في أوقات المحن والشدائد ، مالم يعهد في إنسان قبله أو بعده . أوتي من البيان ووضوح الحجة ما جعل الناس قاطبة يفهمون قوله ، ويتأثرون به

عمل بما قال ، فكان أكمل مثال يحتذى ، وحدثت أعماله عن نفسها .
قضى حياته كلها ولم يبد منه ميل إلى التفاخر والتعظيم ، وأذن في الناس أنه
بشر لا إله ، وأنه إنما جاء برسالة هداية العالمين ، تنزل عليه الأحكام والآداب
فيلغها ، ثم يترجم عنها بعمله .

وإذ بلغ ما أوحى به إليه ، وبينه بعمله ، وجعله من خلقه ، سهل على الناس
أن يتبعوا شريعته وينسجوا على منواله ، وظل الكتاب الكريم سليما من
النقص والزيادة ، مصونا من التبديل والتحريف ، يتناوله الخلف عن السلف
كما أنزل ، وكما بينه الرسول بعمله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾
أما وقد بان أن القرآن الكريم هو مظهر الإرادة الصمدانية العالية ، وأنه
باق كما أنزل ، وأنه محتو على ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاده ، وأن
النبي صلى الله عليه وسلم بينه كما أراد ربه ، وأن يباه وصل إلى المسلمين في
العصور المتتالية كاملا مصونا ، فلا حاجة إلى تنزيل جديد ؛ لأن كلمة الله لم
تبدل ، وإرسالها مرة أخرى محض تكرار وإعادة — والله منزّه عن ذلك —
ولا حاجة إلى رسول آخر ، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بآخر هداية
شاملة للناس ، فهو لذلك خاتم الرسل . أضف إلى ذلك أن المفكرين أجمعوا
على أن أسمى أغراض الدين ، هو السمو بالإنسان عن حظيرة الحيوانية إلى أفق
التفكير ، وإعداده لأن يحيا حياة الفضيلة والاستقامة والتفوى ، ولا يتأتى
هذا إلا إذا كان الدين الذي يعمل به أقرب الأديان منالا ، قima لا عوج فيه ،
صالحا لكل زمان ومكان ، وإن لم يفتن لذلك بعض أهله . والقرآن هو
ضالة نبي البشر فهو : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾
فيه الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، والأخبار الصادقة ، والمواعظ

الرائقة ، والشرائع الراقية ، والآداب العالية ؛ بيان ساطع . وبرهان قاطع ؛
فهو مفتاح للنافع الدينية والدنيوية . مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية .
وهو آية الله الدائمة . وحجته القائمة . باق على وجه كل مكان وزمان . دائر من
بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان . وهو النور الإلهي في أفق الدنيا
حتى تزول وتفتي ، والمعنى القدسي في دولة الكون حتى تدول ويبقى .

الباب الثالث

الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي اقتضت

بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

جدير بنا أن نوجز القول في حال العالم قبل البعثة المحمدية وحال البلاد العربية وبخاصة مكة المكرمة ؛ لنبين الأسباب التي دعت إليها :

(١) حال الفرس

أنبأنا التاريخ أنه في سنة عشرين وستمائة للميلاد ، اشتعلت الحرب بين الرومان والفرس : لأن العداوة بينهما قديمة ، ترجع إلى ما قبل القرن الخامس قبل الإسلام . وأهم أسبابها تنازعهما سيادة العالم : لأنهما كانتا في تلك العصور أعظم دول الأرض شأنًا ، وأعزها سلطانًا ، فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الأخرى . وكان من عواقب حرب تلك السنة أن عاثت جنود الفرس في الأقطار الرومانية ، والإمبراطور هرقل معتزل في قصره ، منغمس في اللهو واللعب — غير أنه لما شاهد الخطر هب للدفاع عن كيانه دولته . ولما لم يكن عنده مال كاف للحرب ، اقترض أموال الكنائس ، على أن يردها وربحها بعد أن تضع الحرب أوزارها . وما زالت الحرب قائمة حتى دارت الدائرة على الفرس ، وتم النصر للرومان سنة ثنتين وعشرين وستمائة للميلاد . وفي سنة سبع وعشرين وستمائة ميلادية تجددت الحرب بين الدولتين ،

فانهزم الفرس مرة أخرى ، وبلغت جنود الرومان نينوى عاصمة الآشوريين قديما ، ثم ظهرت بوادر الانحلال السياسى على دولة الفرس : فأصبحت حكومتهم فوضى ، حتى ادعى ملكها فى خلال أربع سنين تسعة من ملوكهم . أضف إلى ذلك أن الحال الاجتماعية أخذت تضعف أيضا : فقد انشقت عصا الأئمة ، بما شاع فيها من تشعب المذاهب عن ماني ومزدك ، الذى ادعى أن الله بعثه ليأمر بإباحة النساء والأموال بين الناس ؛ لأنهم إخوة ، أولاد أب واحد . فنشأ عن ذلك كثير من فساد الأخلاق ، واتباعهم تدهور عام .

(ب) الرومان

أما الرومان فقد ضاع نفوذهم فى الأمم التى قهروها ، وقبض المتبربرون على كثير من المناصب الإدارية والجندية ، وصارت الثغور مهددة بالغارات عليها من كل جهة ، وأمعنت الحكومات المتعاقبة فى زيادة الضرائب ، سدا لحاجات الطبقات العالية ، ونفقات الحكام التى لإعهد لهم بها من قبل : فكان من ذلك أن الأقطار التى لهم السلطان عليها ، أخذت تشق عصا الطاعة ؛ لأنها لم تستطع احتمال مظالم الحكام ، وإرضاء جشعهم وشهواتهم .

حقا إن ملوكها من عهد دقلديانوس ، فكروا فى أن يدفعوا أسباب الانحلال بإيقاد العالم الرومانى : فبدأ دقلديانوس بإلغاء نفوذ البطارقة ، واستبدل به نظاما آخر شيئا به ، فلم يفلح . حتى جاء قسطنطين ، فسعى فى خضد شوكة طبقة الأشراف من الجنود ، واستعاض بوظائفهم وظائف مدنية ؛ فنجح إلى درجة محدودة . ولما بان له أن الإقامة فى رومة ليست بعد ممكنة للبلوك ؛ نقل مقر الدولة إلى القسطنطينية ، ليقطع كل صلة بينه وبين العادات القديمة ، ويترك الرومانيين ومعبوداتهم الكاذبة — : بيد أنه وهم أن اتخاذ النصرانية

أقوى سبب لنجاحه ، فإن له غير ذلك ؛ إذ تشعبت الاختلافات الدينية إلى شعاب لاعداد لها . وكل شعبة أخذت تدافع عن معتقداتها دفاع المستميت ، حتى عمت الفوضى الأمور الدينية ، كما استولت على المناصب الحكومية . أضف إلى ذلك أن الأشراف والبطارقة وجماعات المصارعين ، وغيرهم من أولى اللهو واللعب ، الذين اعتادوا سخاء الملوك وتبذيرهم في رومة ، رحلوا إلى القسطنطينية ؛ ليستمتعوا بما اعتادوه من قبل . وما لبثت هذه الطبقات أن انحطت درجاتها عما كانت عليه في الغرب ، وبقدر انحطاط درجاتهم الخلقية ازدادت قوتهم ووقاحتهم ، حتى إن السوق استطاعوا إعطاء الملك لمن يزيد لهم في العطاء .

ثم تلا ذلك النزاع بين الباباوات وبطارقة القسطنطينية الذين كانوا يحرم بعضهم بعضا ، فتضاعفت بذلك أسباب الانحلال في هذه الأمة المتداعية ، وانصرفوا عن مدافعة الأمم المتبربرة التي كانت تنقص الدولة من أطرافها . فمن ذلك أن الحكام كانوا يُعَنُون بتقريب أتباع رؤساء الكنائس ، أكثر مما كانوا يُعَنُون بمنازلة الفرس والبلغار في ميدان القتال .

ويضاف إلى ما تقدم : ما كان بين الرومان واليهود من التضاضن ، فقد بلغ غاية عظيمة في أيام هرقل : إذ ثار اليهود في أنطاكية فقتلوا بطريركها ، ومثلوا به شر تمثيل . وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين ، على أن يدخلوا مدينة صور ليلا ويقتلوا النصارى . ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية في الروم ، أنهم اشتروا من الفرس ثمانين ألفا من أسرى النصارى ، ثم ذبحوهم . وكانت حكومة النصارى إذا سنت قانونا خصصت بعض أحكامه باليهود لمعاملتهم بالاحتقار . وقررت المجالس المليية إلغاء الديانة اليهودية . وأمرت

الباب الثالث

٦٦

الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال بأعيادهم ، وأجبرتهم على النصرانية ، وضيق عليهم شر تضيق ، حتى اضطروا إلى التظاهر بالنصرانية .

أعرض الناس عن الفضائل الاجتماعية والخلقية ، وارتفع شأن الذين يعملون السيئات ، فقبّوا عرش القياصرة ، وقاسموا الرأطرة فخار الملك والحكم . وكان من ذلك أن ثيودرة التي أصبح اسمها مضغة في الآفواه ، صارت ملكة يجثولها القضاء والكهنة والقواد ، على الرغم مما أته من الأعمال المنافية للدين والأخلاق . وكان من ذلك أن ساد القلق ، وانتشرت الفوضى ، وديست القوانين السماوية والوضعية ، واتهكت حرمان الأما كن المقدسة .

(ج) الهند

وأما في الهند فقد انتشر مذهب إباحت النساء بوساطة دعاة أقوياء . وقد بلغ من الفحش أن الكاهن الهندي كان يحظى بالعروس في جلّوتها الأولى : لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة ، وكانت الأناشيد التي تنوّ بالمنكرات والقبائح تلقى في الاحتفالات العامة ، فتمتد مستمعها من الغواية بأسباب ، وتفتح لهم من الآثام كل باب .

(د) حال البلاد العربية

كان العرب قبل البعثة المحمدية قد وقعت بينهم الفرقة ، وانتزعت الألفة ، واختلفت كلمتهم ، وذهبت وحدتهم ، واضطربت احوالهم ؛ فكانوا إخوان دبرٍ ووبرٍ ، أذل الأمم دارا ، وأجدها قرارا ، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ، ولا إلى ظل ألفة يضويهم لواؤها ، فاحوالهم مضطربة ، وأيديهم متفرقة . وكانوا من جراء ذلك في بلاء عظيم ، من جهالات مطبقة ،

وشرور موبقة ، وبنات موعودة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة ، وغارات مشنونة .

فقد تردوا قبل البعثة المحمدية في هاوية الانحلال الاجتماعي ، بما لم يعهد له مثل في تاريخ الأمم ؛ فكانوا في جهل بأحكام الدين الصحيح ، ومبادئ السياسة والحياة الاجتماعية ، ولم يكن لهم فن يذكر ، أو صناعة تنشر ، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية ؛ بل كانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها ، تتحفز لشن الغارة على جارتها .

تفشى العرب كثير من العادات المنكرة : كشرب الخمر ، والميسر ، ورؤد البنات ، والسلب والنهب . وكثيرا ما كانت الكلمة الواحدة تفضي إلى القتل ، حتى بلغت روح الانتقام درجة مروعة ، كان من مظاهرها أن النساء لم يرضهن سوى صبغ ملابسهن بدم القتل ، وأكل قلبه وكبدته هذا إلى أن منهم من تأول الإله ببعض الحيوان لكثرة نفعه ، أو شدة ضرره ، ومنهم من تمثله في الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حسبه في الأشجار والأحجار لاعتبارات لهم فيها .

وجملة القول أنهم وصلوا إلى حال لا يستحقون فيها اسم الجماعة : فقد أمعنوا في القسوة والمنكرات ، ولم يتذرعوا بعلم ، أو يعتصموا بقانون . وانحط الضمير الإنساني فيهم إلى أسفل درجاته ، حتى بدلوا بالفضيلة الرذيلة ، ونقوها بأصحابها .

(هـ) حال مكة قبل البعثة المحمدية

وكانت مكة قبل القرن الخامس للميلاد محطا صغيرا ، تتر به القوافل في

الباب الثالث

٦٨

طريقها من جنوب الجزيرة : تحمل بضائع الهند إلى سورية وفلسطين ومصر ، ثم أصبحت في أواخر القرن السادس مدينة كثيرة التجارة ، بفضل الأسواق التي أقيمت فيها . وكان العرب يقصدونها من أطراف الجزيرة وسورية والعراق وغيرها للتجارة ، ولزيارة الكعبة وإقامة شعائر الحج . وكان في مكة قبة منها سَدَنَةُ الكعبة ، وأهل الندوة ، يستفيدون مالا من ورود الحجاج ، وإقامة الأسواق ، ويستمدون نفوذا في نفوس العرب ، وقوة في سيادتهم المعنوية . ضرى أهل مكة بجمع المال وشميره بضروب الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، وظل فيهم حب جمع المال متزايدا حتى حين الإسلام : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ .

ولا عجب أن أولع أهل مكة بالتجارة وشمير أموالهم بشتى الطرق : لأن مكة كانت — كما وصفها القرآن الكريم — : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادِ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ — غير صالحة للزراعة والصناعة ، فأكب أهلها على كسب عيشهم من المضاربة بالأموال ، والتهالك على إيمانائهما .

وقد بلغ من حرصهم على راحة الحجاج ، ورواد الأسواق ، أنهم كانوا يحتاطون لآمرهم ، فيعتون بضائعهم قبل حلول أشهر الحج ، وافتتاح سوق عكاظ ، ويقومون برحلتين : رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، إلى سورية وفلسطين وجنوبي بلاد العرب ، ليتاعوا من هذه البلاد ما تدعو إليه الحاجة من البضائع ، وليبيعوا ثمار بلادهم فيها .

كانت رهوس أموالهم مجموعة من أكثر سكان مكة والطائف ، على شروط معينة تكفل الربح لأصحابها ولأصحاب القوافل ، ولذلك كانوا جميعا يعنون بالقوافل السنوية ، ويسألون عنها الرائح والغادى ، لأنهم كانوا يخشون سطو

شُذَّاذ الطرق وقُطَّاعها، الذين ظلوا أزمانا يعيشون في الصحراء فسادا، ولا يألون الحياة فيها لإفسادها، ويعيشون من السلب والنهب. فساكل قافلة كانت تبلغ قصدها، ولا كل مكي كان يقدم على جمعها وقيادتها، بل كانت القيادة محصورة في أناس عرفوا بثبات الجأش، ومضاء العزيمة، وحسن السياسة، والتوفيق بين مصالح أغنياء مكة، وجشع رؤساء القبائل، الذين كانت تحتجاز القوافل أرضهم؛ فكانوا يستميلونهم طورا بالمال، وطورا بالمصاهرة، وطورا بالإرهاب. ومن أجل ذلك ظل أصحاب القوافل وأغنياء مكة، يزيدون حراسها سنة فسنة، حتى ألفوا منهم جيشا منظما، يقوم بنفقاته تجار مكة من ربحهم الوفير ويستفاد مما تقدم أن المال كان موفورا في مكة والطائف، وكان أصحابه كثيرين، فصحب ذلك وجود فئة المُرَّيين من اليهود وغيرهم الذين انصرفوا إلى الربا، حتى أصبح مصدرا آخر لثروتهم، وإعلاء كلمتهم. وكان ذلك أحد أسباب سخط الناس عليهم: فقد بلغ في مكة درجة مروعة، إذ انتقل من أربعين في المائة إلى مائة في المائة.

وبلغ عدد المربين مبلغا عظيما، واستفحل ضررهم على المجتمع، والويل لمن سقط في شبا كههم، واضطرته الظروف إلى الالتجاء إليهم: لأنهم على كثرتهم لم يتكونوا يفقهون للرحمة معنى، ولا يرون فرقا بين التجارة والربا. بل: ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وبلغ من نهمهم وتهاقمتهم على جمع المال بأى وسيلة، أنهم كانوا كما وصفهم القرآن: ﴿إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

كانوا يضاربون بالدرهم والدنانير: فتارة يزيدون في وزنها أو قيمتها، وطورا ينقصون؛ تبعا لمصالحهم الشخصية، وجريا وراء جشعهم الممقوت.

وكانوا يتلاعبون بالديون : بأن يؤخروا آجالها ، أو يقدموها ، أو يضيفوا إليها ، إلى غير ذلك من الأعمال التي كانت تفضى إلى خراب المدين واستعباده ، ولذلك قال لهم القرآن الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيهِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقٌ بِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ .

وبلغ من قسوة هذه الطائفة الطاغية ، أنهم حملوا المدينين على إكراه بناتهم ونسائهم على البغاء : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتُهُنَّ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۝ : للوفاء بما على آبائهن أو بعولتهن من الدين الذي كان يتعذر أدائه لزيادته يوما فيوما ، بما يضاف إليه من الربا الفاحش ، مما

دعا كثيراً من المدينين إلى الفرار في الصحراء ، واللاحق بطبقة الشُّرْد وقطاع الطريق ، أو الدخول في حظيرة الأرقاء .

أصبح المُرَبون لاهمَّ لهم إلا تكثير أموالهم . فتمت في قلوبهم الآثرة والاختصاص بما في يد المعوزين ، وحبب إليهم أن يجوع الناس ليشبعوا ، وأن يشقى غيرهم ليسعدوا ، ويتعب ليرتاحوا .

اعتمد هؤلاء القساة على الربا ، فاقتصوا به أموال الفقراء الذين يسعون ويكدون ، وهم قاعدون ، فضعفت فيهم ملكة النشاط وحب العمل ، وأصبحوا في جسم المجتمع العربي كالنبات أو الحيوان الطفيلي يتغذى من دم غيره . وبذلك امتلأت صدور الفقراء عليهم حقدا وضغينة ، لأنهم أصبحوا في أيديهم عبيدا أذلاء . فقد ضاع هؤلاء الفقراء ، حتى لا يعرف أحد منهم له محلا ، ولا يرى لشخصه ظلا .

كان من ذلك أن نضبت الخيرات ، ومُنعت الصدقات ، وهُضمت حقوق الفقراء ، وأكلت أموال الناس بالباطل ، وفشا الظلم ، واختفت المحاسنة ، وغاض معين الشفقة والرحمة ، وأغفلت حقوق الجوار ، وفصمت رابطة الإخاء الإنساني . حتى لا يقبل المقبل منهم إلا على مدبر ، ولا يدبر إلا عن مقبل وكان اليهود أيضا — وقد نُهوا عن الربا — لا يألون جهدا في الكسب بوساطته . عامدين إلى ضروب الحيل الشيطانية ، يعملونها للخروج عن الوقوع في الظاهر تحت أحكام التوراة ، كأن يقولوا : — كما حكى القرآن الكريم — ليس علينا في الأيمن سليل ، وكما قالوا : لا تقرض أحاك بربا ، أما الأجنبي فأقرضه بربا . وبذلك أكلوا السحت المنهى عنه تحت ستار الحيلة : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ .

ومن بعد اليهود ظلت النصرانية مقاومة للربا مدة طويلة ، بوساطة القسيسين وحفظة الدين ، يوم كان الربا عندهم يجعل المدين عبدا مملوكا للدائن ، يستخدمه في مزرعته ، ويستعمله كما يستعمل الحيوان لمنفعته ، دون أن يعطيه حقا من الحقوق .

وقصارى القول أن المعاملات في البلاد العربية وغيرها ، قد أصبحت قبل البعثة المحمدية مقتلة للفقراء ، مزرعة للأحقاد ، داعية إلى انتشار أنواع الفساد ، مؤدية إلى حصر الثروة في طبقة من الناس ، ترى نفسها القابضة على زمام العالم ، المحركة لفلكه ، وترى لنفسها الرياسة التامة ، والسيادة العاتقة ، وإن لم يكن لأفرادها حظ من العلم ، والعمل ، والحكمة ، وبعد النظر .

بلى ، قد داخلهم الغرور : فتخلوا عن الزراعة والصناعة وأنواع التجارة ؛ اتكالا على ربح أموالهم ، وربا ديونهم

استأثروا بالتشريع على حسب هواهم : فما فرضوا للمعوزين قانونا يحميهم ، ولا سنوا شريعة تعطف عليهم ، وتنشلهم من هاوية الموت الاجتماعي ، والرق الأبدي ؛ بل ظل هؤلاء الفقراء يعملون ليل نهار ، مستولين أمام هؤلاء القساة أن يحملوا ما لا طاقة لهم بحمله . وبذلك انحطت نفوسهم ، ونزعوا إلى منازع الفوضى وضروب الفساد ، وأحسوا شديد الحاجة إلى من يصلح حالهم المادية والأدبية ؛ فأخذ شعراؤهم — وهم لسانهم الناطق — يشيرون إلى مافيه هذه الفتنة من البؤس والشقاء ، ويُنحون باللائمة على أصحاب الثروة ، ويدعون إلى الرفق بالمعوزين ، ويذكرون بالواجب نحو الأرقاء والمظلومين .

قال بشر ابن المغيرة يستحث الأغنياء :

وكلهم قد نال شبعاً لبطنه • وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

وقال الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم * وجاراتكم غرثي يبتن خمائصا
ييد أن هذه الصرخات الفليلة ، كانت ذات أثر ضعيف في نفوسهم القاسية :
لأنها لم تستطع استئصال المرض الذي كان ينخر عظام المجتمع في مكة والبلاد
العربية وغيرها .

من أجل ذلك أصبح حتما من الحتم مقاومة هذه الأمراض العاتقة بدواء
أنجع ، ووسائل أقوى ، على يد من هو أشد ثباتا ، وأمضى عزيمة من
شعراء البادية .

فإن كان هناك زمن استدعى بعث رسول فقد كان ذلك الوقت . ولا غرابة ،
فقد جرت سنة الله في الكائنات أن يأتي بالنور بعد الظلمة ، وبالمطر بعد الجحش ؛
وجرت سنة الله أيضا أن يبعث رسولا متى وصل الانحطاط البشري إلى
غايته ، رحمة بعباده ، ورأفة بخلقه .

وقد امتازت الفترة السابقة لظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن العالم جميعه
قد غشيته سحابة كثيفة ، من الشرك ، والجهل ، والريذة ، والظلم ؛ فحل المنكر
محل المعروف ، وقبض أهل السوء على ناصية الأمم . وبهذا تجلت الضرورة
القاهرة إلى ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي قام بأعظم إصلاح للمجتمع
اضطلع به إنسان قبله أو بعده : مما دل على أنه أوتي من بعد النظر ، ونفاذ
الرأى ، وحسن السياسة ، والعلم بطبائع الخلق ، مالم يؤتته مصلح آخر . هذا
إلى استعداده لبذل مصالحه الشخصية ، ونفسه العزيزة ، في سبيل تحقيق
الأغراض السامية ، التي لم يرض التخلي عنها بوعده أو وعيد .

ندبه الله لحل هذا العبء الجسيم ، عبه هداية الإنسانية ، فلبى راضيا مغتبطا ،

عارفاً بالبيئة التي ولد وعاش فيها: فقد أنشأه الله يتيماً فقيراً، يكسب قوته بكده يمينه، وعرق جبينه. واشتغل بالتجارة، وسافر غير مرة، وخالط الناس، ووقف على أعمالهم: يفكر في أسباب شتاء المعوزين منهم، والطرق التي تخفف من نكبات الفقر، وأثقال الظلم؛ فكانت هذه الأسفار، وهذا الاختلاط بالناس، والإصغاء إلى أحاديثهم، إعداداً لتلقي الأمر الإلهي.

قضى زمناً في التحنن والتفكير، ثم أطلعه الله على أسرار الكون: فأدرك معنى الحياة، وأسباب السعادة والشقاء، فواسعه إلا أن يؤذّن في قومه، ولا سلاح له إلا الإخلاص في النية، والاعتماد المطلق على الله الذي وجده يتيماً فأواه، وضالاً فهداه، وعائلاً فأغناه. وقد أصبح بجده وأمانته وحسن سيرته، محبوباً محترماً، ملماً بشؤون الدنيا، مدركاً أسباب أمراض المجتمع. رزقه الله الإخلاص الظاهر، فاستمد منه قوى متجددة استعان بها على مكافحة خصومه، والتغلب على تلك العراقيل التي كانت تعوقه. وقد ضاعف الله منته على رسوله بشرح صدره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

لا جرم أنه شاهد بنفسه — أيام اشتغاله بالتجارة — ما كان يقع أمامه من الكذب، والغش في التجارة، والإفلاس الكاذب؛ وأكل أموال الناس، والتطفيف في الكيل والوزن، وترف المثرين وسرفهم. وبهذا وأمثاله أعتده الله لمحاربة أمراض المجتمع واستئصالها. وما رمى إلى أغراض اشتراكية أو شيوعية، بل وقف في جانب الفقراء والمظلومين وقفة مغامر في الحياة، ودافع جهاراً عن مصالحهم الحيوية، غير مبال عواقب عمله.

كان سلاحه صلى الله عليه وسلم كلمة الإخلاص يدعو بها ويحذر، ويستعطف ثم يوعده ويهتد، لا يخاف في الحق لومة لائم. فهذا عمه أبو لهب الذي برز لمناوأته،

وراح يفسد عليه عمله، ويؤلب الناس عليه، فإنه بلسان القرآن لعنه، ولعن امرأته: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾. لم يخش سادة مكة وأغنياءها، بل قذفهم في وجوههم بالجشع والتهافت على حطام الدنيا، والتكالب على جمع المال بمختلف الوسائل.

لما شاهد الناس كيف يصول على أغنياء مكة وسرّاتها، ويحذب على الفقراء، ويقزر لهم حقوقاً لا تضير غيرهم؛ امتلأت القلوب حباً لهذا النبي الكريم، وإخلاصاً له، ورضا عن دعوته؛ فأخذوا يدخلون في دين الله أفواجا.

كان من حكمة الله ورحمته بالعالمين، أن حمل على الربا حملة شعواء، فقال في كتابه الكريم: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا. فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَاتَّقِ اللَّهَ. فَمَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا، وَيُرِي الصَّدَقَاتِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ، وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ. وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ

وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

جعل الله سبحانه وتعالى عقوبة الربا في هذه الآيات خمسا: التخبط، والمحق، والحرب، والكفر، والخلود في النار. وقضى بها على ماجره الربا من التقاطع والتدابير، وأحل محله الزكاة، وأمر بالصدقة، وأوجب على الأغنياء حقا معلوما في أموالهم للفقراء، وأمر الدائن بإنظار مدينه المعسر إلى ميسرة، وحثه على التصديق عليه بترك ما تسمع به نفسه من دينه.

وكان من حكمة الله أن رغب في الصدقات والإحسان إلى الفقراء: فأُنزل في ذلك أربع عشرة آية، كلها حكمة وهداية وإرشاد؛ إذ يقول جلّت حكمته: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ. وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَقْبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أَنْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ بَرِيَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْطَاهَا ضَعِيفِينَ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. أَيُّدُكُمْ أَحَدُكُمْ

أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَهُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُوتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفُسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿

مما تقدم يتبين معنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

أَيْدَى النَّاسِ لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا ﴿١﴾ . فقد عم الفساد أقطار الأرض ، كما أفادنا التاريخ فيما تقدم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسرى الموت بجميع ضروبه ، من عقلى وخلقى وروحى فيها ، وأسدت الظلمات أستارها ؛ فعميت البصائر ، وضلت الأعمال . وقد قال الأستاذ موير فى كتابه «ترجمة محمد، عليه الصلاة والسلام: «إن النصرانية فى القرن السابع لليلاد ، قد أصبحت فاسدة مشوهة ، وقال جييون : «إن النصرانية فى القرن السابع لليلاد ، قد استحالت وثنية ، فقد أصبحت الوجوه تولى شطر الأصنام والأنصاب التى حلت محل الهياكل والمعابد ، وأخذ مكان عرش الله وعظمته الشهداء والقديسون ، ونسب الضالون المضلون صفات الله إلى السيد المسيح عليه السلام ، وأمه البتول ، وحارت الأفهام فى معنى التثليث ، والاتحاد ، والحلول ، وعموا عن التوحيد .

اضطربت الأحوال الاجتماعية والخلقية فى العالم اضطرابا لم يعهدله مثيل ، إذ أن أهل الأديان لم يقتصروا على مجانبتهم الفضيلة ، بل انقلبت الرذيلة فضيلة أقبل عليها الناس تقربا إلى الله . تنزه سبحانه عما كانوا يفعلون .

انحطت جميع الأمم إلى مهاوى الرذيلة ، وآتى أهل الأديان فيها من أنواع المنكرات ما يندى له الجبين . حقا إن الله قد أرسل كثيرا من الرسل قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، وإن ظهورهم كان حاجة ماسة — غير أن العصور التى بعثوا فيها واحدا بعد الآخر ، لم تبلغ من الظلمة ما بلغه العصر الذى أرسل فيه النبي العربى . وكلهم قد لاقى شدائد وأهوالا — بيد أن محمدا قد لقى من صنوف الإيذاء والشدائد ما لم يلقه أحد من إخوانه ، واضطلع بأعظم الأعباء ، واحتمل أكبر التبعات : ذلك بأن موسى عليه السلام ، قد أرسل لتحرير

بنى إسرائيل . وجلى أن المصريين في عهده كانوا أولى ثقافة وحضارة : لهم في العلوم والفنون قدم راسخة ، ولهم من الأخلاق نصيب كبير ؛ ومنهم طائفة تلبسوا الوقوف على أسرار الكائنات ، واشتغلوا بضروب السحر والغيبيات وبزوافيها . وكذلك لما ظهر المسيح عليه السلام ، كانت الحضارة الرومانية بين الأمم كالحضارة الغربية الآن ، وكانوا على جانب عظيم من التقدم في صناعة الطب . نعم كان الرومان وثنيين ، وقوم عيسى موحدين فنيا فيهم النفاق والانغماس في الرذائل ، ووقفوا عند صور العبادات : فكانت رسالة المسيح عليه السلام ، لإصلاح ما تأصل في النفوس من ضروب الرذائل . واتباع ما جاء به الرسل من قبله . فإذا كانت هذه الأسباب اقتضت ظهور موسى وعيسى عليهما السلام ؛ فحال القرن السادس لليلاد ، كانت توجب ظهور كثير من الأنبياء في الأقطار المختلفة ؛ أو ظهور رسول واحد تنظم عزمته عزماهم ، وتجمع معجزته أكثر من معجزاتهم ، ليقم دين الله في الأرض ، ويثبت دعائمه ؛ لأن الشرائع الإلهية في أطراف الأرض قد أغفلت ؛ وحدودها قد خولفت ، وانحدر المستوى الخاطئ للعالم في ذلك العصر إلى حال تنذر بشر مستطير ؛ كما ألمعنا إلى ذلك . وكانت الحال الروحية والدينية مخبوءة في أطمار الظلمات . فقد جاءت النصرانية — كما تقدم — لهدم الوثنية ومحوها ، فما لبثت أن ذهبت فريسة لها ، فكثرت في أيامها ألوان من الآراء الفلسفية الفاسدة ؛ طمت على الكتب المنزلة في الشرق ؛ ونشأ عن ذلك أن الشعوب التي كانت تقطن البقاع الوسطى والشرقية من آسيا ؛ والقبائل التي كانت تسكن المكشوف من شمال أوربة : قد تمسكت بأهداب ضروب من الوثنية المزدولة ، وكذلك — كما دل الكشف الجغرافي فيما بعد — البلاد التي لم تكن معروفة وقتئذ . هذا إلى أن كثيراً من

القبائل اليهودية ، لم تنج من عدوى الوثنية .

أما وقد أصاب الكتب السماوية ما أصابها من التحريف والتبديل ؛ وحجبت كلمات الله عن العقول البشرية ، فمن رحمة الله بعباده ألا يدعهم يخطئون في ديجور الضلالة ، ويتيهون في بيداء الرذيلة والجهالة ، وأن يجتد لهم وحيه ، ويعيد لكلماته صفاءها وجمالها . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾

المنطق السليم ظاهر في هذه الآية ؛ لأنها تنقص علينا أن السنة الإلهية العادلة ، قضت بأن الله يوالى على خلقه - زمن بعد آخر - نوره وهدايته : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ولذلك أنزل كتبه على أمم مختلفة ، فاتبعوا الهداية زمنًا ثم فسقوا عنها . فذب بينهم ديبب الخلاف في العقائد ، والأحكام ، وصور العبادات . فكان لا بد أن يرسل إلى كل أمة رسولاً ؛ ليفصل فيما بينها من الخلاف ، أو يرسل رسولاً واحداً لجميع الأمم يتولى الفصل بينهم ؛ لأنهم ضلوا عن الحق ، وحادوا عن الصراط السوى . وجاء في القرآن الكريم أيضاً : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ والآية الكريمة ناطقة بأمرين : الأول أن الشيطان زين لهم أعمالهم . والثاني أن ما جاء به الرسل السابقون قد تفرق كل التفرق ، واختلف فيه كبير اختلاف . ولا أدل على أن الشيطان هو الذي زين لهم أعمالهم ، مما كان مستفيضاً عندهم من

٨١ أسباب الاجتماعية والاقتصادية التي اقتضت بعثه

قولهم : جدير بنا أن نفعل الشر لنصل إلى الخير .
ولقد دلّ تاريخ الأديان على أن الله بعث في كل زمن رسولا ، حتى إذا عبثت يد الإنسان بما جاء به قفى عليه برسول آخر ، لأن الدين الذي دخل فيه التحريف بالزيادة أو النقص ، غير صالح لسد حاجات البشر على اختلاف الأزمان ، بل الذي يصلح لهم — وإن توالى الأجيال — هو الدين السماوي المحض : ذلك بأن الدين من صنع الله ، وكل شيء من صنع الله في هذا الكون — على تقادم عهده — جديد طريف . فهذه البحار ، وهذه الشمس ، وهذا القمر وهذه النجوم ، والرياح ، كل أولئك قد تقادم عهده ، ولا تزال وافية بحاجات الإنسان والحيوان والنبات . وعلى هذا القياس الدين ، فإنه لما كان من عند الله كان شاملا لما يحتاج إليه الخلق على اختلاف الدهور والامكنة ، ولا يقبل تبديلا ولا تنقيحا ، ولا يستطيع إنسان مهما يبلغ من الفكر والعلم أن يعيده سيرته الأولى ، إن مسّه التحريف ، وإليك البرهان :

لا يستطيع البناء إنشاء منزل يُركن إليه من أنقاض منزل تهدم . وإن فعل فبناؤه واه لا يلبث أن يتداعى . فإذا تعذر على الإنسان أن يعيد بناء إنسان آخر إلى ما كان عليه من المثانة والجمال ؛ فأحر به أن يعجز عن بناء للإله قد تداعى وتهدم .

ترى الفاكهة تنضج ، ثم تعفن فتتفرق أجزاؤها . ثم تعود إلى حالها قبل التكوين ، ثم يحيلها الله مادة أخرى ، أو يعيدها سيرتها الأولى : ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وليس في مقدور الإنسان أن يعيد ثمرة من ثمار الفاكهة إلى ما كانت عليه قبل تفرق أجزائها . فإذا كان الإنسان يعجز عن أن يعيد كائنا بعد تفرقه وتشتته ؛ فهو أعجز عن إعادة وحى الله إلى ما كان عليه ،

إذا طرأ عليه الفساد والتغير .

أما وقد بان أن الإنسان لا يستطيع أن يعيد بناء منزل تهتم بأنقاضه ، ولا يستطيع أن يعيد ثمرة من الفاكهة بعد تفرق أجزائها ؛ فهو لا يستطيع أن يعيد ديناً قد وهت قواعده ، وتمزقت أوصاله ، وتفرقت كلبة أهله ، وطغى عليهم سيل الوثنية ، وانحطت درجتهم الخلقية والعقلية ، فأقبلوا على عبادة الأحجار والأشجار ، والرياح والأنهار ، والسحاب والشمس والقمر : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقفوا عند ذلك ، بل عبدوا شهواتهم وأهواءهم بأسماء مختلفة ، وارتكبوا في بيوت العبادة ألوان الفحش والمنكر .

بلغ من الفساد في القرن السادس لليلاد ، أن أصبح لرؤساء الدين على الناس سلطان في عقائدهم ، وما تكنه ضمائرهم : فلو قال الرئيس الكهنوتي لشخص : إنه ليس بمسيحي ، صار كذلك ، ولو قال له : إنه مسيحي ، فاز بها . فلم يكن أحد حراً في معتقده ، يتصرف في معارفه كما يرشده العقل السليم ، بل عين قلبه مشدودة بشفتي رئيسه

حببوا إلى الناس التجرد من الدنيا ، والابتعاد عن كسبها ؛ فقد جاء في إنجيل متا : (لا تقدر أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون . الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات) .

أفهمهم أن من الدين ما يجب الإيمان به ولو ناقض العقل . قال القديس أنسيلم : يجب أن تعتقد أولاً ما يعرض على قلبك بدون نظر ؛ ثم اجتهد في فهم ما اعتقدت

صرفوا الناس عن الاشتغال بالشئون الكونية . فإذا نزع العقول إلى علم شيء من العالم ، حال بينها رؤساء الدين ؛ خوفا من الزيغ عن الإيمان السليم في رأيهم ؛ حتى وقر في نفوس الناس أن السلامة في ترك الفكر والاختذ بالتسليم ؛ وتقررت عندهم قاعدة : « إن الجهالة أتم التقوى » .

حورب العلم : فأحرقت كتب البطالسة والمصريين بالإسكندرية على عهد جول قيصر ؛ واتحل تيوفيل بطريك الإسكندرية أوهى الأسباب لإحداث ثورة في المدينة ، تذرّع بها إلى إتلاف ما بقي في مكتبة البطالسة ؛ بعضه بالإحراق ، وبعضه بالتبديد .

وجعل بعض رؤساء الدين في القرن السادس لأنفسهم سلطانا إلهيا « تيوكراتيت » ، وأفهموا العامة أن الواحد منهم يتلقى الشريعة عن الله ، وله حق الأثرة بالتشريع ، وله في رقاب الناس حق الطاعة — لا بالينة وما تقتضيه من العدل وحماية البيضة — بل بمقتضى الإيمان . فليس للؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه ، وإن اعتقد أنه عدو لله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على ما يعرفه من شرائع ، لأن عمل صاحب السلطان الديني وقوله — في أي مظهر ظهرا — هما دين وشرع .

مما تقدم يتبين أن حال العالم أجمع شملها الفساد :

(١) لأن الفرس والروم كانوا في حروب مستمرة ، ذهب بقوة الغالب منهما والمغلوب

(٢) والناس قد فسدت عقائدهم ، وجهلوا أمور دنياهم

(٣) ورؤساء الأديان أطلقوا أيديهم فيها ، بما يوافق أهواءهم من المحو والإثبات .

(٤) والشقاق حل بين الأفراد والجماعات محل الآلفة والوثام
(٥) والعقول وقفت عن التفكير ، فانصرف الناس عن النظر فيما خلق
الله ، والانتفاع بما بين أيديهم ، لأن القائمين بأمر الدين لم يحلوا لهم ذلك .
(٦) وأصحاب الأموال من اليهود وغيرهم ، استعبدوا الفقراء بالربا
الفاحش وبما استحلوه لأنفسهم ، من تطفيف الكيل والميزان .
وتلك حال :

(١) كانت تستدعى صيحة من الحق في منتهى القوة لإزعاج الغافلين ،
وتنبيه الرؤساء الظالمين ، إلى ما هم عليه من العسف والجور : فقد ظهر أن دولة
الفرس في الشرق ، ودولة الرومان في الغرب ، قبيل ظهور الإسلام ، كانتا
في تنازع وتجادل مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة . وحرّم
مهتوك . وبلغ السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان في الترف
والإسراف والعجب حدا لا مزيد عليه ؛ فوق ما أثقلوا به كواهل الرعية من
الضرائب والإتاوات ؛ وغيرهما من المطالب المتجددة المتعددة ، وسلطوا بذلك
الأقوياء على الضعفاء ، فاخطفوا ما في أيديهم ، وسخروهم في أغراضهم ؛ فاستولت
عليهم ضروب من المحن والفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب ؛
لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

(٢) من أجل ذلك كان من الرحمة بالإنسانية أن بعث الله محمدا صلى الله
عليه وسلم ، فأقام التوحيد في الأرض ، وأسس على أسس متينة ، بعثه لإصلاح
العقائد التي فسدت ، فبين أن المسيح روح الله وكتبته ورسوله إلى بني إسرائيل ،
يُبعث مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم
ورشاد في شئون معاشهم ومعادهم ؛ ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التي

منحهم الله تعالى إياها ، بل أطلق عقولهم من عقالها ، وحزّر أيديهم وأعناقهم من أغلالها ، وطالبهم بشكر الله تعالى عليها ، ولا يُشْكِرُ حَقَّ الشكر إلا باستعمالها جميعا فيما أعدها الله له ، وأن العقل من أجل القوى ، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها ، والكون صحيفته التي ينظر فيها ، وكتابه الذي يتلوه . وكل ما يقرأ فيه فهو هدايته إلى الله ، وسبيل الوصول إليه .

جاء محمد عليه الصلاة والسلام ليعلن أن الدين دين الله ، وهو دين واحد في الأولين والآخرين ، لا تختلف إلا صوره ومظاهره ، وأما روحه وحقيقته مما طوّل به العالمون على ألسن الأنبياء والمرسلين ؛ فهو لا يتغير : إيمان بالله وحده ، وإخلاص له في العبادة ، ومعاونة الناس بعضهم بعضا في الخير ، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا .

جاء ليطلق العقل البشري من أغلاله ، فيجري في سبيله التي سنّاه الفطرة بدون تقييد ، فنبه إلى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وما كان عليه الأمر في أول خلق السموات والأرض ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ . ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ، وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات البينات .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بصفة بشرية ؛ يطالب الناس بالإيمان بالله وحده ، غير معتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الإنساني ، فلم يدهش

قومه بخوارق العادات ، ولا غشى أبصارهم بأطوار غير مألوفة ، ولا أخرس ألسنتهم بقارعة سماوية . حقا جاءهم بالقرآن ، وهو معجزة عظمية تدل على أن موحيه هو الله وحده ؛ وليس من اختراع البشر ، وكان الدليل على ذلك أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتابة ، ولم يمارس العلوم ، وهو على ذلك كافل بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم ؛ منقذ لها من خسران كانوا فيه وهلاك أشرفوا عليه . دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطالبهم بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما انتهى إليه قوتهم : فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه ، أو كونه لا يصلح دليلا على النبوة والرسالة ، فعليهم الإتيان بمثله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ . ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴿ فهو معجزة عرضت على العقل ، وأطلقت له حق النظر في أحثائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها ، وهو معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ، ودعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم لتوجيه الأنظار إلى العبرة بسنة الله ، فيمن غبر ومن حضر من البشر ، وفي آثار سيرهم فيهم : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ . ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ . ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

(٣) جاء محمد عليه الصلاة والسلام لهدم سلطان الرؤساء الذين خنقوا الحرية والفكر: فلم يدع لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه، ولم يجعل لأحد من أهل الدين أن يحل ولا أن يربط لافي الأرض ولا في السماء، ورفع كل رق إلا العبودية لله وحده، ولم يجعل لمسلم على آخر مهما انحطت منزلته إلا حق النصيحة والإرشاد: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. وقرر أيضا أن ليس هناك سلطان ديني سوى سلطان الموعدة الحسنة؛ والندعوة إلى الخير، والتنفير من الشر؛ وهو سلطان خوله الله أدنى المسلمين، يقرع به أنف أعلامهم، كما خوله أعلامهم يتناول به أديانهم. وقرر أيضا أن الناس إنما يتفاضلون بصفاء العقل، وقوة الإصالة في الحكم. وأن الرئيس مطاع مادام على المحجة، ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد. فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، وإذا اعوج قومه بالنصيحة والإعذار إليه. وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وأنه متى خالف الكتاب والسنة في عمله، وجب استبدال غيره به، مالم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه.

(٤) بين محمد صلى الله عليه وسلم للأمم ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعت فيه مصالحهم ولذاتهم، وكشف لهم سر المحبة، واسترعى نظرهم إلى ما فيها من انتظام شمل الجماعة، وأوضح لهم مزايا أن قويمهم يعين ضعيفهم، وغنيهم يمد فقيرهم، وراشدهم يهدي ضالهم، وعالمهم يعلم جاهلهم. اطمأنت النفوس بما جاء به، وثلجت الصدور، واعتصم المرزوء بالصبر

انتظارا لجزيل الأجر ، أو إرضاء لمن يده الأمر . فحلَّ بهذا أعظم مشكل في المجتمع الإنساني ، لا يزال المفكرون يجهدون أنفسهم في حله إلى اليوم . (٥) وجاء بدين أزال الحواجز التي أقامها رؤساء الأديان السابقون ؛ ليحولوا بين الناس وما ميزها الله به ، من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة ؛ ثم حثها على طلب العرفان ، وطالبها باحترام البرهان ، وفرض عليها أن تضاعف الجهد في استكناه ما في العوالم من سنن وأسرار .

(٦) وأوضح للناس سبيل المعاملة الحسنة ، وأبان لهم طرق الخير ، بصرف همتهم إلى العمل النافع ، وحال بينهم وبين ما كانوا يفعلون : من تطفيف الكيل والميزان ، وابتزاز الأموال بالربا الفاحش . وبين لهم أمثل طرق التدان ، وحبب إليهم البر والصدقات ، وكشف لهم عن جليل نفعها ، وعظيم أثرها . وحسبك ما تقدم من الآيات الكريمة في ذلك .

لا جرم أن حضارة هذا العصر ، صائرة إلى ما صارت إليه الحضارات الغابرة ، وحيث يتلص أهلها نورا يخرجون به من حيرتهم وظلمتهم ، فلا يجدون سوى دين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أجل ذلك وجب على المسلمين أن يوالوا خدمة هذا الدين : بتجريدته مما دخل فيه باسم الدين وهو براء منه ؛ وبالعكوف على دراسة العلوم الكونية دراسة تعلى دين الإسلام وأهله ، وتجعل فيهم الإمامة والوراثة جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

الباب الرابع

مراحل حصول النبوة واستقرارها

أما مراحل حصولها فهي مايلي :

(١) قضت سنة الله في خلقه أن يجعل لكل مقدور من عظام الأمور إذا قرب نذيرا وبشيرا : إيقاظا للعقول ، وازدجارا للجهول ؛ وإعداد النفوس لأمر إن فوجئت بها لم تستطع دفع خطبها ، ولم تقدر على تذليل صعبها ، من أجل ذلك لما دنت بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتشر في الأمم أن الله تعالى سيبعث نبيا في هذا الزمان ، وأن ظهوره قد قرب وآن . فكانت كل أمة لها كتاب تعرف ذلك من كتابها ، والتي لا كتاب لها ترى من الآيات المنذرة ما تستدل عليه بعقليتها ، وتنبه إليه بمنبه قوى من إلهام فطرتها كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم غير عالم أنه مراد بها ؛ حتى نودي ، ثم نوحى . فكان بهذا أبعد من الشبهة ، وأسلم من الظنة ، وأنأى عن التهمة ، وكان برهانه أظهر ، وحججه أقهر . وكان صلى الله عليه وسلم — وهذه حاله — متميزا عن قومه وعشرائه : بشرف أخلاقه ، وكرم طباعه ، لم يعبد معهم صنما ، ولا عظم وثنا ، وكان متدينا بفرائض العقول : من توحيد الله ، والعلم بقدمه وبقائه ، وحدوث العالم وفنائه ، وشكر المنعم ، وتحريم الظلم . ووجوب الإنصاف ، وأداء الأمانة على الوجه الأكمل .

الباب الرابع

٩٠

(٢) ولما دنا وقت النبوة حُب إليه الخلاء ليكون متهيئاً لما قدر له ، ومتأهباً لما أريد به . فكان يتخلى في غار حراء شهراً في السنة متحتاً مرتاضاً ، وكان يؤتى بطعامه وشرابه فيأكل منه ، ويطعم المساكين ، وهو غير شاعر بالنبوة ، وإن عليها أهل الكتاب حقاً . وبذلك حفظه الله من تصنعها أو اختراعها . ولو تصنع أو اخترع لظهرت أسبابهما ، ونمت شواهدهما ، ولم يخف على من عاداه أن يتداوله ، وعلى من والاه أن يتأوله .

ولم يزل صلى الله عليه وسلم على خلوته ، إلى أن أظهر الله له أمارات نبوته . فبشره بها بعد أن تأهب لها . واستعد لتحمل أثقالها والاستقلال بحقوقها ؛ لطفاً من الله به ، وإنعاماً عليه .

(٣) ثم تابعت الرؤى الصادقة في منامه صلى الله عليه وسلم بما سيثول إليه أمره . حتى إذا حلّ وقت قيامه بالدعوة قام بها ، وهو عليها قوى ، وبها ملى . روى الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أول ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة ، كانت تجيء مثل فلق الصبح . حتى فجأه الحق .

(٤) ثم تلا هذا أنه لبث ثلاث سنين يسمع حس الملك ولا يرى شخصه ؛ ويعلمه الشيء بعد الشيء . ولا ينزل عليه بالقرآن ، فكان في هذه المدة مبشراً بالنبوة ، غير مبعوث إلى الأمة . وحكمة ذلك إمداد الرسول بالمعونة الإلهية ؛ ليتحمل الوحي وأعباءه . فيكون فيما بعد على البلوى أصبر ، وللنعمة أشكر .

(٥) ثم نزل عليه جبريل عليه السلام بوحي ربه ، حتى رأى شخصه ، وسمع مناجاته : فأخبره أنه نبي الله ورسوله . واقتصر به بادئاً على الإخبار ، ولم يأمره بالإنذار ؛ لتكون نفسه بنبوته أوثق ، وعلمه برسالته أصدق . فلا



غار حراء

يعترضه وهم ، ولا يخالجه ريب : تأمل ما رواه عروة عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لجأه الحق ؛ أتاه جبريل عليه السلام فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني الثالثة ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره . حتى دخل على خديجة فقال : زملوني ! زملوني ! فرملوه ، حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : أى خديجة ، مالى ؟ وأخبرها الخبر . قال : لقد خشيت على نفسى . قالت له خديجة : كلاً ! أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا : إنك تصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت بى إلى ورقة بن نوفل ، وكان ابن عمها وقالت : اسمع من ابن أخيك . فسألنى ، فأخبرته خبرى . فقال : هذا الناموس الذى نزل على موسى عليه السلام : يعنى جبريل عليه السلام . ليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك . قلت : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ! إنه لم يبق رجل قط بما جئت به إلا عودى ، ولئن يدركنى يومك لأنصرتك نصراً مؤزراً . ثم كان أول ما نزل عليه من القرآن بعد ﴿ أَقْرَأْ ﴾ : ﴿ رَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . ونزل عليه ذلك ؛ ليزداد صلى الله عليه وسلم

ثباتاً، وب نفسه استبصاراً، ولنعمة ربه شكراً؛ وليعلم أن الله تعالى قد اصطفاه بالنبوة، فينقطع إليه، ويقف نفسه على ما يؤمر به. فيكون لأوامر الله متبعا ولما يراد به متوقفاً. واقتصر الإذن له على الإخبار، ولم يؤذن له في الإنذار وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. فكان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر النبوة مستتراً.

(٦) ثم أمر — بعد إذنه بالإخبار — بالإنذار، فصار به رسولا. ونزل عليه القرآن بالأمر والنهي فأصبح بذلك مبعوثا، ولم يؤمر بالجهر وعموم الإنذار ليختص بمن آمنه، ويتقوى بمن أجابه. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ وبذلك تمت نبوته بالوحي والإنذار، وإن كان على استسارار. ثم تتابع الناس في الإسلام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على استساراره بالدعاء، وإن انتشرت دعوته في قريش.

(٧) ثم أمر صلى الله عليه وسلم بأن يعم بالإنذار بعد خصوصه، ويجهر بالدعاء إلى الإسلام بعد استساراره. فأنزل الله تعالى عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. فجهر بالدعاء، وذلك بعد ثلاث سنين من مبعثه وقد اقتضت حكمة الله أن يأمره بالبدء بعشيرته الأقربين، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولذلك لما نزلت صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا فهتف: يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، حتى ذكر الأقرب فالأقرب من قبائل قريش، فاجتمعوا إليه وقالوا: مالك؟ قال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من

سفع هذا الجبل ، أما كنتم تصدقونني ؟ قالوا : بلى ! ما جربنا عليك كذبا . قال : فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك . ألهذا جمعتنا ؟ ثم قام ، فأُنزل الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخر السورة .

لم يكن من قريش في دعائه لهم مباحدة له ، ولكن ردوا عليه بعض الرد ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، وسفّه أحلامهم في عبادتها . فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه ، وتظاهروا بعدوانه ، إلا من عصمه الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مضطهدون . فصار بعموم الإنذار ، والجهر بالدعاء إلى التوحيد والإسلام ، عام النبوة مبعوثا إلى الأمة جميعها . فكمّل الله بذلك نبوته ، وتمّم به رسالته . فصعد بأمره ، وقام بحقه ، وجاهر بإنذاره ، وعم بدعائه ، وجاهد في الله حق جهاده . حتى خصم قريش حين جادلوه ، وصابرهم حين عاندوه — وجههم غفير ، وجمعهم كثير — إلى أن علت كلمته . وظهرت دعوته ، ولاقي من الشدائد ما لا يثبت عليه إلا معصوم ، ولا يسلم منه إلا منصور .

كل هذه آيات تنذر بالحق ، وتلائم الصدق ؛ لأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، ولا يصلح عمل المفسدين .

(٨) ثم شرع مدة إقامته بمكة الطهارة والصلاة ، حين علّمه جبريل الوضوء والصلاة ، وكانت فرضا عليه ، وستة لأقمته ، إلى أن فرضت الصلوات الخمس ، بعد إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . وذلك في السنة التاسعة من نبوته . فصارت الصلوات الخمس فرضا عليه وعلى أمته . ولم يفرض ما سواها من العبادات ، حتى هاجر إلى المدينة ، وصارت له بالإسلام دارا ، وصار أهلها له أنصارا . أما في المدينة ، فقد فرض صوم شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة في شعبان ، وفيها حوّلت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة

وفرضت فيها زكاة الفطر، وشرعت فيها صلاة العيد، ثم فرضت زكاة الأموال بعد ظهور الفقرة وستة الخلة، ثم الحج والعمرة .

وأما الأحكام فأصولها الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها، وهي : الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال — فقد نزلت بمكة . فما نزل في مكة في حفظ النفس قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ . ويندج في أصل المحافظة على النفس الأصل الثاني . وهو المحافظة على العقل ؛ لأن العقل بمثابة أحد أعضاء البدن التي تجب المحافظة عليها وعلى منافعها صيانة للنفس ؛ فالمحافظة على العقل تعتبر محافظة على النفس .

وأما النسل فقد جاء في المكي تحريم الزنا، وحفظ الفروج إلا على الأزواج . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ .

وأما المال فقد نزل بمكة ما يفيد النهي عن تطفيف الكيل والميزان . قال تعالى : ﴿ وَيَلِلُ لِلطُّفَّيفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ زَوَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

وأما الدين فهو أصل ما دعا إليه القرآن والسنة ، وهو أول ما نزل بمكة . ويلحق بهذه الأصول الخمسة العرض ، وهو داخل تحت النهي عما يؤذي النفس . ثم فصلت تلك الأصول بالمدينة تفصيلاً تاماً ، وفترعت فروعها ، واجتمع الناس على العمل بها ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام . كان بمكة مغلوباً باستيلاء

قريش عليها ، وكانت دار شرك لا تنفذ فيها أحكامه ، حتى صار بالمدينة في دار إسلام تنفذ فيها أحكامه ، فبين تلك الأصول يانا تاما ، ولذلك كان بمكة مسالما ، وبالمدينة محاربا ، فكانت الحكمة موافقة لأفعاله ، والتوفيق معاضدا لأقواله . ولا غرابة فقد قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ . لكن لحسن قيامه بها ، وموافقة الصواب في مواضعها ، تظهر آثار حكمته ، في صحة حزمه ، وصدق عزمه ، صلى الله عليه وسلم .

الباب الثاني من المحققين

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم

نشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحده الناس عفة ، وأشرفهم قصدا ، وأحكمهم كلاما ، وأصدقهم حديثا ، وأسمهم أمانة وسيرة . قد جُمعت في نفسه كل خلال الخير: من الحلم ، والصبر ، والمروءة ، والشكر ، والعدل ، والزاهة ، والتواضع ، والشجاعة ، والحياء ، والجود ، والرحمة . حتى كان له من كل هذا قوة تخرز أمامها شم الرواسي ، ونور ساطع سار في ضوئه الداني والقاصي ، ودليل قاطع على صدق نبوته ، وحجة دامغة على صحة رسالته ، وأنه خاتم النبيين . وإمام المؤمنين ، أرسله الله للناس جميعا ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله يآذنه وسراجا منيرا .

وإليك الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، على صدق نبوته ، وإثبات رسالته ، قد استخلصتها من صحيح سيرته صلى الله عليه وسلم . وهي نوعان : عقلية : يدركها ذوو البصائر . ويقرّها أولو الألباب . وحسية : أجراها الحكيم العليم على يد مجتبه تحذيا لمعارضيه ، وتأيدا لما جاء به .

(١) الأدلة العقلية

١ - احتماله صنوف الأذى

من تمثّل في ذهنه ثبات المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ واحتماله صنوف

الأذى من كفار قريش وغيرهم ، لا يداخله الريب في أنه صادق في أمره ، مستيقن من نفسه ، مبرأ من سمات المرتابين ومخايل المفتريين قبل بعثته .

٢ — اشتهاره بمكارم الأخلاق في نشأته

عُرف صلى الله عليه وسلم بين قومه قبل رسالته بجميع الخصال السنية ، والصفات الكريمة ، حتى سمي بالأمين . ولم يجرب عليه قومه كذبة ، ولا عرفوا زلة أو هفوة . ولو عرفوا شيئاً من ذلك ما وسعوا أن يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ، غير خائف مما يخجله : فإن الكذب يحط من قدر الإنسان في نفسه وعند غيره . على أن الكذاب لا يمكن أن يكون مصدراً للكمال ، مرشداً إلى سنى الخصال .

أضف إلى ذلك أنه أُنذر - بلسان القرآن الكريم - الكاذبين بالوعيد الشديد ، ولا يقع ذلك إلا من صادق امتلاً قلبه ، وفاضت نفسه بما يخبر به ، إلى حد يفوق الوصف ، ويخرج عن نطاق البيان .

على أن الذين عاشروه قد شاهدوا في كلامه وحركاته وأفعاله ؛ مأملاً قلوبهم يقيناً بأنه صادق جاء يخبر عن ربه بوحيه . ومن ذلك أن بعض الأعراب أسلم حين رآه ، وقال : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » .

ولم يعرف في السنن الإلهية أن الله يؤيد في دعوى النبوة كاذباً ، أو ينصر مبطلاً : ففي ذلك الضرر العظيم . وقد قال المسيح عليه السلام : « سيظهر بعدى أنبياء كذبة » ، ففيل : ما علامتهم ؟ فقال : « علامتهم أن الله لا يؤيدهم » .

وقد شهد الأعداء أن محمداً عليه الصلاة والسلام ، أوتى من النصر ما لم يؤت أحد من قبله ولا من بعده . فمن ظن أن الله نصره وأيده مع كونه مبطلاً ،

فقد جهل ما يخلق بصفات الله تعالى وسنته في خلقه ، وأساء الظن بعدائه وحكمته إساءة كبرى ، هل يستطيع الكاذب أن يخفى حاله طيلة حياته على الناس عاقبتهم وخاصتهم ؟ كلا : فإن الرياء طلاء كاذب ، لا يلبث أن تقضى عليه جوارث الأيام ، وبخاصة إذا كان لصاحبه أعداء يحصون هفواته ، ويتبعون حياته ، ويتقصّون أسرارهم ، ويتدارسون سيرته وأخباره .

لا يستطيع كاذب أن يخاطب اليهود — والتوراة بين أيديهم — بقوله على لسان القرآن : ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ . ثم يوبخهم ويقرّعهم بأنه يجدونه فيها ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وليس من المتصور أن يجترئ على ذلك وهو يعلم كذب نفسه . والكاذب ضعيف حتى عند نفسه . جليّ أن الصدق يصاحب الخير والبرّ ، والكذب يسائر الفجور والشر . ولهذا لما كانت خديجة رضى الله عنها ، تعلم من النبي صلى الله عليه وسلم أنه الصادق البار ، قالت له — حين جاءه الوحى وقال لها : إني خشيت على نفسى — : والله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق . ومعنى هذا ، أن من تجمعت فيه هذه الخلال المحموده ، فالله لا يخزيه أبدا ، وهونىّ حقا . ألم تر إلى ما قاله هرقل لأبى سفيان وصحبه وكان كافرا إذذاك : هل كنتم تنتمون محمدا بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقالوا : لا . ماجزينا عليه كذبا . فقال لهم هرقل : إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله . وغرض هرقل أنه إذا لم يكن من خلقه الكذب ، ولم يعرف عنه إلا الصدق ، وهو يتوزع أن يكذب على الناس ، فإن توزعه عن أن يكذب على الله أولى وأحق .

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ٩٩

من تأمل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وضح له أن مثل هذا لا يصدر إلا من أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم ؛ وأنه يستحيل صدوره عن متعمد للكذب ، مفتر على الله ، أو خاطئ جاهل يظن أن الله أرسله ولم يرسله . ذلك بأنه جاء بإصلاح وهدي ورحمة وإرشاد للخلق إلى ما ينفعهم ليتبعوه ، وما يضرهم ليبتنبوه . فكانت حاله في بث رسالته ناطقة بأنه رحيم باز . هذا إلى أن ما وصفه بأنه حق أو باطل ، ومعروف أو منكر ، مسلم به عند أهل الفطرة السليمة ، والعقل الصحيح : وقد وضح لمن عاشروه ولمن بلغتهم دعوته ، أنه أعلم منهم بحقيقة المعروف والمنكر ، وأنه أنصح الخلق للخلق . وأبر الناس بالناس ، وأرحم البشر للبشر . وأصدقهم فيما يقول ، وأقومهم فيما يفعل .

٣ — شدة خوفه من عظمة ربه ونسبته كل شيء إليه

ذلك بأن المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ظل طول حياته يراقب الله ويخشاه في جميع الأمور ، فإذا جاءه أمر يحبه قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وإذا أتاه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال . وإن قصد فعل شيء قال : اللهم خّر لي وأختر لي . وإن أراد سفرا قال : اللهم بك أصول ، وبك أجول . وإن أراد نوما قال : اللهم باسمك وضعت جنبي ، وباسمك أرفعه . وإن استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . وإن لبس ثوبا جديدا قال : الحمد لله الذي رزقني ما أتجمل به في حياتي . وإن أكل قال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين . وإن شرب قال : الحمد لله الذي جعل الماء عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا

بذنوبنا . وإذا أفطر قال : الحمد لله الذى أعاننى فصمت ، ورزقنى فأفطرت .
وإذا انقلب من الليل إلى فراشه قال : لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب
السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار . وإذا هبّ من نومه ليلا قال :
رب اغفر وارحم ، واهد للسيل الأقوم . وإذا خاف قوما قال : اللهم إنا
نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم . وإذا رفع بصره إلى السماء قال :
يامصرف القلوب ، ثبت قلبى على طاعتك . وإذا حلف قال : والذى نفس
محمد بيده . وإذا أصابه همّ قال : حسبي الخالق من المخلوقين ، حسبي الرازق من
المرزوقين ، حسبي الذى هو حسبي ، حسبي الله ونعم الوكيل .

من ذلك يتبين أنه صلى الله عليه وسلم ، كان فى جميع شؤنه لا ينظر إلا إلى
الله ، ولا يستمد المعونة إلا من الله ، ولا يرى لنفسه ولا لغيره حولا ولا
قوة . ولا غرو : فحمد صلى الله عليه وسلم خير أسوة . وأعلى قدوة .

٤ — انتشار الإسلام بسرعة

انتشار الإسلام — بما لم يسبق له مثيل — فى أقل من قرن آية كبرى على صدق
نبوته وصحتها : فقد رحبت به القلوب ، وتسابقت إليه النفوس ، وعمّ نوره
الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والشرق بالغرب . فأصبح لدولة
العرب قدم فى الهند ، وأخرى فى الأندلس ، واتفع العالم دهورا كثيرة بما
فى الإسلام ، من النبيل ، والبأس ، والتجدة ، والحق ، والهدى ، والمدنية
الصحيحة ، حتى نعته الغرييون بأنه أستاذ المدنية فى أوربة .

٥ — حرصه على هداية الخلق ومغامرته بنفسه وأهله

حسبك شاهدا على ذلك ملاقاه من كفار قريش بمكة ، وما كان يلاقه

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٠١

عند عرضه نفسه على القبائل ، وما أودى به حينما ذهب إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله : فقد خضبوا نعليه بالدماء ، وأغروا به سفهاءهم . وما زاد على أن قال : اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، إلى أن قال : إن لم تكن غضبان عليّ فلا أبالي .

لا ريب في أن هذا دليل واضح على أن الدعوة ملكت عليه حواسه وقلبه ؛ فهان معها ما لقيه من التأنيب والتكذيب ، والإيذاء والإرهاب . وعال عقلا أن يصبر داع على مثل هذه الأهوال إن كان شاكّا في أمره ، أو مرتابا في صدق دعوته .

٦ — إخباره بالمغيبات

أخبر صلى الله عليه وسلم بالأمور الغيبية على لسان القرآن : وهو المعجزة العظمى : فن ذلك قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ . وقد تحقق هذا الوعد ، وقوله : ﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ سَيَرْجُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ . فكان كل ما أخبر به على آتم وجوهه ، وأبلغ معانيه .

ومن هذا الباب إخباره عن مكنون الضمائر ومخبوء النفوس ، بلسان القرآن أيضا ، مثل قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ وقد وضع لمعاشره أنه كلما زادت أخباره ظهرت صحته ، وكلما قويت مكاشفته وامتحانه تجلّى صدقه . واتضح حقه .

أضف إلى ذلك أن الأمة التي نشأ بينها ، كانت وقت بعثته من أبعد الأمم عن توحيد الله سبحانه وتعالى ، ومن أعظمها إشراكا به ، وأن من تدبر القرآن والتوراة وجدتهما متفقين في المقاصد الكلية : من التوحيد والنبوات وغيرهما مما يؤيد ما قاله النجاشي : « إن هذا والذي جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة » . وما قاله ورقة بن نوفل : « إن هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى عليه السلام » ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

أليس من البراهين القويّة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أنه كان أمياً نشأ بين قوم أميين ، ثم أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من الشئون الغيبية ، دون أن يتعلم من بشر ؟ وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

ومن أجل ذلك أقزله علماء أهل الكتاب بصدق ما جاء به ؛ كما قال القرآن الحكيم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا .

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٠٣

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴿١٠٤﴾ .

٧ — اهتمامه بسعادة أمته

اهتم بدعوة الناس إلى ما يسعدهم في دينهم ودنياهم ، حتى قال الله تعالى له : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ . وأشتد حرصه على هدايتهم إلى مكارم الأخلاق وتعليمهم القوانين العادلة ، والشرعة الفاضلة ، التي رفعت أهلها إلى أوج العزة والرفعة أيام كانوا متمسكين بها . ولا يسوغ في نظر العلم والعقل ، أن النفس التي تكاد تهلك حرصاً على إسعاد غيرها تكون نفساً كاذبة ، بل لابد أن تكون متعلقة بالملأ الأعلى ، راسخة في صفات الكمال ، ونعوت الرفعة والجلال .

٨ — تجرد نفسه من الحظوظ البشرية

ألا ترى أنه لما شجَّ وجهه في يوم أحد وكسرت رباعيته ، وحل به ما يذهب بلب الحليم ، ورشد الحكيم ، لم يزد على أن اعتذر لهم مما فعلوا ، فقال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ؟ وبهذا استحق أن يقول الله في حقه ﴿ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

٩ — فرط حثه على تطهير النفوس من الأرجاس الطبيعية البشرية وأحوال

الشهوات البهيمية واتخاذها أنجع الوسائل لتحقيق غرضه الأسمى

جدير بنا أن نقدم بين يدي هذا المبحث ، طائفة من آي الذكر الحكيم ،
وجملة من الأحاديث النبوية الشريفة ، في الحض على تطهير النفس وتجميلها
بصفات الكمال ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ
إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ . ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ ﴾ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . ﴿ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا
يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ . ﴿ وَلَا تَقْفُ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾
﴿ الَّذِينَ يَفْضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٠٥

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا أخبركم بشر عباد الله ؟ اللفظ المستكبر .
ألا أخبركم بخير عباد الله ؟ الضعيف المستضعف ، ذو الطمرين لا يؤبه له ، لو
أقسم على الله لأبزه . . . قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان ، وجعل قلبه سليما
ولسانه صادقا ، ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة . . . لا يجتمع في جوف
عبد غبار في سبيل الله وفيح جهنم . ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان
والحسد . . . لا يدخل الجنة خب ولا منان ولا بخيل . . . شر ما في الرجل
شع هاليع وجبن خاليع . . . ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل
الإيمان : خلق يعيش به في الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله . وحلم يرد
به جهل الجاهل . . . أربع من كن فيه كان منافقا خالسا . ومن كانت فيه خصلة
منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان . وإذا حدث
كذب . وإذا عاهد غدر . وإذا خاصم فجر . . . أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان
مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى مسلم ، وعفيف
متعفف ذو عيال . . . ثلاث من كن فيه : آواه الله في كنفه ، وستر عليه
برحمته ، وأدخله في محبته : من إذا أعطى شكر . وإذا قدر غفر . وإذا غضب
قتر . . . إن هذه الأخلاق من الله ، فمن أراد الله به خيرا : منحه خلقا حسنا .
ومن أراد به سوءا ، منحه خلقا سيئا . . .

ومثل هذا لا يصدر إلا عن نفس قدسية ، وروح ملكوتية ، قد تخلصت
من قيود الأهواء ، وتحزرت من عبودية الشهرة الشخصية ، واستمدت من
النور الإلهي والهداية الصمدانية . ولقد اجتمع كل ذلك في محمد صلى الله عليه
وسلم ؛ إذ ظل طول حياته راسخ المبدأ ، صادق العزم ، بعيد الهمة ، كريما
برأ ، رموفا تقيا ، فاضلا مخلصا ، شديد الجد ، سهل الجانب ، جم البشر والطلاقة

حميد العشرة ، حلو الإيناس ، رحيم القلب ، وقد يمازح ويداعب ولا يقول إلا حقا ، شهيم الفؤاد ، يفيض النور من جوانبه ، لم تتقفه مدرسة ، ولم يتخرج في جامعة ، ولم يهذبه أستاذ ، وكفى بالله معلما ومرشدا .

١٠ — وصفه أمراض المجتمع ودواءه

أعطى محمد صلى الله عليه وسلم من العلم بأحوال الإنسان وشئونه ما لا يحده العلم : فرسم لكل طريقا تناسبه ، وعلّقه كيف يعامل الله معاملة يرقى بها إحساسه ، ويصفو بها قلبه ، وهداه إلى معاملته لأسرته معاملة تستقيم بها حاله ؛ وينعم بها عيشه ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في الباب الثالث . ودلّه على معاملة الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومعتقداتهم معاملة يعيش بها هادئا مطمئنا فيما بينهم .

١١ — عجز العرب عن معارضة القرآن الذي أنزل عليه

كان العرب أمراء الفصاحة والبلاغة ، وما كان أحرصهم على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وإخفاء أمره : لأنه سقّه أحلامهم ، ونكس أصنامهم ، وشدد في توبيخهم وتأنيبهم : إذ قال لهم بلسان القرآن : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . وإذ قال لليهود : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ يريد الموت . فلم يستطيعوا أن يتمنوه حتى بألسنتهم ، مع شدة حرصهم على تكذيبه .

وإذ عجز العرب عن معارضته وقامت عليهم الحجة ، فهي قائمة على غيرهم . كما قامت حجة عيسى عليه السلام بإبراء الأكهم والأبرص على الأطباء وغيرهم .

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٠٧

وكما قامت حجة موسى عليه السلام بقلب العصا حية على السحرة وغيرهم ؛ لأنّ عجز الجماعات الإنسانية وهم متعاونون أفرادا ومجتمعين ، عن معارضة أعمال جاءت على أيدي بشر مثلهم وهم أفراد لامعين لهم — دليل على أنّ ما جاء به هؤلاء الأفراد من عند الله ، ليس في طوق البشر الإتيان بمثله . ولا عجب ؛ فقد وجد المنصفون من العرب وغيرهم أنّ القرآن الكريم صادر من مشكاة سماوية ، وعين قدسية ، وأنه كتاب يدعو لعبادة الله وتقديسه ، وينقوه بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، ويدل على طرقها ، ويرقى الإحساس ، ويرفع النفوس ، ويأمرنا ألا نخاف إلا الله . ولا نرجو إلا الرحمن منقادا لنا من رقى الشهوات واستعباد الأوهام . وليس أدل على صدق من نزل عليه وعظم يقينه من قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ .

لما سمع العرب القرآن الكريم اختلفوا في أمره : فمنهم من ظهر له أنّ هذا القرآن بلغ مرتبة في الفصاحة والبلاغة لا تدركها القوى البشرية . وأنّ فيه خواصّ كاملة ، لا يمكن عند العقل اجتماعها في مجموع كلام مهما تأنّق فيه واضعه ؛ واتسع اطلاعه على الماضي والحاضر والمستقبل ، وعلى أحوال الأمم في مختلف شئونها ، وإنّ أحاط بجميع الفنون والآداب والحكم والسياسات ، وتحزى فيه عدم التضارب والتناقض . كل ذلك مع الانفراد عن الأساليب المعهودة عند العرب . ولا غرابة ؛ فقد رأوا اتساع مجاله في كل فن : من أخبار وحكم ، ومواعظ وأمثال ، وأخلاق وآداب ، وترغيب وترهيب ، ومدح الأخيار وذمّ الفجار ، والتحذير من قبائح السجاياء ومواقع

الدنيا ، وتدير السياسات ومدافعة الأعداء ، ومجادلة الخصوم ، وإقامة البراهين على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وعلى الحشر والنشر ، ووصف عالم السموات وما فيها من الكواكب والأمطار والسحاب ، ووصف الأرض وجبالها وسهولها وبحارها ونباتاتها وأنهارها ، وما اشتملت عليه من حيوان ونبات ومعادن .

وجملة القول أنهم شاهدوا أن القرآن الكريم لم يدع علما من علوم الأولين والآخرين إلا صرح به ، أو أشار إليه ، بأساليب متنوعة وطرائق مبدعة ، لم يقع فيه تناقض ، ولم يتخلله تضارب ، مع انفراده بأسلوب ليس له مثال يحتذى ، ولا إمام يقتدى به : فلا هو من ضرب القصاصد العريية ، ولا من الأراجيز البدوية ، ولا من الخطب القسّية . ومع هذا فقد وجدوه في عقولهم مستحسنًا ، وفي نفوسهم مستملحًا ، وفي أذواقهم مستعذبا ، ولأسماعهم مألوفًا ، كلما تكرّر حلا ، وكلما استعيد أزداد جدّة ورونقا .

ومن أجل ذلك أوضح لهم العقل السليم أن تلك الصفات الباهرة لا تجتمع في كلام اتفاقا ومصادقة . فإتيان محمد عليه الصلاة والسلام به وهوأمى ، أكبر دليل على أنه من عند الله تعالى ؛ أرسله به ليكون معجزة له .

ومن العرب طائفة لم يكونوا من أصحاب الفصاحة والبلاغة ؛ ولم تكن عندهم قوة النظر والإحاطة بالصفات التي اشتمل عليها القرآن ؛ ودل اجتماعها فيه على أنه ليس من مصنوعات البشر — غير أنهم لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة من عند الله ، وأن هذا القرآن كلامه ، وأنه يتحدث أهل الفصاحة والبلاغة بأقصر سورة منه ، وقرّر عجزهم بلسان القرآن : إذ يقول الله تعالى — كما تقدم — : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكُمْ تَفْعَلُوا ﴾ . وأنه يقرّعهم بقصورهم

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٠٩

بمرأى منهم وبمسمع ، وأن الفصحاء والبلغاء أهل النقد والبصر أقروا بالعجز عن المعارضة من غير مدهانة ولا مخاتلة ، وانفادوا إلى التصديق والاعتراف بأن القرآن في الدرجة التي لا تُنال ؛ وأن محمدا صادق في دعواه — لما شاهدوا ذلك كله آمنوا به وأيدوه .

جاء القرآن والعرب قد وقعت بينهم الفارقة . وتشتت الألفة . واختلفت كلمتهم ، وانشقت عصاهم ، واضطربت أحوالهم ، فهم جماعات متناكرة ، وهي على تناكرها متدابرة ، فكانوا إخوان دبر ووبر . أذل الأمم دارا ، وأجذبهم قرارا ، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها ؛ فأحوالهم مضطربة . وأيديهم مختلفة . وكانوا في بلاء عظيم ، من جهل مطبق ، وبنات موعودة ، وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة . وغارات مشنونة . فلما استضاءوا بنور القرآن الكريم اجتمعت آراؤهم ، واتفقت أهواؤهم ، واعتدلت طباعهم ، وترادفت أيديهم ، وتناصرت سيوفهم ، وعقد بملته طاعتهم ، وجمع على دعوته ألفتهم ، وأصبحوا ينعمون في ظل سلطان قاهر ثابت ، وصاروا حكاما على العالمين ، وملوكا في أطراف الأرضين . قد ملكوا الأمور على من كان يملكها عليهم . وأمضوا الأحكام فيمن كان يضيها فيهم .

جاء القرآن وقد تمكنت من العرب عصية الجاهلية ، فما عدا أن سفه أحلامهم ، ونكس أصنامهم ، وذهب كل ما ألفوه ، حتى كأنما خلقهم خلقا جديدا ، وكأنهم على آدابه نشئوا وهم أغفال وأحداث ، بل كأنهم كانوا سلالة أجيال كان القرآن في أقوليتهم المتقدمة ، وكانوا هم الوارثين لا الموروثين ، مصداقا للحديث الشريف : « خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » .

كان من أثره فيهم أن أذهب عنهم العصبية الممقوتة ، وأحل محلها التعصب لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، ومحاسن الأمور ، وخلال الحمد ؛ من الحفظ للجوار ، والوفاء بالذمار ، والطاعة للبر ، والمعصية للكبر ، والأخذ بالفضل والكف عن البغي ، والإنكار للعدوان ، والإنصاف للخلق ، والكظم للغيظ ، واجتناب الفساد في الأرض ؛ لهذا كله انعقدت عليه قلوبهم وهم يجهدون في نقضها ؛ واستقاموا الدعوتة وهم يبالغون في رفضها ؛ فكانوا يفترون منه في كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه : ذلك بأنه قد جاءهم بما لا قبل لهم به ، وبما يسمى في علم النفس الاستهواء ؛ فغلب على طباعهم ، وسلخهم من قديمهم سلخا .

ولعمري لو كانت بلاغة القرآن غير معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم ؛ لخلا منه موضعه الذي هو فيه ، وكان سييله بينهم سبيل القوائد والخطب والأقاصيص ، ولنقضوه : كلمة كلمة ، وآية آية ، دون أن تتخاذل أرواحهم ، أو تراجع طباعهم .

بين لهم أن الطبيعة مسخرة لهم ، فعليهم كشف ما فيها واستخراج أسرارها : ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . ﴿ وَكَأَيُّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ . ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ . ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُومَهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ .

نادى فيهم القرآن الكريم : أن النبي صلى الله عليه وسلم ابن يومه وابن عمله وعقله ، فلا هو مفاخر ولا واهم ولا شاعر . وخاطبهم بالآية الكريمة التي

هى روح الثبات فى أمم العلم والعمل : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

بينما فيما سبق أن العرب كانوا قبل نزول القرآن الكريم ؛ قد انحدروا إلى هاوية الانحلال الاجتماعى ، بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأمم : فكانوا فى جهل مُطبق بأحكام الدين الصحيح ، ومبادئ السياسة والحياة الاجتماعية ، ولم يكن لهم فن يذكر ، أو صناعة تُنشر ، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية ، وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها ، تتحفر لشن الغارات على جارتها . فما لبثوا بعد أن جاءهم الكتاب الكريم أن خالطت أحكامه قلوبهم ، وأيقظت أرواحهم ، وجعلتهم يتلصسون الحق ، ونصبوا نفوسهم لرفع مناره ونشره فى أطراف الأرضين . قد بلغوا فى العبادة مبلغا بزوا به أهل الرهينة والتنسك ، وصاروا أولى قوة فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وحرص فى علم ، وعلم فى حلم ، وقصد فى غنى ، وخشوع فى عبادة ، وتجمل فى فاقة ، وصبر فى شدة ، وطلب فى حلال ، ونشاط فى هدى ، وتخرج عن طمع . ومع بلوغهم هذه الدرجة الروحية العالية ، لم يهجروا الدنيا وشئونها ، بل عملوا لها بصدق وإخلاص ، فأبدلهم الله العزم مكان الذل ، والأمن مكان الخوف ؛ فصاروا ملوكا حكاما ، وأئمة أعلاما .

وإن تعجب فعجب أن يتم ذلك المجد العظيم للعرب فى أقل من مائة سنة . وفى هذا برهان قاطع على أن أحكام القرآن خير طريق إلى تنمية الملكات الإنسانية ، وإعدادها لكسب الحياتين الدنيوية والاخرية : فقد جعل الأمة العربية تضع أعناقها للحق الذى لم تألفه حقا ، وأن تعطيه مع ذلك محض ضمائرها ، وتسلم له فى تاريخها وعاداتها .

إن نظرة يأنعام فيما جاء به القرآن الكريم من الآيات البينات ؛ تدل على أنه ليس هناك في الإنسان من نقص إلا والقرآن كفيل بإصلاحه : فهو طبيب الإنسانية . وأحذق الأطباء من يتبين الداء ويعطى نافع الدواء . وكذلك فعل القرآن ؛ فقد بلغ من أثره في العرب أنه حوّل طبائعهم ، وغير أخلاقهم فلم يشهد التاريخ عصر اجتماعيا مثل العصر الأول في صدر الإسلام ؛ حين كان القرآن هو المنار الذي يهتدى به ، ولم تستطع الفلسفة على اختلاف ضروبها في أى عصر من العصور ، أن تنشئ قبيلة من الناس كالذي أخرج القرآن الكريم ؛ فكانوا مثلاً حسناً في علو النفس ، وصفاء الطبع ، ورقة الجانب ، ورجاحة اليقين ، وطهارة الخلق ، وشدة الأمانة ، وإقامة العدل ، والخضوع للحق ، وما إلى ذلك من أتمها الفضائل .

رأى الدكتور هنرى استب^(١) في إعجاز القرآن (Dr. Henry Stuble)

لغة القرآن وأسلوبه في درجة معدومة النظير ، حتى إن محمداً صلى الله عليه وسلم اتخذهُ أكبر شاهد على صدق رسالته لأنه خارج عن طوق البشر . وتحدى العرب بأن يأتوا بعشر آيات من مثله مفتريات ، فعجزوا . والمسلمون يعتبرون كل آية من آياته معجزة كبرى ، ويقولون إذا كانت المعجزات براهين على صدق الأنبياء وصحة رسالتهم فإن في القرآن الكريم ثلاثة آلاف من الآيات البينات كل منها معجزة قائمة بنفسها شاهدة لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة ، وله فوق ذلك معجزات أخرى تجل عن الحصر ؛ غير أنها في باب الإقناع دون القرآن الكريم ، لأنها لم تقع إلا مرة واحدة ولم يشهدها

(١) هو طبيب مشهور عاش في القرن السابع عشر لليلاد وطبع كتابه في ١٩١١ على نفقة الجمعية الإسلامية

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١١٣

إلا قليل من السلف تقبلها الخلف عنهم تعويلا على نزاهتهم ، ورجاحة عقلهم من أجل ذلك كان حقا ما يقال من أن الله سبحانه وتعالى قد ميز محمدا فأرسله للناس بمعجزة خالدة لتكون حجة قائمة في جميع العصور تتداولها العصور . ولم يبق من معجزات النبي إلا تلك المعجزة التي تحتوى بها العرب أجمعين ، وقد كانوا أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة ، وفيهم الشعراء المفلقون . ودعاهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، فوضع بذلك لأشد الناس كفرا صدق نبوته ورسالته ، وكان خليقا أن يتحدى الإنس والجن على لسان القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

لا جرم أنه لا يليق بأهل الفطنة والذكاء والبيان أن يماروا في طلاوة القرآن ، فهو مقياس للغة العرب وبلاغتهم ، وليس بمنصف من ينسب إليه التنافر والاختلاط والإخطاء في إيراد الحوادث التاريخية

وقال المستر جريجورى فى مقدمة كتابه هذه العبارة : (لقد سألتى مرة رجلا من ذوى الحصافة والرأى : أهذا القرآن يهذى إلى عقيدة سليمة مقبولة؟ فأجبتة بالإيجاب) ومستر جريجورى من الكتاب الذين خففوا كثيرا من وطأة تحامل بعض المسيحيين على هذا الدين وصاحبه ، فأخذوا يحسنون بهما الظن ، لا كالذين أبقاهم جهلهم على تعصبهم وحقدهم

ولو تركنا التحيز جانبا ونظرنا إلى القرآن بالعين التى ننظر بها إلى غيره من الكتب . لو جدناه يمتاز عن الإنجيل بحسن التشبيه والكناية والمجاز ، على الرغم من أنه لا يستطيع أحد فهم هذا القرآن حق الفهم من ترجمة كالتراجم التى بين أيدينا ، فإن الترجمة الانجليزية للقرآن مأخوذة عن الترجمة الفرنسية ، وهذه

فاسدة جدا لاحتوائها على كثير من الحذف والحريف والمسخ ، أضف إلى هذا أن ، لاسلوب البري تستحيل ترجمته من غير رجوع إلى التفاسير العربية أو الفارسية أو التركية التي يجهلها مترجمونا أو يعتمدون إغفالها ، وبذا يدخلون على الناس كثيرا من الاختلاقات التي لم تصدر عن هذا النبي الكريم . لقد نظرت كثيرا فيما وجهه المسيحيون من الاعتراضات على القرآن ، فلم أجدها تختلف في شيء عما وجه إلى الإنجيل . وما دفع به المسيحيون عن أنفسهم يؤيد القرآن تأييدا تاما . وإن حال محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته لتدل على أنه كان بعيدا كل البعد عن تلفيق المعجزات ، بل كان يعمل دائما على ألا يعتمد على قوتها ويعدّها قليلة الأهمية لا حاجة له بها ، بل ترفع عن ادعائها لنفسه . وكان من رأيه أن البشر ليس في مكنتهم تمييز المعجزات الصحيحة من الباطلة ، وأن الأشرار من الناس قد يأتون بخوارق عن طريق السحر وغيره

هذه قریش كانت تعزو ما يأتي به محمد من المعجزات إلى السحر ، ولذلك طلبوا منه أن يزحزح الجبال ، ويحيي الموتى . وينزل عليهم من السماء ملكا يرونه بأعينهم ؛ فكان جوابه على ذلك أن القرآن هو أعظم المعجزات ، فأصروا على عنادهم ، واستكبروا استكبارا

كان عليه الصلاة والسلام يقول لهم إن المعجزات من عند الله ، وليست من عمل البشر ، وإنما لا تأتي بمحض إرادة الأنبياء ، بل إن الله يجرىها متى شاء وكيف شاء ، لا ليؤيد بها الحق فحسب ، بل ليلو بها عبيده أحيانا

وقد التمس البروتستانت في مبدأ الإصلاح الديني لأنفسهم عذرا في التحلل من تصديق المعجزات ، قائلين إن يوحنا المعمدان لم يأت بمعجزة . ونسوا أن بعض الرسل لم يأت بمعجزات ، وأن المسيح الدجال سيظهر من العلامات

ويأتى من العجائب ما يندع أرحم الناس عقلا

ومما يرويه المنصفون من غير المسلمين أن الأناجيل - قبل أن يفسدها المسيحيون - كان بها كثير من الآيات التي تشير إشارة صريحة إلى محمد ، وأنها لهذا السبب حذفها المسيحيون . وأن قسيسا مسيحيا عظيما أخبر بعضهم أنه لا توجد من الإنجيل نسخ غير مغلوبة إلا نسخة عنده وأخرى محفوظة في باريس ، وفي كل منهما آيات دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن هذه الآيات تشير إلى محمد وتنطبق عليه كما تنطبق الآيات التي جمعها المسيحيون أنفسهم من كتب اليهود ، وقالوا إن فيها أنباء عن المسيح ، بالرغم من مخالفة اليهود لهم في تفسيرها مخالفة تامة . وربما كان الحق في جانب اليهود في كثير من المواضع كما يتجلى ذلك لكل من يعنى بقراءة تلك الكتب

على أن المعجزات ليس من شأنها تأييد المنكرات والضلالات ، فقد يأتى الأشرار بالخدع كأنها معجزات ، ويخدعون بها الناس بالتدجيل والاحتيال ، ويتعاهدون على إذاعتها وتروييحها بينهم ، وربما انتزعوا من الكتاب المقدس آيات تؤيدهم وتزكيهم وتثبت معتقداتهم . فلو أن دين محمد كان كما يصفه المتعصبون دينا باطلا ، والوسائل التي قام بها محمد ضالة ، لانهارت قوة المعجزات والآباء الغيبية من أساسها ، لأنه مامن أحد يتصور أن الله يصنع المعجزة ليؤيد بها دينا باطلا ، أو يذكر صاحب هذا الدين دون إذاعة ما بهتك ستره .

فلننظر إذن في الدين الإسلامى الذى يتلخص فى القواعد الخمس الآتية :
وهى : الشهادة بأنه لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسوله . وإقامة الصلاة فى أوقاتها . وإيتاء الزكاة . وأداء فريضة الحج إلى مكة . وصوم رمضان .

فالركن الأول من هذه الأركان خاص بالعقيدة . والأركان الأخرى فروض دينية يجب على كل مسلم تأديتها . أما الطهارة وصلاة الجمعة . وتحريم أكل لحم الخنزير والدم . فتعتبر كلها نتائج للقواعد الخمس يقصد بها التدليل على أن طهارة المظهر شاهد على طهارة القلب والعقيدة ؛ والركن الأول - ويسميه المسلمون الشهادتين - أهم محك وعلامة لدينهم ، فالشهادة الأولى يميزون بها أنفسهم عن عبدة الأوثان الذين يعبدون آلهة متعددة ، وعن المسيحيين الذين يعتبرون الثالوث لها واحدا ، وأما الشهادة الثانية فهي في الأصل موجهة ضد اليهود الذين يرقبون نبيا فيهم ، في حين أن القرآن يؤكد أن محمدا آخر الأنبياء وسيدهم أجمعين .

أما اعتقاد المسلمين في الله ، فهو أنه لا إله إلا هو ، ليس له كف ولا ولد ولا شريك ، وأنه أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء . تحار الآفهام في فهم صفاته ويعجز عن قدرته الوصف ، وأن العقول لا تدرك ذاته ، ولو أن المفكرين والمتأملين في الخلق يرون على الأرض من آثار صنعته ما يعرفونه بها . لأن الإنسان لا يعرف عن الله سبحانه وتعالى إلا بمقدار ما يريد أن يحيطه به . وأن في السموات عرشه ، وفي الأرض موطن قدمه ، لا يعجزه حكمهما ولا يتعبه ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ وهو قادر على كل شيء ، عليم بكل شيء ، موجود في كل مكان . وأنه مستو على العرش ، وعلمه محيط بكل شيء ، ولا تخفى عليه خافية . وأنه يصرف الأمور بتقديره ، فلا يجرى شيء ولا ينمو حب ولا يذبل كالأشياء إلا بما قدر الله له في الأزل . وأنه مهما ينسب له الإنسان من صفات فإنه قديم باق ، وما كان لهذه الصفات أن تدل على شيء من حقيقة ذاته ، وأن الخير والشر يصيبنا في هذه الدنيا وفق

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١١٧

إرادته . وأن الطوارئ تبدو وتتقدم وتنتهي بمحض مشيئته . وأنه قدر في الأزل ما كان وما يكون ، وعلمه محيط بأدق الأسرار . فلا يجرى شيء إلا بعلمه ، وأن التفكير في كل الأمور أو القيام بها أو النزوع إليها : بمحض إرادته وقدرته . وأنه السيد المتصرف في خلقه ، المهيمن على أعمالهم ، بيده حركتهم وسكونهم

ويعتقد المسلمون خلود الروح ، وبعث الجسم ، والحساب . وأن الذين يؤمنون بالله وبعصمة أنبيائه موسى وعيسى ومحمد عن الخطأ يظلون في سعادة بعدهم وهم حتى يوم البعث والنشور ، ويعتقدون أنه لا بد من الثواب والعقاب على الخير والشر مهما قل شأنهما ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

هذه خلاصة الديانة المحمدية ، فهي من جهة لا تلزم الناس تصديق الأوهام الغامضة التي لا يفقهون لها معنى ، ولا تتمشى في أغلب الأحيان مع قواعد العقل والتمييز . وهي من الجهة الأخرى لا تحمل الناس على القيام بكثير من الشعائر المجتهدة الكثيرة النفقة المملوءة بالخرافات والحزعلات . ومع ذلك فهي تلزم المؤمنين بالقيام بعبادة دينية في أوقات معلومة ، حتى تكون وسيلة ناجعة في ألا يتعدى الناس حدود واجباتهم لخالقهم وللعباد

وأهم ما يأخذه المسيحيون على القرآن وصفه للجنة والنار الواردتين به ، ولا أعده إلا اعتراضا جائرا ، لأن محمدا جاء في هذا بما يؤيد ما ورد في التوراة والإنجيل ، والمسيحيون واليهود يسلمون بما جاء فيهما ، فلم يعترضون على القرآن ؟

قد جاء في التوراة والإنجيل ما يدل على عذاب القبر، والتطهير من الذنوب، والجنة ونعيمها؛ وما جاء بالقرآن في وصف أنهار الجنة من احتواء بعضها على لبن لم يتغير طعمه، وبعضها على عسل مصفى: فشبهه بما جاء في التوراة. غير أنه قد جاء في التوراة والإنجيل وصف نهر من الزيت والبلسم، وطعام من فاكهة وخبز وزبد، وست وثلاثين مائدة من اللؤلؤ — أو لم يتحدث المسيح نفسه عن الأكل والشرب على مائدته في ملكوته (الإصحاح ٢٢ لوقا، الآية ٣٠) وكذا عن شرب الخمر عليها (الإصحاح ١٤ مرقص، الآية ٢٥)؟

إن وصف بيت المقدس الجديد الوارد في الفصلين الأخيرين من سفر الرؤيا يشبه في كثير من الوجوه وصف الجنة في القرآن، ولذلك فنالحقة أن نسخر بما يحىء به محمد ونبجل ما يقصه الإنجيل، إذ أن المعاني والأوصاف متشابهة، فلا أرى معنى لعدم مساواتها في مدلولاتها ومبناها، إلا أن يكون منشأ ذلك التحامل: الغرض.

أما أنا فلا أستطيع التفريق بين جنة اليهود والمسيحيين والجنة التي وعد بها محمد أتباعه، حقا إنهم يقولون إن مثل هذه الأوصاف وما شاكلها في كتابنا المقدس - مثل الآية التاسعة من الإصحاح السادس والثلاثين من المزامير وكثير من الآيات الواردة فيه وفي غيره من الكتب - لا تؤخذ بحرفيتها، بل تكون على سبيل التشبيه

ولعمري لماذا لا يدافع المسلمون بهذه الحجة نفسها عما جاء في القرآن من الآيات المماثلة لها؟ فالمعاني التي تستعمل في وصف الأجسام العظيمة وكنها كلها معانٍ مجمة تحتل التأويل، وعلى مثال ما نعهده في دنيانا، وقد جاء وصف المولى عز وجل في الكتاب المقدس معبرا عنه بأجزاء

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١١٩

الإنسان وأعماله وإحساسه ليقربه الأنبياء إلى مدارك الخلق وعقولهم. فليت شعري أين الخطأ والجهل في إيراد وصف كهذا للجنة والحياة الآخرة يناسب عقولنا، ويتمشى مع مداركنا؟

على أننا لو فرضنا أننا نفسر وصف محمد للجنة تفسيراً على ظاهره، فما بالنا نلوم محمداً على إظهاره هذا النعيم بمظهر الملاذ الجسدية، مع أننا لانستطيع أن نتهمه بأنه أراد أن يجذب إليه أتباعه بهذه الملاذ، وأن يسهل عليهم الدخول في دينه بأشباع شهواتهم البهيمية، فإن في تحريمه للخمر تحريماً شديداً ما يكفي لإبطال هذا الرأي إبطالا تاماً

فلندع إذن تحاملنا وافتتاننا جانباً، ونبحث الدين الإسلامي في ذاته، لنرى أى خطأ فيه .

إن قواعد دين المسلمين قليلة سهلة الأداء، تعصمهم من الخروج على الدين ومن الضلال فيه . فإنهم مع اختلافهم في تفسير شريعتهم متفقون على الأسس الجوهرية فيها، وإن اختلافهم لا يصل إلى حد التناوب والانشقاق المتفشين بين المسيحيين، مما جعلهم أحداثاً عند جميع ديانات العالم . ومعرفة المسلمين لله سبحانه وتعالى تنطوي على العظمة والجلال، ورأيهم في الآخرة مطابق كما ينظر إليه اليهود والنصارى . أما الجانب الخلقى في دينهم فإننا لو أخذنا عن (هوتنجز) الذي غنى بنقل كثير من الآراء من كتب المسلمين لوجدناها سامية نبيلة، ولوجدنا أن واجباتهم مفصلة تفصيلاً تاماً، وهي في نفسها معقولة جداً . تأمل ركني الحج وصوم رمضان، تجد عظيم فائدهما لإمبراطورية حرية تحتاج إلى معونة الجند الأشداء الشجعان، وما من شيء يؤدي إلى توالي زيادتها وترقيتها كهذين الأمرين . فالرجال والنساء عليهم أن يتحملوا سواء بسواء

مشقة الحج والتم الصيام . ويروضوا أنفسهم ليكونوا أهل نشاط وجلد، وصبر وعفة . أما الصوم فوعده غير ثابت وهو يأتي متأخرا شهرا في كل سنة عن سابقتها ، فيقع بذلك تارة في الصيف وتارة أخرى في الشتاء ، أى في أشد الفصول بردا وأشدّها حرا ، وفي أطول الأيام وأقصرها . وهم يؤدونه بكل دقة ، فيحرم على المراه الأكل والشرب من الفجر إلى غروب الشمس - إلا إن كان مريضا أو على سفر - وإن أكثر الناس فسقا وأشدّهم فجورا من المدمنين على تعاطي الخمر في غير أوقات الصيام : لا يقربونها مطلقا في شهر الصوم ؛ ولعمري أن ذلك أقوى وسيلة لتقوية الإرادة الصادقة

واعتقد كذلك أن الركن الثالث وهو الزكاة ضرورى لحفظ قوة المسلمين والدفاع عن سلامتهم في ربوعهم ، والزكاة معناها الزيادة ، ولذا كان إعطاء الزكاة للمعوزين من أهم الوسائل لزيادة المال ، ففيه إرضاء لقلوب الفقراء ، وأمان للأغنياء . أما الصلاة فلا تقل حكمة عن غيرها من الفروض ، لأن إقامة المسلمين الصلاة خمس مرات في اليوم قد أكسبهم نشاطا وخفة لا يكسبهم إياها أى تدير آخر ، وأحيا في نفوسهم شعورا بدينهم لا يمحوه شىء إلا الارتداد عن الدين . هذا إلى أن هذا الدين الحكيم أوجب عليهم ألا يذكروا نيا إلا بالثناء عليه بقولهم « عليه السلام » ، وألا يذكروا عدوا من أعداء دينهم إلا بقولهم « كفانا الله شره » ، ومثل هذه الأقوال تزيدهم ارتباطا بدينهم ، وتبعدهم عن أعدائهم ومخالفهم

وصفة القول أن الشعائر التى يقوم بها المسلمون كالصلاة والحج وغيرهما تعودهم الطاعة ، والدول العظيمة فى حاجة ماسة إلى هذه الفضيلة

حقا إن العمل الذى يسبح فى بحار الأسرار الإسلامية يجد فى الإسلام علما جادا .

الادلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٢١

وتشريعا حكما، وسياسة قوية، وحضارة مكينة. انظر إلى الإسلام كيف لم يشرع ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى، لأنه أراد بذلك أن يرغم أتباعه على وحدة لغوية. وبدهى أن وحدة اللغة والدين والعادات تؤدي إلى منعة الدولة وعظمتها ولا يسعنى في هذا المقام إغفال ذكر طرف من النظم السياسية التي جاء بها نبي الإسلام الدالة على خطر قدره، وسمو شرعه

ومن هذه النظم السماح بتعدد الزوجات، فإن القرآن يبيح للمسلم أن يتزوج بواحدة واثنين وثلاث وأربع إذا شاء، إلا إذا خشي ألا يعدل بينهن - ونظام المسلمين في هذا يطابق سنة الطبيعة، غير أن محمدا عليه الصلاة والسلام يقيد في شريعته عدد الزوجات، كما قدرها جروتياس وسان أوستين وجميع اليهود الربانيون، حتى مايمونيدس، كما نرى ذلك في كتاب سملدن، ولكن مأجازه الطبيعة على الإطلاق قد عدلته شريعة موسى تعديلا يسيرا، فإن ملوك اليهود ممنوعون من تعدد الزوجات (الاصحاح ٢٧ الآية ١٧). ومع ذلك فإن المعروف أن داود عليه السلام كانت له أزواج عدة، ويقول اليهود إنه بالرغم من هذا المنع فللملك أن تكون له ثمانى عشرة زوجة، وواضح أن داود عليه السلام لم يرتكب في ذلك إثما، لأن الله خصه بأزواج عدة

لا يمكننا إذن أن نقول إن تعدد الزوجات محرم عند اليهود، وإذا رجعنا إلى الديانة المسيحية وتساءلنا: أكان تعدد الزوجات محرما على الجميع أم مقصورا على الأساقفة الذين يجب ألا تكون لهم إلا زوجة واحدة؟ وجدنا أن المسألة فيها نظر.

على أن الامبراطور فالنتين سن قانونا أباح فيه للرجل أن يتزوج زوجتين، ومعنى هذا أن تعدد الزوجات لم يكن جزءا من الواجبات الشرعية، وأنه ليس

مقصورا على اليهود بل هو جزء من قانون الطبيعة . فمن أين إذن جاء منعه ؟
و فضلا عن ذلك فإنه كان شائعا بين المسيحيين المتهودين ، ولا يزال موجودا
إلى وقتنا هذا عند اليهود في الشرق

ويقول (سلدن) إنه جائز أيضا عند اليهود في الغرب في حالة عقم الزوجة ،
فللرجل أن يتزوج بأخرى متى كانت زوجته عقيما ، فيحق لنا القول إذن أن
المسيحيين والمتهودين قد جروا على ما جاء في إنجيلهم من أن تعدد الزوجات
غير محرم ، وأن ماورد عكس ذلك في الإنجيل الشائع بين الناس تحريف
وبهتان ، وإنما أخذ ذلك عن العقيدة الوثنية المأخوذة من القوانين الرومانية .
وقد عمل بها المسيحيون الضالون .

ومن المعروف أن المسلمين يحيزون الزواج من أربع فقط . وبما أن ذلك موافق
لعقائد اليهود ، فلماذا لا نظن أنه مطابق لعقائد المسيحيين المتهودين ؟
أما التسرى ، فالظاهر أنه غير مناف لسنة الطبيعة ، ولم يكن مخالفا للشرعة
اليهودية ولا الشرعة المسيحية ، وكتب الدين عندهما مؤيدة لذلك

على أنى وجدت بعد البحث والتحري أن تعدد الزوجات من العادات
القديمة المتأصلة في العالم منذ القدم . وعلى ذلك فقد أقرها الإسلام لأنها وسيلة
إلى إكثار عدد الرعايا ، وهم عصب الدولة ، فضلا عن أن عدد النساء في الشرق
والجنوب أكبر بكثير من عدد الرجال ، وأن أتباع إبراهيم وموسى وعيسى
وغيرهم يحدون من قانون الطبيعة ما يسوغ لهم هذه الإباحة . ولا أرى أن
تعدد الزوجات في الإسلام كان لغرض المتعة والشهوة ، ولم أجد ما يقوم
دليلا على ذلك ، فلم أربطه واحدة - سواء أكانت في القرآن أم في الأحاديث -
تشير إلى هذا المعنى . وكذلك لم أجد شيئا يفيد منعه في العهد القديم والعهد

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٢٣

الجديد . وقد تهم قانون لكرغوس بالترف والتنعيم إذا اتهمت نظام نبى المسلمين . ولو أردت أن أتلس سبيل هذه السياسة الإسلامية الحكيمة لوجدت الأمر كما فى الديانتين اليهودية والمسيحية، وهو أن جميع الرجال أرغموا بذلك على التكاثروالتزايد، ولا سيما فى حال العقم، أو الذين لم يتركوا من بعدهم خلفا . وبما أن زواج المسلمين يرمى إلى التناسل فليس فيه أو فى الطلاق ما لا يقتره اليهود وغيرهم من أمم الشرق، كما ترى ذلك فى رسالة سلدن عن (زوجة يهودية)

ومن القوانين الحكيمة التى سنّها الإسلام القانون الذى حرم فيه الربا على المسلمين، فقد كان من نظم العرب القديمة أن الواجب على كل شخص أن يحسن حالته، ويزيد فى ثروته، ومن يفعل ذلك يكرم ويعظم، ومن لم يفعله يعاقب . فهذا الشرع الحكيم قد فطن إلى أنه من الأهمية بمكان عظيم لدولته التى عمل على عظمتها وخلودها: ألا يكون لأهلها من الفاقة والحاجة ما يدفعهم إلى القيام على حاكمهم، أو التناحر فيما بينهم، لارتفاع بعضهم، بسلب أموال الغير وظلمه . فلم يعمل بهذا النظام السابق، ولما حرم جميع صنوف الربا حث الناس على الإحسان ليتمكنهم من إسعاف المحتاج، إما بالإحسان إليه، أو بإقراضه دون فائدة، وكذلك حثهم على أن يشتغل كل منهم بحرفة أو تجارة دفعا للبطالة . فاستفاد بذلك فائدة أخرى، وهى عمل جميع الناس جسما وعقلا (وهذا من أهم الأسرار فى الحكومات وربما كان السبب الذى من أجله أقام الرومان وغيرهم المعارض العامة) وكان أصحاب الحرف الصغيرة أكثر اغتباطا، يقومون بعملهم مسرورين، إذ يرون أن الذين أسعدهم الحظ بتجارة أو مال لا يعفون من دفع زكاتها، وأن حرفهم لا تعتبر وضعية، وأن أميرهم وصانع السلالة يحترقان حرفة واحدة، وليس بعدهم هذه الحكمة فى السياسة زيادة لمستزيد . ولكيلا يذهب

بعض المسلمين في فهم الربا مذهباً خاطئاً ، ويقولون إن الربا كان مشروعاً كالتجارة ، وأن تبادل التجارة نوع من الربا ، فيحجمون بذلك عن التجارة ويهملون شأنها تفادياً من مضارها - أنزل الله لهم في كتابه الكريم ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وبهذا القانون يحرم على المسلم التعامل بالربا مطلقاً ، سواء أكان مع مسلم آخر ، أم مع مسيحي من الخاضعين لحكومة بلاده ، أم مع أجنبي يعيش بين ظهرانيهم . ومن نعم النظر في نظم محمد المدنية ، ير من الأسباب القوية ما يحمله على الإعجاب بسداد شريعته ، وحكمة أحكامها . وإليك البيان :

كان من الأحكام الموسوية ألا يتعامل إسرائيل مع آخر بالربا لأن موسى عليه السلام لم يقصد توسيع دولته ، بل كان همه الإبقاء على رعيته متحايين غير متنازعين في رقعته الضيقة ، لكن محمداً عليه السلام - وهو صاحب الرسالة العامة - أراد دولة واسعة الأطراف ، فحرم التعامل بالربا مع جميع الأجانب الساكنين ببلاد المسلمين ، لأنه لو أباحه - وكان بينهم كثير من المسيحيين وغيرهم - لكانت هذه الآلة ، وهي جنى الثروة بسهولة عن طريق الربا ، قد أضعفت المسلمين ، وهددت دولتهم بالمشاحنات والخلافات التي تنشأ عادة عن الربا ، وجعلت الحكومة ظالمة مكروهة في نظر الأجانب ، فيزحون عن بلادها وهذا يذكرني بقانون آخر من القوانين الإسلامية ، وهو تحريم القمار وجمع الثروة بأي نوع من أنواع المقامرة ، وهو يحرم ذلك لنفس الأسباب التي حرم من أجلها الخمر ، لأنها مجلبة للخلافات والفقر ، وتؤدي إلى إهمال واجبات الناس نحو الله . فيتضح من هذا القانون كيف قدرت الشريعة الإسلامية العواقب القرية والبعيدة لهذه الأشياء ، ولم تجز الأمور التي يربى ضررها على نفعها ، أو تسمح بتلك السفسطة التي تهادى فيها المسيحيون ، وآلت إلى تدمير ثروتهم

وضياعها، ولقد عرف الدين الإسلامى أهمية عبادة المسلم لله، وجعله دائماً نصب عينيه، وعرف أن من يقامر ويشغل نفسه بأمل الكسب أو خوف الخسارة لا بد أن يكون عرضة لترك الصلاة، وبذلك يتردى فى هوة عدم التدين. ورأى أن الميسر بما يدره من كسب قد يغرى الناس بالغش، والغش معناه عدم الخوف من الله ومن الناس، وهو طريق محرم لجمع الثروة. وكذلك بين هذا الدين أن النفس التى يستهويها المال والمتاع الزائل يأخذ عليها مشاعرها تكون مهياة لارتكاب كل أنواع الشرور والآثام. وأوضح أن المشاحنات والاختلافات الخاصة التى تقع بين الناس تؤدى إلى خسائر المجموع، وتودى بالأسر والمدن والممالك. وأن الآلام والمتاعب التى تعقب خسران الأفراد لا تؤدى إلى هلاك القليل من الناس، بل تعم الجميع، وتحمل اليأس والمعدم على ارتكاب أخطر الاعتداءات وأشدّها ضرراً، فيعود ضرر ذلك على المجموع. وكذلك أذن أن العدوى قد تنتقل من المقامرين إلى غيرهم، وأن الناس مفطورون بطبعهم على الأمل أكثر من الخوف، وأنهم يميلون إلى الكسل أكثر من العمل، وأنهم يهملون واجبات الله بدلاً من القيام بها، وأنهم يحاولون إسعاد أنفسهم طرفة بدلاً من سلوك السبيل السوى الذى يؤدى إليه العمل والعقل. فلهذا سن هذا القانون الصارم الذى تظهر شدته فى كونه حرم على المسلم جميع ضروب المقامرة، فهل من مدكر؟

ولا يمكننى أن أحصى مافى أحكام الإسلام من ضروب الإصلاح والإرشاد، ولكن من الثابت أن عنايته بالتشريع قد تناولت حتى الطيرة والعرافة، للأقدام على عمل أو الامتناع عنه، باستفتاح القرآن، أو بإطلاق سهم فى السماء، أو بسحب سهم - من عدة أسهم - مكتوب عليه: إن الله لا يريد، ولم

يقبل هذا النبي العظيم أن يستخدم المسلمون في مباحثاتهم ويحكموا في مناقشاتهم سوى العقل ، وقد ثبت في عقولهم أنه لا يوجد شيء اسمه المصادقة أو الخطأ في المقادير ، بحيث يصيب المرء ما قدر لغيره ، وأنه من السخف أن يتصوروا أن الله يدلهم على ما في قلبه بطير طائر أو بصياحه ، أو بالطرق بالحصى ، أو في مغابن اليد ومطاوئها

ولا تتسع هذه العجالة لبيان الأسباب القوية والحكم البالغة التي انبثوت في الأحكام الإسلامية ، وبخاصة مزج السلطة المدنية بالسلطة الدينية ولو رجعنا إلى عقيدة القضاء والقدر لهرنا مقدار النجاح الذي أحرزه المسلمون في فتوحاتهم ، لاعتصامهم بها ، في حين أن التاريخ ينبئنا بما أصاب المسيحيين في فرارهم من ساحة الوغى ، وهجرهم ديارهم وأرضهم ، لتخليهم عن هذه العقيدة .

على أنني أقرر - وأنا واثق بما أقول - أنها كانت عقيدة اليهود والمسيحيين الأول ، وقد أيدتها الآيات الواردة فيها في كل من العهد القديم والعهد الجديد وفي الحق لا يستوى جندي لا يخاطر بنفسه في المعارك وجندي يعتقد أنه لا يموت لإميتة واحدة ، وأنه لا يأتيه الموت قبل أجله ، وأن كل تدبير للخلق يتوقف على مشيئة الله ، وأنه لا مصادقة ، وأنه لا يخطئ إنسان إلا وقد قدر له ذلك .

١٢ — تأييد الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وخذلان أعدائه

أيد الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وعصمه من أعدائه ، وهم الجحيم الغفير ، والعدد الكثير ، وهم أحق ما كانوا عليه ، وأشد طلبا لنفسه ، وهو بينهم

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٢٧

مسترسلاً قاهر، ولهم مخالط ومكاثر. ترمقه أبصارهم شزراً، وترتد عنه أيديهم ذعراً

فمن ذلك أنه جلس في بعض منازل تحت شجرة، فاخترط أعرابي سيفه عليه، فأرعدت يده، وسقط منها السيف. ومع ذلك عفا عنه المصطفى عليه الصلاة والسلام، فرجع إلى قومه قائلاً: جئكم من عند خير الناس! وانفرد يوم بدرلاً مرماً، فتبعه رجل من المنافقين مصلاً سيفه من قرابه، فعصمه الله من شره، ورد كيده في نحره.

وقصده دعثور بن الحرث، وفي يده غضب مرهف الحد، في غزوة غطفان، فوقع لظهره، ثم هدى بعدها للإيمان.

وتواعده المشركون مرات عدة، وأتوا للفتك به بكل حيلة ومكيدة: فمنهم من هرب وفر، ومنهم من وقع مغشياً عليه، ومنهم من ضرب الله على عينيه، ومنهم من سقط بين يديه.

ومن ذلك أن قريشاً اجتمعت على قتله، فخرج عليهم من بيته، وحثا التراب على رءوسهم، وخلص منهم وهم له منتظرون: صمّ بكم عمى فهم لا يبصرون.

وتبعه سراقه حين الهجرة يريد قتله — وقد جعلت قريش فيه وفي أبي بكر الجعائل — فلما قرب منهما خر عن فرسه بعد أن ساخت قوائمها مرتين. فناداه بالآمان، وقابله بالإحسان.

وجاء أبو جهل بصخرة ليطرحها عليه — وكان إذ ذاك ساجداً، وقريش تنظر إليه — فبيست يده إلى عنقه، ولم ينفعه هبل، وجاءه مرة أخرى — وهو يصلي عليه الصلاة والسلام — فلما قرب منه

ولى نا كصا على عقبية .

ومن ذلك أن كلدّة بن أسد أبا الأشد — وكان من القوّة بمكان — خاطر قريشا يوما على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأعظموا له الخطر إن هو كفاهم . فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطريق يريد المسجد ، فجاء كلدّة ومعه المزراق ، فرجع المزراق في صدره ، فعاد فرعا ، فقالت له قريش : مالك يا أبا الأشد ؟ فقال : ويحكم ، أما ترون الفحل خلفي ؟ قالوا : مانرى شيئا . قال : ويحكم ، فإنى أراه .

ومن ذلك أن كثيرا من اليهود والكهان أنذروا به صلى الله عليه وسلم ، وعينوه لأصحاب الاوثان ، وأخبروهم بأمره ، وحضوهم على قتله ، فعصمه الله تعالى منهم بنصره ، وحرسه بعينه التى لاتنام ، وكلاءه بعنايته فى الرحلة والمقام ، وجعل فى أعناقهم أغلالا ، وألبسهم من الذل والهوان سربالا ، وكف أيديهم عنه إذ هموا ببسطها ، وحى رسوله عليه الصلاة والسلام وكفاه : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ .

آتم الله التأييد لنيه محمد صلى الله عليه وسلم : فكنه من توحيد أمة منقسمة إلى قبائل متعادية ، وجاءها بقانون كفل لها السلطان على جميع الأمم ، بعد أن كانت فى حيز العدم . ومحا العقائد الباطلة ، وأبدل بها ديننا بلغ من سمو مبادئه أنه لا يزال يزد وينمو فى كل يوم بنفسه .

تمت له هذه الأمور كلها ، ولم يفقد من طهارة نفسه ولا سمو روحه مثقال ذرة ، ولم تفنن نفسه الطاهرة بنجاحه الباهر ، مع أن عشر معشار هذا النجاح العظيم قد فتن كثيرا من الملوك والمشرعين والفلاسفة والقواد .

١٣ — تكامل الفضل فيه

كَمَلَهُ اللهُ بِالْفَضَائِلِ . وحسبك دليلاً مايلي :

(أ) كَمَلَهُ بالسكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم ؛ فكان صلى الله عليه وسلم أعظم

مَهِيْبٍ فِي النُّفُوسِ ، حَتَّى ارْتَاعَتْ رُسُلَ كَسْرَى مِنْ هَيْبَتِهِ حِينَ أَتَوْهُ ،
مَعَ ارْتِيَاظِهِمْ بِصَوْلَةِ الْكَاسِرَةِ ، وَعِظْمَةِ الْمُلُوكِ الْجَبَّارَةِ .

(ب) اسْتَحْكَمَتْ مَحَبَّةُ طَلَاقَتِهِ فِي النُّفُوسِ حَتَّى لَمْ يَقْلَهُ مُصَاحِبٌ ، وَلَا تَبَاعَدَ

عَنْهُ مُقَارِبٌ ، فَكَانَ أَحَبَّ إِلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ .

(ج) مَالَتْ النُّفُوسُ إِلَى مُتَابَعَتِهِ ، وَانْقَادَتْ لِمُوَافَقَتِهِ ، وَثَبَّتْ عَلَى شِدَائِهِ

وَمُصَابِرَتِهِ ، وَلَمْ يَنْفِرْ مِنْهُ مُعَانِدٌ ، وَلَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ مُبَاعِدٌ — إِلَّا مَنْ

سَاقَهُ الْحَسَدُ إِلَى شِقْوَتِهِ ، وَقَادَهُ الْحَرَمَانُ إِلَى مَخَالَفَتِهِ .

(د) أَوْتَى رِجَاحُهُ فِي الْعَقْلِ ، وَعُلُوُّهُ فِي الْهَمَّةِ ، وَصَدَقَ فِي الْفِرَاسَةِ ، فَكَانَ

دَائِمًا صَحِيحَ الرَّأْيِ ، جَيِّدَ التَّدْيِيرِ . مَا اسْتُغْفِلَ فِي مَكِيدَةٍ ، وَلَا اسْتُعْجِزَ فِي

شِدَّةٍ ، بَلْ كَانَ يَلْحِظُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فِي الْمَبَادِي ، فَيَكْشِفُ عِيُوبَهَا ،

وَيُنْجِي مِنْ خَطُوبِهَا .

(هـ) كَانَتْ حَيَاتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيَاةَ ثَبَاتٍ فِي الشَّدَائِدِ . وَنَفْسُهُ فِي

اِخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ سَاكِتَةٌ : لَا يَتَحَيَّرُ فِي شِدَّةٍ ، وَلَا يَسْتَكِينُ لِعَظِيمَةٍ

أَوْ كَبِيرَةٍ ، وَكَانَ مَعَ قَلَّةِ أَعْوَانِهِ يَصَابِرُ صَبْرَ الْمُسْتَعْلَى ، وَيُثَبِّتُ ثَبَاتَ الْمُسْتَوَلِيِّ :

رَوَى حَمَّادُ بْنُ سُلَيْمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ

اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : أَخَفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ

أوذيت في الله وما يؤذَى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون مائين يوم وليلة
وما لي ولبلال طعامٌ يأكله ذو كبد ، إلا شيء يواريه إبط بلال .
(و) إعراضه صلى الله عليه وسلم عن زخرف الدنيا والاكتفاء بالكافي منها :
فلم يمل إلى غُضارتها ، ولم يستمتع بحلاوتها ، وقد ملك من أقصى الحجاز
إلى عذار الفرات ، ومن أقصى اليمن إلى شحر عُمان ، وهو صلى الله
عليه وسلم أزهّد الناس فيما يُقتنى ويدّخر ، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر ،
لم يخلف عينا ، ولم يورث أهله وولده متاعا ولا مالا ، ليصرفهم عن
الرغبة في الدنيا كما صرف نفسه عنها . ولقد جاءت فاطمة رضي الله عنها
إلى أبي بكر رضي الله عنه ، تريد الميراث . فقال لها : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : إنا لا نورث : ما تركناه فهو صدقة . ثم قال لها : من
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوله فأنا أعوله . ومن كان ينفق
عليه فأنا أنفق عليه .

(ز) خَفَضَ جناحه للناس وهم له أتباع ، فكان يمتزج بأصحابه وجلسائه ، فلا
يتميز عنهم إلا بإطرافه وحيائه ، وجليل سمته وروائه . ولقد دخل عليه
صلى الله عليه وسلم بعض الأعراب ، فارتاع من هيئته . فقال : خَفَضَ
عليك ؛ فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة . ولعمري أن هذا
من شرف أخلاقه وكريم شيمه . فهي غريزة فطر عليها . وجبلة طبع
بها ، لم تندر قُتْعَد ، ولم تحصر فتحة .

(ح) رزقه الله الحلم والوقار . ولقد منى بجفوة الأعراب ، وهم في الجفوة من
هم ، فلم يُحَفِّظ عليه بادرة ، ولم يعرف حلیم غيره إلا ذو عثرة ، ولا وقور
سواه إلا له هفوة . أما هو فقد عصمه الله تعالى من نزغ الهوى ، وطيش

القدرة ؛ ليكون بأتمه رموقا ، وعلى الخلق عطوفا . قد تناولته قريش بكل كبيرة ، وقصدته بكل جريرة ، وهو صبور عليهم ، معرض عنهم . ولما ظفر بهم عام الفتح — وقد اجتمعوا إليه — قال لهم : ما ظنكم بي ؟ قالوا : ابن عم كريم . فان تعف فذاك الظن بك ، وإن تنتقم فقد أسأنا . فقال صلى الله عليه وسلم : بل أقول كما قال يوسف لإخوته : لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم قد أذقت أول قريش نكالا . فأذق آخرهم نوالا .

(ط) حفظ صلى الله عليه وسلم العهد ، ووفى بالوعد ، فأنقض لمخافظ عهده ، ولا أخلف لمراقب وعدا ، بل كان يرى الغدر من كبائر الذنوب ، والإخلاف من مساوئ الشيم

(ي) أوتي من الحكمة البالغة والعلوم الجمة الباهرة ما بهر العقول ، وأذهل الفطن : من إتقان ما أبان ، وإحكام ما أظهر ، فلم يُعثر فيه بزلل وهو مع ذلك أمي من أمة أمية : لم يقرأ كتابا ، ولا درس علما ، ولا صحب عالما ولا معلما . تأمل أنه أوجز المراد من شريعته في أحاديث أربعة :

الأول : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى » .

والثاني : « الْحَلَالُ بَيْنَ ، وَالْحَرَامُ بَيْنَ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، وَمَنْ يَحْمِ حَوْلَ الْحَمِيِّ يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ » .

والثالث : « مَنْ حَسَنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » .

والرابع : « دَعِ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ » .

وحسبك هذا دليلا على صفاء جوهره ، وخلوص مخبره

(ك) لم يعزب عنه من قصص الأنبياء مع الأمم ، وأخبار العالم في الأحقاب

الخالية - صغير ولا كبير ، مع أنه لم يضبطها بكتاب درسه ، ولم يتلقها عن معلم لقنه ، بل علمه الله وآتاه ذهنًا صحيحًا ، وصدرًا فسيحًا ، وقلبا شريحا . وتلك أداة الرسالة ، وميزة النوة

(ل) أيد شريعته بأظهر دليل ، وأبانها بأوضح تعليل ، فخرج منها ما يوجب معقول ، ولا دخل فيها ما تدفعه العقول ، وإلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « أُوتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ ، وَأُخْتُصِرَتْ لِي الْحِكْمَةُ اخْتِصَارًا ، (م) أمر بمحاسن الأخلاق ، ودعا إلى مستحسن الآداب ، وحث على صلة الأرحام ، وندب إلى التعطف على الضعفاء والأيام ، ونهى عن التباغض والتحاسد ، وكف عن التقاطع والتباعد ، فقال : ﴿ لَا تَقَاطَعُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ﴾ ؛ لتكون الفضائل فيهم أكثر ، ومحاسن الأخلاق بينهم أظهر ، وإلى الخير أسرع ، ومن الشر أمتع ؛ ولينحقق فيهم قول الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ . فيتكامل لهم صلاح دينهم ودنياهم ، ويصبحوا أئمة أبرارا ، وورثة أطهارا ، وقادة أخيارا .

(ن) كان واضح الإجابة ، ظاهر الحجة ، فلا يحصره عي ، ولا يقطعه عجز ، ولا يعارضه خصم في جدال إلا كان جوابه أوضح ، وحججه أرجح : جاءه أبي بن خلف الجُمَحِيُّ بعظم نحر من المقابر قد صار رميما ، ففركه حتى صار رمادا ، ثم قال : يا محمد ، أنت تزعم أنا وآباءنا نفوذ إذا صرنا هكذا . لقد قلت قولا عظيما ماسمعا من غيرك : من يحيي العظام وهي

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٣٣

رميم؟ فأنطق الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ببرهان نبوته فقال:
 ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ . فانصرف مبهورا ،
 ولم يُحَرِّجْ جوابا

(س) حفظ الله لسانه من تحريف في قول ، أو إيراد خبر يجانب الصدق . ولم
 يزل صلى الله عليه وسلم مشهورا بالصدق في خبره ناشئا وكبيرا ، حتى
 صار بالصدق مرقوما ، وبالأمانة موسوما . ومن لزم الصدق في صغره
 كان له في الكبر ألزم ، ومن عصم منه في حق نفسه كان في حقوق
 الله تعالى أعصم

(ع) نقل أئمة بما جاء به من الدين عن مألوفها ، فأذعن له النفوس طوعا ،
 وأنقادت خوفا وطمعا ، وأجتمع الراغبون والراهبون على نصرته ،
 وقاموا بحقوق دعوته ، رغباً في عاجل وآجل ، ورهباً من زائل ونازل .
 وبالرغبة والرغبة صار الدين مستقرا ، والصلاح بهما مستمرا .

(ف) أمر أئمة بالاعتدال : فلم يلزم بهم إلى الدنيا كما رغبتم اليهود ، ولا إلى
 رفضها كما ترهبتم النصارى ، بل قال لأصحابه : « خَيْرُكُمْ مَنْ لَمْ يَتْرُكْ دُنْيَاهُ
 لِآخِرَتِهِ ، وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ » ؛ لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال ، والجمع
 بينهما اعتدال . ولم يأمر أبدا برفض الدنيا كما يتقول المتخرسون ؛ لأن
 منها يتزود المؤمن لآخِرته ، ويستكثر فيها من طاعته ؛ ولأنه لا يخلو
 تاركها من أن يكون محروما مضاعفا ، أو مرحوما مُراعى . وهو في
 الأول كَلٌّ ، وفي الثاني مستذل . تأمل هذه القصة : اتى على رجل بخير
 في حضرة الرسول ، فقيل : كنا إذا ركبنا لا يزال يذكر الله تعالى حتى

تنزل ، وإذا نزلنا لا يزال يصلى حتى نرفع . فقال الرسول : فمن كان يكفيه علف بعيره وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، فقال : كلكم خير منه (ص) اتسع زمنه القصير لنشر الدعوة أولا سرا ثم جهرا ، وللحروب التى تطلبتها الدعوة بعد الهجرة ، ولتوضيح أحكام الدين ، فبين العبادات ، وأوضح الحلال والمباح والمحظور ، وفصل مايجوز وما يمنع من عقود ومعاملات ، حتى احتاج اليهود والنصارى فى كثير من معاملاتهم ومواريتهم إلى شرعه ؛ ولم يحتج شرعه إلى شرع غيره ، ثم مهد لشرعه أصولا تدخل فيها أحكام الحوادث المتجددة فى الأزمنة والأمكنة المتعددة ؛ حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديا ، ولما تقلده من حقوق الأئمة موفيا ؛ حتى لا يكون فى حقوق الله زلل ، ولا فى مصالح الأئمة خلل . كل ذلك فى زمن موجز ، تم فيه هذا الأمر الخارق المعجز

(ب) الأدلة الحسية

إلمامه بالمعجزات ، ووجه الحاجة إليها

ضرورة المعجزة للرسول :

يأتى الرسل دائما بعبادة تخالف عبادة أقوامهم ، ويصدعون بأمر لا تجرى على سنتهم أو مألوف عاداتهم ، وما بعث رسول فى قوم إلا كان الجهل ناشرا أعلامه ، والشرم لقيامجرانه ؛ ولهذا كانت رسالته شاقة مضنية ، وجهاده عنيفا طويلا . ولكى تكون هذه الرسالة مضمونة النجاح ، وذلك الجهاد مكلا بالفلاح ، كان لابد له من سلاح من الإقناع يشهره فى وجه مكابريه ،

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٣٥

ومصباح من البرهان يبدد به شبهات جاحدى رسالته ومعانيده ، لكى تكون رسالته ثابتة قائمة ، ومناطق الثواب والعقاب بعدها صحيحا ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وللإقناع إحدى سبيلين : إما العقل والبرهان ، وإما المعجزة المبينة على خرق العادات ؛ وإذا كان البرهان العقلى لا يخضع له إلا ذوو العقول المستنيرة ، والأذهان الصافية ، والقلوب المستشرقة للعرفان ، والنفوس المستعدة للإيمان ، فإن فى البشر من ران الله على قلبه ، وطمس على بصيرته ، أو من أخذ الجهل بضبعيه ، ووضعت حجب التقاليد غشاوة على عينيه ، فهؤلاء لا يصلح لدعوتهم إلا أن يروا أمرا خارقا ، ويلبسوا بأيديهم شيئا متصورا بالعقل ، معجزا للبشر ، فيتأكد الم مطمئن ، ويعطمن المتردد ، وتقوم الحجة على الجاحد المعاند .

حقيقة المعجزة :

والمعجزة فى تعريفها وحدها . هى أمر خارق لنواميس الكون ، خارج عن سنن الوجود التى عرفها الناس ، واصطلح عليها الخلق ، يجرىها الله على يد رسوله ، تصديقا لدعوته ، وإقناعا للبرتابين فى رسالته . . . والاساس فيها أن تكون غير خاضعة لناموس معروف ، أو مقيدة بنظام مألوف ، ومخطئ من يحاول أن يقربها للأذهان ، بأن يدخلها تحت قانون ، أو يخضعها لسنن الوجود ، لأنه بذلك يبطل حقيقتها ، ويسقط حجة حاملها ، ويردها إلى الظواهر العلوية ، أو يلحقها بأعمال السحرة ، أو حيل المشعوذين .

كيف تقع المعجزة للرسول :

والرسول لا يستطيع أن يأتي بالمعجزة من نفسه ، أو اقتراحا من عنده ؛

إذ الأمور التي تقع بها إنما هي مما تفرد به جل شأنه ، واختص به تعالى وحده ، فهو قد تفرد بالعلم ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ واختص بالغيب ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ وتوحد بالقدرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وأمر رسوله أن يبرأ من دعوى العلم أو القدرة أو الغنى ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾ وأن يرد علم الساعة إليه جل شأنه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ وتحدى كفار قريش محمدا بالمعجزات فما استطاع إلا أن يعلن بشريته ، ويرد صفات الكمال إليه سبحانه ، ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَلَائِلَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَالًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

ولكن الرسول قد يمنحه الله من صفاته ما يريد ، ويجرى على يديه من المعجزات ما يشاء ، في ملابسات خاصة ، وأحوال مقصودة . فأحيانا يسمعه ما لا يسمع غيره كما وقع لموسى ، ومرة يقدره على ما لم يقدر عليه سواه كما حدث من إبراهيم الأكمه لعيسى ، وآونة يطلعه من غيبه على ما لم يطلع عليه غيره ، كما أخبر محمدا صلى الله عليه وسلم بكثير من الغيوب

أنواع المعجزات :

ومعجزات الرسل صلوات الله عليهم في عمومها تنقسم أقساما ، كل تقسيم باعتبار خاص : فهي تارة تنقسم إلى عقلية معنوية كالقرآن ، أوحسية كفلق البحر ، وإخراج الناقة من الصخر . وتارة تنقسم إلى ما يكون من نوع قدرة البشر ، وفي نطاق شأو الخلق ، ولكن الله يصرفهم ، ويوقف قدرتهم ، كصرف المشركين عن تمنى الموت ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿ وإلى ما يكون خارجا عن قدرة البشر ، كوقوع النار بردا وسلاما على إبراهيم ، وكانقلاب العصا حية لموسى ومرة تنقسم إلى ما يكون في الجهات العلوية كالحصول من انشقاق القمر لمحمد ، ورد الشمس ليوشع ، وإلى ما يكون في الجهات الأرضية كنبع الماء من بين أصابع محمد ، وكتكليم الشجر له ، وتسبيح الحصى بين يديه .

خصائص محمد من بين الأنبياء :

والأنبياء يختلفون كثرة وقلة في ظهور هذه المعجزات ، وخوارق العادات بحسب أحوالهم ، وطبيعة أزمانهم ، وأحوال أممهم وشعوبهم ، فبعضهم لانعلم له إلا معجزة واحدة كصالح وهود ، وبعضهم كان له أكثر من معجزة كعيسى وموسى ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أكثر الأنبياء معجزات ، وأظهرهم آيات ، وأوضحهم خوارق عادات . اشتملت معجزاته على المعقول والمحسوس ، والعلوي والسفلي ، والناطق والصامت ، والمتحرك والساكن ، فنها معجزات ذهبت بذهاب زمانها ، ومنها معجزات ظلت على وجه الدهر

ساطعة بنورها وبرهانها ؛ ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، ورسالته هي خاتمة الرسالات ، وهي الباقية على وجه الأرض ، حتى تبدل الأرض غير الأرض والسموات

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم لا يحيط بها ضبط ، ولا يحتملها إحصاء ، بعضها نقل إلينا متواترا ، وعلم لنا قطعا كالقرآن ؛ فقد وصل إلينا بطرق لا يستطيع الشك أن يدخلها ، ولا يمكن للريب أن يأخذ سبيله إليها ، وبعضها رواه العدد ، وشاع به الخبر ، وتناقله المحتثون والرواة ، وحمله نقلة السير والأخبار ، ولا سبيل إلى الشك في هذه الآيات ، أر الطعن في صحة تلك المعجزات البينات ، إذ كان وقوعها على ملايين الناس في الغزوات والمجالس ، وفي مجامع العساكر والمحافل ، رواها الرواة ، وعلم بها صحابة رسول الله ، ولم يؤثر عن واحد منهم أنه خالف الراوى فيما رواه ، أو أنكر عليه ما حكاه ، وهم المنزهون بالسكوت على الباطل ، أو الإغضاء على الكذب ، ولا سيما في كل ما يمس رسول الله ، أو يلامس أحواله ، أو يلابس أعماله وأقواله ، فسكوت الساكت منهم كنطق الصامت ؛ فلا وزن لمن يداخله الريب في معجزاته ، ولا قدر لمن يحاول أن يطمس شيئا من آياته

ماض شمس الضحى في الأفق طالعة ألا يرى ضومها من ليس ذا بصر

دلائل للرسول تقوم مقام المعجزات :

وعلى أنه صلى الله عليه وسلم قد انفرد من بين الرسل بدلائل على نبوته كانت تقوم مقام المعجزات . كتبشير الأنبياء به قبل بعثه في كتب الله المنزلة وعلى السنة رسله البررة ، وإن أنكره الأحبار ، وحرفه الرهبان ﴿ الذين

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٣٩

يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴿١٠٥﴾ وَكَانَ يُلَوحِ مِنْ سَمَاحَةِ وَجْهِهِ ، وَكَمَالِ خَلْقِهِ ، مَا يَدْنِيهِ مِنَ الصِّدْقِ ، وَيُنْثِيهِ عَنِ الْاِقْتِرَاءِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ جِئْتُهُ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ وَجْهُ كَذَّابٍ . وَكَأَنَّ ظَهْرَ مَنْ حَسَنَ سِيرَتِهِ ، وَكَمَالَ نَحِيزَتِهِ ، وَانْسِجَامَ طَبْعِهِ ، وَرَجَاحَةَ عَقْلِهِ مَا يَدْفَعُ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، وَيَرْغَبُ فِي تَصْدِيقِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ . جَاءَ فِي خَبَرِ الْجَلَنْدِيِّ مَلِكِ عَمَانَ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، قَالَ الْجَلَنْدِيُّ : وَاللَّهِ لَقَدْ دَلَّنِي عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ آخِذٍ بِهِ ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَرٍّ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ تَارِكٍ لَهُ ، وَأَنَّهُ يَغْلِبُ فَلَا يَظْهَرُ ، وَيُغْلِبُ فَلَا يَضْجَرُ ، وَيُنْفِذُ بِالْعَهْدِ ، وَيَنْجِزُ الْمَوْعُودَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَإِنَّهُ قَدْ تَفَرَّدَ أَيْضًا فِي رِسَالَاتِهِ بِمُعْجَزَاتٍ ، وَتَمَيَّزَ عَنْهُمْ بِعَلَامَاتٍ .

ولمّا لنورد عليك غيضاً من فيض وقلا من كثر ، على مقدار ما تستغنى به جوانب نفسك ، وندخل به بشاشة الإيمان واليقين على قلبك ، وحسبك من الزاد ما بلغك المحل .

معجزاته صلى الله عليه وسلم

القرآن :

ارتفع مقامه صلى الله عليه وسلم بهذه المعجزة ، واختص بهذه الآية ، الجديدة على وجه الزمان ، الباقية على كثر الأيام ، اختارها له جل شأنه ليظل بها الدليل قائما ، والإعجاز مستمرا ، إذ كانت رسالة محمد هي الباقية وشريعته هي الخالدة . فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مامن الأنبياء نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » وتوضيحه أن الأنبياء عليهم السلام كل منهم قد أوتي من الحجج والدلائل على صدقه ، وصحة ما جاء به عن ربه ، ما فيه كفاية وحجة لقومه الذين بعث إليهم ، سواء الذين آمنوا به نفاذوا بأبوابهم ، أو جحدوا فاستحقوا عقوبة كفرانهم ، وإنما كان كل الذي أوتيت أى جلّه وأعظمه الوحي الذي أوحاه الله إليه ، وهو القرآن الحجة المستمرة القائمة في زمانه وبعده ، فإن البراهين التي كانت للأنبياء قد انقرض زمانها ، وفات أوانها ، ولم تبق إلا أخبارها والحكايات عنها .

وقد أسلفنا من الكلام في وجوه إعجاز القرآن ما فيه مقنع .

وقد كانت هذه المعجزة الخالدة العجيبة ، كافية للدلالة على صدقه ، وشاهدة على صحة رسالته . ولكن الله عزها بمعجزات غيرها حسية ، ليزيد في إيمان المؤمنين ، ويدحض من حجة الجاحد ، ويفل من غرب المعاند .

انشقاق القمر :

طلب الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل والعاص بن وائل ، والعاص بن هاشم ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب ؛ من المصطفى صلى الله عليه وسلم ، آية . فانشق القمر فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : « اشهدوا » قال بعضهم : رأيت الجبل بين فرقتي القمر . قال كفار قريش حين رأوا هذه الآية : سحرهم ابن أبي كبشة ، فقال رجل منهم : إن كان محمد سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر ، هل رأوا هذا ؟ فأتوا فسألوهم ، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك ، فقالوا هذا سحر مستمر ، فأوحى الله إلى محمد ﴿ اقْرَبْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ .

تيسير الماء لقومه على يديه :

أ - عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه ، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشرب القوم ، وتوضأوا ، وكانوا ألفا وخمسمائة .

ب - أصاب الناس شدة من العطش في جيش العسرة ، حتى إن الرجل لينحر بعيده فيشرب عصير فرثه من فرط العطش ، فرغب أبو بكر في الدعاء إليه ، فرفع يديه بالدعاء ، فلم ترجعاً حتى أتت السماء من أديمها بما لا يحصر ، فشربوا وارثوا ، وملثوا مامعهم من الآنية .

ج — أصابت الناس مخصّة في بعض مغازيه ، فجمع من الأزواد ماربضة العثر توازيه ، ثم دعا الناس بأوعيتهم الخلية ، فلم يبق في الجيش وعاء إلا مليء وبقيت بقيته .

تكثيره للأطعمة :

ا — قال أبوهريرة : والله إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذى يخرجون منه ، فرأى أبو بكر فسأله عن آية من كتاب الله عز وجل ، ما سأله إلا ليستبغنى فلم يفعل ، فرمى الله عنه فسأله عن آية من كتاب الله ما سأله إلا ليستبغنى فلم يفعل ، فرمى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فعرف ما فى وجهى وما فى نفسى ، فقال : أبا هريرة ، قلت له : لبيك يا رسول الله ، فقال : الحق . فاستأذنت ، فأذن لى ، فوجدت لبناً فى قدح ، قال : من أين لكم هذا اللبن ؟ فقالوا : أهدها لنا فلان أو آل فلان ، قال : أبا هريرة ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : انطلق إلى أهل الصفة فادعهم لى ، قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لم يأتوا إلى أهل ولا مال . إذا جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية أصاب منها وبعث إليهم منها . وإذا جاءت الصدقة أرسل بها إليهم ، ولم يصب منها شيئاً ، قال : وأحزنتنى ذلك ، وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتغذى بها بقية يومى وليلى ، وقلت : أنا الرسول ، فإذا جاء القوم كنت أنا الذى أعطيهم ، وقلت ما يبق لى من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله . فأنطلقت فدعوتهم ، فأقبلوا ، فاستأذنوا فأذن لهم ، وأخذوا بحالهم من البيت ثم قال : أبا هريرة ، خذ فأعطهم ، فأخذت القدح فجعلت أعطيهم ، فبأخذ الرجل

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٤٣

القدح فيشرب حتى يروى ، ثم يرث القدح ، حتى أتيت على آخرهم ، ودفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ القدح فوضعه في يده ، وبقي فيه فضله ، ثم رفع رأسه ونظر إلى وتبسم ، وقال أبا هريرة ، فقلت : لبيك يا رسول الله ، قال : بقيت أنا وأنت ، فقلت : صدقت يا رسول الله ، قال : فاقعد فاشرب ، قال فقعدت فشربت ، ثم قال لي : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول لي : اشرب ، فأشرب حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ، ما أجده في مسلكا ، قال : ناولني القدح ، فرددت إليه القدح ، فشرب من الفضلة

ب - أتى أبو طلحة رضى الله عنه بمدين من شعير ، فأمر به فصنع طعاما ، ثم قال لأنس بن مالك : يا أنس ، انطلق فائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فادعه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنده ، فقال : إن أبا طلحة يدعوكم إلى طعامه ، فقام ، وقال للناس قوموا ، فقاموا وأنس يمشى بين أيديهم حتى دخلوا على أبي طلحة ، فلما رآهم قال لأنس : فضحتنا ! قال : إنى لم أستطع أن أرتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : اقعدي ، ودخلوا عشرة ، فلما دخل وأتى بالطعام أكلوا كل معه القوم حتى شبعوا ، ثم قال لهم : قوموا ، وليدخل عشرة مكانكم ، حتى دخل القوم كلهم وأكلوا ، وفضل لأهل البيت ما شبعهم ، وكانوا نيفا وثمانين

شفاؤه لبعض الأمراض

١ - أصيبت عين قتادة يوم أحد ، حتى وقعت على وجنته ، فردتها صلى الله عليه وسلم

ب - رمدت عينا على يوم خيبر ، فنفت فيها فأصبح رمده كأن لم يكن شيئا يذكر .

ج - انكسرت ساق ابن الحكم يوم بدر ، فنفت عليها ، فبرأ لوقتته ، ولم يحصل له ألم .

انقياد الشجر له :

ا - دنا أعرابي من النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا أعرابي : أين تريد ؟ فقال : إلى أهلي ، قال : هل لك إلى خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، قال : من يشهد لك على ما تقول ؟ قال : هذه الشجرة ، وهي بشاطئ الوادي ، فأقبلت تتخذ الأرض حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثا ، فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلى مكانها .
ب - كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم على جذع ، فلما صنع له المنبر ، وقام عليه ، سمع لذلك الجذع صوت كصوت العشار ، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده عليه فسكت .

سقوط الأصنام بإشارة من قضيب كان في يده :

كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، أرجلها مثبتة بالرصاص في الحجارة تثبيتاً محكما ؛ فلما دخل عام الفتح إلى المسجد الحرام ، جعل يشير بقضيب في يده إلى تلك الأصنام ، فوقعت لوجوهها وظهورها حسب إشارته .

استجابة الله لدعواته :

ا - دعا لأنس بالبركة ، وتكثير الولد والمال ، فلم يعلم أحد نال من كثرة الولد ورخاء العيش ما نال .

ب قال للنابغة الجعدي : لا يفيض الله فاك ، فأدرك بدعائه غاية تلوع على الأفلاك ، وعمر وكان أحسن الناس ثغرا ، كلما سقطت له سنّ نبتت له أخرى .

ج - دعا لابن عباس بالتفقه في الدين وعظيم التأويل ، فكان بعد يسمى
حبر الأمة
د - ودعا على كسرى بتمزيق ملكه ، فتمزق . وتشنت شمل ذريته وتفرق

الإسراء والمعراج

خليق بنا أن نختتم بحث المعجزات بكلمة (١) في الإسراء والمعراج :
الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وعلى آله وأصحابه .

إن الناس اليوم يقدسون عقولهم ، ويسرون وراء ما يمليه عليهم علمهم
القاصر ، ونظرهم الضعيف . وكل من سار وراء عقله ، ووزن كل ماجاء
عن الرسول بميزان فكره ، قلبا يؤمن إيمانا صحيحا . فإذا راقك من العقل
ما يشقشق به في بعض الأحيان ، لم يلبث أن يسوءك منه ما يهذى به في وقت
آخر . ولا غرو فالجهل حليف الإنسان ، والضعف لازم من لوازم البشرية ،
وقصور العلم من صفاتها الذاتية ، وأعراضها اللازمة . وكل من لم يصدق إلا
بما وصل إليه عقله ، وبلغته حدود علمه ، ليس مؤمنا بالرسول على الحقيقة ،
ولإنما هو مؤمن بعقله .

وما جاءت الرسل إلا لتخبرنا بما وراء الطبيعة ، مما لم تصل إليه العقول
التي لا تستمد معلوماتها إلا من المحسوسات ، وما تنتزعه منها من المعقولات
الثانية ، مما هو راجع إليها ومتوقف عليها . ومقدورات الله لانهائية لها ،
وعوالمه لاحد لها ، ولكل عالم قانون يخصه .

فمن الخطأ البين الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر . وإذا كنا نرى

(١) هذه الكلمة القيمة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى

من بعض أنواع الحيوان ما لا يعيش إلا في الماء ، ومن بعضها ما لو مكث في
البحر لمات ، ومن بعضها ما يقتله «ثاني أو أكسيد الكربون» كالإنسان ، ومنها
ما يقتله «الأوكسيجين» ككثير من الحيوانات الدنيا — ولعلنا كنا لانصدق
ذلك قياسا على أنفسنا ، لولا مشاهدتنا لياه — فكيف بما لم نقف له على عين
ولا أثر من العوالم الأخرى التي تحس والتي لا تحس !

وإني لأعجب لهم كيف يتبحرون ، ويحكمون في كل الأشياء بالاحكام
الجازمة . اعتمادا على بضع قوانين وصلوا إلى ظواهرها من قوانين هذا الكون
التي لا يحصيها إلا الله ، ولا يدري عنها غير مبدعها الذي لا حد لقدرة ،
ولانهاية لعله !

وليت شعري بعد ذلك كله ، أي عقل نحكمه فيما ورد عن الشارع ؟ أهو عقل
الأفراد أم عقل الجماعات ؟ وما هو الضابط إذا اختلفت العقول ، وليس هناك
نوع من الأنواع وقع التفاوت بين أفرادها مثل نوع الإنسان ، الذي هو مظهر
المتناقضات ، وجمع العجائب والغرائب ، وقد خاطب الله الخلق جميعا بقوله
«وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ويقول في حق الإنسان : «إنه كان ظلوما جهولا» ؟
وإننا لنرى في تحبطه وتناقضه وارتبائه في أحواله ، واضطرابه في أعماله ،
الدليل الساطع على أنه مخلوق من الطيش والجهالة ، والعجز والقصور . فعلام
تلك الكبرياء ؛ وهو من الضعف بحيث يرثى له ، ويشفق عليه !

الموضوع

لا يستند هؤلاء المنكرون إلا إلى الاستبعاد العقلي ، وقياس الغائب على
الشاهد ، وإرجاع ما لم يعلموا إلى ما علموا . والجاهل لا يعرف قدر نفسه ،

ولا قدر العلم ، ويعتقد أن كل ماخرج عن دائرة علمه في دائرة العدم . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، ومن الغريب الذي يؤسف له ، أنهم إذا سمعوا أن بعض الأوربيين يريد الوصول إلى القمر ، ويفكر في إعداد العدة لذلك ، لم يتحرك منهم ساكن ، بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالوا : إن العلم يلد العجائب ، والاكتشاف يأتي بالغرائب . ولكنهم إذا سمعوا أن الرسول عرج به إلى السماء ، قامت قيامتهم ، وهدرت شقاشقهم ، وظهر كل مافي نفوسهم الضعيفة من خبت وإلحاد .

وستكلم معهم بما يخضعون له إذا سمعوه عن سادتهم الأوربيين ، الذين لم يعلموا عليهم ، ولا أحسنوا محاسنهم

أما الكلام من الجهة النقلية ، فأظنه لا يعينهم كثيرا ، ولا يقنعهم كثيرا أوقليلا . ومع هذا فسنقول فيه كلمة موجزة ، من أجل الفريق الثاني الذي ينتسب إلى العلم ، ولا يمكنه الخروج عن الكتاب والسنة ، ولكنه يؤول ويحزف اغترارا ببعض الروايات ، وإجابة لنزعة عنده ، وعقيدة لديه لا تبعد كثيرا عن عقيدة الماديين ؛ وإن كان مذبذبا بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فنقول :

إن من قال : إن الإسراء بالروح ، تمسك ببعض روايات مطعون فيها ، كرواية عائشة (رضي الله عنها) التي ردها الحفاظ ، وقالوا : إنها غير صحيحة من وجوه عدة ، لا نطيل بها الكلام . وكرواية شريك بن أبي نمر ، التي طعن فيها الحفاظ بما يطول شرحه ، وليس غرضنا إلا أن نشير إلى ذلك إشارة خفيفة ، يعرفها ذلك الفريق من الشيوخ المتفقيين . والعالم كل العالم من لا يتأثر بكل ما رآه ، أو يهوّش بكل ما روى . بل العالم كل العالم من

من لا يتأثر بكل مارآه، أو يهوش بكل ماروى . بل العالم كل العالم من يعرف المقبول والمردود ، والصحيح والضعيف ، ويجمع بين الروايات المختلفة إذا أمكن الجمع ، ويرجح الراجح ويسقط المرجوح إذا تعذر التوفيق .

وما أدرى كيف يقبل الذوق السليم أن الإسراء كان بالروح ، بعد قول الله (تعالى) : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ !

فها أنت ذا ، ترى الآية الكريمة قد افتتحت بسبحان المشعر باستعظام ما كان من الأمر ، والتعجب منه لجلاله . وذلك اللفظ لا يصح موقعه ، ولا يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم ، إلا إذا كان الأمر غير معهود ، ولا مقدور لأحد من البشر

ولو كان الإسراء بالروح فقط ، لم يكن ثمة ما يقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجب ، إذ لا خطورة في إراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) آيات ربه في نومه ، فإن هذا أمر يقع لكل أحد ، بل قد يرى الإنسان في نومه رب العزة الذى هو أكبر من كل شيء . وإنما يظهر وجه الاستعظام والتعجب لو قلنا : إن ذلك الإسراء كان بالجسد والروح ، كما هو ظاهر لكل ذى فطرة طاهرة وعقل سليم .

ثم تراه يقول : أسرى ، وهو لا يقال في النوم كما قال القاضى عياض ، لأن ما يقع في النوم ، إنما هو تخيل وضرب مثل لا غير . ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به ، وإنما يحسن ذلك إذا أسرى به ليلا إسراء حسيا على ما هو معهود ومعروف .

ثم يقول : بعده ، وهو نص قاطع في الموضوع ؛ لأن العبد لا يطلق فيما

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٤٩

تعرفه العرب ، إلا على الشخص المكون من الروح والجسد . ولم يعهد في لغة العرب إطلاقه على الروح فقط ، فهم لا يعرفون من العبد إلا الشخص المحسوس المنظور . كما في قوله (تعالى) ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ ؟ وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ ، إلى غير ذلك ،

ثم يقول : ﴿ لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ ويقول في سورة النجم ﴿ أَفْتَأَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ .

ولا شك عند من له ذوق سليم ، أن هذه الآيات الكريمة تدل على أن الذ (صلى الله عليه وسلم) أسرى به إلى بيت المقدس ، وأنه عرج به إلى السموات العلى بجسمه وروحه ، وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى ، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى .

وإني أستحلفك بعلبك وذوقك وإنصافك ، أن تنظر معي إلى قوله : ﴿ أَفْتَأَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ ثم قل لي بعد ذلك ماذا ترى . أفيسهل عليك أن تسلم أن المرء والجدال كانا في رؤيا منامية ؟ وهل يكون في رؤيا الروح وحدها في النوم جحود ومجادلة ؟ وهل لذلك وقع عند القائل والسامع ، حتى تذكر فيه تلك الآيات ، وتحصل به تلك المجادلات ، وينوه بشأنه في القرآن هذا التنويه العظيم ؟ وهل عهد مثل ذلك في الرؤى المنامية ؟ وهل

ينكرون على أنفسهم ذلك ، حتى ينكروه عليه (صلى الله عليه وسلم) ؟
 لاشك أن منكرتهم ومجادلتهم ، ما كانت إلا لعلهم أنه يدعى أن ذلك
 كان يقظة لانوما ؛ فهذا محل الاستبعاد والاستنكار ، لأنه غير معهود لديهم ،
 ولا هو في متناول قدرتهم .

أما أحلام الأرواح ، فيجوز أن تقع لكل امرئ حتى المشركين أنفسهم
 وهل ينكر الله عليهم إنكارهم بقوله : ﴿ أَفْتَأَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ ۚ ﴾ ويقرعهم
 على مجادلتهم بالباطل ، ويقسم أن صاحبهم ما ضل وما غوى ، ويقول : إنه
 رأى ، ولا يليق أن تماروه فيما رآه - هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل
 يقول المنكر : إن رؤيا جبريل في المرة الأولى التي جاءت في الحديث
 الصحيح - حين رآه (صلى الله عليه وسلم) بحراء على صورته التي خلقه الله
 عليها قد سدا لافق - كانت حلما أيضا ؟ أم يفرق بينهما ، والقرآن لم يفرق ،
 وجعل الرؤية في المرة الأخرى عند سكرة المنتهى ، كالرؤية الأولى
 في الأرض ؟

وهل يقال ذلك إذا كانت إحدى الرؤيتين يقظة والأخرى حلما ؟ وهل
 يحسن أن تجعل الضمير في قوله (تعالى) : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ لروح
 النبي دون جسده ، وتغاير بينه وبين ما قبله وما بعده من الضمائر العائدة على
 شخصه (صلى الله عليه وسلم) لا على روحه فقط ؟ وهل يسهل عليك أن
 تقول : إنها رؤيا منامية ، مع قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ؟
 وهل يقال ذلك في أحلام النائمين ؟ اللهم إن ذلك لا يقوله إلا الواهمون
 وهل يقال في الرؤيا المنامية : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا قِسْمًا لِلنَّاسِ ﴾

الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ١٥١

ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ، فإن كل إنسان يرى بروحه ماشاء الله أن يرى من الكون . فما وجه الافتتان وما معناه ؟

وأما التشبث بلفظ الرؤيا دون الرؤية ، فقد رده أهل اللغة ، واستشهدوا عليه بقول الشاعر : « ورؤياك أحلى في المنام من الغمض » ،

على أنه جاء في القصة ما هو قاطع في الموضوع ، فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما أخبرهم بذلك هاج هاجهم ، وقامت قيامتهم ، ففهم الواضع يده على رأسه تعجبا ، ومنهم المصفق ، ومنهم القائل له : لقد كان أمرك أممّا (أى قريبا) قبل هذا . حتى ورد أنه ارتد بعض من كان قد دخل في الإسلام . فهل ترى (أيديك الله) أن ذلك كله كان من أجل رؤيا منامية ؟

بل في القصة ما هو أكثر من هذا . وهو أنهم سألوا النبي (صلى الله عليه وسلم) عن عيرهم التي كانت فيها تجارتهم ، فأجابهم (صلى الله عليه وسلم) بأنه مر بها وقد نذ منها بعير فانسكس ، وأنه مر بعير أخرى قد ضلوا ناقة لهم ، وكان معهم قدح من الماء ، فشربه (صلى الله عليه وسلم) . وقد سألوهم عندما قدموا مكة ، فصدقوا ذلك كله ، وفي القصة أكثر من هذا .

فهل ترى أن الروح شربت الماء من القدح ؟ وهل يمكننا أن نقبل أنهم يسألونه عن عيرهم ، وعن بيت المقدس وأبوابه وكل ما يتعلق به ، إذا كانت الرؤيا منامية ؟ وأي علاقة بين رؤيا المنام وبين عيرهم التي تجيء من الشام ؟ ولا نزال نقول : أى معنى لقصة قدح الماء ، إذا كانت الرؤيا منامية ؟ وأظن أن هذا القدر كاف للنصف . ولو شئنا لأطلنا .

الفريق الأول الذى يتمسك بالشبه العقلية

يقول هذا الفريق : إنه يستحيل العروج إلى السماء ، لأن بيننا وبينها كرة نارية ، كما قرره الفلاسفة الأقدمون . ونقول لهم : إن ذلك خيال لم يقيم عليه برهان . وفلاسفة العصر الحاضر ينفون ذلك نفيا باتا . فهذا كاف فى إسقاط ذلك الزعم . وستسمع عنه جوابا آخر مشتركا دافعا للشبه كلها .

ويقول الفلاسفة المحدثون فى استحالة ذلك : إن الهواء يرتفع عن الأرض بضعة آلاف من الأمتار ، فإذا وصل الإنسان إلى ذلك الحد لا يمكنه أن يبقى ، لأنه لا يجد من الهواء ما يتنفس به ، فلا بد أن يموت : وقد وصلوا بطائراتهم إلى ما يقرب من هذا الحد فخرج الدم منهم بهيئة منكرة ، لنقص الضغط الجوى هناك .

وتقول فى دفع هذه الشبهة إن ذلك مسلمٌ لآمنارى فيه ؛ ولكن هناك قوانين آخر لا يعرفها الماديون ، ومحال أن يصل إليها الطبيعيون . ذلك أن الأرواح الإنسانية : من عالم آخر ، لا تسرى عليه قوانين هذا العالم . فإذا غلبت على الإنسان روحانيته ، كان الحكم للروح لا للجسد ؛ وكانت القوانين السائدة عليه هى القوانين الروحانية لا الجسمية . ومتى ساد سلطان الروح سلطان البدن ، كان الحكم للروح لا للبدن ؛ فيمكنه أن يطوى المسافات البعيدة فى لحظة قصيرة ، وأن يرى المغيبات على حد محدود ، وأن يخترق الجدران ويقتحم الممالك من غير أن يحصل له ضرر أو يلحقه ألم . ومن هنا جاءت كرامات الأولياء

وإذا كنا نصدق ذلك فى الجن . وأرواح النوع الإنسانى اللطيف وأقوى

نفوذا وأشدت قربا من الملأ الأعلى ؛ فلماذا نستبعد ذلك على خواص البشر الذين غلبت عليهم الروحانية ، حتى صاروا كأنهم من الملأ الأعلى ، وبذلك تنحرق لهم العادات ، ولا تحكم عليهم قوانين المادة !

براهين عصرية على ذلك

وما لنا نذكر كرامات الأولياء ، أو معجزات الأنبياء ، وبعض المحدثين لا يصدقون بذلك ، ولعلمهم يعدونه من الخرافات والترهات . فلنسلك ما هو أقرب إلى إقناعهم ، وأليق باستعدادهم ، فنقول :

قد ثبت ثبوتا لا شك فيه ، أن المنوم تنوينا مغناطيسيا يسأل عما في البلاد البعيدة ، فيجيب إجابات صحيحة . فهل يمكن تعليل ذلك تعليلًا ماديًا ؟ وقالوا : إن المنوم إذا أمر المنوم أن يخوض النار ، وأفهمه أنها ليست نارا خاضها ولم تؤثر فيه ؛ لأنه تحت سلطان الروح فله حكمها ، والأرواح لا تؤثر فيها النيران ، ولا تحكم عليها هذه القوانين ؛ فإن سلطان الروح فوق سلطان المادة وقد قالوا : إنهم جاءوا للمنوم بالنوشادر المركز ، الذي إذا شممه أحد مات لوقته ، فلم يؤثر فيه أدنى تأثير . فقام بعض الأطباء وقال : إن ذلك غش وخداع ، وأخذ النوشادر وشمه فخر ميتا وأعاجيب التنويم المغناطيسى أصبحت لمس اليد ورأى العين ، وسرها ما ذكرنا من أن سلطان الروح فوق سلطان المادة وإذا ثبت هذا ، فلتعلم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) عند العروج كان على غاية ما يكون من الروحانية ، بل كانت روحانيته إذا ذاك فوق روحانية جبريل (عليه السلام) وقد ورد أن جبريل تأخر عنه بعد سدره المنتهى ، وقال له لو تقدمت أئمة لا حترقت .

فإذا وصل النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ذلك الحد الذى يتخلخل فيه الهواء أو ينقطع كل الانقطاع ، وقد غلبت عليه الروحانية من كل جهاته ، لم يكن لذلك تأثير فيه ولا ضرر عليه لما قرناه .

ويمكننا أن نستشهد على ذلك بما أصبح معروفا لا ينكر ، وهو أن بعض الهنود يوضع فى صندوق باختياره ، أو يدفن فى موضع من الأرض عشرين يوما وثلاثين وأكثر من ذلك ، ثم يُخرج ويُعمل له ما يرجعه إلى حسه ، ولا تفارقه الحياة ، مع أنه لم يتنفس ألبتة طول تلك المدة . فكيف ينكر مثل ذلك على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو سيد الروحانيين ؛ وأفضل الخلق أجمعين ! وهذا تنزل يقتضيه الحال ، وقوانين الجدال . وإلا فلست أدرى كيف يقيسون عالم الملكوت على عالم الملك ، وأحكام الأرواح على أحكام الأشباح ! مع أنهم لم يتقنوا علومهم المادية ، وكثيرا ماتخطوا فيها فنقضوا ما أبرموا ، وهو شأن هذا النوع الضعيف ، منذ خلقه الله إلى أن تقوم الساعة

ولقد أقام العالم ثمانية عشر قرنا يدين بنظرية بطليموس صاحب كتاب المجسطى فى الأرض والشمس ودورتيهما ، وغير ذلك من النظريات الفلكية ؛ حتى جاء دور الانقلاب العلى فى القرن السادس عشر ، ونادى العلامة كوبرنيك وكيلر الألمان ، والبحاثه غاليليو الإيطالى بعكس نظرية السابقين ، وأثبتوا فرضا مخالفا لفروضهم . ثم جاء أينشتين فى عصرنا هذا ، فرد عليهم ، وقلب نظرياتهم رأسا على عقب ، ولا تدرى ، ماذا يجىء به الغد . وقد بين ذلك رئيس وزراء إنجلترا المسيو بلقوره ، منذ زمان بعيد ، حين رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية ، بمدرسة كبردرج فى شهر أغسطس سنة ١٩٠٤ وأطال فى ذلك حتى قضى به على معرفة كنه المادة ، وأن منتهى علمها

مبتدأ جهلها ، كما يقول الشاعر العربي :

كأن الحب دائرة بقلبي فحيث الإبتداء الإتهام

الخلاصة

والخلاصة أن الإسراء لو كان حُلُماً ما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء الإيمان ؛ إذ مثل هذا من الأحلام لا ينكر : ويؤكد ذلك مجيء جبريل له بالبراق . وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد ، ولقاؤه الأنبياء فيها وترحيبهم به ، وخطبهم في بيت المقدس وردة عليهم ، وصلاتهم وراه ، وتعيين محل كل واحد منهم والإخبار عنه بخبر خاص ، وحديث فرض الصلاة ومراجعة موسى في ذلك ، وقوله : ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقدام . وأنه وصل إلى سدرة المنتهى ، إلى غير ذلك مما جاء في القصة وهل عهد مثل ذلك في رؤيا المنام وهل يقال في رؤيا المنام : ﴿ مَا ذَا غِ الْبَصَرُ وَمَا طَعْنِي ﴾ ؟ أو ينتوه بشأنها هذا التنويه كله ؟ وهل يحسن أن يكون فرض الصلاة وهي عماد الإسلام في النوم ، مع أن غيرها فرض في اليقظة ؟ ولست أفهم إلا أن هذا إنكار لقدرة الله ؛ وإذا قتش عن إيمان ذلك المنكر ، وجد ضعيفا به خلل ، وفيه دخل

وما أدرى ماذا يصنع في مثل قوله (تعالى) ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ وقوله ﴿ فَقَلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضَهَا ، كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وقوله ﴿ نَحْنُ أَرْبَعَةٌ

مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴿١﴾ إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات

وإن الإيمان بذلك كله ، سهل لدى من يعتقد أن الله على كل شيء قدير ،
وأنا ما أوتينا من العلم إلا قليلا .

ولنرجع إلى الموضوع ، فنقول بالاختصار :

لو كان حلما لم يكن فيه آية ، مع أن الله يقول : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان في النوم عند عائشة (رضي الله عنها) ، كما يزعمه بعضهم ، لما أنكرت رؤيته (صلى الله عليه وسلم) ربه ؛ فهي لم تنكرها إلا لفهمها أن ذلك كان يقظة لا نوما ، لأن رؤيا المنام لا تنكر من عائشة ولا من غيرها .
وبعد ، فقد عرج به (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ليستبين بذلك العروج ، أن مقامه فوق مقامات الأنبياء ، إذ ارتفع عليهم جميعا ، حتى سمع صريف الأقلام ، وكانت مناجاته فوق السموات العلا ، على غير ميعاد ولا رياضة سابقة ؛ لكمال استعداد ، (صلى الله عليه وسلم) ليعلم ما بينه وبين غيره من الفرق في التقريب والاصطفاء .

وكان العلو الحسى مستتبعا للعلو المعنوى ، فكما ارتقى في درجات السموات وما فوقها ، كان يرتقى في درجات الروحانية والاستغراق في جلال الله وعظمته . ولا غرو ، فالأما كن لها خصائص ومميزات . انظر إلى الكعبة وما اختصت به من الرفعة والتعظيم ونزول الرحمات والبركات ، حتى استحقت أن تسمى بيت الله ، وحرم الله .

ولتعلم أن قصة الإسراء والمعراج ، قد وردت عن كثير من الصحابة ، عد

منهم في المواهب اللدنية ستة وعشرون .

ولنقهر القلم على الوقوف عند هذا الحد ، ففيه هتنع وكفاية لمن أراد الله هدايته . أسأل الله أن يهديننا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى

الباب السادس

محمد صلى الله عليه وسلم
أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلاً

اتفقت الأديان المنزلة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقد نقلها أهل الأديان التي سبقت الإسلام بما ظهر على أيدي الرسل السابقين من المعجزات التي استولت على أفئدة الناس وملكت عليهم مشاعرهم ، وكانت كلها معجزات تناسب أوقاتها ثم انقضت آثارها بانقضاء أزمانها ، ولما جاء الإسلام نوه بالعقل وأحل مكانة عليّة ، وبين أنه نعمة كبرى ، وأنه لا بد من استخدامه ، وندب إلى تحكيمه فيما يفرض على الإنسان من المعتقدات والعبادات والمعاملات ، وأنزل في محكم كتابه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ﴿ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وواضح أن الكون هو موضع النظر والاعتبار ، إذ يقول الله جلّت حكمته في كتابه الكريم :

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ

محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلاً ١٥٩

ومن هذه الآيات يتجلى أن القرآن استصرخ العقل والفهم والتفكير والتدبر والعلم والاعتبار والتقوى والصبر ، ولم يفرض على الناس معتقدات من غير دليل ، ولم يستعن على تقبلهم أحكامه بخوارق العادات

حقاً إن جميع الأديان قررت وجوب الإيمان بالجنة والنار ، ولا يتصور دين صحيح دون الاعتقاد بهما ، وقد تقبل الإنسان في العصور الخالية قبل تقدم العلم ما وصفت به الجنة والنار ، فلما برز العلم أخذ يطالب بالدليل للاطمئنان ، فأحس أهل الدين بشيء من القلق ، ثم أخذوا يضطهدون أهل العلم ، فنشأ بينهم الصراع والكفاح ، وظلوا قروناً كذلك وأهل الدين يقولون إن العلم والدين أمران مختلفان ، وإن اجتماعاً في قلب إنسان فينبغي برزخ لا يبغيان ، غير أن هذا القول لم يقو على صدق تقدم العقل والعلم ، وكان من ذلك أن الكنيسة في الغرب اضطرت للبحث عن طريق للتوفيق بين العلم والدين ، واستعانت على ذلك بالقضايا الكلامية ؛ بيد أن العلم أظهر ضعفها وتزييفها ، أضف إلى ذلك أن روح التسامح التي جاءت بعد هذا فتحت عقول الناس ، وأطلقت ألسنتهم بالجهربالحق الذي كان مطموراً في صدورهم ، والزراية بالباطل الذي لبث أزمانا يسيطر على ضمائر الناس باسم الدين ؛ لذلك كان من حكمة الله ورحمته أن أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بدين الحق لينقذ النفوس من سلطان الباطل ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

جاء الإسلام فأحدث انقلاباً في العلوم والمعارف ، فالمسلمون بشهادة التاريخ طلائع الرقي العلمي الحديث ، لأن القرآن الكريم سلك في التدليل على صلاحية ما جاء فيه لكل زمان ومكان وانطباقه على ما يرتضيه العقل السليم مسلكاً جعل المشتغلين بالعلوم الطبيعية والفلكية يقتنعون بوجود الموجد

الأول القديم الباقي ، وبأن البعث واقع لا محالة .

انظر كيف يتحدث القرآن عن البعث والنشور ، تجد أنه وجه النظر إلى السنن الكونية التي منها استمرار الحياة والموت دون انقطاع ، مقرر أن وقف الحياة طور في مراحل التدرج حيث تختفي علائم الحياة لأجل محدود وهو ما يسمى عالم البرزخ ، أو ما يسميه علماء الطبيعة : عدم الحركة أو السكون . والكائنات على هذا الاعتبار تختفي ثم تظهر ، كما نرى في مملكة النبات في الفصول المتعاقبة .

يقول القرآن في مخاطبة منكري البعث : في سورة قـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * ق * وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ *

(ق) : أمثل الأقوال فيما بدئ به بعض السور من مثل (ق . ص . ن) أنها حروف تنبيهات قدمت في أول السور ليبقى السامع مقبلاً على استماع ما يرد عليه بعدها ، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق ، والمعنى الفائق .

محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلاً ١٦١

وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ :

هذا قسم جوابه (إنك تنذر) ووصف القرآن بالمجيد أى العظيم لأنه عظيم الفائدة أولاً لأنه آية العظمة والقدرة البالغة ، لأنه لم يقدر أحد على محاكاته فى شىء منه مع التحدى والتفريع ، وأقسم جل شأنه بالقرآن لأنه المعجزة الخالدة التى قام على أساسها الدين .

بَلْ يَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ :

أى لم يكفهم الشك فى صدق إنذاره بل جزموا بخلافه حتى جعلوه من الأمور المتعجب منها ، وفى قوله تعالى « منهم » تقرير لتعجبهم حيث كانوا يقولون (أبشرا منا واحدا تتبعه) .

فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ

لما أظهروا العجب من رسالته وأنه منذر ، أتبعوا ذلك بالعجب من حصول البعث ، وقالوا (ما هذا إلا إفك مفترى)

أَنذَا مَتْنًا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ :

أى أنرجع إذا متنا وصرنا تراباً . ذلك رجوع بعيد عن الوهم أو العادة أو السلطان .

قَدْ عَلَيْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ :

فى هذا إشارة إلى جواز البعث وأنه تعالى قادر عليه لأنه جل شأنه عالم بجميع أجزاء كل واحد من الموتى لا يشتهه عليه شىء فيها . وعالم بما تفرق منها وانحل بالتأثيرات الجوية والتفاعل الكيميائى . وقادر على جمعها وتليفها

وإعطائها ما كان لها من الصفات والخصائص القائمة بها . يؤيد هذا قوله تعالى «وعندنا كتاب حفيظ» أى علم بتفاصيل الأشياء . والمراد تمثيل عليه تعالى بتفاصيل الأشياء ، بعلم من عنده كتاب محفوظ يطالعه .
بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ :

لما كذبوا الرسول فيما ادعاه من إمكان البعث رد عليهم بأنه صادق فى دعواه وأنهم مكذبون بالحق وهو القرآن الكريم أو النبوة الثابتة بالمعجزات الصادقة .
لَمَّا جَاءَهُمْ :

أى كذبوا بالقرآن من غير تدبر له ولا تفكر فيه .
فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ :

أى مختلف مختلط ، لأنهم تارة يقولون ساحر، وأخرى شاعر، وطورا كاهن أقلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج هذا دليل على إبطال قولهم «ذلك رجع بعيد» وقد طلب منهم النظر إلى السماء وهى فوق رؤوسهم غير غائبة عنهم ، لأن مجرد النظر إليها كاف فى إحباط دعواهم لأنه لا يحتاج إلى تدبر ولا إعمال روية . ووجه دلالة السماء على إمكان البعث وعلى إبطال دعواهم أن بناء السماء ورفعها وتزيينها بالكواكب من غير أن يكون لها فروج — أى فتوق — أكمل وأتم من بناء الإنسان وتزيينه بما منح من صفات .

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقِيَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ :

هذا دليل آخر على إمكان حصول البعث وذلك أنهم كانوا يقولون إن

محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلاً ١٦٣

الإنسان إذا فارقه الحياة وفقد خاصة النمو وعاد جماداً ، لا تعود إليه تلك الخاصة ثانية . فرد عليهم بأن الأرض أشد جهوداً وأكثر خجوداً ومع ذلك فالله تعالى ينبت فيها أنواع النبات فينمى ويزيد بقدرته : فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة . وقد ذكر جل شأنه فيما يتعلق بالأرض ثلاثة أمور : هى المذآى البسط ، وإلقاء الرواسى أى الجبال الثوابت ، وإنبات الحسن الناضر من النبات . فبسط الأرض وإلقاء الرواسى وإنبات النبات فيها على ما بها من ججود وخجود أسير منه إعادة الإنسان لأنه قابل بأصله للحياة والنمو .

تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ :

فالسما تبصرة لأن آياتها مستمرة منصوبة فى مقابلة البصائر . والأرض تذكرة لأن آياتها متجددة فإنها تأخذ فى كل فصل من فصول السنة حالاً غير حالها الأولى فأياتها متجددة مذكرة عند التناسى . والتذكرة والتبصرة إنما يكونان من العبد المنيب الراجع إلى التفكر والنظر فى الدلائل .

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ

وهذا دليل ثالث على إمكان حصول البعث وهو النظر فيما بين السماء والأرض . وبهذا يتم الاستدلال عليه بالسماء وبالأرض وبما بينهما وهو إنزال الماء المبارك أى الكثير المنافع من السماء من فوق ، وإخراج النبات من الأرض من تحت .

وهنا فى هذه الآية استدل على إمكان النشور بالنبات والأشجار التى تنمى وتزيد كنمو بدن الإنسان بعد الموت حيث يرجع الله إليه قوة النماء كما يحصل فى النبات والأشجار حين ينزل المطر فيبال الأرض فتغذى بما يذيه

الماء من جسم الأرض فتسمى وتكبر .
وقد أشارت الآية الكريمة إلى ثلاثة أنواع من النبات : ما يكون ثمره
فاكهة فقط كـبعض الأشجار ، وما يكون ثمره قوتا فقط كأكثر الزروع ،
وما يكون ثمره قوتا وفاكهة كالنخل . ومعنى باسقات : حوامل . وقد أفرد
النخل بالذكر لكثرة فوائدها .

لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ

أى منضود ومتراكم بعضه فوق بعض فى أكمامها كالزروع فى سنبله ، أى أنبتنا
ذلك لرزق العباد

وأحيينا بذلك الماء النافع أرضا جذبة لانماء فيها ولا حياة . وكما حيث
هذه البلدة الميتة يكون بعثكم وخروجكم أحياء بعد موتكم
ويقول جل وعلا فى سورة الحج :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا
خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّفُوسٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ
لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفى وَمِنْكُمْ مَّن يَرْدُ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَىٰ لَا يَعْلَمَ
مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
وَأَنبَتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَيُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِّن فِي الْقُبُورِ

محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلاً ١٦٥

لما حكى جل شأنه عنهم الجدل بغير علم في إثبات الحشر والنشر في قوله تعالى «وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ» أورد الدلالة على صحة البعث من وجهين، أولهما: الاستدلال بخلق الحيوان لذكرهم بأن الذي فطرهم أول مرة قادر على أن يعيدهم مرة ثانية. وقد ذكر جل شأنه من مراتب خلق الإنسان سبعة أمور: الأولى: قوله تعالى —

فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ

والمراد خلقنا أصلكم وهو آدم أو خلقناكم من شيء يحصل من الأغذية التي تنبت في الأرض فيكون الخلق حينئذ كأنه حاصل من التراب. فيصح قوله خلقناكم من تراب. الثانية: قوله: —

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

والنطفة اسم لما قل من الماء، والمراد بها ماء مخصوص، فالله سبحانه وتعالى قد حول الأغذية الناشئة من التراب إلى ماء لطيف مع أنه لا مناسبة بينهما. الثالثة: قوله: —

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ

والعلقة قطعة الدم الجامدة وبين الماء وبين الدم تباين شديد واختلاف الرابعة: قوله: —

ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَتَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

والمضغة قطعة من اللحم صغيرة قدر ما يضرغ. والمراد بالخلق: السلامة من النقصان والعيب. وبغير المخلق: الناقصة الخلقة، ويتبع هذا تفاوت الناس في

صورهم وأشكالهم وطولهم وقصرهم ، وتمامهم ونقصانهم . وبتفاوتهم في الخلقة يتفاوتون في المواهب والملكات أيضا ﴿لُبَيْنَ لَكُمْ﴾ أى أنكم إذا كنتم قريب من البعث فإننا أخبرناكم أنا خلقناكم من أشياء يبين حال كل منها حال سابقه لبين لكم ما يزيل عنكم الشك في أمر بعثكم فان القادر على تحويل تلك الأشياء المتباينة من حال إلى حال لا يعجز عن إعادتكم بعد العدم ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ المراد بهذا من يبلغه الله حد الولادة .

الخامسة : قوله : —

ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا

أى نخرج كل واحد منكم طفلا . السادسة : قوله —

ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ

الأشد : كمال القوة والعقل والتمييز . والمراد سهل لكم من الأمور والأسباب ما تبلغون به تمام نموكم في الجسم والعقل ، إذ بين ولادة الطفل وبين بلوغه أشده حالات مختلفة . السابعة : قوله —

وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَىٰ وَيُؤْتَىٰ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا

المعنى منكم من يتوفى وهو في كمال قوته وتمام نموه ، ومنكم من يبلغ أَرْذَلِ العمر وهو الهرم والخرف ، فيعود كما كان في مبدأ خلقه ضعيف الجسم ناقص العقل قليل الفهم

ثانيهما : — الاستدلال بحال خلقه النبات على حصول البعث والنشور وهو قوله تعالى :

محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلاً ١٦٧

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً

وهمودها يدها وخلوها من النبات

فَإِذَا أُنْزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

أى تحركت بالنبات تحرك سرور لأن الاهتزاز لا يكون إلا حيث يكون
السرور من قولهم (فلان يهتز للندى) أى يتحرك تحرك فرح وغبطة وسرور
و (ربت) أى نمت وزادت وانتفخت

وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

أى من كل نوع من أنواع النبات فيه نضارة وحسن وبهجة ، وربت جل
شأنه على هذا خمسة أمور . أولها :

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

أى أن حال الإنسان فى خلقته وحال النبات فى تطوره يدل على أن الله
هو الحق أى الصانع . ثانياً :

وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى

فى هذا تنبيه على أنه إذا لم يكن بعيداً على الله لم يجد تلك الأشياء فى صورها
المختلفة ، فكيف يستبعد منه إعادة الأمور ؟ ثالثاً :

وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أى أنه قادر على كل الممكنات وفى جملتها البعث والنشور . رابعاً وخامساً :

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ

لما قامت الأدلة على أن البعث ممكن وجب القطع بحصوله ، لأن الله قادر

على كل الممكنات . ووجه إمكانه أن الأجسام بعد تفرقها وانحلالها قابلة للصفات التي كانت قائمة بها في حال حياتها ، والله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لا ينفي عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ؛ وقادر على كل شيء ، فعليه بكل شيء ، وقدرته على كل شيء يوجب القطع بحصول البعث .

ويؤيد قدرته تعالى على كل الممكنات وعليه بكل شيء ذكر مراتب خلقه الإنسان وخلقته الحيوان في الآية الكريمة . إذ لو انتفت عنه إحدى هاتين الصفتين لكان البعث غير ممكن وهما ثابتان له تعالى قطعاً بالحجة البينة والبرهان القاطع

وعلى هذا النحو من التدليل أشار القرآن الكريم إلى سنة الله في إخراج النار من الخشب ليبرهن على استمرار الأشياء وبقائها في انتقالها من طور إلى آخر أوحينا تعود سيرتها الأولى إذ يقول (في سورة يس) : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۚ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ۚ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾

وقد أثبت العلم أن الشجر الأخضر مكون من أشعة الشمس وبعض الغازات ، ولذلك سميت الأشجار مخازن أشعة الشمس ، فاتقادها هو انفصال هذه الأشعة من الغازات التي اتحدت معها وتكونت منها الشجرة ، وهذا معناه كما قرر العلم أنك إذا أحرقت قطعة من الخشب فقد فصلت أشعة الشمس من الغازات ، ولا يضيع الإحراق شيئاً من العناصر التي تكونت

منها الشجرة لا في كمها ولا في كيفها ، تأييدا لما هو مقرر من أن العناصر تظل سالمة في جوهرها وإن كانت الأشكال التي تحولت إليها قد أصابها التغير والتحلل .

ولقد جرى القرآن على طريقة أنه يؤيد كل دعوى ترد فيه بالإحالة على السنن الكونية ، لأن سنة الله فيها واحدة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . أثبت العلم أن القوى التي أودعت هذا الكون متساندة متضافرة لتحقيق مقصد واحد ، وبذلك قرر أن لهذا الكون مبدعا واحدا محجوبا عن الأبصار والعقول ، فانظر كيف سبق القرآن الكريم إلى التذليل على هذه الدعوى بطريق تطمئن إليها نفس المتعلم وغيره إذ يقول :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ بِكُمْ قَوْمًا يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ بِكُمْ أَكْثَرُ حُكْمًا لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ﴾

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلِ ادَّارَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ .
إذا كانت وظيفة الدين هي إعلام الإنسان بآلهه وهدايته إلى تفهم السنن الكونية والتمشي معها فأسمى وظيفة لمن نزل عليه الدين أن يشرح الحقائق التي تضمنها ذلك الدين بطريق يفقهها الناس على اختلاف ضروبهم واستعدادهم ولا تخطوا وضلوا وفشا فيهم الإلحاد والمروق ، ومن أجل ذلك فإن المادية في الغرب حكمت على الدين بخلوه من كل فائدة لأن ما جاءهم لم يك مشفوعا بالدليل المنطقي ، بل أوامر تعبدية لا قبل لهم بفهمها

يبد أن العناية الإلهية شامت أن يكون العلم كامنا في طيات الزمن لينقص من أطراف الإلحاد الذي طغى على العالم الغربي ، وفي الحق أن العلم ما زاد على أن تقيّل منهج القرآن الكريم فالعلم كشف في كتاب الكون البرهان على وجود الإله ووحديته ، وكتاب الله قد سبق إلى الأدلة التي جاء بها العلم ، فاتخذ البرهاتان على وجود الإله ووحديته : برهان كتاب الخليقة ، وبرهان الكتاب المنزل

يقول علماء الكلام : الدليل على وجود الله أمور ثلاثة : الأول : أن كل شيء في الكائنات بتدبير ، الثاني : أن كل شيء خلق لغرض معين ، الثالث : أن الموجودات متساندة يتم بعضها بعضا لتحقيق السنة الإلهية الشاملة التي تدخل كل شيء في الخليقة تحت قاعدة واحدة وضابط معين ، ويقتر أهل العلم أن هذا الدليل صحيح .

وأما القرآن الكريم ، فقد أجمل هذه الأمور الثلاثة في الآية الآتية :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وإذا أنعمت النظر في هذه الآية وجدتها تشير إلى أن كل شئ. بتدبير وأنه مقصود لأن تعاقب الليل والنهار يحدث التغيرات الجوية ويحدث الرياح وينشأ عن ذلك مواسم المطر والجفاف على نظام مستقر ، ومعنى هذا أن حياة الكائنات وموتها مرتبطان بسير الأرض في مدارها ، فهل هذا كله مصادفات بحتة ؟ أليست كل هذه الأمور مرتبطة بعضها ببعض ؟ هذه كائنات كثيرة يعمل كل منها في دائرته وفي الوقت نفسه يعاون غيره من الكائنات لتحقيق غرض واحد ، وهي مجتمعة تحيي الأرض بعد موتها . هذا هو ما يقوله العلم الحديث المؤيد بالتجارب في المعامل والمرصد .

من أجل ذلك وجب على أهل الإنصاف أن يقرروا أن القرآن من عند الله ، فقد كشف هذه الأسرار الطبيعية في وقت عممت فيه الجهالة ، وطمت الخرافات ، واستولت على العقول الخزعبلات .

على أننا إذا ألقينا نظرة شاملة على ما في الكائنات ألقينا أن كل كائن مرتبط بحياتنا ، وأنها جميعها صادرة عن تدبير واحد لها غرض واحد وموجودها واحد وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾

فلاية تقرر أن السموات والأرض خلقت لغرض معين
حقا إن هناك أمورا في الكائنات لم تعرف مقاصدها بعد .
غير أن ما كشفه العقل إلى الآن قد صبح البرهان على أنه ذو مقصد واضح
ولنضرب مثلا : أما وقد عرفنا من طريق القرآن ومن طريق العلم أن النظام
الشمسى من حيث ارتباطه بالكرة الأرضية له مقصد في وجوده وحركته
وأن كل ذرة في عالم المادة ضرورية لبقاء هذا النظام - أمكننا من طريق القياس
أن نقول : إن كل موجود في الخليقة مسخر لمنفعتنا بأمر القوة القاهرة التي
هى « الله » ؛ وانظر أيضا قوله تعالى :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ
الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾

تصور مبلغ التقدم الذى نجنيه من إمدادنا بجميع ما نحتاج إليه وما فيه راحة لنا .
هل تجد سبيلا إلى إحصاء ما احتوته الخليقة من وسائل الراحة والمساعدة ؟
كلا . فليس هناك سبيل فى ذلك . إذن كيف يقال إن هذا العالم باطل لا قصد فيه ؟
وانظر إلى ما يقول القرآن الكريم فى شأن النظام الشامل فى الكون الذى
يدل على أن المادة طوع لإرادة القدير القاهر

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .
﴿وَأَيُّ لَيْلٍ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ

محمد صلى الله عليه وسلم أقوى الناس حجة وأوضحهم دليلا ١٧٣

لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿

في هذه الآيات يتجلى أن النظام الشمسي سائر على قانون إلهي لا يتخلف وأن البرهان على ذلك هو النظام الذي تسير عليه الكواكب بحساب دقيق لا يأذن باصطدامها ، مع أن بعض هذه الكواكب غير منتظم في سيره تأمل هذه الأرض فقد حدثنا العلم أنها انفصلت من المجموعة الشمسية ثم تعاقبت عليها أطوار كثيرة حتى وصلت إلى شكلها الحالي ، ثم كان من قانون الجاذبية أنها أصبحت تسير في مدارها حول الشمس ومحورها مائل على مدارها ، فهل كان في استطاعتها أن تسير حول الشمس على مدار تام الاستدارة ؟ ولماذا كان محورها مائلا بزاوية قدرها $23\frac{1}{4}$ درجة ولم يكن بزاوية $67\frac{1}{4}$ مثلا عند التماس ؟

ولماذا لم يكن هذا المحور موازيا للمدار ؟

فإذا لم يكن وضعها الحالي مقصودا لغرض معين ، فقد كان من الممكن أن تتخذ الأرض شكلا آخر .

فإذا كان قانون الجاذبية قصرها على أن تدور حول الشمس في فلك غير تام الاستدارة ، فما هذا الذي يسمونه (نتيجة المصادفة؟) التي جعلت الأرض تدور في مدارها ، ومحورها مائل كما وصفنا ؟ أليس هذا تناقضا ؟ قانون ومصادفة ؛ ومن العجب أن قوما يلغون عقولهم ويقولون بالمصادفة ليفروا من الإيمان بالنظام الإلهي الشامل

وصفوة القول أنه مامن مفكر ينظر فيما ذكر الله في كتابه مما بين
 السماء والأرض ، إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض مثل مارأى في
 تدبيره نفسه ، وعرف من اتصال خلقه ؛ فيما بين ذوائب رأسه إلى
 أنامل قدمه . وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة ، على أن الذى خلقه وصنعه
 إله واحد لا إله معه ، ولا من شيء ابتدعه ؛ ولا على مثال صنعه ، فقد نرى
 بعيوننا ونعلم بعقولنا ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرض ؛ وجعلها
 موصولة بالخلق ، فليس يدحوها إلا لهم ، ولا يديمها إلا معهم ، وجعل ذلك
 الخلق متصلا بالنبت ، لا يقوم إلا به ، ولا يصلح إلا عليه . وجعل ذلك
 النبت الذى جعله متاعا للناس ومعاشا لأنعامهم ، متصلا بالماء الذى ينزل من
 السماء بقدر معلوم ، لمعاش مقسوم ، فليس ينجم النبت إلا به ؛ ولا يحيا إلا
 عنه ، وجعل السحاب الذى يبسطه كيف يشاء متصلا بالريح المسخرة في جوف
 السماء تثيره من حيث لا تعلم ، وتسوقه ونحن ننظر ، كما قال عز وجل (وَاللَّهُ
 الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا
 كَذَلِكَ النُّشُورُ) ووصل الرياح التى يصرفها في جوف السماء بما يؤثر في خلق
 الهواء من الأزمنة التى لا تثبت الهواجر إلا بثباتها ، ولا يزول عنه برد إلا
 بزوالها ، ولولا ذلك لظل راكدا بالحر المميت ، أو مائلا بالبرد القاتل

ووصل الأزمنة التى جعلها متصرفة متلونة بمسير الشمس والقمر الدائبين
 للناس المختلفين بالليل والنهار عليهم ، وجعل مسيرهما الذى لانعرف عدد
 السنين إلا به ، ولا مواقع الحساب إلا من قبله ، متصلا بدوران الفلك الذى فيه
 يسبحان ، وبه يأفلان ، ووصل سير الفلك بالسماء ، فهما للناظرين سواء ، فهذا

خلق الله عز وجل ؛ ما فيه تباين ، ولا تزايل ولا تفاوت ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ ﴾ ولو كان لله شريك أو معه ظهير عليه ؛ يمسك منه ما يرسل ، ويرسل منه ما يمسك ، أو يؤخر شيئا من ذلك عن وقت زمانه ، أو يعجله قبل مجيء إبانته ، لتفاوت الخلق ولتباين الصنع ، ولفسدت السموات والأرض ، ولذهب كل إله بما خلق كما قال عز وجل ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَلَٰئِهِمْ لَكَذُوبُونَ . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾

والعجب : كيف يصف مخلوق ربه أو يجعل معه إلها غيره ، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعة ظاهرة وحكمة بالغة وتأليفا متفقا وتديرا متصلا من السماء والأرض ، لا يقوم بعضه إلا ببعض ، متجليا بين يديه ، مائلا نصب عينيه ، يناديه إلى صانعه ، ويدله على خالقه ، ويشهد له على وحدانيته ويهديه إلى ربوبيته ، فتعالى الله عما يشركون ، أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، حقا ما كرر هؤلاء الجاهلون بربهم الضالون عن أنفسهم في خلق الله النظر ، ولا رجعوا كما قال الله عز وجل الفكر ، ولو أعملوا فكرهم وأجادوا نظرهم ، فيما تسمع آذانهم ، وترى أبصارهم من حوادث حالات الخلق ، وعجائب طبقات الصنع ، لوجدوا في أقرب ما يرون بأعينهم من التأليف لتركيب خلقهم ، والاثار في التدبير بصنعهم ، ما يدلهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخلقهم ، فانهم يرون في أنفسهم بأعينهم ، ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صنعة بعد صنعة ، ومحولة طبقة عن طبقة ،

ومنقولة حالاً بعد حال : سلالة من طين ، ثم نطفة من ماء مهين ، ثم علقه ، ثم مضغة ، ثم عظاما كساها الله عز وجل لحماً ، ونفخ فيه روحاً ؛ فإذا هو خلق آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، الذى خلق فى قرار مكين — من ماء قليل ضعيف ذليل — خلقاً صوره بتخطيط ، وقدره بتركيب ، وألفه بأجزاء متفقة وأعضاء متصلة ، من قدم إلى ساق إلى نخذ إلى مافوق ذلك من آيات ما يعلن ، أو عجائب ما يطن ، ليعلم الجاهلون ويوقن الجاحدون أن الذى صنع ذلك وخلقه ودبره وقدره وهياً ظاهره وباطنه إله واحد لا شريك معه ، فمأجدرنا بالنظر فى آيات الرسل وبينات النذر ، فإن فى ذلك هداية للبصرين ، وعبرة للمعتبرين ، وذكري للعابدين (والحمد لله رب العالمين)

الباب السابع

محمد صلى الله عليه وسلم أكبر المصلحين نجاحا

أشرق نور المصطفى صلى الله عليه وسلم حين استحكت الضلالة في النفوس وتغلغت الغواية في الرؤوس ، وتناهت الفتنة ، وتفاقت المحنة — وكذلك الرسل يولدون عند عموم الجهالة ، ويعثون عند طموح الضلالة — فبعثه الله للناس جميعا ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم صراطا مستقيما ، يجاهد في الله حق جهاده ، مقتحما الشدائد ، محتملا الصعاب ، سائرا سير الحكيم ، آخذا قومه بالموعظة الحسنة والمجادلة الرشيدة ، حتى اجتاحت الضلالة وأظهر الحق بأقوى دليل ، وأرشد الخلق إلى أقوم سبيل ، وتم له ما أراد من نجاح اجتماعي وخلق ، ونفوذ سياسي ، وفوز حربي ، صلى الله عليه وعلى آله الأكرمين ، وأصحابه الغر الميامين . وإليك البيان :

(١) نجاحه الاجتماعي والخلق

لا جرم أن تغيير حال أمة كالامة العربية ، وإحياءها وإحياء أمم الأرض بها ، وقلب نظمها ، وإصلاح جميع أحوالها وأمورها ، وإخراجها من الفساد والاختلال والفوضى ، برجل كمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في حاله ونشأته وفقره ويومه وأميته ، وبذلك السرعة العجيبة في ذلك الزمن القصير — أمر لم يعهده مثيل في تاريخ الإنسانية : فهو من أعجب العجائب ، وأغرب الغرائب ، بل هو معجزة التاريخ التي عقم بعدها ، وبقيت وحدها

رجل فقير يتيم أمي ، بعيد عن العلم والعلماء ، في ناحية من الأرض بعيدة عن كل نظام ومدنية ؛ ناشئ في الهمجية ؛ وبين أهل وأقارب عريقين في

الجهل والكفر والوثنية ، فأبدل وحده من الجهل علما ، ومن الفساد نظاما ،
ومن الكفر إيمانا ، ومن الشرك توحيدا ، ومن التشبيه تنزيها ، ومن التفرق
اتحادا ، ومن التخاذل اتئافا ، ومن الضعف قوة ، ومن الهمجية مدنية ، وهو
في كل ذلك الليث الهصور ، والقائد المحنك ، والخطيب المصقع ، والبليغ
المعجز ، والسياسي الخاذق ، والمنبيء الصادق ، والشارع الحكيم ، والمعلم
الماهر ، المخبر قومه بما لم يعلوه وما لم يلتفتوا إليه ، والتقى الورع ، والزاهد
الناسك العابد ، والمتمتع بالخلال ، والمتلذذ بالطيبات ، والرموف الرحيم ،
والقاسي على الظالمين ، ومثال الأدب والتهذيب ، والرقه والجمال ، والأعمال
الصالحة ، والإيمان الصادق الصحيح ؛ والإخلاص الأكبر لأتمته ولسائر
العالم . كل ذلك أنصح دليل على أنه الإنسان الكامل ، الجامع لما
تجد فيه الأمم ما يضيء لها السبيل ، والقُدوة الحسنة في كل شيء ، والمثال
الصالح الوحيد في كل صفة وخلق وعمل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ :

فلا عجب أن أحيا أمة حملت لواء العلم والعز والمجد والمدنية الصحيحة ،
والحرية والإخاء والمساواة إلى أمم الأرض قاطبة ، مع شدة الحاجة إلى بعثته
في ذلك الزمن الذي ساد فيه الاختلال والفساد ، واستشرى فيه الكفر
والظلم والاستبداد ، وسوء الحال والجهل : فغيرت رسالته وجه الأرض ،
وقلبت نظم الأمم ؛ وصبغتها بصبغتها في اللغة والدين والأخلاق ، في سنين
قليلة ، وبسرعة خارقة للعادة ؛ مع أن دول ذلك العصر على عظمتها وقوتها ،
وأموالها واقتدارها ، عجزت عن صبغ محكومياتها بصبغتها في الدين واللغة
والجنس والأخلاق ، مع بذل كل مجهودها وعلوها وأموالها واقتدارها في

ذلك ، فلم يزد الناس منها إلا نفورا وسخطا وبغضا ، مع مضي المدد الطويلة عليها ، وتسلطها على جميع مصادر حياة تلك الأمم ، ولم تل منها مع قوتها في السنين الكثيرة ، ما ناله العرب مع ضعفهم في السنين القليلة .

فمحمد صلى الله عليه وسلم الذي أحيا تلك الأمة ، وجاء بذلك الدين ، واستوجب محبة الأمم الآخذة بتعاليمه ، المتأثرة بأقواله وأعماله إلى اليوم ، والذي له أكبر سلطان على نفوس (الملايين) من البشر . لم يتم له هذا النجاح بدون عون إلهي ، ومدد رباني .

لم يرو التاريخ أن مصلحا غيره قام بين البشر وكان مثله في حاله ونشأته . وكانت أمته كأمته العربية البدوية الآمية — كان منه ما كان من محمد صلى الله عليه وسلم في أثره العالمي العظيم ، وبسرعة عجيبة كهذه ، أو دام عمله في الأرض إلى اليوم .

حقا لقد خاب كل مدع للنبوّة من بعد بعثته ، وظل محمد صلى الله عليه وسلم قدما في جميع أعماله دون سائر البشر ، لما آتاه الله من القدرة العجيبة والسلطان السريع ، والتأثير المدهش في أمم الأرض قاطبة إلى قيام الساعة .

كان عمله في قلب الأمة العربية وبعثها من الموت إلى الحياة بهذه السرعة ، أبلغ من قلب العصا حية ، وإبراء الأكهم والابرص ، وإحياء الموتى ، لأن إخراج الأمم من الظلمات إلى النور ، وإماتة الجهل ، وإحياء العرفان ، ونبد الهوى ، ومخاطبة العقل السليم : كل ذلك أليق بمقام النبوّة ، وأقوى في إثبات الدعوى :

قال (سير ولیم مویر) فی کتابه « سيرة محمد صلى الله عليه وسلم » : « امتاز محمد صلى الله عليه وسلم بوضوح كلامه . ويسر دينه ، وأنه آتم من الأعمال ما يدهش

الآلأباب : فلم يشهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير - كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم ، لبثت مكة خاصة والبلاد العربية عاتمة دهورا وأحقابا ، غارقة في الجهالة ، معنة في الضلالة ، فلم يكن لليهودية والمسيحية من الأثر في العرب وأحوالهم الاجتماعية والخلقية ، إلا بمقدار ما يؤثر حجر يلقي في ماء كدر ، لا يعدو أثره وجه الماء ، ولا يبلغ أعماقه .

كان العرب ساجدين في ديجور من الرذيلة وضروب القسوة ؛ إذ كان الولد الأكبر يرث أباه في زوجته ؛ وبلغت الأنفة والغيرة عندهم حدا جعلتهم يثدون البنات ، وعكفوا على الأصنام ، وعبدوا الأوثان ؛ ولم يفقهوا معنى للحياة الأخرى ، وما فيها من ثواب وعقاب ؛ فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، أمكنه في خلال ثلاث وعشرين سنة ، أن يطهر مكة وغيرها من البلاد العربية بما كان فيها من الأرجاس والمقايح ، ثم اتبعته طائفة قد هجروا عبادة الأصنام ودانوا لله بالطاعة ، وصدقوا الرسول ، وآمنوا بما أنزل إليه فاستقرت في قلوبهم خشية الله ، وتطلعوا إلى عفوه وفضله ، وتسابقوا في عمل البر ، وتنافسوا في نصر الفضيلة ونشر لواء العدل ، وبأن لهم أن الله على كل شيء قدير ، وأن العناية الصمدانية تحوطهم وترعاهم ماداموا على ثباتهم ، وأن الله مطلع على أحوالهم وشتونهم ، وسرهم وعلايتهم ، وأن ما في الكون من نعمة أو آية مصدرها الخلاق الوهاب ، وأن الأمور صغيرها وكبيرها بيده يصرفها كيف يشاء ، وأن ما جاءهم من الدين الجديد فضل أفاض الله به عليهم ، وقد وجب عليهم أن يدفعوا عن بيضته . ويحرسوا حماه . وظهر لهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو بشير السعادة ، وأنه معقد آمالهم ، ومنقذهم من أحوالهم

وأوحاهم فلذلك انقادوا له بالطاعة .

لاجرم أن مكة في زمن قصير قد انشطرت شطرين : الكفار ، والمؤمنين .
فأما الكفار فقد ظل معظمهم على عناده ، حتى تم للنبي الكريم النصر
والفتح المبين .

وأما المؤمنون — على قلتهم — فقد احتملوا صنوف الآذى ، وعانوا آلام
التعذيب ، ولم يزد هم ذلك إلا حبا لمحمد ودينه ، وقد بلغ من أمر حبه إياه ،
أنهم جحدوا معتقداتهم التي ورثوها عن آبائهم — وكانت أنفوس الأشياء
لديهم — ثم هجروا أوطانهم إلى بلاد الحبشة — كما سيأتى — ثم إلى المدينة .
ومنهم من هاجر من مكة إلى المدينة بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛
لما اشتد عليهم أذى قريش ، حيث لحق بهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ،
تاركين مدينتهم المحبوبة ، وفيها البيت المحترم وهو أحب أرض الله إليهم .
ولما استقر بهم المقام في المدينة ، عقد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم
بينهم رابطة الإخاء ، وبذلك استعدت نفوسهم للدفاع عن محمد ودينه ، ووهبوا
دماءهم لإعلاء كلمة الله .

كان من أثر محمد أن العرب الذين كانوا بالأمس عاكفين على شتى الغارات ،
وسفك الدماء لأوهى الأسباب ، أصبحوا وقد توثقت بينهم أواصر الأخوة ،
وأشربوا في قلوبهم أن يعمل كلٌّ لخير أخيه ، ولا يستأثر بشيء دونه ، بل
طلب الأنصار من المهاجرين أن يشاركهم في أموالهم ، والمال أحب شيء
إلى الإنسان ، بعد النفس والولد .

هذب الأمة العربية التي ضرب بها المثل في الجهل قبل الإسلام . حتى أصبحت
منار العلم والعرفان للعالم . وفي ذلك يقول (كارليل) : « قوم يضربون

في الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون . فلما جاءهم النبي العربي ، أصبحوا قبلة
الأنظار في العلوم والعرفان ، وكثروا بعد القلة ، وعزوا بعد الذلة ، ولم
يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم .

هؤلاء العرب الذين غمطوا المرأة جميع حقوقها ، وأنزلوها عن مرتبتها
الطبيعية - أصبحوا بعد الإسلام هداة الأمم في تقدير حتمها ، وصاروا مثلاً
صالحاً للاستقامة والتقوى ، محافظين على حدود الله وأحكامه ، مؤتمنين بأوامره
مجتنبين نواهيه ، قوم كانت بواعثهم للعمل صغيرة مرذولة . فلما أتاها الإسلام
عظمت بواعثهم ، وشرفت مقاصدهم ، وحجّب إليهم عمل البر ، ومناصرة
العدل ، ونشر لواء المحبة .

حقاً إنه لعجيب أن يتم هذا التحول في سنين قليلة : كأن ملائكة السماء
هبطوا إلى الأرض ، فنفضوا في نفوس العرب روح الصفاء والوثام ، وأماتوا
فيهم دواعي الانتقام ، واستأصلوا عبادة الأصنام ؛ والشغف بالقمار والخمار ،
وما إلى ذلك من القبائح والمنالكير .

دع عنك أن تعدد الزواج قد نُظِم ، والربا أُخذيختفى ، وحل العمل محل
البطالة ، وتحققت أمنية عيسى عليه السلام : من استترار ملكوت السماء
في الأرض

كان مثل محمد مثل الرعد القاصف : قضى على الشرور التي رسخت في العصور
السابقة ، فأيقظ الناس من سباتهم العميق ، ثم رفعهم إلى ذروة الحضارة .
لم تر أن الأمة التي كانت تعبد الأحجار والحيوان والنبات أصبحت أمة
موحدة لها يقين ثابت ، وعقل راجح ؟ فأنجبت مثل عمر بن الخطاب رضي الله
عنه ، الذي عبد الوثن والصنم في جاهليته ، والذي قال بعد إسلامه عند استلامه

الحجر الأسود : « إنك لحجر ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، .

حقا إن الأمم كالأطفال : ولذلك جاءهم الأنبياء بما يناسب عقولهم ودرجة سذاجتهم ، وكان البشر على الجملة في عهد البعثة المحمدية ، قد خرجوا من طور الطفولة إلى سنّ الرشد ، فأصبحوا لا يناسبهم من الدلائل والبراهين ما كان يناسبهم في القرون الأولى ، وقلّ فيهم تأثير المحتالين والدجالين والسحرة والمشعوذين ، وصاروا يرجون الهداية من طريقها . فساعدهم الإسلام على ذلك ، ونهج بهم منهجا لم يسبقه به دين من قبل : فجعل الحجج العلية والدلائل العقلية رائده في جميع دعاويه ، وعليها معتمده في كل مبانيه وقلل من شأن المعجزات الحسية بقدر الإمكان ، حتى لا تكون عقبة في سبيل رقى عقل الإنسان في مستقبل الزمان : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ .

فإن البشر في عهد النبوة المحمدية ، أخذوا يدركون قيمة المعجزات الحسية ، وأنها لا علاقة بينها وبين دعوى النبوة ، وأنها لا يسهل تمييزها من غيرها من أعمال السحرة والمشعوذين ، والصناع الماهرين ، وعجائب أهل الرياضات والمجاهدات ، من المتصوفين وغيرهم ، على ما يقول بعض الناس ، وأنها إن أقنعت تلك العقول القديمة ، وأرعبت تلك النفوس وهى صغيرة ، وحلتها على الإيمان : فإنها أصبحت لا تغنى العقل قليلا ، ولا تزيد الأمور إلا تعقيدا . وإن الدليل إن لم يكن له من العقل أكبر نصيب ، فهو أضعف ضعيف . وأما من كان يطلب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلك المعجزات ؛

فما كان يريد إلا الإعانات والتعجيز والسخرية والاستهزاء والعناد ، وإلا فليديه من البراهين والآيات ما يشفي علة النفوس ، ويروى غلة العقول : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . وأما ما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات الحسية ، فلم يكن يراد به إلا إخماد المعاندين المستهزئين ، والزيادة في تثبيت ضعفاء المهتدين ، وقد كان جل اعتماد النبي صلى الله عليه وسلم في إثبات دعواه على القرآن وحده ؛ كما يتضح ذلك لمن تدبر آياته : فإنه هو المعجزة التي تلتئم مع الدعوى ، وتعلو بالعقل إلى مستوى العلم والفهم ، وتناسب حال الأجيال من بعده ؛ فلا تقف عقبة في سبيل نظرياتهم وتفكيرهم ، ومعلوماتهم واختراعاتهم ، ولا تلبس عليهم بحيل الدجالين وتدليس المحتالين ، ولا بكذب القصاصين وإفك الراوين ، وتخيل الواهمين ، بل تساعدهم على البحث ، وتحضهم على البحث والتفكير ، والتقصي والتحصيل ، والاستدلال والاستنباط .

فبعبئة محمد صلى الله عليه وسلم انقضى عصر العجائب والغرائب ، وبدأ عصر العلم والعقل . فهو الحد الفاصل بين العصرين . فلذا كانت معجزاته تشمل هذا وذاك ، وكان أجلها وأكبرها والباقي منها — وهو القرآن — مناسباً لزمته عليه السلام ، ولكل ما يأتي بعده من الأزمان ، فلا يناسبها غيره . وكما ختم عصر المعجزات ، وتمت النبوات ، كذلك أغلق باب الكهانة . فكان الله تعالى : في العصور الأولى — والبشر في طور الطفولة — يخاطبهم بحواسهم . وفي العصور التالية — وهم في طور الرجولة — يخاطبهم ببصائرهم أكثر مما يخاطبهم أبصارهم : فإن بصائرهم في العصور الأولى كانت ضعيفة

غلغا ، لا تقوى ولا تتفتح للمعنويات ، فوالى عليهم أنبياءه ورسله الكثرين ، وآياته ومعجزاته بما ناسب استعدادهم : وذلك لأن الأب مع أطفاله يكثر التكلم معهم ، وتأديبهم وتهذيبهم ، وترغيبهم وترهيبهم . ومكافأتهم بالماديات : كالحلوى والنقود والألعاب ، أو معاقبتهم بالزجر والضرب ونحوه ، على حسب ما يدر منهم . فإذا صاروا رجالا كف عن ذلك ، واكتفى ببث نصائحه العامة ، وإرشاداته المكتسبة من طول التجربة والاختبار ، وتركهم يستعملون عقولهم فيما يرونه صالحا لهم ، وقل أن يضربهم أو يهينهم .

كذلك فعل الله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾

بعد أن بلغ الإنسان رشده : أعطاه الشريعة العامة ، والقواعد الثابتة ، وأباح له التصرف في الأمور ، بحسب ما يرشده إليه عقله في حدود شرعه : فبعد أن كان يوحى إلى الأمم السابقة كبنى إسرائيل مثلا في كل جزئية من جزئيات الأمور ؛ اكتفى الآن بما في القرآن الشريف ، من القواعد العامة ، والأصول الثابتة : فإنها مع ما يوحىه إلينا العقل كافية لهدايتنا في جميع الأمور ، بعد أن بلغنا رشدنا .

لذلك أغلق الله تعالى باب الوحي والمعجزات ، وأخبرنا بذلك كله صريحا في الكتاب العزيز ، فلم يبق لحتال ولا لمشعوذ ولا لدجال أدنى وسيلة إلى التأثير في العقل ، وبذلك خلص العقل البشرى من الأوهام والخرافات والترهات ، وأصبح طريق العلم أمامه واضحا ، ومهيئ الحياة صالحا ، ولكي لا يبقى هناك ثمة في نفس أحد من المؤمنين يقتحم عليه منها شيطان من الشياطين ؛ نص الكتاب العزيز نصا صريحا لا يقبل التأويل ، على أن الغيب عليه عند الله لا يعلمه إلا هو ، وأن الأمور كلها بيد الله يصرفها كما يشاء ، لا يراعى فيها

بجاملة أحد من عباده . فقال مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . ومثل ذلك في القرآن كثير يعرفه من وفق إلى تلاوته بتمعن وتدبر .

إن نظرة فيما كانت عليه طوائف المسيحيين في القرون الأولى ، تدل بأجلى بيان وأنصح دليل ، على مقدار نجاح محمد صلى الله عليه وسلم الاجتماعي : ذلك بأن الناس وقتئذ تضاربت عقائدهم وأفكارهم ، في أصول الدين الأساسية كافة ، وكثرت مذاهبهم فيها ، ولم يرق للناس في تلك الأزمان — لقصر عقولهم — إلا الشرك والتجسيم ، وعبادة الصور والتماثيل . وكلما قام فيهم موحد أو مصلح حكموا بكفره ومروقه ، حتى أريق دماء بسبب ذلك ظلما وعدوانا ، وانقلب دين المحبة والوفاق ، إلى بغض وشقاق ، وانصدع بنيان الكنيسة المسيحية من قديم الأزمان انصدعا نفذت منه المحن والفتن ضروبا وأشكالا .

قام أريوس بالتوحيد ، وأقره على ذلك بعض الأساقفة والإمبراطور قسطنطين نفسه ، ثم وجد له من أمم الجرمانيين أتباعا كثيرين ، ولكن ميل جمهور الناس في ذلك الزمن إلى الشرك والوثنية ، حمل أكثر أعضاء مجمع (نيقية) سنة ٣٢٥ م على الحكم عليه بالزندقة والمروق ؛ وتأصلت العداوة بين أتباعه وبين سائر المسيحيين منذ ذلك الحين .

ولما فشلت في الناس عبادة الصور والتماثيل ، واشتدت حتى صارت جزءا من الدين ، قام بعض الناس — ومنهم القياصرة كـ « ليون الثالث » — لمحقتها .

وسموا إذ ذاك (كاسرى التماثيل) . وكان ذلك فى القرن الثامن والتاسع .
فحكم البابا جريجورى الثانى ثم الثالث بحرمانهم ومروقهم . ولما اجتمع مجمع
القسطنطينية سنة ٨٤٢ م كان أيضا مضادا لهم ، وفاز فيه العابدون لها ، مع
نهى كتبهم عن عمل الصور ونحت التماثيل وعبادتها والإشراك بالله تعالى ؛
نها بصريحا لا يقبل التأويل . فكان ذلك سببا آخر من أسباب الشقاق بين
طوائف المسيحيين .

ولما قام لوثر بالإصلاح البروتستنتى فى القرن السادس عشر ؛ اشتعلت
نار الحروب بين المسيحيين ، وخضبت الأرض بدماء الألوف من الأبرياء
المصلحين ، فى مثل مذبحه اليهود بفرنسة سنة ١٥٧٢ م . ومن فرقهم القديمة
من عبد مريم العذراء . وكان فريق من نصارى العرب يسجدون لها من
دون الله ، ويطلبون منها ما يشتهون ، ويفزعون إليها فيما يتقون ، ويرجونها
لما يخافون ، فهى القرآن الشريف عن اتخاذها إلهاً مع الله « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ »

من ذلك تبين حكمة تشديد الشريعة الإسلامية فى النهى عن التصوير واتخاذ
التمائيل ، وتبين حاجة العالم فى ذلك الوقت إلى الإصلاح العظيم الذى
جاء به الإسلام ، والذى هو سابق لكل إصلاح عملى ناجح . فأنى لمحمد ذلك
لولا وحى الله ؟ ولماذا انفرد عن العالم كله ، فى ذلك الوقت الذى كانت فيه
الأمم غارقة فى عبادة الصور والتمائيل ؟ ولماذا لم يتأثر عقله بما يراه عند
قومه وأهله وأهل الكتاب ، ولا سيما الذين يزعم المبشرون أنهم معلوه ،
مع أنه هو الذى جاءهم بالإصلاح قبل أن يعرفوه ، ونهاهم عن عبادة الأشخاص
والصور ونهى عليهم تلك العبادة ؟ فكيف اقتنع بصحة عقيدته فى التوحيد

والتنزيه ، وهى مخالفة لما كان عليه جماهير الناس فى العالم كله إلا أفرادا قليلين ؟ وكيف عرف أن الحق مع هؤلاء دون أهله والأكثرين من قومه ، وذلك منذ طفولته قبل أن يكون للعقل مجال فى البحث والتفكير ؟ ولماذا كان محمد هو السابق للعالم فى إصلاح كل فساد فى أمور الناس الاجتماعية ، دينية كانت أو دنيوية ، إصلاحا عمليا ناجحا ؟ فمن تعلم هذه الطرق العملية الناجعة فى سياسة الناس والتأثير فيهم والاستيلاء على قلوبهم وعقولهم ، حتى صاروا فى كل شىء درج مشيئة ، ورهن لإشارته ، فلك نواصى العالمين ، وفاز فى ذلك فوزاً مبيناً لم يسبقه إلى بعضه أحد من المصلحين والنبين ؟ فإذا كان لوثر أو غيره يعد الآن من كبار المصلحين ، فأولى ثم أولى ، أن يعد (محمد) الذى ظهر قبله فى وسط الوثنية المحضة ، محاطاً بها من جميع الجهات ، وأصلح جميع أمور الناس وأحوالهم ، وآتى بدين الحق والتوحيد الخالص — أكبر نبي مصلح ظهر على ظهر الأرض . لذلك قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَنِي ضَلَالِ مُبِينٍ . وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

ما كان للحكومة أن تستطيع الهيمنة على بلادها دون الاستعانة بالشُّرط — يد أن الحكومة التى أنشأها محمد صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة ؛ لم تستعن فى المحافظة على الأمن وحمل الناس على إطاعة الأوامر ، بشىء مما تستعين به حكومات الأمم الأخرى ، ومع ذلك فالجرائم كادت

تحتفي ، ومن ارتكب إثما في سره أو علانيته سارع إلى الاعتراف للبصطفى بما اقترفت يداه ، لأن الإسلام قد جعل على كل نفس منها رقيا .

وسر ذلك أن خشية الله تمكنت من قلوب المسلمين ، فأصبح سرهم كعلانياتهم وأصبح الجاني شُرطى نفسه ، ومن أجل ذلك صار واجب الحاكم سهلا لينا : فلا المنهم في حاجة إلى مدره ، ولا القاضي في حاجة إلى طول البحث والفحص لاجرم أن الذي أنشأ أمة كهذه من الناس عجز عنها من تقدمه من الفلاسفة والحكام والأنبياء - فهو جدير بأن يقال : إنه أحرز أعظم نجاح عرف ، ولا شك في أن هذه الأمة قد بلغ من التقدم الخلق والاجتماعى والسياسى ما لم يشهد التاريخ من قبل مثله

قزر علماء الاجتماع أنه لا يتم إصلاح لأمة من الأمم ، أو لشعب من الشعوب ، إلا إذا أعمت القلوب حبا للمصلح وطاعة لأوامره ، وبدهى أن المال أو القوة بل المعجزات - كل أولئك لا يكتفى لحل القلوب على ما يجب للمصلح من المحبة والاحترام ، والطاعة . وهى أمور ثلاثة ، تأتى تبعا لمآتتاله الأمم من التقدم الخلق والروحي - غير أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، لم يستعن بالمال ولا بالقوة ولا بغيرهما ، بل كان ينحى عن نفسه جميع ما من شأنه الإغراء والاستمالة . ألم تر أنه يقول بلسان القرآن : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ ومع هذا كان أمره مطاعا ، وهو محبب إلى أصحابه ، إلى حد التفدية له بأنفسهم وأموالهم وأولادهم : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

أَقْرَقْتُمُوهَا وَتِجَارَةً تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ ﴿١٩٠﴾ .

أما وقد بان أن محمدا صلى الله عليه وسلم أحبه أصحابه ، وبذلوا كل نفس
ونفيس في نصرته وتأبيده دون أن يستهويهم بشئ من عرض الدنيا ، فليس
بعجيب أن يكون أكثر الأنبياء والمصلحين نجاحا ، كما أقر ذلك بعض
كتاب الغرب ، ولا يمكن أن يبلغ هذا النجاح النادر إلا من وصل إلى أعلى
مقام روحى .

كان شعار أصحاب محمد عليه السلام قولهم : لن نقول كما قال قوم موسى
عليه السلام : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ . ولم يكن
قولهم بجمالة أو مصانعة ، بل كانوا يفعلون ما يقولون . انظر إلى ما حصل في
موقعة أحد : إذ رمى المصطفى فُكِسِرَتْ سَفْلَى رَبَاعِيَتِهِ الْيُمْنَى ، وجرحت شفته
السفلى ، وَشُجَّتْ جَبْهَتُهُ ، وجرحت وجنته ، وهشموا البيضة على رأسه ،
ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته ، ولشدة غوصهما ، لم يقدر أبو عبيدة
على نزلهما إلا مع نزع سنّيه اللتين كانتا ينزع بهما ، ورموه بالحجارة حتى
سقط لشقه في حفرة ، فهجم عليه العدو ، فهرع إليه أصحابه الأوفياء وجعلوا
من جسامهم حصونا حوله ، فأحاطوا بالحفرة ، ثم نصبوا صدورهم لنبال
العدو فأخذت تخترق أجسامهم وهم لا يبالون ، وأخذوا يُصرَعُونَ واحدا
بعد واحد ، وكلما خلا مكان واحد منهم سارع غيره إلى احتلاله ، ولم ينفرد

الرجال بهذه الروح الفدائية ، بل أخذت النساء منها أوفر النصيب . فقد تقدمت عائشة وأم سلمة وغيرهما بالسيوف ، وهجمن على العدو . وبذلك نجى النبي الكريم في أشد الأوقات محنة وحرجا ، وكان أصحاب محمد بمن يفخرون بأنهم عاهدوه على أن يموتوا في سبيل دينه . وبذلك تم لهم النصر المبين .

إن الروح التي نفثها محمد صلى الله عليه وسلم في قومه ، لم يقتصر ظهورها على مواقع القتال ، بل مكنتهم من محاربة ألد الأعداء وأقواها : وهى طبائعهم الفاسدة ، وعاداتهم المردولة ، وعقائدهم السخيفة .

وسر ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم - مع كثرة واجباته التى أذاها على أكمل وجه - لم يشغل عن عبادة ربه . فقد كان يقضى نهاره فى عمل متواصل وليله فى تهجد طويل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نَفْصَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ عكف على العبادة حتى فى أيام المدينة التى كثرفها العمل وتنوع ، وظلت حاله كذلك حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، ولم تمض السنة العاشرة من الهجرة حتى انهالت القبائل العربية من جميع الأطراف على المصطفى صلى الله عليه وسلم للدخول فى دينه ، وجاءت الوفود تلو الوفود إلى مكة ثم المدينة ، للإبانة عن معاضدتهم للإسلام ، فنزل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ وقد كان نزولها إيذانا بكمال الوحي . وقد نزلت عليه وهو فى مكة عند زيارته البيت الحرام ، ومعه ألاف من أصحابه .

وقد رأى ابن عباس رضى الله عنهما ، أن نزول هذه السورة يشعر بقرب انتقال المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وقد صدق حدسه ، فلم يعيش المصطفى بعدها سوى ثمانين يوماً .

وفي اليوم التاسع من ذى الحجة في السنة العاشرة للهجرة ، الموافق ٨ من مارس سنة ٦٣٢ م . كان المصطفى في منى ، وحوله جمع عظيم لا يقلون عن مائة وأربعين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال . وفي ذلك اليوم نزل قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

وقد اغتنم المصطفى صلوات الله عليه هذه الفرصة ، فخطب خطبته المشهورة — وحوله ممثلو جميع القبائل — وهى :

(إن الحمد لله ، نحمده ونستغفره وتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله : أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد ، أيها الناس : اسمعوا منى أدين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول رباً أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية

والعمد قود ، وشبه العمدة ما قتل بالعصا والحجر . ففيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ . وإن الزمان قد استدار ، كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض . منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات ، وواحد فرد : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، ألا يؤطئن فرشكم غيركم . ولا يدخلن أحداً تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة . فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع ؛ وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن اتبهين وأطعنكم ، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً : أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة : فلا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعوا بعدي كفاراً ، يضرب بعضكم أعناق بعض : فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وأهل بيتي . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد : كلكم لآدم . وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟

قالوا : نعم . قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب :

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث . ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث . والولد للفراش ، وللعاهر الحجر : من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حقا قد ظهر بين الفرنجة الآن كثيرون عن اهتدى إلى صواب جميع ما أتى به عليه السلام ، ومنهم من أسلم ظاهرا وباطنا ، بعد أن كانوا يعتونه من أكبر الكذابين والدجالين ؛ لكثرة ما اقترأه عليه قسيسوهم في تلك العصور المظلمة ، حتى إنهم ادعوا أن لمحمد صنما من ذهب ، يعبداه المسلمون الذين لا يعبدون إلا الله وحده ، ويصلون له خمس مرات في كل يوم . ويصيحون باسمه تعالى في كل واد وفي كل مرتفع ، ويصومون له شهر رمضان في كل سنة .

لأريب في أن أدعياء النبوة الكذبة يعرفون بأعمالهم كما قال المسيح عليه السلام : (متا ١٦ : ٧ — ٢٠) ، ولا يأتي الشرير بالخير والإصلاح للناس أجمعين والله تعالى لا يؤيد الكذابين والدجالين المضللين للناس : (راجع مزمو ١ : ٥ ، ٦ : ١٦ ، ص ٣٧٠) وقد أيد الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، حتى نجح في عمله هذا النجاح الباهر العجيب السريع ، الذي لم يعهد له مثيل في التاريخ . رجل قام باسم الله ، ودعا الناس باسم الله ، وقال وعمل كل شيء باسم الله ، ونسب إليه تعالى كل عمل من أعماله ، ولم يكذبه الله تعالى ، ولم يخذله ، أو يقتله كما فعل بالكذابين — بل ثبتته وأيده ، وقواه ونصره ، وكتب له النجاح

في جميع مساعيه ومقاصده ، وصدقته في كل ما أخبر به عنه ، ورفع ذكره ، وأعلى شأنه ، حتى صار اسمه يذكر بجانب اسم الله على السنة عدد عظيم من البشر ، في كل بقعة من الأرض ، فلا يعقل أن يكون هذا من الكذابين . إذا أحصينا الملوك العظماء ، والساسة الماهرين ، والقواد المحنكين ، والخطباء ، والبلغاء ، والمنشئين المجيدين ، والكتاب المتفنين ، والحكام الشارعيين وغير الشارعيين ، والوعاظ المؤثرين ، والأنبياء والمصلحين ، ومؤسسي الممالك والدول العظام — وجدناه أكبر ملك ، وأعقل سياسي ، وأبلغ منشئ وواعظ ، وأحكم شارح ، وأشجع قائد ، وأعظم غاز وفاتح ، وأورع متدين ، وأخلص ناصح ، وأكبر مرشد للناس في جميع شئونهم الدينية والدنيوية ، وأعظم مصلح للأفكار والأخلاق والعقائد والعبادات والمعاملات ، وأوسع مؤسس ، وأدوم منشئ للدول والممالك ، وهو في كل ذلك لم يتعلم من مخلوق شيئاً يكفي لإزالة جزء مما حوله من الأوهام والخرافات ، ولم يتدرب ، أو يتدرب ، أو يتمرن قبل النبوة على أي عمل مما أتى به بعد نبوته ؛ بل نبغ في كل ذلك دفعة واحدة حينما ظهرت النبوة . وكلما لزمه شيء من أعبائها وجد نفسه أكبر نابغ فيه . فما هذا العلم مع تلك الأمية ؟ وما هذا الإصلاح من نشأ في بلاد الوثنية بعيداً عن كل نظام ومدنية ؟

كفاك بالعلم في الأمي معجزة * في الجاهلية والتأديب في اليم

تباركت اللهم ، إن هو إلا وحيك إليه ، وعونك وتأييدك له .

ولولاك - سبحانك - ما قدر على فتح مدينة واحدة ، ولا تهذيب رجل واحد : فإنا نرى السول الأوربية بخيلها ورجلها ، وعلوها وفنونها ، ومخترعاتها

وأساطيلها ، ومدترعاتها وطائراتها ، وأموالها وزخرفها ، ومدارسها ومستشفياتها ، وجميع تدبيراتها وخُدَعِهَا - عاجزة كل العجز عن مناوأة دينك أو صدّ تياره الجارف ، أو الحيلولة بينه وبين قلوب البشر المترامين في أحضانها من جميع الملل والنحل ، في سائر بقاع الأرض ، حتى ضج دعاة الأديان الأخرى وهم دهشون ، وهبوا لمناوأتها ، ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متمّ نوره ولو كره الكافرون : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

(ب) نجاحه في سياسته

(١) احتماله الأذى وتألفه من حوله

حُبَّ إليه صلى الله عليه وسلم في نشأته الانقطاع عن الناس ، والتفرغ لعبادة ربه ، والتفكير في صنع الواحد الديان ، إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة ، فانفتق له الحجاب ، وتجلّى عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام العلى ، وتحقق له ما كان يحسه من الإلهام الإلهي ، واختاره الله ، وعلّمه كيف يهدى قومه والناس أجمعين ، فصعد بما أمر ، وبلغ ما أنزل إليه من المولى ، ودعا لعبادته تعالى سرا ، حذراً من مفاجأة الناس بأمر غريب ، فأسلم كثير من الرجال والنساء والصبيان والأشراف والموالى . كل ذلك ولم يكن معه سيف يضرب به أعناقهم ، وليس عنده ما يرغبهم حتى يترك العطاء أبائهم . ويطيعوه صاغرين ، ويتحملوا إهانة أهليهم ، مع أن الكثير منهم كان واسع الثروة أكثر منه عليه السلام ؛ ولكن الدين الحق ماحل في قلب

ولا سطع في عقل ، إلا فضله على ما سواه .

ولما ألفت الناس هذه الدعوة ، وجاء أمر الله بالجهر بها بقوله تعالى :
﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ
الْأَقْرَبِينَ ﴾ . لبي داعي الله ، وخاض الغمرات ، وسلك مفاوز النصيحة ،
واقترح ميدان الإرشاد

صعد ذات يوم في الصفا ، وقال : « يا صباحاه ، افاجمعت إلي قريش ،
فقالوا : مالك ؟ فقال : « رأيتم إن أخبرتكم أن العدو مُصْبِحُكم أو مُمَسِّمُكم
أما كنتم تصدقونني ؟ » . قالوا : بلى . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب
شديد » . فقال أبو لهب : « تباً لك . ألهذا دعوتنا ؟ » . فنزل قوله تعالى
﴿ تَبَّتْ يُدَا أُبَى لَهَبٍ وَتَبَ . ﴾ . وظل يطلب من الناس عبادة الله وحده
واجتناب عبادة الأوثان وتجافي المنكرات ، وهجر المحرمات ، بقلب ثابت ،
ويقين راسخ ، وسياسة حكيمة : فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه
الضلالة ، ولاقى عليه السلام في سبيل ذلك من صنوف الأذى ما يعجز عنه الوصف
وبخاصة عند ذهابه إلى البيت للصلاة . روى أن أبا جهل (عمرو بن هشام بن
المغيرة المخزومي القرشي) قال يوما : « يا معشر قريش ، إن محمدا قد أتى ما ترون :
من عيب آلهتكم ، وتسفيه أحلامكم ، وسب آبائكم . إني أعاهد الله لأجلسن
له غدا بجحر لا أطيق حمله . فإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه . فأسلوني
عند ذلك ، أو امنعوني . فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم » .
فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ينتظره . وغدا عليه
السلام كما كان يغدو إلى صلاته - وقريش في أنديتهم ينتظرون ما يوجب

فاعل — فلما سجد عليه الصلاة والسلام ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا مادنا منه رجع منهزماً ممتقعاً لونه من الفزع ، ورى حجره من يده ، فقام إليه رجال من قريش ، فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : دقت إليه لأفعل ما قلت لكم ، فلبادنوت منه عرض لى فخل من الإبل . والله ما رأيت مثله قط . هم بي أن يأكلنى ، فلما ذكر ذلك لرسول الله قال : ذاك جبريل . ولودنا لأخذه . ولأبى جهل عمل كثير فى إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو سائر فى دعوته ، عامل على نشر رسالته ، إلى أن صرع الحق الباطل : إن الباطل كان زهوقاً .

كل ذلك فى مدى أربع سنين . فلما جاءت السنة الخامسة ، أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فرارا من الذى كان يلحقهم لاتباعهم إياه ، خصوصا من ليس له عشيرة تحميه ، أو قبيلة ترد عنه كيد أعدائه ، فهاجروا فرارا بدينهم . وهى أول هجرة من مكة ، وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة . وكان عدد المسلمين فى ذلك الوقت لا يتجاوز الخمسين . فلما رأت قريش أن أمره فى الازدياد ، وأن الإسلام انتشر فى القبائل ، هموا بقتله : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤَفَّكُونَ » فدخل مع عمه أبى طالب وبنى هاشم الشعب . فغضبت قريش . وقطعوا عنهم الأسواق ، ومنعواهم الرزق ، وأبوا الصلح إلا أن يسلبوا محمدا صلى الله عليه وسلم للقتل ؛ وكتبوا بذلك صحيفة ، وعلقوها فى جوف الكعبة . وعند دخول الشعب ، أمر أصحابه بهجرة ثانية إلى الحبشة . وعدتها ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة . وانضم إليهم الذين أسلبوا فى اليمن مع أبى موسى الأشعرى . فلما رأت قريش أن المهاجرين استقروا فى الحبشة ؛ التمسوا من ملكها أن يرد من هاجر إلى بلاده من المسلمين ، فرد

وفد قريش خائبا ، ثم أسلم النجاشي نفسه لما كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم كتابا بعثه إليه ، على يد عمرو بن أمية الضمري ، يدعو به إلى الإسلام ويطلب منه أن يرد إليه من بقى عنده من مهاجري الحبشة . فردهم إليه ، ورحل معهم اثنان وستون من الحبشة ، وثمانية من أهل الشام . فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة ﴿يس﴾ إلى آخرها . فبكوا حين سمعوا القرآن ، وآمنوا وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ! وفهم نزل قوله تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَانَ مِنْهُمْ قِيسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَهُم لَّا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

ولا تنس ما لاقاه الرسول ومن معه في الشعب من الجهد والشدة والجوع : فكان لا يصل إليهم شيء إلا سرا ، حتى إنهم أكلوا أوراق الشجر . واستمروا على ذلك ثلاث سنين ، ثم خرج الرسول بعد أن نقض جماعة من قريش الصحيفة . وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن الأرضة أكلت ما فيها من الكتابة إلا أسماء الله . فلما أنزلوها ليزقوها ، وجدوها كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، ولم يزد هم ذلك إلا بغيا وعتوا .

وفي السنة العاشرة ، وفد على النبي وفد من نصارى نجران فأسلموا . وقد حضرت المنية عمه أبو طالب ، فجمع وجوه قريش وأشرافهم وأوصاهم بالنبي خيرا ، وطلب منهم أن يكونوا من أنصاره وأعوانه ، وقال : « قد جاءكم بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن » . وبعد موته اشتد أذى قريش للرسول وتعصبهم عليه . فلما رأى ذلك هاجر إلى الطائف ،

ومكث شهرا كاملا . فلما لم ينل منهم خير أرجع إلى مكة ، ودخلها في جوار
المطعم بن عدى ، ثم أكرمه الله بالإسراء في السنة الحادية عشرة ، وكذا
بالمعراج الذي فرضت فيه الصلاة ، وما فتئت قريش تضع العراقيل في طريق
دعوته ، مما أدى إلى خروج المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى مواسم العرب ؛
لبعرض نفسه على القبائل ، فعرفه نفر من الأوس الذين سمعوا وصفه صلى الله
عليه وسلم من اليهود ؛ فقالوا فيما بينهم : والله إنه النبي الذي أنبأنا به اليهود ،
فلا تسبقنا إليه ، وآمن به منهم ستة من الخزرج كانوا سبب انتشار الإسلام
في المدينة ، ثم لقيه منهم في العام الثاني اثنا عشر رجلا من الخزرج ،
واثنان من الأوس ، وكانت مبايعتهم للمصطفى عند العقبة ؛ بايعوه على ما أحب
— وتسمى العقبة الأولى — قائلين : « على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق
ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأثى — يهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ،
ولا نعصيه في معروف ، وأن نقول الحق حيث كان ، لا نخاف في الله لومة
لأثم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « فإن وفيتم فلکم الجنة ،
ثم انصرفوا إلى المدينة ، فأظهر الله فيها الإسلام ، ولم تبق دار من دور
المدينة وإلا وفيها ذكر الرسول .

ولما جاءت سنة ثلاث عشرة للنبوّة ، وفد عليه من المدينة للحج كثيرون ،
ومعهم ثلّة من مشركيهم ، وحين قابله وفتحهم واعدوه للمقابلة ليلا عند العقبة ،
فأمرهم ألا ينهوا نائما وقتنذ ، ولا ينتظروا غائبا : لأن كل هذا التدبير كان
خفية من قريش حتى لا يطلعوا على الأمر ؛ فيسعوا في نقض ما أبرم . وتلك
سياسة حكيمة ، ومنهج قويم .

ولما فرغ الأنصار من الحج توجهوا إلى مواعدهم ، كاتمين أمرهم عن

٢٠١ محمد صلى الله عليه وسلم أكبر المصلحين نجاحا

معهم من المشركين — وكان ذلك بعد أن انصرم من الليل ثلثه الأول — وقد تسللوا فرادى ومثنى حتى تم عددهم سبعين رجلا وامرأتين ، فبايعوه وأسلموا عند العقبة — وتسمى العقبة الثانية — ثم نقَّب عليهم اثني عشر نقيبا منهم — لكل عشيرة نقيب — وقال لهم : « أتم كُفْلَاءُ على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام ، وإنى كفيل على قومي » . ثم انصرفوا إلى المدينة . وانتشر الإسلام على إثر ذلك بين أهلها ، تمهيدا له عليه الصلاة والسلام ، ليسلك مع العرب المسلك الأعلى ، وينتصر عليهم انتصارا حريبا ، بعد نجاحه نجاحا سياسيا باهرا لاقى الأذى والشدائد من أجله ؛ فقد استمر صلى الله عليه وسلم كما قد منا ، ثلاث عشرة سنة يبلغ الرسالة إلى كل من أصغى إليه ، وبشردينه بين الحجيح مدة إقامتهم بمكة ، ويستميل الأتباع هنا وهناك وهو يلقي في سبيل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ، وبجاهرة وشرا باديا وكامنا . وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه . وقد بلغ من الشدة والبلاء حالا لم يرها إنسان قط : فقد كان يختبئ في الكهوف ، ويفز متسكرا إلى هذا المكان وإلى ذلك الجنب ، لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تهدده الخوف وتتوعده الهلكات ، وتفغر له أفواهها المنايا ، والله كآله وراعيه .

ولما أيقن أن أعداءه متألبن عليه جميعا ، وأن أربعين رجلا يمثلون أربعين قبيلة ائتمروا به ليقنلوه ، وألقى المقام بمكة مستجيلا ، وأن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته وعدم الإصغاء إليها ، بل أبوا إلا تماديا في ضلالهم : يسلبون وينهبون ، ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ، ويأتون كل إثم ومنكر ، وقد جاءهم من طريق الرفق والآناة فأبوا إلا عتوا وطغيانا . لما أيقن ذلك كله ، أرشده الله جلّت قدرته إلى الهجرة ؛ ليتم انتصاره ، وينتشر دين الله

في الآفاق ، ويصبح المسلمون إخوانا متحابين .

٢ — حذقه في المعاهدات واستقبال الوفود

ومراسلة الملوك

بلغ صلى الله عليه وسلم من البراعة في السياسة ، والبصر في الأمور ، والنظر في حسن العواقب ، ما يجب أن يحتذيه الزعماء والساسة على اختلاف زمانهم ومكانهم . فمن ذلك ما يأتي :

(١) معاهدة الحديبية

الحديبية (بئر قرب مكة سميت الأرض باسمها) : ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أراد في السنة السادسة للهجرة زيارة مكة ، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه ، خوفاً من أن تردهم قريش عن عمرتهم ، ولكن هؤلاء الأعراب أبطوا عليه ، لأنهم ظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وتخلصوا بقولهم : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . فخرج عليه الصلاة والسلام بمن معه من المهاجرين والأنصار ، تبلغ عدتهم ألفاً وخمسمائة ، وأخرج الهدى ، ليعلم الناس أنه لم يأت محارباً . ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف في أغمادها ، لا يقصدون شراً ، ولا يبيتون غدراً .

ولما وصل أصحابه إلى عُسْفَانَ (موضع على مرحلتين من مكة) بلغه أن قريشاً هاجها خبر مقدمه ، وثارت ثأرتها ، وأجمعت رأيها على أن يصتوا المسلمين عن مكة ، وتجهزوا للحرب ، وأعدوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ، ليصتوا المسلمين عن التقدم . وأبى عليه السلام إلا أن يزور الحرم

رغم كل مقاومة ، ثم أمر أصحابه بالنزول أقصى الحديبية ، حيث جاء بدیل بن ورقاء سيد خزاعة ، موفدا من قبل قريش ، يسأل الرسول عن سبب مجيء المسلمين . فأخبره عليه السلام : «أننا لم نقدم لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب ، فإن شاموا ماددتهم مدة ترك الحرب فيها ، ويخلون بيني وبين الناس . فعاد بدیل وقص على قريش ما سمعه من محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يثقوا بخبره ، لأنه من خزاعة التي كانت حليفة بني هاشم في الجاهلية ، قائلين له : «أريد محمد أن يدخل علينا في جنوده معتمرا ، تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ؟ والله ما كان هذا أبدا ومنا عين تطرف ،

ثم اتدبوا سفيرا آخر ، وهو عروة بن مسعود سيد ثقيف . فتوجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يثبط همته بتعظيم أمر قريش . وكان مما جاء في كلامه قوله : إن المسلمين ليسوا من قبيلة واحدة ، فلا رابطة تربطهم ، ولذلك لا يؤمن قرارهم . فأجابه أبو بكر الصديق رضى الله عنه على الفور : إن مودة الإسلام أعظم من مودة القرابة .

ثم رجع عروة إلى قريش فقال لهم : «والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي . والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد : إذا أمرهم ابتدروا أمره يقتلون ، وإذا توضعوا كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده إجلالا وتوقيرا ، وما يُحدثون النظر إليه تعظيما له . وإنه قد عرض عليكم خطبة رشد فاقبلوها . ولقد رأيت معه قوما لا يسلمون لشيء أبدا ، فانظروا رأيكم ،

ومع هذا فلم يجد هذا النص من قريش أذنا واعية ، ولا نفوسا قابلة ، فأرسلوا

سفيرا ثالثا : فكان من حاله ما كان من أمر سابقه

ولما رأى المصطفى صلى الله عليه وسلم إخفاق سفراء قريش في وساطتهم أرسل لهم من قبله خراشة بن أمية ، لإثارة للسلالة والمودة ، فعقدوا ناقته وهموا بقتله لولا أن تداركه بعضهم فأنقذوه وردوه إلى قومه . فأراد النبي أن يرسل لهم عمر بن الخطاب ، ليلخ عنه أشرف قريش ماجاه له ، فقال له : يا رسول الله ، إني أخاف قريشا على نفسي . وما بمكة من بني عدى بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها . ولكن أدلك على رجل له بنو عم يمنعونه : وهو عثمان بن عفان . فأرسله المصطفى ومعه كتاب إلى أشرف قريش يخبرهم : أنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظم الحرمته ، فلما جاءهم عثمان أصرروا على منعهم الرسول وأصحابه من الطواف ، مهما تكن النتيجة ، وأذنوا لعثمان وحده أن يطوف بالبيت ، فأبى عثمان ذلك ، فأمروا بسجنه ثلاثة أيام ، وأشاع الناس أنه قتل مع العشرة الذين معه ، فوقف النبي خطيباً بين قومه قائلاً : « إن كان حقاً ما سمعنا فلن نبرح الأرض حتى نتاجز القوم . البيعة البيعة أيها الناس ، فتوافد الناس يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنْما يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِمْما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُؤُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

فلما سمعت قريش بأمر البيعة ، وبثبات النبي صلى الله عليه وسلم على عزمه خلعت ثوب خيلائها ، وأطلقت سراح عثمان ومن معه ، ثم أرسلت من قبلها سهيل بن عمرو العامري وحويطب بن عبد العزى - وكانا من عظماء قريش وكبار وجهائها - لعقد معاهدة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستبشر بذلك

النبي . وكان من حديثه مع سهيل أن قال له : لم لا تمكنتنا من البيت نطوف به ؟ فأجابه سهيل : والله لا يتحدث العرب أننا أخذنا ضُغطة ، (أى بالشدة والإكراه) ولكن لك ما تريده في العام القابل ، ثم تم الأمر على الصلح على ترك القتال ، وأن تُوضَعَ الحرب بينهم عشر سنين ، وأن يأمن بعضهم بعضا ، وأن يرجع المصطفى عنهم عامهم هذا ويأتى في العام القابل ، ويخلوا له مكة ثلاثة أيام ، وألا يدخلوا إلا بالسيوف في قرابها ، وعلى أنه لا يأتيه منهم رجل وإن كان على دين الإسلام إلا رده إليهم ، وألا يردوا إليه من جاءهم من عنده . ومن أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل ، ومن أراد الدخول في عهد قريش دخل فيه .

ولما تم الأمر ولم يبق إلا كتابة المعاهدة ، وثب عمر بن الخطاب ، فجاء إلى أبي بكر وقال له : أليس هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى قال : أولسنا بمسلمين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدين في ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر ، إنه رسول الله . وليس يعصى ربه وهو ناصره . فاستمسك بعرسه (ركابه) حتى تموت : فإنني أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما كادت المعاهدة تكتب ، حتى حدثت أحداث استوجبت الخلاف في تنفيذها : فمن ذلك أن أحد المستضعفين بمكة — واسمه أبو بصير — جاء إلى المدينة هاربا ، فكتبت قريش إلى النبي تطلبه قائلة : لقد عرفت ما عاهدناك عليه من رد من قدم عليك من أصحابنا . فابعث إلينا بصاحبنا . فقال المصطفى لأبي بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً . ولا يصح الغدر في ديننا : فانطلق مع رسولهم : فقال أبو بصير : أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟

فقال له المصطفى . انطلق إلى قومك ، فإننا لا نغدر ، وإن الله جاعل لك من الضيق فرجا .

ومن ذلك أن قريشا لما شعرت بما حلّ بتجارها من التعطيل والكساد بسبب تعرض أبي بصير وشيعته ، فرعت إلى النبي مستصرخة به ، فارسلت أباسفيان طالبة إليه إيواء الذين فزوا عنها ، ولا حاجة لها بردهم ، وأن تسقط هذا الشرط من المعاهدة . فقبل المصطفى ذلك ، وأمر أبا بصير ومن معه أن لا يتعرضوا لغير قريش أو رجالها .

ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أمر أصحابه في مُسْتَهْل ذى القعدة من السنة السابعة أن يشدوا رحالهم إلى مكة ، قضاء للعمرة التي لم يؤدوها بسبب المعاهدة التي عقدت مع قريش في العام الفائت . فلما عرفت ذلك قريش بثت روادها في جميع السبل ، تترقب قدوم عسكر المسلمين . ولما ظهر لهم أن قوم محمد مسلحون ، أرسلوا إليه وفد برياسة مُكَرَز بن حفص . فقالوا له : يا محمد ، والله ما عُرفت بالغدر صغيرا ولا كبيرا . أتدخّر بالسلاح في الحرم على قومك ، وقد آمنتم وأمنوك ؟ فقال لهم المصطفى : إنا لن ندخل بالسلاح ما داموا على الوفاء ، وهذا السلاح الذي ترونه سنتركه في الخارج ؛ لنأتى به إذا حدث ما يدعو إليه .

ولما انقضت الأيام الثلاثة ، أرسلت قريش إلى النبي تطلب إليه الخروج لانتهاؤ المدة المضروبة . فقال لرسولهم : ماذا عليكم لو تركتمونا بينكم أياما ؟ فقال رسولهم : ناشدتك الله أن تخرج ، قد مضت الأيام الثلاثة . فأجابته النبي : إنا فاعلون في المساء إن شاء الله . وأمر من يؤذن في الناس بالرحيل . ولما رأت قبائل العرب ما أظهره الرسول من الوفاء بالعهد ، والمحافظة على الوعد

رغبت في محالفته ، وأقبلت على معاهدته ، فتوثقت عرا المودة بينه وبين تلك القبائل ، وتم بينه وبينهم التناصر .

تأمل أن المصطفى كان معه جيش عظيم يمكنه من دخول مكة فاتحا ، ولكنه اجتنب القتال . وقبل شروطا رآها عمر رضى الله عنه غير لائقة بالإسلام وكرامته ، ليكون عليه السلام قدوة صالحة لأهل الزعامة في سعة الحيلة ، وبعد النظر ، وسداد الرأي ، ونيل المطالب من أنبل سبلها . ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديدية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجلون ، والله لا يعجل لعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد .

تأمل صلح الحديدية وماظهر فيه من البراعة السياسية ، تر أن المصطفى صلى الله عليه وسلم آثر السلم على الحرب ؛ مع ما صار إليه المسلمون وقتئذ ، من المنعة والقوة ، والقدرة على الفتك بأعدائهم ، لأن هذا الصلح أدى إلى اختلاط المسلمين بالمشركين ، وإسماعهم القرآن ، وتبليغهم حقيقة الدين ، وإرسال الرسل لتبليغ ملوك جزيرة العرب ، وما اتصل بها من الشام و مصر وفارس . فصار الناس يدخلون فيه آمنين مقتنعين ، وأظهر الإسلام في هذه الهدنة من كان يخفيه بين المشركين خوف الفتنة .

وناهيك برهاننا على عظم شأن هذه المعاهدة ، أن الله تعالى أنزل سورة الفتح في تعظيم شأنها ، مبيّنة ما فيها من الحكم والمصالح ، ومشملة على أخبار الغيب والوعد بالنصر والمغانم ، فسيهاها الله فتحا مبينا ، وأعقبها نصرا عزيزا ؛ لأنها كانت تمهيدا لفتح مكة الذى أتم الله به النعمة على الأمة العربية والعالم أجمع .

(ب) استقبال الوفود

ومما هو أذل على براعته السياسية ، وسديد تصرفه ، حسن استقباله الوفود وإجابته مطالبهم بما تتسع له شريعته . وإليك الأمثلة :

(١) وفد نصارى نجران

وفد على المصطفى صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران بالمدينة بعد الهجرة وكانوا ستين راكبا ، جاءوا يجادلونه في شأن عيسى عليه السلام . وكان وصولهم إلى المدينة ودخولهم المسجد النبوى ، بعد دخول وقت العصر ، فقاموا يصلون فيه ، فأراد الناس منعهم لما فيه من إظهار دينهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعوهم ، تألفا لهم ، ورجاء لإسلامهم . فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم . ولما فرغوا منها عرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فامتنعوا .

ثم قال لهم : إن الله أمرنى إن لم تنقادوا للإسلام أبأهلكم . فقالوا : يا أبا القاسم ، نرجع فننظر فى أمرنا . فخلا بعضهم ببعض ، ثم قال بعضهم : والله قد علمتم أن الرجل نبي مرسل ، ومالآ عن قوم قط نيا إلا استوصلوا ، وإن أتم أيتم إلا دينكم فوادعوه وصالحوه ، وارجعوا إلى بلادكم . ثم استقر رأيهم على ألا يباهلوه ، واكتفوا بأن صالحوه على الجزية ، ثم كتب لهم كتابا ، فطلبوا إليه أن يرسل معهم أمينا ، فأرسل أباعبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه ، وقال لهم : هذا أمين هذه الأمة .

(٢) وفد تميم الدارى وأصحابه

وفد عليه صلى الله عليه وسلم أبو تميم الدارى ، وأخوه ، وأربعة آخرون ، وكانوا على دين النصرانية ، فأسلموا وحسن إسلامهم : وفدوا على الرسول

بمكة قبل الهجرة ، وسأله أن يعطيهم أرضا من الشام ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : سلوا حيث شئتم ، وبعد أن تشاوروا سأله بيت جبرون وكورتها فدعا صلى الله عليه وسلم بقطعة من آدم ، وكتب لهم كتابا نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للذاريين : أعطاه الله الأرض ، فوهب لهم بيت عينون وجبرون والمرطوم وبيت إبراهيم إلى الأبد . شهد عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس . وشرحيل . ثم أعطى رسول الوفاء كتابا ، وقال : انصرفوا .

٣ — وفد عامر بن صعصعة

قدم هذا الوفد على النبي وفيهم عامر بن الطفيل عدو الله ، وهوسيد القوم ، وكان ينادى مناديه بسوق عكاظ : هل من راحل فتحمله ؟ أو جائع فطعمه ؟ أو خائف فتؤمته ؟ وكان مضمرا الغدر بالنبي ، فقال : لأربد بن ربيعة وهو من رؤساء قومه : إذا قدمنا على محمد فإني شاغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك ، فاعله بالسيف .

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عامر : يا محمد ، اتخذني خليلا . قال صلى الله عليه وسلم : لا ، والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له . فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم وهو ينتظر من أربد ما كان أمره به . وأربد لا يأتي بشيء ، ويسبط يده على السيف ؛ فلم يستطع سله . وقيل : إنه لما جاء عامر إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم وضع له وسادة ليجلس عليها ، ثم قال له : أسلم يا عامر ، فقال عامر : لي إليك حاجة ، أتجعل لي الأمر

بعدك إن أسلمت ؟ فقال الرسول : ليس لك ولا لقومك ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث شاء ، ولكن لك أعنة الخيل . قال : أنا الآن في أعنة خيل نجد . أتجعل لي الوبر ، ولك المدر ؟ قال الرسول : لا .
وقيل : قال له : يا محمد ، مالي إن أسلمت ؟ فقال : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم . فقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، ولأربطن بكل نخلة فرسا . فقال صلى الله عليه وسلم : يمنعك الله عز وجل .
ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : اللهم ، اهد بني عامر ، واشغل عني عامر بن الطفيل ، كيف شئت وأنى شئت .
وقد مات عامر شرميته . وأحرق الصاعقة أربداً ، وأسلمت بنو عامر .

٤ — وفد عبد القيس

كانت منازلهم بالبحرين ، وكان من وفد فيهم الجارود ، وكان نصرانياً قد قرأ الكتب ، فقال آياتاً يخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم . منها قوله :
يا بني الهُدَى أتاك رجال قطعتم فدفاً (١) وآلاً فالأ (٢)
تسقى وقع يوم عبوس أو جل القلب ذكره ثم هالا .
فعرض صلى الله عليه وسلم الإسلام على الجارود ، فقال : يا محمد ، إني كنت على دين ، وإني تارك ديني لدينك ، فتضمن لي ذنبي ؟ فقال : نعم . أنا ضامن أن قد هداك إلى ما هو خير منه . فأسلم وأسلم أصحابه .

وقيل : لما قدم الجارود على الرسول قال : بيم بعثك ربك يا محمد ؟ قال بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبد الله ورسوله ، والبرامة من كل نذ يُعبد من دون الله ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة لحقها ، وصوم رمضان ،

وحج البيت بغير إحاد . من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد . قال الجارود : إن كنت نبيأ فأخبرني عما أضمرت . تخفق الرسول خفقة كأنها سِنَّة ، ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه ، فقال له : إنك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية ، وعن حلف الجاهلية ، وعن المنيحة . ألا وإن دم الجاهلية موضوع ، وحلفها مردود ، ولا حلف في الإسلام ، ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة .

ه — وفد عدى بن حاتم رضى الله عنه

قال عدى بن حاتم : كنت امرؤا شريفافى قومي . فلما سمعت برسول الله كرهته ، مارجل من العرب كان أشد كراهية له حين سمع به منى . ولما علمت أن جيش محمد قد وطئ البلاد ، احتملت أهلى وولدى ، والتحقت بأهل دينى من النصارى بالشام ، وخلفت بنتا لحاتم ، فسُبيتُ فيمن سُبى . فلما قدمت السبايا على رسول الله ، وبلغه هربى إلى الشام ، من عليها وكساها وحملها وأعطاها نفقة ، وأقبلت إلى الشام ، ثم أقامت عندى ، فقلت لها - وكانت امرأة حازمة - ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن نبيا فللسابق إليه فضيلة ، وإن يكن ملكا فأنت أنت . فقلت : والله إن هذا للراى .

ولما ذهبت إليه قال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم ، فانطلق بى إلى بيته ، وإنه لقائدنى إليه ، إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها . فقلت : ما هذا بملك . ولما دخل بيته تناول وسادة يده من آدم حشوها ليف ، وقال : اجلس على هذه . فقلت : بل أنت

فاجلس عليها . قال : بل أنت ، جلست عليها ، وجلس الرسول على الأرض
فقلت : والله ما هذا بأمر ملك . ثم قال لي : باعدى بن حاتم ، ألسنت من القوم
الذين لهم دين ؟ فقلت : بلى . فقال : ألم تأخذ ربع الغنيمة ؟ (كما هو شأن
الأشراف من أخذهم في الجاهلية ربع الغنيمة) . قلت : بلى . قال : فإن ذلك
لم يكن يحلّ لك في دينك . قلت أجل والله . وعرفت أنه نبي مرسل
يعلم ما يُجهل .

ثم قال : لعلك ياعدى ؛ إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من
حاجتهم ، فوالله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ،
ولعلك إنما يمنعك من ذلك ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم . فوالله
ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها ، حتى تزور البيت
(الكعبة) لا تخاف .

ولعلك إنما يمنعك من ذلك ، أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم .
وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت
عليهم ، قال عدى : وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بغيرها
ج البيت .

وقد أسلم عدى رضى الله عنه ، وحسن إسلامه .

٦ — وفد كندة

وفد عليه صلى الله عليه وسلم ثمانون من كندة (قبيلة 'الين') فيهم الأشعث
ابن قيس ، وكان وجيها مطاعا في قومه وهو أصغرهم ، فلما أرادوا الدخول
على الرسول سرحوا شعورهم وتكحلوا ، ولبسوا جيب الخبرة قد يصفوها

محمد صلى الله عليه وسلم أكبر المصلحين نجاحا ٢١٣

بالحرير ، ولما دخلوا عليه قالوا : « آييت اللعن ، فقال لهم : لست ملكا : أنا محمد بن عبد الله . قالوا : لا نسميك باسمك . قال : أنا أبو القاسم . قالوا : يا أبا القاسم ، إنا خباناً لك خبيثاً ، فما هو ؟ وكانوا خبثوا له عين جرادة في ظرف سمن . فقال لهم : سبحان الله ! إنما يفعل ذلك الكاهن . وإن الكاهن والكهانة والتكهن في النار . فقالوا : كيف نعلم أنك رسول الله ؟ فأخذ كفاً من حصباء ، فقال : هذا يشهد أني رسول الله . فسيح الحصى في يده ، فقالوا : نشهد أنك رسول الله . قال : إن الله بعثني بالحق ، وأنزل علي كتاباً لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقالوا : أسمعنا منه . فتلا الرسول : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ حتى بلغ : ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ ثم سكت وسكن بحيث لا يتحرك منه شيء ، ودموعه تجري على لحيته . فقالوا : إنا نراك تبكي . أمن عفاة من أرسلك ؟ قال : خشيتي منه أبكتني . بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف ، إن زغت عنه هلك . ثم تلا : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية ، ثم قال لهم : ألم تسلبوا ؟ قالوا : بلى . قال : فما بال هذا الحرير ؟ فعند ذلك شقوه وألقوه .

٧ — وفد يُجيب

هي قبيلة من كندة ، وفد على رسول الله منها ثلاثة عشر رجلاً ، وقد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم ، فسر رسول الله بهم ، وأكرم مشواهم ، ثم قالوا : يا رسول الله ، إنا سقنا إليك حق الله في أموالنا . فقال لهم : ردوها ، فاقسموها على فقرائكم . قالوا : ما قدمنا عليك إلا بما فضل من

فقرائنا . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد ، فقال الرسول : إن الهدى بيد الله عز وجل ، فن أراد به خيرا شرح صدره للدين .

ثم جعلوا يسألونه عن القرآن والسنن ، فازداد رسول الله رغبة فيهم . ولما أرادوا الرجوع جاءوا إليه فودّعه ، فأرسل إليهم بلالا ، فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود .

ثم قال لهم النبي عليه السلام : هل بقي منكم من أحد ؟ فقالوا : غلام خلفناه على رحلنا وهو أحدثنا سنا . فقال : أرسلوه إلينا . فأقبل الغلام ، وقال : يا رسول الله ، إني من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتي . فقال : وما حاجتك ؟ فقال : والله ما أخرجني إلا أن تسأل الله أن يغفر لي ، ويرحمني ، ويجعل غناى في قلبي . فقال الرسول : اللهم ، اغفر له وارحمه ، واجعل غناه في قلبه . ثم أمر له بمثل ما أمر لرجل من أصحابه .

٨ — وفد بني سعد هذيم من قضاة

قدم وفد بني سعد هذيم ، وزلوا ناحية من المدينة ، ثم خرجوا يؤمون المسجد حتى انتهوا إلى بابه ، فوجدوا الرسول يصلي على جنازة في المسجد ، فلم يدخلوا مع الناس في صلاتهم ، وقالوا : ننتظر حتى يصلي رسول الله ، ونبايعه . ثم انصرف رسول الله ، ونظر إليهم . فدعاهم ، فقال : أمسلمون أتم ؟ قالوا : نعم ، فقال : هلا صليتم على أخيكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك ، فقال : أينما أسلمتم فأنتم مسلمون فأسلموا وبايعوه على الإسلام .

ثم انصرفوا إلى رحالهم ، وكانوا قد خلفوا فيها أصغرهم ، فبعث الرسول في طلبهم ، فجاءوا معهم صاحبهم ، فتقدم فبايع الرسول على الإسلام ، فقالوا : إنه أصغرنا ، فقال : أصغر القوم خادمهم . بارك الله عليه . فكان خيرهم وأقرأهم للقرآن . ثم أمره رسول الله عليهم ، فكان يؤمهم . ولما أرادوا الانصراف أمر بلالا ، فأجازهم بأوان من فضة لكل رجل منهم . ثم رجعوا إلى قومهم فأسلموا .

(ج) مراسلته للملوك

لم يكتف صلى الله عليه وسلم بهذا كله ، بل جاء رحمة عامة ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله يأذنه وسراجا منيرا ، فأخذ يرسل الملوك ويدعوهم إلى دين الإسلام كقيصر ملك الروم ، وكسرى ملك الفرس . وقد مزق ثانيهما الكتاب استكبارا ، فزق الله دولته ، وملكها المسلمون فيما لا يزيد على أربع سنوات كما ملكوا دولة الرومان على عظمتها ، واتساعها ، وكثرة جيوشها . وراسل بقية الملوك والأفراد : فأسلم النجاشي ملك الحبشة ، والمنذر بن ساوى ، وأكرم المقوقس رسوله ، ورد قيصر ردا جميلا . ومما جاء في كتاب الرسول إليه :
بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين :
(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)



(صورة كتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حاكم مصر يدعوه الى الاسلام)

كان هذا في حين أن وفود العرب كانت تغد طوعا ، زرافات ووحدانا ، مشاة وركبانا للدخول في الإسلام ، فأسلم كثير من القبائل عن طيب نفس ؛ إذعانا لله ، وخضوعا لدينه ، وصرع الحق الباطل — إن الباطل كان زهوقا — وأباد جحافل الأعداء ، ومزقها تمزيقا ، ولم يبق إلا قبائل الشام والعراق . ثم حج صلى الله عليه وسلم حجته المشهورة بحجة الوداع ، وقد بين فيها أهم أصول الدين وفروعه . وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى ممتنا على المؤمنين : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ . ثم رجع صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ، وجهاز جيشا لغزو قبائل الشام التابعة للروم . وقبل سيره اشتد عليه مرضه صلى الله عليه وسلم فجعل يرفع يديه إلى السماء ، ثم يضعهما على رأس أسامة ، فودعه أسامة ورجع إلى المعسكر ، وأمر الناس بالرحيل . وإذا بالرسول يقول : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مما تقدم يتبين أنه صلى الله عليه وسلم لقي من الأذى ضروبا كثيرة ؛ وكافح صعبا جمة ؛ فلم تن عزيمته ، ولم تغتر همته ، بل ثبت في نشر دعوته ومناجزة عدوه ؛ ثبات الصادق في أمره ، المستيقن من نفسه ، قم له أعظم نجاح لم يحصل عليه أحد قبله ولا بعده ، وترك ديننا خالدا أحياء به الأمام ، وأزال به الغمم ، وجعله نورا يستضيء به بنو الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(د) نجاحه في حروبه

قد أبنا فيما تقدم مالا قاه المصطفى صلى الله عليه وسلم من ضروب الأذى ؛

والتضييق الكبير ، والأهوال العظيمة : فظالما أزاح عقبة كآداء ، وخاض بحرا هائجا ، وسلك مفاوز مهلكة ، فثبت غير جافل بهول ، ولا عابئ بمشقة ، بل احتمل هذه الملمات ، وصمد لتلك المصاعب ، يريد نشر دعوته ، فنشرها ، وأحرز فيها النصر الإلهي العظيم ﴿ إِنَّ يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾

فلما تم له الفوز في سياسته ، أذن الله له بالهجرة — بيد أن أهل مكة لما رأوا وثيق اتصاله بأهل المدينة ، وسرعة انتشار الإسلام فيها ، وخشوا أن ذلك قد يفضي إلى تحريض أهلها عليهم ، دبوا حيلة لقتله وإبطال دعوته . ولكن غاب فأنهم ، وضل سعيهم ، إذ خرج مهاجرا إلى المدينة يصحبه صديقه الحميم ، وكانت هذه الهجرة هي السبب الأعظم لظهور دين الإسلام ونشره بعد أن قضى عليه الصلاة والسلام ثلاث عشرة سنة ، وهو مضيق عليه في نشر دينه القويم . فلما علم المشركون بفساد مكرهم ، ضاع رشدهم وهاجوا ، وجعلوا لمن يأتي به أو يدل عليه مائة ناقة . فأعمى الله أبصارهم عن رؤيتهما ، وبعد ثلاث ليال جاءهما الدليل بالراحتين في غار حراء ، فسارا قاصدين المدينة ، ثم نزل صلى الله عليه وسلم بقاء ومكث بها أربع عشرة ليلة ، كما رواه أنس بن مالك . وكان نزوله في بني عمرو بن عوف ، وبنى فيها مسجده الذي أسس على التقوى من أول يوم ، وكان ذلك عند دخول الشمس في برج الميزان — وهو أول الاعتدال الخريفي في الزمان — فكان ذلك رمزا لما في شريعته من الاعتدال . وكونها آخر الشرائع الإلهية التي يبلغ بها الدين غاية الكمال .

ولما استقر عليه الصلاة والسلام في المدينة ، أرسل في طلب من تخلف من أهله . فنع مشركو مكة بعض المستضعفين ؛ وعذبوهم وحبسوهم ، ولم يمض

غير قليل حتى انتشر الإسلام فيها ، فهاج ذلك اليهود . و غاظهم رسوخ قدم الإسلام ، فتمكنت العداوة في نفوسهم ، وتحزبوا على المسلمين ، مع أنهم كانوا يستفتحون على المشركين بنبي يبعث ، وقد قرب زمانه — غير أن حب الرياسة أعماهم ، فاستعظموا الأمر ، وساعدوا على هذا جماعة من عرب المدينة المنافقين . ثم عمد الرسول مع اليهود عقدا على أن يتركوا أذاهم ويترك محاربتهم .

مشروعية القتال

لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناق الناس ليدخلوا في دين الله أفواجا ، بل كان الأمر مقصوراً على الدعوى إلى الدين الحنيف . وتحمل صلوات الله عليه في سبيل ذلك أذى كثيراً ، ومعارضة شديدة ، وبغيا وحسداً ، ومع ذلك كان ومن معه صابرين على الأذى والضيم ، مستيقنين بأن لهم الفوز في النهاية ، إلى أن فرج الله عنهم بالهجرة ، وأباح لهم مكافأة أعدائهم الذين جأهروهم بالعدوان ، فأذن له صلى الله عليه وسلم بالقتال : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

أخذ ينشر دين الله بين القبائل بالدعوة ، ويدفع كل اعتداء ينشأ بالقوة ، دفاعاً عن نفسه وعن المسلمين ، وحماية للدعوة من معارضتها ، ولم يقاتل إلا من قاتله أو اعتدى على المسلمين . ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِسُلْحٍ مَّا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ . فنجم عن ذلك إرسال الجيوش : سرية (١) لإثر سرية ،

(١) السرية : قطعة من الجيش سميت بذلك لأنها تسرى في خفية ، وتطلق على كل غزاة لم يكن فيها رسول الله ، والتي كان فيها تسمى غزوة .

وغزوة تتبعها غزوة ، حتى مكن الله له في الأرض ، وتكفل بحفظ دينه من العبث : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

طلع عليهم طلوع البدر التمام ، وسفر لهم سفور الشمس ليس دونها غمام ، ومحا بنور الإسلام والإيمان ظلمات الأوثان والأصنام ، وأزال بالقرآن والبرهان جميع الشكوك والأوهام . ومن لم يقنع بفصيح القول وبديع البيان أفتعه بفصيح السيف وحد الحسام . واستمر صلى الله عليه وسلم يجاهد في الله حق جهاده ، وينشر دينه في بلاده وعباده ، مدة عشر سنين لم يسترح فيها غمضة عين ، ليقينه أنه على الحق . ومن كان على الحق فعليه أن ينشره باللسان أو السيف ، أو أى أداة أخرى ، حتى ظهرت الأرض من عبادة الأوثان ، وسطعت أنوار الإيمان ، وامتألت الدنيا بعبادة الرحمن ، وخذل أهل الكفر والعدوان ، مع اجتهادهم وتحزبهم في كل زمان ومكان على محو دينه . وإطفاء نوره : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ - هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . فدخل الناس في الدين أفواجا ، وكثرت سراياه حتى قاربت الستين ، وبلغت مغازيه سبعا وعشرين : قاتل في تسع منها بنفسه ، فأظهر فيها ما يفخر به أعظم قواد هذا الزمان ، من إحكام الخطط ، وحسن التدبير ، وإتقان النظام . ودل أصحابه فيها على صدق في محبته ، وإخلاص في الولاء له .

تأمل غزوة بدر الكبرى ، وما يليها من الغزوات :

غزوة بدر الكبرى

تدبر هذه الغزوة وما تم فيها من النصر المبين ، وإعزاز الإسلام وأهله مع قلتهم ، وإذلال المشركين على كثرتهم ، وما كانوا فيه من سوايغ الحديد ، والعدة الكاملة ، والخيول المسؤمة ^(١) ، والخيلاء الزائدة . وعدتهم في ذلك ألف محارب ، ومائة فرس ، وسبعائة بعير . وعدد المسلمين لا يبلغ إلا أربعائة وثلاثة أفراس ، وسبعين بعيرا . ولم يمنعهم من ملاقاتهم قلتهم ، بل قام المقداد ابن عمرو وقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ بل : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد (يعنى مدينة الحبش) لجالدنا معك من دونه حتى نبغله . فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم بخير . ثم قال سعد ابن معاذ : « قد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يا رسول الله ، لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا . وإنا لصبُّر عند الحرب ، صُدُّق عند اللقاء . ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر بنا على بركة الله تعالى » . فسر النبي عليه الصلاة والسلام بقول سعد ، ونشطه على ذلك ، ثم قال : « سيروا على بركة الله ، وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم » . وعين

(١) المسومة : المرعية .

مصارعهم فما تعدوها . فالتقى الفريقان بيدر - وكان يوما من أشد الأيام هولا - ودارت الدائرة على فريش ، وانهمزوا انهزاما كبيرا ، وقتل في هذه الغزوة أبو جهل وصناديد قريش ، وأيد الله المسلمين : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بَيْدَرًا وَاتَّمَّ أَذْلَهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعِيَنَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ الآيات . وأعر الإسلام وأهله ، فرجعوا إلى المدينة فرحين مسرورين بهذه النصر العظيمة . وقد امتن الله عليهم بالآيات المتقدمة .

وليس بقية الغزوات دونها في خذلان الأعداء ، ورفع كلمة الإسلام ، وإعزاز جيشه ، بل كانت كلها آيات بينات : فهناك غزوة الخندق ، وما أحرزه فيها المسلمون من التأيسد العظيم ، والفوز الكبير ، مع أن عددهم لم يتجاوز ثلاثة آلاف ، في حين أن جيش الأحزاب عشرة آلاف رجل ؛ جاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وظن المسلمون بالله الظنون . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب الخندق على المسلمين ، وأرسل من جيشه خمسمائة مقاتل لحراسة المدينة ؛ خوفا على النساء والأولاد ، وهجم الأعداء من كل صوب وناحية ، فسلط الله عليهم ريحا شديدة ليلا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ . فانهمزوا ، وجعلوا يرتحلون هربا ، ولم تقو الأحزاب مع كثرتهم على محاربة

المسلمين المستضعفين . وظهر عند ضرب الخندق آيات من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم بل انظر غزوة الفتح .

غزوة الفتح

تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتائب الإسلام ؛ وجنود الرحمن وقال : « هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة » . وبعث إلى من حوله من قبائل العرب ، وأمر خالد بن الوليد ومن معه أن يدخل مكة من أسفلها ، وألا يقاتل إلا من قاتله . ودخل صلى الله عليه وآله وسلم من أعلاها ، فاندفع خالد فصذته قريش ، فقاتلهم وهزمهم ، وانتهى بهم القتال إلى باب المسجد ، فارتفعت طائفة منهم إلى أعلى المسجد ودخلوا الدور . ثم قال صلى الله عليه وسلم لخالد : لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ فقال : هم بدءونا بالقتال ، وقد كففت يدي ما استطعت ، فقال : « قضاء الله خير » . ثم وضع رأسه صلى الله عليه وسلم تواضعا لله ، لما رأى ما أكرمه الله تعالى به من الفتح المبين ، حتى إن رأسه لتكاد تمس رجله ؛ شكرا وخضوعا لعظمته جل وعلا ؛ إذ أحل له بلده ، ولم يحله لأحد قبله ولا بعده .

ثم أقرن الرسول أهل مكة ، وأمر بأسفيان بعد إسلامه أن ينطلق إلى قريش فيعلن أن من دخل المسجد فهو آمن ؛ ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن — إلا أشخاصا أهدر دمهم لمساويهم : منهم من قتل ، ومنهم من أسلم بعد . ثم دخل الكعبة وحولها ستون وثلاثمائة نَصْبٍ ، فجعل يشير إليها ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل » « جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » ، ثم أمر بالآلهة فأخرجت . وطهر الله الكعبة البيت الحرام

من هذه المعبودات الباطلة؛ واستبدل بها عبادة الله الواحد القهار، وخرج صلى الله عليه وسلم إلى مقام إبراهيم، وصلى فيه وشرب من ماء زمزم، ثم جلس بالمسجد - والأبصار شاخصة إليه؛ لترى ما هو فاعل بمشركي مكة ألد أعدائه؛ الذين آذوه وأخرجوه من بلاده، وهموا بقتله مرارا وقتلوه - فقال: «يا معشر قريش، ماترون أنى فاعل بكم؟»، قالوا: «خيرا: أخ كريم، وابن أخ كريم»، فقال: «اذهبوا فأتهم الطلقاء»، - (الذين أطلقوا فلم يُسترقوا ولم يؤسروا) - فعند ذلك أخذ الناس يبايعونه على الإسلام رجالا ونساء، وأسلم جميع أهل مكة.

ثم أرسل صلى الله عليه وسلم السرايا لهدم أصنام القبائل، فهدمت صوامع وييع، ولم يقف عند هذا الحد، بل أرسل جيشا إلى اليمن، وعلى رأسه علي ابن أبي طالب وقال له: «سرحني منزل باحتهم، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله: فإن قالوا: نعم. فرهم بالصلاة. ولا تبغ منهم غير ذلك. ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك مما طلعت عليه الشمس. ولا تقاتلهم حتى يقتلوك». وقال أيضا: «إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر». وبعد ذلك أرسل من يعلمهم: فأرسل معاذ بن جبل، وأباموسى الأشعرى، وقال لهما: «يسرا ولا تُعسرا، وبشرا ولا تنفرا».

تأمل كل هذا، وراجع باقى غزواته غزوة غزة، تجدد ما يدهشك من النصر المؤيد، والفوز العظيم، بنظام محكم، وتدير سديد: كغزوة خيبر وفيها أعظم المهيجين للأحزاب، وغزوة الخندق وبها جمهرة اليهود. وكانت ذات حصون ومزارع. فقاتلهم النبي، وقتلوه أشد القتال، وفتحها حصنا حصنا. وهكذا

بقية الغزوات .

فأى نجاح أعظم من تأسيس ملة حكيمة ، وأمة عظيمة ، ودولة عادلة
رحيمة ، قال في حقها « غوستاف لوبون الفرنسى ، : « ما عرف التاريخ فاتحا
أعدل ولا أرحم من العرب » ؟

وأى فوز أسنى من تبليغ دين يظل عزيزا ما أقام أهله الحق ، واعتصموا
بالعدل ؟ فجراه الله عنا أفضل ماجزى به نبيا عن قومه ، ورسولا عن أمته .
وصلى الله وبارك عليه وعلى أهل بيته الطاهرين ، وأكثرفى أمته من الناصحين
على منواله إلى يوم الدين .

الباب الثامن

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى الأنبياء ديناً

تمهيد

اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق الناس مفطورين على طبائع حسنة ؛ تعينهم على انتظام أحوالهم ؛ وعلى طبائع تخالفها ، ليتسابقوا في عمران هذا الكون الذي قدر وجودهم فيه إلى أجل مسمى . وإن الطبائع السيئة لا تقف عند حد المسابقة والمنافسة ، بل تأتي من ضروب الطغيان بما يجعل ضررها أكبر من نفعها ، ولذلك اقتضت حكمته تهذيبها ، ووقفها عند حدها النافع . فبعث الرسل لكسر سورتها ، حتى تصطبغ بصبغة يظهر بها نفعها ، ويزول عنها ضررها ، وحينئذ تتخلق أخلاقاً حسناً .

والرسل عليهم السلام يصلون إلى ذلك من طريقين : الترغيب ، والترهيب وخير معين لهم على إدراك ذلك ، ما طبعهم الله عليه من الصفات الكاملة : كالصدق ، والأمانة ، والنزاهة ، والتزام الحق في جميع أحوالهم ، مع البر والإحسان ، والنصيحة لكل إنسان ، وتجاويز عما لا يليق بمنصب رسالتهم ، ومقام نبوتهم من الوقوع في المعاصي ، والتعلق بسفاسف الأمور . وما وقع منهم من صور المعصية ، فحكته الإشارة إلى انفراد الله تعالى وتوحده بالكمال المطلق . وذلك لا ينافي أبداً أنهم أكل الخلق ، وصفوة الناس .

لا شك في أن العالم لم يخل من دين منذ الخليقة ، وكان التنزيل في كل عصر مسيراً لما وصل إليه الإنسان ، من الرقي العقلي والخلقي . فلما بعث محمد صلى

الله عليه وسلم بالذكر الحكيم ، أَمَا ط اللثام عن أغراض أسمى ، ومقاصد أنبل وأرقى ، إذ بين أن مقاصد الدين إنهاض الإنسان ، وتنمية ملكاته ، وتمرير غرائزه ، جسما ، وعقلا ، وخلقا ، ليلبغ ما أعده الله له من التقدم والرقى .. ذلك بأن مثل الإنسان عند الله ، كمثل سائر السنن الكونية : فيه ضروب من الاستعداد والمقدرة والملكات الكامنة ، والحق جلّ جلاله أراد إخراجها إلى عالم الوجود ، لاستبطان ما في الكون من آى وعبر وبدائع ، ينفع بها الخلائق في معاشهم ومعادهم — بيد أن الإنسان ركبت فيه ميول ، هى فى أصلها أشبه بالميول الحيوانية ، وجرت سنة الله فى السنن الكونية . أن يخرج الوسيم من الذميم ، والملح من القبيح . وكذلك جعل هذه الميول الحيوانية بذورا تثمر أشجارها الحضارة والمدنية ، فأرسل النبي العربى الأسمى ، صلى الله عليه وسلم ، ليكشف عن الأسرار التى انطوى عليها الإنسان ، وليبين كيف يرقى من رتبة الحيوانية إلى مرتبة الملائكة الأطهار .

ولم يسلك محمد صلى الله عليه وسلم فى استكناه هذه الأسرار ، مسلك من سبقوه من المصلحين ، فى الاقتصار على النصح السديد ، والموعظة الحسنة وتأدية فرائض الصوم والصلاة ، والأدعية والقرايين ، بل جمع إلى ذلك مسلك المعلم الماهر فى التشريح :

فصل ما استكن فى العقل الإنسانى صغيره وكبيره ، ووضع للفرائز الحيوانية نظاما يكفل الهيمنة عليها ، وتوجيهها لمنفعة بنى الإنسان ، واتخاذها أساسا لعلو الهمة ، والمدافعة عن النفس والوطن ، والاحتفاظ بالمال والشرف . وما إلى ذلك من الكمالات الإنسانية .

لا- ر م أن الغريزة ينشأ عنها قوتان : القوة الغضبية ، والقوة الشهوية .

ولها تين القوتين مسالك متنوعة : فمنها الجيد ، ومنها الرديء ، ومنها المحمود ومنها المذموم : فإن كانت القوة الغضبية في صورتها المذمومة ، نشأ عنها الحقد ، والعداوة ، والهوى ، وحدة الخلق ، والاستبداد ، والغيبة ، والقذف والجبن ، والنفاق . وإن كانت في صورتها المحمودة ، نشأت عنها الشجاعة ، والإقدام ، وعلق النفس ، والصبر ، والمثابرة ، والتسامح ، والوداعة ، والحلم والتواضع ، والصفح . وإن كانت القوة الشهوية في صورتها المحمودة ، نشأ عنها الحب ، والوفاء ، والرحمة ، والكرم ، والرضا ، والإيثار ، والثقة ، والاعتماد على الله . وإن كانت في صورتها المذمومة ، نشأ عنها ضعة النفس والشح ، والشره ، والعجب ، والحسد ، والخيانة ، وما إلى ذلك .
وهناك القوة العاقلة ، فإذا ثقفت أخذت بناصية القوتين الآخرين ، وصرّتهما التصريف الحسن .

وقد انفرد الذكر الحكيم باشتماله على استكناه العقل الإنساني ، وبيان ملكاته وصفاته . وظاهر أن كل شيء في الكون صائر إلى كماله ، بسيره في سبيل مهددة له لبلوغ ذلك الكمال . ومن ذلك ما في الإنسان من الملكات الجسمية ، والعقلية ، والخلقية . ووسيلة ذلك الدين الصحيح القائم على الفهم والتفكير ، فقد خرج الإنسان من طور الاكتفاء بالقضايا البراقة ؛ التي لا يدعّمها دليل ولا برهان ، وأصبح غير سائح في شريعة العقل ، أن يتحول الخسيس رفيعاً بسحر زائف ، بل لا بد في طريق الكمال من جهاد دائم ، وعمل متواصل ، وهداية العلي الأعلى الذي انفرد بإدراك أسرار النفس الإنسانية .

من أجل ذلك ، جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، بشريعة رفع بها الإنسان من حيوانيته إلى ملكيته ، وهدى الناس إلى استخراج الفضائل مما فيهم من

القوتين الغضبية والشهوية، وأوضح جميع ضروب الخير وضروب الشر ، وبين المأمور به ، والمنهى عنه ، وهدى الناس للصراط المستقيم ، يزنون به ميولهم ، وأعمالهم ونزعاتهم ، ويرقون به أحوالهم وملكاتهم ، وهو التخلق بأخلاق الله تعالى ، فقد ورد في الحديث الشريف : « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ » . لا ريب أن التخلق بأخلاق الله يستدعى المجاهدة العظيمة للنفس ، وحملها على الأشقّ فالأشقّ لمحاولة الاتصاف بصفاته جلّ شأنه ، من حلم ، وكرم وسخاء ، ورحمة ، وقوة ، وعدل . ويستدعى أيضا العلم بالله ، بما يستطيع الحادث أن يعلم من القديم ، لأنه لا يمكن التخلق بأخلاقه ؛ إلا إذا حصل العلم بصفاته جلّ شأنه ، من العظمة ، والرفعة ، والقدرة ، ولهذا تضمن القرآن الكريم طائفة من أسمائه الحسنى ؛ تقريرا لأذهان الناس ، وتمكيناً لهم من أن يتأسوها . وليست هي كل ماله جلّ شأنه من أخلاق وصفات ، بل إنها هي التي يستطيع الإنسان أن يجاهد في سبيلها حق جهاد ، ليكون عسياً أن يتصف بها .

ومن هذا يتجلى أن محمداً عليه الصلاة والسلام ؛ جاء للعالم بما قرب لهم فهم الألوهية ، وأوضح لهم أن الله هو رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، الذى فطر الخلائق ، وأودعها أسرارها وأعراقها ، وكفل لها أقواتها وأرزاقها ، ووسائل نموها ، بما يجعلها تبلغ كاملها ، بعد أن تجتاز أطوارا لا يحصى منها في سبيل التدرج والارتقاء ، كما جرت سنته في جميع الكائنات .

هو الرحمن الذى أحسن كل شئ خلقه ، وجعل لكل شئ مزية تُرتجى منه في كل طور من أطوار نموه ، وكل ما أودعه إياها من المنافع والمزايا لم يكن

بكسب منها ، بل بمحض فيضه وحكمته وإرادته .

وهو الرحيم الذي يجزى خلقه بما يفعلون من الخير والحسنات أضعافاً مضاعفة ، رحمة بهم ، ومحبة لهم . ومعظم هذا الخير يجعله الله في ملكاتنا ومواهبنا المكنونة . وإذا سلك عباده مسلكاً خطأ في سيرهم نحو الارتقاء ، فليس حتماً من الحتم عليه أن يعاقبهم ، لأنه سيد قوانينه ، وهو المتصرف المطلق فيها : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ .

وهو مالك يوم الدين ، ورحمته سبقت غضبه : ﴿ نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ .

غير أنه إذا اقتضت حكمته — تعالى شأنه — أن لا صلاح للذنب الاثيم إلا بالعقوبة : عاقبه بما يصلحه ، ويجعله عبرة لغيره .

إذا تأملت هذه النعوت الإلهية انكشف لك مظهرها ، في كل ذرة من ذرات الكون ، في خلقها ، ونموها ، وتدرجها .

أليس في هذا البرهان الكافي والشاهد المقتنع على وجوب التأسي بالله تعالى في هذه النعوت الحسنى ؟ بلى : لو فقهه ولادة الأمور في الناس هذا الدين الحنيف ، وسلوكوا في عباد الله ما يشعرون بتخلقهم بأخلاق رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين — لتحققت المملكة التي تمنّاها عيسى عليه السلام ، والتي استقرت على وجه الأرض في عهد محمد صلى الله عليه وسلم . ولهذا الدين الحنيف مقاصد نجملها فيما يلي :

مقاصد الإسلام

تمهيد

من الأمور التي يؤيدها الواقع وإن تجاهلها المكابرون أن رابطة الدين أقوى من روابط الأجناس واللغات، ودين الله منذ الخليقة واحد، أصوله واحدة، وعقائده واحدة، ولذلك لا يكون المسلم كامل الإسلام إلا إذا اعترف بجميع الأديان التي جاءت من عند الله وآمن بالمصدر الإلهي لكل دين، وهذا سبيل الاتحاد والوفاق وهو معنى السلم الذي يدل عليه الاسلام

إن الله — جلت حكمته — أوجد الناس جميعا من أصل واحد، وسوى بينهم في المزايا الجسمية، فعدله يقتضى التسوية بينهم في المزايا الروحية. ولذلك أراد أن يمتحوا من معين واحد، تأمل قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، فَهُمْ وَهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تجد كما سبق في ثالث أبواب هذا الكتاب أن الآية صريحة في أن ما جاء به الرسل السابقون قد تفرق واختلف إلى حد عظيم، وإذا كان دين الله قدمسه التحريف بالزيادة أو النقص، وانحرفت الانسانية عن أصلها، وحادت عن الطريق السوى، فرحمة الله تقضى بدعوة الذين اختلفوا في دينهم إلى غاية واحدة: اقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

تلك دعوة مضى عليها ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، وقد لباهما عدد عظيم من الشرق ، فأصبحوا بنعمة الله أفراداً في جماعة الأخوة الإسلامية الشاملة ولا يزال الغرب مصماً آذانه عن سماعها . والأمل وطيد أن يحىء الوقت الذى لا مناص له من إجابتها ، لينجو من شر المشاكل المستعرة لظاها ، والتي إن لم تتدارك التهمت اليباس والأخضر

حقاً إن عيسى عليه السلام جاء بالإنجيل وعلم الناس العقيدة الصحيحة عن الله عز وجل ، وعرفهم الفرق بينه تعالى وبين البشر ، وكان يخاطب مولاة بقوله « لتسكن إرادتك لا إرادتى » ويؤيد هذا بالخضوع العملى ، فوضح أن أساس دينه الأمر من جانب الله ، والطاعة من جانبه ، وأنه عليه السلام ما جاء ليهدم بل ليكمل : تأمل قوله « ما جئت لأنقض بل لأكمل » ولذلك كان يحيل حواريه على كتاب اليهود لزيادة العلم والمعرفة والاطمئنان

كان عيسى عليه السلام خلوا من الأثرة ، يفيض محبة وحناناً ، ويرجو من ربه المعونة على تأسيس مملكة في الأرض قوامها الحق وسياجها العطف ، وأن يمكنه من رد خراف بنى إسرائيل الضالة إلى حظيرة الغنم . وما جاء « ليلقى اللؤلؤ تحت أرجل الخنازير ، أو ليبيح للكلاب أن تأكل خبز البنين »

وكان عيسى عليه السلام في شغل شاغل يقضى نهاره في مصالح الخلق ، ويسهر ليله في الخلوة بربه ، وكل همه أن يترجم بأحواله وأقواله وأعماله قانون ربه جاء عيسى عليه السلام على صورة الله في الأخلاق ، فتخلق بأخلاق الله الذى منحه قانوناً إلهياً يدل الإنسان على طريق الكمال ، والإنسان هو العالم كله مصغراً ، فلا يليق به أن يظل جاهلاً بالمعنى الحقيقى لهذا القانون . ومن الذى يستطيع أن يستكنه هذا القانون ؟ الرسل هم فرسان ذلك الميدان ، فقد

جاءوا واحدا بعد آخر ليعلنوه ويبينوه ويعيدوا إليه سيرته الأولى . وظلوا كذلك حتى جاء محمد عليه الصلاة والسلام فعلن أن دين الاسلام هو دين الخضوع للقوانين الالهية التي تشمل الامر والنهي والتحليل والتحريم ، وهو المظهر الأول في لكلمة الله وأمره ، وهو الدين الذي جاء به أنبياء العالم من قبل .
اقرأ قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

أليست هذه الآية دليلا واضحا على أن القرآن مصدق لما سبقه من الكتب ، وقد جاء ليخلصها من كل تزيف بشري مسها ؟ بلى ! ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾

وجلي أن من يسلم بأن الوحي الإلهي حاجة من حاجات البشر ، ومن يؤمن بأن التنزيل في الكتب السالفة جاء من عند الله ، يسلم بداهة بأن القرآن آخر وحي من عند الله ، وأن محمدا آخر طائفة الأنبياء ، عليه وعليهم صلوات الله وتسليمه .

حقا إن كل أمة في العالم تعتقد أن دينها من عند الله ، وأن الكتب التي بأيديهم صحيحة لامية فيها ، وأن ما سبقها من الكتب قد امتدت إليه يد الانسان بالتشويه والتحريف ، وأن سنة الله جرت يارجاع وحيه نقييا خاليا من الشوائب ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ولا أدل على صحة ذلك من أن عيسى عليه السلام قد بعث بعد أن ضل العالم ضلالاً مبيناً ، ثم أدت رسالته على الوجه الأكمل ، ولما انحرف العالم بعده عن الطريق السويّ وأظلمت الحقائق : جاء القرآن الكريم لإنقاذ البشر ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقد أقفل باب الوحي بعده لأنه باعتراف الأصدقاء والخصوم باق كما جاء به محمد لم يمسه تغيير أو تبديل ، ولا عجب فقد تكفل الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

جاء هذا الدين بالحبّة : انظر قوله عليه الصلاة والسلام : « إن كنت تحب ربك فأحب مخلوقاته ، وقوله : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك ، دون فرق بين الأجناس والألوان ، ولم يقصد بالحب القول باللسان ، بل الاستعداد لإطاعة أوامر الله ، وأن يكون حبه فوق كل حب آخر ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

جعل هذا الدين قانونه « لا إله إلا الله » وهو يترجم عن حب الإنسان لله في أكمل صورة ، وما بقي من الدين فهو وسيلة لجعل « لا إله إلا الله » حقيقة عملية .

خصائص الإسلام

لا يتسع المقام لاستيعاب خصائص الإسلام ، فنكتفي بطرف منها :

- (١) الإسلام لا يكلف النفوس البشرية ما ليس في وسعها فلا يعرض عليها من العقائد ما لا طاقة لها بفهمه ، ولا يحملها ما ليس في قدرتها العلية أن تقبله ، تأمل قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا

فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿ أَى لَوْ أَصَغَيْنَا إِلَى أَوَّلِي الْأَلْبَابِ بِآذَانٍ وَاعِيَةٍ ،
أَوْ لَوْ اسْتَرَشَدْنَا بِعَقُولِنَا وَاخْتَبَرْنَا الدِّينَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ وَالْفَهْمِ ؛
مَا كُنَّا الْيَوْمَ فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ

وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْصُلُ عِلْمُ الْيَقِينِ مِنْ طَرِيقِ
السَّمْعِ فَكَثِيرٌ ، مِنَ النَّاسِ لَمْ يَرَوْا مَكَّةَ ، وَإِنَّمَا سَمِعُوا الْحُجَّاجَ يَحْدُثُونَ
عَنْهَا ، كَذَلِكَ الْكِتَابُ السَّمَاوِيُّ يَحْصُلُ عِلْمُ الْيَقِينِ بِهَا مِنْ طَرِيقِ السَّمْعِ
الْمُتَوَاتِرِ ، مَا لَمْ تَكُنْ اخْتَلَفَتْ رَوَايَاتُهَا وَأَسَانِيدُهَا

(٢) لَيْسَ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ مَا عَرَضَهُ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَصُولِ شَيْءٌ فِيهِ إِرْهَاقٌ
أَوْ عَنَتٌ ، بَلْ إِنَّ جَمِيعَ مَبَادِئِهِ مَرْكُوزَةٌ فِي جَبَلَةِ الْإِنْسَانِ ، لِذَلِكَ سَمَّاها
اللَّهُ ذِكْرًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ ﴾ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ كِتَابُ
مُبَارَكٍ لَمْ يَأْتِ بِأَمْرٍ مُحْدَثٍ ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ بِكُلِّ مَا أَوْدَعَ فِطْرَتَهُ
(٣) لَا يَكْلِفُ الْإِسْلَامَ أَحَدًا أَنْ يَقْبَلَ شَيْئًا مِنْهُ عَلَى كَرِهٍ ، يَلْ يَبِينُ مَعَ كُلِّ
أَمْرٍ مِنْ أَوْامِرِهِ أَدْلَتُهُ وَبِرْهَانُهُ

(٤) يَنْزِعُ الْإِسْلَامُ مِنَ النُّفُوسِ أَسْقَامَهَا ، وَيَذْهَبُ ظِلْمُهَا بِمَا فِيهِ مِنَ الْبِرَاهِينِ
الْمَعْقُولَةِ فِي الذَّرْوَةِ الْعُلْيَا ، وَبِمَا فِيهِ مِنَ النُّورِ السَّاطِعِ ﴿ شِفَاءٌ لِمَا
فِي الصُّدُورِ ﴾

(٥) جَعَلَ الْهُدَايَةَ إِلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ فِي بَوَاعِثِ
الظُّوْهِرِ الْكَوْنِيَّةِ ، كَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الْقُصُورِ وَالطُّوْلِ . تَأَمَّلْ
قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَآيَاتٍ لِّأَوَّلِي الْأَلْبَابِ • الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى

جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ، فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿

هؤلاء الحكماء وأرباب العقول حين يفكرون في تكوين الأرض والأفلاك السماوية يهتدون إلى وجود الله سبحانه وتعالى، وينشطون لمزيد الاستطلاع والكشف ويستعينون بأدبه، ويذكرونه قياماً وقيوداً وعلى جنوبهم، حتى إذا ازدادت عقولهم وضوحاً وجللاء وفكروا بها في نظام الأفلاك والأرض الذي بلغ حد الكمال والإحكام؛ لم يسعهم إلا أن يقولوا: «ما هذا النظام الذي فاق حد الوصف في الاتقان والابداع؟ هيهات، ليس هذا بالباطل أو العبث وإنما هو أثر من آثار الخالق الحق، فاندفعت نفوسهم إلى مناجاته: «سبحانك وحاشاك أن ينكر ذاتك أحد أو يصفها بما لا يليق بشأنك» ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، (٦) متى خالطوا السلام النفوس أكسبها روحاً جديدة تنفي عنها الميول النازلة؛ وتقضى فيها على محبة الأغيار الباطلة. وتملكتها جاذبية الحياة المقدسة، فأصبحت بالله تبصر، وبه تسمع وتنطق وتبش وتمشي، تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾

وهذا جليٌّ في أن الإسلام يجرى في نفوس أهله مشيئة الله ومرضاته، ويجعل أخلاقهم أقوى من الجبال الراسيات، ويلطف العقل والإدراك غاية اللطافة، وحسبك قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدُهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾

وإذا أيد الله عباده تدفقت من جوانحهم سيول المحبة لدينه
ولكلمته ، وهان عليهم أن يتحملوا في سبيله ضروب العذاب والأذى
والهوان ، فإذا رأوا غمرات الموت خاضوها بجهاد وابتهاج ، وأحسوا
أن يدا خفية تسير بهم إلى إشادة الحق وهدم الباطل ، ورأوا أنهم
قريبون من ربهم ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ويصبحون
ومثلهم كمثل شجرة أينعت ثمرتها فلا تلبث أن تسقط الثمرة وحدها ،
فتعود على العالم بالفائدة العظمى

غير أن الاسلام أوضح في جلاء أن الوصول إلى هذه المرتبة
وقف على الجهاد الأكبر والتفدية العظمى ، فما القيل بمجد شيئا ،
ولا القال بمغن فتىلا بل لا بد من السعى الحثيث مع الجهد والحماس

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ، فَإِنِّي قَرِيبٌ
أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يَرْشُدُونَ﴾

(٧) أوضح الاسلام مقاصد الحياة البشرية . فقد اختلف الناس قديما
وحديثا في تعيين مقاصد هذه الحياة البشرية تبعا لاختلاف طبائعهم ،
وكلها لا تخرج عن الأغراض الدنيوية والأمانى العاجلة . فجاء الإسلام
مبيناً هذه الغاية أجلى يارب : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ
إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

ولإليك البرهان :

جاء الإنسان إلى هذا العالم بقدره الله وإرادته ، ويتركه بمشيئته ومرضاته ، فلا اختيار له في المجيء والذهوب ؛ ولما ثبت أنه مخلوق كسائر الكائنات ، وأن الله اختصه بأفضل الملكات ، فقد قدر لحياته غاية معينة ، هي عبادته ومعرفته ، والفناء في ذاته .

هذا الدين هودين الفطرة ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ وهذا جليٌّ في أن الاسلام قد أودع فطرة الانسان ، وأن الله أنشأ الانسان على نشأة الاسلام ، وخلقه من أجل الاسلام . وأنه لذلك وهب له من الملكات جميع ما يناسب مقتضى الاسلام . وجعله - مهما أوتى من حظوظ الدنيا سواء كانت من باب المال أم الجاه - تام العلم بأنه لا يجد من دون الله السلوان الحق ، وأودعه ضميراً يؤنبه ويؤمله إذا انغمس في ميادين المكر والحيل وغيرها من السيئات . ومن الخلائق التي منحها الانسان أنه متطلع إلى ربه ، تائق إلى أن ينمحي في محبته ، ويصبح كله لله . ألا ترى أن الحيوان وهو أدنى من الإنسان قد بذه في الاستمتاع بالأكل والشرب بل في الصنعة البديعة ، فالتحل يصنع من ورق الزهر عسلاً تقياً يعجز الإنسان عن صنع مثله .

ومن ذلك أن البغية المثلّية للإنسان أن تكون له بالله صلة وارتباط ولهذا الصلة وسائل :

الأولى : العرفان الصحيح والإيمان الخالص . وكان من حكمة الله ورحمته بهذا الإنسان المكرم أنه كلما ضل الطريق السوي وأخطأ جادة الحق التجأ إلى ربه لينقذه من براثن مازل به

وفي ذلك جاء قوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ، وَمَا هُوَ بِيَالِغِهِ، وَمَادُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ومعنى هذا أن الإله العلي القدير هو الآحق بالعبادة والدعاء عند حصول الملمات. وأما غيره مما يعبد الناس، فلا ينفعون ولا يضرون، ومثل من يدعوهم مثل من يبسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه وما هو بيالغاه الوسيلة الثانية: استجلاء ما اتصف الله تعالى به من ضروب الحسن الأكمل، والحسن قوة تأخذ بالآلباب، وتمتلك النفوس، وحسن الله وحدانيته وعظمته وجلاله، انظر قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ تجد أن الله تفرّد في ذاته وصفاته وجلاله وأنه لا شريك له، وأن جميع الخلق كلٌّ عليه، وكل ذرة من ذرات الكون تستمد حياتها منه، وأنه مبدئ ولا مبدأ له ولا نهاية، لا مولود عن والد، ولا والد لمولود؛ لذلك تنزهه عن الشبيه والنظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

الوسيلة الثالثة: تعرّف إحسان الله تعالى، ذلك بأن داعي الحب أحد أمرين: إما الحسن، وإما الإحسان. وقد سبق القول في الحسن، أما الإحسان فيتجلى في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لأن الله خلق عباده، ثم شملهم برؤيته، وتعهدهم في جميع شئونهم، ثم أفاض عليهم رحمته على اختلاف مظاهرها، حتى قال لهم: ﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَةً اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾

الوسيلة الرابعة : الدعاء ، وحكمته أن الله رغب الإنسان في الدعاء بالتكرار المستمر ، لينال منه قوة فوق كل قوة

الوسيلة الخامسة : المجاهدة : ذلك بأن الله جعل من وسائل الفوز بالنجاح الأعظم أن يطلب القرب من الله بإنفاق الأموال في سبيله ، وما في النفس من ملكات وقوى ، وما كسبته من علم وفهم وبراعة ، ألم تر أن الله جل شأنه يقول ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُفْقُونَ﴾ ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

الوسيلة السادسة : المثابرة والثبات والاستقامة ، وهي أن يجد الإنسان أن البلاء قد أحرق به من جميع جهاته ، وأن نفسه أصبحت بين برائن الخطر ، وسدت وجوه الفرج في وجهها ، ثم لا يعرفه جبن ولا هلع ولا تلين قناته ، ولا ينقص صدقه ووقاؤه ، بل يفيض فرحا بالهوان ، ويرضى بالموت ، ولا يتوقع من صديق مؤازرة أو تثبيتا ، بل لا تتطلع نفسه إلى البشرى بذلك ، ولا يبدى قلقا أو جزعا من القدر المحتوم ، إلى أن يستوفي الابتلاء حقه ، ويبلغ مداه هذه هي الاستقامة التي يلقي الإنسان بها ربه ، وهذه هي العبقريّة التي لا يزال غيرها يفوح من تربة الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء . واليه يشير الله تعالى في كتابه الكريم إذ يقول : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وإذ يقول : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا، وَتَوَقَّنَا مُسْلِينَ﴾ حقا إن المؤمنين حقاً هم الذين ينزل الله نورا في قلوبهم حين يشتد الكرب وتتوالى الأزمات والمحن ، فيقاومون به بتوادة واطمئنان كل تصارييف الدهر وتقلباته ،

وأحسن من هذا أنهم يقبلون السلاسل والأغلال ، لأنها في نظرهم رمز المحبة والقربى ، أولئك يرون أن المؤمن الصادق كلما ألت به البلوى مضى قُدماً واستخف بنفسه وأمواله ، وجعل ذاته رهينة لمرضاة مولاه الحق لا يبتغى إلا وجهه : هذا المؤمن هو الذى عناه الله بقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ هؤلاء الذين شروا أنفسهم يصبحون مورد الرحمة الربانية جزاء يعيهم أنفسهم في سبيل الله ، وتلييتهم روح الاستقامة الوسيلة السابعة : التأسى بالأسى الصالحة لأن الانسان بفطرته محتاج اليها ، فهى تزيد في شوقه وتضاعف همته ، ومن لم يثابر على احتذاء الأمثلة النافعة تلبد عقله ، وضعف ذهنه ، وأظلمت بصيرته ، وخرج من زمرة الصادقين ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

من المسلم حقاً ؟

المسلم حقاً من عرف لكل من الناس حقه ومرتبته ، فاستعمل صفات العدل والاحسان والرحمة ، كلا في محلها ثم أشرك الناس أجمعين فيما زرقه الله من العلم والعرفان ، ورغد العيش ، كلا على قدر منزلته ومكاته ، فثله مثل الشمس يعم نورها ، فترى سبيل الهدى من سبيل الضلال واضحاً ، أو كالليل يسترعيوب الضعفاء ، ويستريح فيه المتعب والمنهوك ، أو كالسما تفيض بالغيث العميم ، أو كالارض تصلح مهاداً لراحة البشر ، وتؤتيهم أكلها كل حين بإذن ربها

المسلم حقاً هو : الذى تنحل بفضلته أعقد المسائل ، وتنكشف بهيمته أدق المشكلات

المقصد الأول

إعداد الفرد في ذاته

وسيل ذلك ما يأتي :

(١) غرس العقيدة الصحيحة فيه

لا ريب في أن الدين الإسلامي، بل سائر الأديان، قد جاءت لبيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى : باعتقاد وجوده، واتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقصان. لجميع الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام من لدن آدم، إلى سيدنا محمد خاتم النبيين — قد اتفقوا على مقصد واحد : هو توحيد الله تعالى، واعتماد اتصافه بجميع صفات الكمال، وتنزهه عن صفات النقصان، وانفراده بأن يعبد وحده لا شريك له. ومدار القرآن المجيد كله في العقائد، إنما هو على هذا القطب. قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. ﴿١﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾.

حقاً لقد كان التوحيد شائعاً في بلاد العرب قبل الإسلام، من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام — غير أنهم على تهادي الدهور، دخلت عليهم الأحداث وعبادة الأصنام، فكانوا كما وصفهم الله في كتابه الكريم : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾. فجاء الإسلام ماحياً لما كانوا عليه مجدداً للتوحيد على أكمل الوجوه وأشرف المقاصد، ناسخاً ما تقدمه من

الأحداث والتغيرات التي شابت الدين الخالص بعد الرسل .

فالإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ . ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .
توحيد الله هو روح الدين وأعظم أركانه ، وأساس بنيانه ، لأنه سبيل الإخبات ^(١) لرب العالمين ، وهو أجل الصفات المكتسبة للسعادة . وقد نبه الكتاب العزيز والنبي الكريم على عظم أمره ، وكونه من أنواع البر والخير بمنزلة القلب : إذا صلح صلح كل شيء ، وإذا فسد فسد كل شيء . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ » .
ومظاهر هذا التوحيد أربعة :

- الأول — قصر وجوب الوجود عليه تعالى : فلا يكون غيره واجبا .
- الثاني — اختصاصه بخلق السموات والأرض وما بينهما .
- الثالث — أن ذاته واحدة لا تعدد فيها مطلقا .
- الرابع — أنه منفرد بتدبير الملك والملكوت والتصرف فيهما .

وسائل تكوين العقيدة الصحيحة

دعا الله عباده في كتابه الكريم إلى التفكير في خلق الأرض والسموات ، وتعرف الحكمة في خلق الموجودات ، ليعرفوا ماله من صفات الوجود والوحدانية ، وصفات الكمال ، ونعوت الجلال : من عموم قدرته وعلمه ، وتمام حكمته ورحمته ، وإحسانه وبره ، ولطفه وعدله ، ورضاه وغضبه ،

(١) الإخبات : الخضوع

وثوابه وعقابه ، فيزدادون لوحدايته إدراكاً .

فمن ذلك خلق الإنسان وتأمل سنن الكائنات : وقد ندب الله سبحانه إلى النظر في ذلك ، في غير موضع من الذكر الحكيم . قال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ . ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ ﴾ . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْوِثَاقِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴾ . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ .

اشتمل القرآن الكريم على كثير من أشباه هذه الآيات ، التي وجه فيها نظر الإنسان إلى التفكير في مبدأ خلقه ، ووسطه ، وآخره ، فهذا الخلق من أعظم الدلائل على قدرة خالقه وفاطره . وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه ، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ، ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه :

ألم تر ما اشتمل عليه جسم الإنسان : من الأعصاب ، والعظام ، والعروق

والأوتار؟ وكيف ربطت يد القدرة بعضها ببعض أقوى رباط وأشدّه وأبعده عن الانحلال؟ وكيف كسيت العظام لحما جعل وعاء لها وغشاء وحافظا؟

ثم انظر إلى الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما للبدن، وعمادا له، وكيف قدرها ربها وخالقها بمقادير مختلفة، وأشكال متنوعة؟ فمنها الدقيق والصغير والكبير، والطويل والوسط والقصير، والمخنيّ والمستدير، والعريض، والمصمت والمجوف.

ثم تأمل خلق الرأس وما فيه من العظام الكثيرة، وكيف ركه سبحانه وتعالى على البدن، وجعله عاليا علو الراكب على ما يركب، وكيف جعل فيه حواس السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللس؟ وجعل حاسة البصر في مقدمته، ليكون كالطليلة والحرس والكاشف للبدن. وركب كل عين من سبع طبقات: لكل طبقة وصف مخصوص، ومقدار مخصوص، ونفع مخصوص. ولو زالت طبقة من تلك الطبقات السبع، أو اختلت هيئتها، لتعطلت العين عن الإبصار. وركّز المبدع جل وعلا داخل تلك الطبقات السبع؛ إنسان العين بقدر العدسة، يصربه ما بين المشرق والمغرب، والأرض والسماء، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء: فهو ملكها، وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدام له، وحجاب وحراس: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

ثم تأمل صنع الله في ملكوت السموات وعلوها، وسعتها واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها

وأشكالها ، وتفاوت مشارقتها ومغاربها : فلا ذرة فيها تخلو من حكمة وعبرة .
والقرآن الكريم مفعم بذكر السموات والأرض وما بينهما ؛ ومن تتبع
حكمة ترداد ذكرها وجدها : إما إخباراً عن عظمتها وسعتها ، وإما إقساماً بها
إعظاماً لها ، وإما دعاءً إلى النظر فيها ، وإما إرشاداً إلى العباد أن يستدلوا بها
على عظمة بانيتها ورافعها ، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته ،
وأنه الله الذى لا إله إلا هو ، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها ، والشام
أجزائها ، وعدم الفطور فيها ، على تمام حكمته وقدرته ، وكذلك ما فيها
من الكواكب والشمس والقمر ، والعجائب الفلكية التى تنقاصر عقول
البشر عن قليلها : فكم من قسم فى القرآن بها ، كقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ
ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ . ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ . ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ . ﴿ وَالسَّمَاءِ
ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ . ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ . ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ .

وهو سبحانه يقسم بمخلوقاته الدالة على ربوبيته ووحدانيته ، ليتعرف بها
إلى عبادته ، وليدركوا قدرة من أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها ؛
وثبتها من غير علاقة من فوقها ، ولا عمد من تحتها : ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ
بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ . ﴿ وَالَّذِى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِى أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ ﴾ . ﴿ وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ . ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ .
﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .
وكذلك : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

دعا القرآن الكريم إلى الاعتبار بخلق هذا العالم وتناسق أوضاعه؛ وتأليف أجزائه وربطها ببعضها ببعض ونظمها على أحسن نظام، وأدله على كمال قدرة خالقها، وكمال عله، وكمال حكمته، وكمال لطفه، وجعله كالبيت المبنى المَعَدَّ فيه جميع مرافقه ومصالحه، وكل شيء يحتاج إليه :

فالسما سقفه المرفوع عليه . والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقرّ للساكن . والشمس والقمر سراجان يزهران فيه . والنجوم مصاييح له تزينه ، وأدلة للتنقل في طرق هذه الدار . والجواهر والمعادن مخزونة فيه ، كالذخائر والحواصل المهيأة ، كل شيء فيه لشأنه الذي يصلح له ، ولوقته الذي يحتاج فيه إليه . وضروب النبات مهياة لما ربه ، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه : فمنها الرّكوب ، ومنها الحلوب ، ومنها الغذاء ، ومنها الكساء والامتعّة . وجعل الإنسان كالملك المخوّل ذلك ، المحكّم فيه ، والمتصرف بفعله وأمره .

كل أولئك أدلة قاطعة ، على أن العالم مخلوق ، خلقه الخالق الحكيم القدير العليم ، وقدره أحسن تقدير ، ونظمه أدق نظام .

جلت حكمة الله في صنعه : ألبس الإنسان خلج الكرامة كلّها من العقل والعلم ، والبيان ، والنطق ، والشكل ، والصورة الحسنة ، والهيئة الشريفة ، والقد المعتدل ، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر ، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة ، من البر والطاعة ، والانقياد ، وجعل العالم قرية له وهو رئيسها : كل منها مشغول به . ساع في مصالحه ، وكل منها قد أقيم في خدمته وحاجاته . والأفلاك سخرت منقادّة دائرة بما فيه مصالحه . والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته ، وإصلاح رواتب

أقواته . والعالم الجوى مسخر له ، برياحه ، وهوائه ، وسحابه وطيره . والعالم الأرضى كله مسخر له ، مخلوق لمصلحه : أرضه وجباله ، وبحاره وأنهاره ، وأشجاره وثماره ، ونباته وحيوانه : ﴿ وَلَتَجْرىَ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرىَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِمِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

بهذه الآيات وأشباهاها : بين القرآن الكريم أن السائر في معرفة آلاء الله ، المتأمل لحكمته وبديع صفاته ، أطول باعا ، وأملأ صواعا ، من اللصيق بمكانه ، المقيم في بلده راضيا بعيش بنى جنسه ، لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحداً منهم يقول : لى أسوة بهم : (وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر ؟) وجهل أن نفائس البضائع ليست إلا لمن امتطى غارب الاغتراب ، وطوف في الآفاق ، فاستلان ما استوعره المتعطلون ، وأنس بما استوحش منه الجاهلون ، فقوى إيمانه ، وصحّت عقيدته ، وأقر إقرارا صحيحا بتوحيد الله ، وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، وحكمته في خلقه وأمره ، المقتضية لإثبات رسالة رسله ، ومجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، وبأن له أن كل ذلك مركز في

الفطرة ، وأنها لو خُلِّيت على ما خلقت عليه ، لم يعرض لها ما يفسدها ، أو يحولها عن فطرتها ، ولأقزت بوحداية الله ووجوب شكره وطاعته ، وبصفاته وحكمته في أفعاله وثوابه وعقابه ، وأنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه ؛ أنكرت ما أنكرت ، وجحدت ما جحدت ، فبعث الله رسله مذكِّرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة ؛ ﴿فَذَكِّرْهُمْ بِمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ فانقادوا طوعا واختياراً ؛ ومحبة وإذعانا ، بما جبل من شواهد ذلك في قلوبهم ، حتى إن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق ، بل علم صحة الدعوة من ذاتها ، وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها . وهذا أعظم ما يكون من الإيمان ، وهو الذي كتبه سبحانه في قلوب أوليائه وخاصته ، فقال جلَّت حكمته : ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ .

وصفوة القول ، أن القرآن الكريم احتوى في باب إصلاح العقيدة ، ما لو اجتمعت عقول العالمين كلهم ، فكانوا على عقل أعقل رجل فيهم ما أمكنهم أن يقترحوا شيئا أحسن منه ، ولا أعدل ، ولا أصلح ، ولا أنفع للخليفة في معاشها ومعادها . فهو أعظم آياته ، وأوضح بيناته ، وأظهر حججه على أنه الله الذي لا إله إلا هو ، وأنه المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقصان .

دلت طريقة القرآن الكريم على أن الله أثبت في الفطرة حسن العدل والإنصاف والصدق ، والبر ، والإحسان ، والوفاء بالعهد ، والنصيحة للخلق ، ورحمة المسكين ، ونصر المظلوم ، ومواساة أهل الحاجة والفاقة ، وأداء الأمانات ، ومقابلة الإحسان بالإحسان ، والإساءة بالعفو والصفح ، والصبر في مواطن الصبر .

والبذل في مواطن البذل . والانتقام في مواضع الانتقام ، والحلم في مواضع الحلم ، والسكينة والوقار ، والرأفة ، والرفق ، والتؤدة . وحسن الأخلاق ، وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد ، وستر العورات ، وإقالة العثرات ، والإيثار عند الحاجات ، وإغاثة اللهفات . وتفريج الكربات ، والتعاون على أنواع الخير والبر ، والشجاعة ، والسماحة ، والبصيرة ، والثبات ، والعزيمة والقوة في الحق ، واللين لأهله ، والشدة على أهل الباطل ، والغلظة عليهم ، والإصلاح بين الناس ؛ والسعى في إصلاح ذات البين ، وتعظيم من يستحق التعظيم ، وإهانة من يستحق الإهانة ، وإنزال الناس منازلهم ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وأخذ ماسهل عليهم ، وطوعت به نفوسهم من الأعمال والأموال والأخلاق . وإرشاد ضالهم ، وتعليم جاهلهم ، واحتمال حقوقهم ، واستواء قريبهم وبعيدهم في الحق : فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيداً ، وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان قريباً حبيباً ، إلى غير ذلك من معرفة العدل الذي وضعه بينهم في المعاملات ، وما أودع فطرهم من حسن شكره وعبادته ، وإن نعمه عليهم ، توجب بذل قدرتهم وطاقهم في شكره والتقرب إليه ، وإيثاره على ماسواه .

وأثبت في الفطرة عليها بقبح أضداد ذلك ، ثم بعث رسله للأمر بما أثبت في الفطر حسنه أو كماله ، وللنهي عما أثبت فيها قبحه ونقصانه ، فطابقت الشريعة المنزلة ، الفطرة المكملّة ، مطابقة التفصيل لجلته ، وقامت شواهد دينه في الفطرة تنادي للإيمان : (حتى على الفلاح) . وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجي ظلم الجحود والنكران ، كما صدع الليل ضوء الصباح :

وَقِيلَ حَاكِمِ الشَّرِيعَةَ شَهَادَةُ الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ : ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

حَسْبُ الْعُقُولِ الْكَامِلَةِ الْفَاضِلَةُ أَنْ أَدْرَكَتْ حَسْنَ الْقُرْآنِ ، وَشَهِدَتْ بِفَضْلِهِ ، وَأَنَّهُ مَا جَاءَ الْعَالَمَ دِينَ أَكْمَلَ . وَلَا أَجَلَ ، وَلَا أَعْظَمَ مِنْهُ : فَهُوَ نَفْسُهُ الشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ لَهُ ، وَالْحُجَّةُ وَالْمُحْتَجُّ لَهُ ، وَالِدَعْوَى وَالْبَرَهَانُ ، وَلَوْلَمْ يَأْتِ الْمَصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَرَهَانٍ عَلَيْهِ ، لَكُنْفِي بِهِ بَرَهَانًا وَآيَةً وَشَاهِدًا عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَكُلُّهُ شَاهِدٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِكَمَالِ الْعِلْمِ ، وَكَمَالِ الْحِكْمَةِ . وَسِعَةُ الرَّحْمَةِ ، وَالْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ ، وَالْإِحَاطَةُ بِالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ ، وَالْعِلْمُ بِالْمُبَادِئِ وَالْعَوَاقِبِ فَهُوَ أَعْظَمُ نِعَمٍ اللَّهُ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ : فَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةِ أَجَلٍ مِنْ أَنْ هَدَاهُمْ لَهُ ، وَجَعَلَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَارْتَضَاهُمْ لَمْ وَارْتَضَاهُمْ لَهُ : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ . ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

وَجَلَّى أَنْ وَصَفَ الدِّينَ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِلْعَالَمِ بِالْكَامِلِ ، وَالنِّعْمَةَ الَّتِي أَسْبَغَهَا عَلَيْهِمْ بِاتِّمَامٍ — دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ ، لَا نَقْصَ فِيهِ وَلَا عَيْبَ وَلَا خِلَلَ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْكَامِلُ فِي حَسَنِهِ وَجَلَالِهِ ، وَأَنَّهُ دَائِمٌ مُتَّصِلٌ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَقُولُ : (يَا لَهُ مِنْ دِينٍ لَوْ أَنَّ لَهُ رِجَالًا) وَذَلِكَ الْقَوْلُ الْحَقُّ .

الدِّينُ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَوَّلَى الْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ ، الَّذِينَ شَهِدَتْ بِصَائِرِهِمْ هَذَا النُّورَ

المبين ، فكانوا منه على بينة و يقين ، ومشاهدة لحسنه وكاله ، بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم .

وهذا هو الفرقان بينهم وبين من وصفهم الإمام على كرم الله وجهه ، باتباع كل ناعق ، يميلون مع كل صائح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق .

وكذلك بينهم وبين من حرموا بصيرة الإيمان جملة ، فلا يرون من آيات الله إلا الظلمات والرعد والبرق ، ولا تتجاوز أنظارهم ما وراء ذلك ، من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية .

أما الرجال الذين يرفعون شأن الإسلام ويعلون كلمته ، فهم أولو البصيرة والعزيمة ، الذين أدركوا أن رب العالمين أحكم الحاكمين ، والعالم بكل شيء والغنى عن كل شيء ، والقادر على كل شيء ، وأن من كان هذا شأنه فحاشا أن تخرج أفعاله وأوامره أبداً عن الحكمة والرحمة والمصلحة ، وما يخفى على الناس من معاني حكمته في صنعه وإبداعه ، وأمره وشرعه — يكفهم فيه معرفته بالوجه العام أن فيه حكمة بالغة ، وإن لم يعرفوا تفصيلها ، وأن ذلك من علم الغيب استأثر الله به ، وحسبهم في ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة الغالبة الشاملة ، التي علموا ما خفى منها بما ظهر لهم .

شاهد أولو العلم والبصر سنة التبديل والتغيير والتحويل في الموجودات ، فأدركوا إمكان المعاد وما جاء به الرسل فيه ، وظهر لهم أن القرآن والسنة إنما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله ، لا جعله عدماً محضاً ، كما ذهب إليه الملاحدة من الفلاسفة .

لا جرم أنهما دلا على تبديل الأرض غير الأرض ، والسموات غير

السموات ، وعلى تشقق السماء وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وانتثار الكواكب ، وسجّر البحار ، وعلى أن القبور تبعثر ، والجبال تسير ، ثم تنسف وتصير كالعهن المنفوش ، والأرض تميد ، وتدنو الشمس من رهوس الناس . وكل هذه أمور لا مطمع للعلم في الاعتراض عليها ، أو القدح في حصولها .

أرأيت أن القرآن الكريم ، يخبر بأن الله سبحانه يحيي العظام بعد ما صارت رميما ، وأنه علم ما تنقص الأرض من لحوم بني آدم وعظامهم ، فيرد ذلك عند النشأة الثانية ، وأنه ينشئ تلك الاجسام بعينها بعد ما بليت نشأة أخرى ، ويردُّ إليها أرواحها بنفسها ؟ وليس في القرآن والسنة ما يفيد أن الله يُعدم الأرواح ، ثم يخلقها خلقا جديدا ، أو أنه يُفني الأرض والسموات ، ويجعلها عدما صرفا ، ثم يجدد وجودهما ، وإنما تضافرت النصوص على تبديلهما وتغييرهما . والعلم لا يجزو على إنكار ذلك .

لكن واحسرتاه ! لم تُعطِ النصوص حقها ، تخفيت وفهم منها خلاف مرادها ، وسلّطت عليها الآراء ، فتضاعف البلاء ، وعظم الجهل ، واشتدت المحنة ، وتفاقم الخطب . وسبب ذلك كله الجهل بما جاء به الرسول وبالمراد منه . فليس للعالم أنفع من الاستماع لما جاء به الرسول وعقل معناه : ففيه الخلاص والنجاة . وأما من لم يسمعه ولم يعقله ، فهم الذين قال الله فيهم جلّ شأنه : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

(ب) تجميل ظاهره وتهذيب طبائعه بالعبادة

إن الله — جلت حكمته — ميز الإنسان باستعداده لقبول عبادة خالقه ، بما منحه من العقل والنطق ، وخصه بهما دون سائر الحيوان والجماد ، فكلفه العبادة وحده . وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) .

وظاهر أن المراد بالأمانة (والله أعلم) احتمال عهد التكليف ، وما ينجم عنه من الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية : فالإنسان بطبيعته واستعداده وقابليته تلقى هذا التكليف . والسماوات والأرض والجبال لعدم استعدادهن وقابليتهن بفطرتهن ، لم يستطعن تحمله . وما أجمل قوله تعالى في حق الإنسان ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ فإن الظلوم من لا يكون عادلاً ومن شأنه أن يعدل ، والجهول من لا يكون عالماً ومن شأنه أن يعلم . وتلك حال الإنسان ، أما غيره فصنفان ؛ صنف عالم عادل لا يعتوره الظلم والجهل أبداً : وهؤلاء هم الملائكة . وصنف غير متصف بالعدل والعلم وليس من شأنه ذلك كله : كالبهائم والجمادات .

وإذ خص الله — سبحانه وتعالى — الإنسان دون غيره بنعمة التفكير ، أطلق له النظر في السماوات والأرض وما فيهما : من الأفلاك ، والكواكب ، والحيوان ، والنبات ، والمعادن وغيرها ، ليستخدمها في إصلاح معيشته . تأمل

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۖ﴾ .
ثم أوجب عليه الشكر باستدامة ذكره ، والخضوع لأوامره ، والوقوف عند أحكامه وحدوده ، وعلمه أن العبادة له وحده دون سواه : تأمل ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم لمُعَاذٍ : «يَا مُعَاذُ ، (هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟) قَالَ مُعَاذٌ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : (فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ؛ وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) .

جَلَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي هَذَا الدِّينِ الْحَكِيمِ : فَقَدْ طَلَبَ إِلَى النَّاسِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَجَعَلَ عِبَادَتَهُ وَسِيلَةً لِتَجْمِيلِ ظَوَاهِرِهِمْ ، وَتَهْذِيبِ طِبَاعِهِمْ ، وَتَكْوِينِ عَادَتِهِمْ ، وَإِصْلَاحِ سِرَائِرِهِمْ . وَإِلَيْكَ الْبَيَانُ :

أمر الإنسان بالوضوء قبل الصلاة لتجميل مواطن نظر الخلق : بإزالة ما أصاب أعضاء الوضوء من ملامسة الأشياء ، ومما يحمله الهواء من التراب وتخرجه المسام من العرق ، وتقذفه المنافذ من الأقدار . وبهذا يستجمله المصلون ، ويألفه المؤمنون . على أن في غسل أعضاء الوضوء محافظة على الصحة بدفع عوامل الأمراض والوقاية منها : فقد ثبت طبيًا أنها تدخل في الجسم من المنافذ التي يعمها الوضوء . فإذا أزيل عنها ما عليها ، مما يمنع بروز

العرق وتساعد الأنخرة ، كان ذلك أحفظ للصحة ، وأدعى للسلامة .
هذا إلى أنه ليس في البدن ما يتحرك للمخالفة أسرع من أعضاء الوضوء .
فكان في غسلها التنبيه على الاعتناء بطهارتها ، وكانت طهارته الظاهرة كالرمز
والإشارة إلى الطهارة الباطنة : وهي التوبة من ذنوبها الكثيرة الوقوع .
يشهد بذلك ترتيبها في الطهيرة على حسب إسراعها للمخالفات ، وكثرة وقوعها
في الآثام .

ألا ترى أنه يقدم الوجه الذي لا يوجد أكثر منه في الأعضاء مخالفة ،
لاشتاله على الفم الذي آفاته أكثر من أن تحصى ، والآنف والعينين اللذين
تقرب ذنوبهما من ذنوبه ؟ ثم تطهر بعده اليدين اللتان يكون البطش بهما
بعد التكلم باللسان ؛ والنظر بالعينين غالباً ، ثم الرأس المجاور للوجه الذي هو
كثير الذنوب ، واكتفى فيه بالمسح ؛ لأن مجاورة المذنب أخف من ارتكاب
الذنب ، فضلاً عما في غسله من الحرج : تأمل قول ابن عباس رضي الله عنهما
« شرع غسل الكفين للأكل من موائد الجنة ، والمضمضة لكلام رب العالمين
والاستنشاق لروائح الجنة ، وغسل الوجه للنظر إلى وجه الله الكريم ، وغسل
اليدين إلى المرفقين للسوار ، ومسح الرأس للتاج والإكليل ، ومسح الأذنين
لسماع رب العالمين ، وغسل الرجلين للشي في الجنة ، وهذا التأويل غاية في
الحسن كما ترى .

وأمره بالطهارة العامة ؛ لإزالة الروائح الكريهة التي تضر أصحابها والمصلين
وتستوجب سخطهم عليه ، واستقذارهم إياه ، وميلهم إلى التبعاد عنه ، والنفور
من التقرب منه ، مع أنه منهي عن تجنبهم والإضرار بهم ، ملمور بالإحسان
إليهم والاختلاط بهم ، ولا سيما في مجالس الخير : كصلاة الجماعة التي أكدتها

الشرع، وحث عليها العقل ومجامع الوعظ والإرشاد للتكامل، وغير ذلك ومن أسرارها انشراح النفس ونشاطها، لأن لها بالبدن ارتباطاً قوياً لا يمحده، فكل تأثير في الجسم يظهر أثره في النفس : فإذا نظف الجسم انشاحت النفس، وذهب كسلها وقترتها، وجاء نشاطها وقوتها، وسهل عليها إحسان العبادة، والإتيان بها على الوجه الأكمل. ومن ظفر بذلك خفت عليه عبادة ربه. وكان على القيام بها وبأعماله الدنيوية أقدر.

ومن أسرارها أن في تنظيف الظاهر بالماء، إشارة إلى تنظيف الباطن من الأخلاق الرديئة، والعقائد الفاسدة : فقد جاء في الخبر : «الطهور شرط الإيمان» ولا يكون كذلك وهو مقصور على نظافة الظاهر، لهذا قصد الشارع الحكيم أن يغرس في الناس خلق نظافة الظاهر، ليطهروا بواطنهم، فيتخلوا عن الأخلاق الذميمة، ويتحلوا بالسجايا الكريمة، ويتنزهوا عن العقائد الزائفة، ويتمسكوا بالمشروع منها، فإنه إذا استحسنت الموافقة، تعذرت المفارقة. وأمره بالصلاة لما يأتي :

(١) إن الصلاة إذا أدت على الوجه المطلوب من الخشوع والتعظيم والحياء؛ غيرت ما جبلت عليه نفس الإنسان : من الهلع الناجم عن الركون إلى حظوظ الدنيا، وإثثار العاجل على الآجل، لأن وقوف المصلي بين يدي ربه، يتضرع إليه، ويستحضر خشيته في قلبه، ويتذكر عظيمته، ويخاف عقابه — يهون عليه حرصه على العاجل، ويقوى رغبته في الآجل.

(٢) خلق الإنسان بفطرته غير ثابت في أحواله : إن رزقه الله خيراً بطر وطغى، ومنع حقه فيه، وإن رزقه الشر جزع وسخط : فإذا أدى الصلاة كل يوم خمس مرات في أوقاتها الراتبية، توطنت نفسه على الثبات وقوة الجأش،

وخضوعها لجميع ما يجري عليها من خير وشر ، لعلها أن الخير والشر من عند الله الذى تقف بين يديه خمس مرات ، مقرة برؤيته ، معترفة بوحدانيته مما تقدم يتبين أن الصلاة وسيلة فعلية ثابتة إلى تغيير قبيح الأخلاق وأدناها - وهو شدة الحرص الذى هو أصل المفساد والأخلاق الذميمة : من التحاسد والتباغض ، إلى أجمل الأخلاق وأعلاها : من أطراح الحرص وما ينجم عنه ، وأنها تكسب صاحبها الثبات والمثابرة وقوة العزيمة ، وتوطن النفس على النظام والتؤدة والترقى فى الأمور . وإلى فضل الصلاة فى هذا المعنى يشير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾

(٣) إن الصلاة تحول بين صاحبها وارتكاب المناكير عامة ، لأنها بما اشتملت عليه من الذكر والقراءة والركوع والسجود ، ومظاهر الخضوع لله سبحانه وتعالى ، تجعل المصلى خالى الفكر من الشواغل الدنيوية ، مستحضرا خشية الله بقلبه ، متضرعا إليه ، بمتلا لإرادته ومشيتته . وبذلك ترتدع نفسه عن الشهوات ، وتعديل عما كانت تصر عليه من الآثام والمنكرات لأن الإقرار بعظمة الله قولا وفعل يدل دلالة واضحة ، على أن المصلى لا ينافى صاحب العظمة والكبرياء بالعصيان ، أو يجاهره بالمنكر . وإلى هذا السر العظيم يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

(٤) إن توقيت الصلاة بأوقات راتبة ، وأزمان مترادفة . سبب لاستدامة الخضوع لله تعالى ، والابتهاال إليه ، فلا تنقطع الرهبة منه ، ولا الرغبة فيه .

وإذا لم تنقطع الرغبة والرغبة استدأ الخلق صلاحهم
(٥) إن أهل كل بلد محتاج بعضهم إلى بعض ، كما جرت بذلك سنة المعيشة :
فمنهم الغنى والفقير ، والعالم والجاهل . والقوى والضعيف ، فيجتمعون في
الصلاة ، لتتحد كلمتهم ؛ وتتوَّق فيما بينهم مودتهم ، وتم في الله أخوتهم ،
ويتعاونوا على ما يجلب لهم الخير ، ويدفع عنهم الضرر ، لأن الجيران إذا
اجتمعوا في المسجد خمس مرات في اليوم والليلة لعبادة ربهم ، وإصلاح
دينهم ، تيسر لهم إصلاح أمر دنياهم ، إذ حصول التعارف والمودة بينهم ،
يستدعى الرحمة والشفقة ، وحب بعضهم بعضاً : فلا يجدون بينهم محتاجاً
إلا انفصوا عنه غبار الحاجة ، ولا مضطراً لإعانة إلا مدوا إليه يد المساعدة ،
ولا غائباً إلا بحثوا عن أسباب غيبته : فإن علموه مريضاً عادوه ، أو مشرفاً على
خطر أنقذوه ، أو متقاعداً لكسل عاتبوه . وهذا ما كان يفعله أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ويأمر به . فقد روى أنه قال : تفقدوا
إخوانكم في الصلاة . فإن فقدتموهم ، فإن كانوا مرضى فعودوهم ، وإن كانوا
أصحاء فعاتبوهم .

(٦) تعويد المؤمنين الحرية ، وإشراك قلوبهم المساواة والإخاء ،
لأن الإنسان إذا اعتاد الوقوف في صف يكون فيه السيد بجانب المسود ،
والمخدوم قريبا من الخادم - والكل ذليل بين يدي مولى عزيز - لم يجد له
في هذا الموقف فضلا على غيره . بل ربما رأى غيره ممن هو أقل منه درجة
في الدنيا أفضل عبادة منه . فإذا انصرف من مكان الصلاة ، استحيا أن يرى
لنفسه حقا في ادعاء السيادة ، أو التفرد بالحرية

(٧) إن في صلاة الجماعة ، واتباع المصلين لإمامهم في جميع أعمال الصلاة -

تعويد النفوس الطاعة ، والانقياد للرؤساء ، كما نرى رؤساء الجند يأخذونهم بأعمال ، يعلمون أنهم لا تمكنهم مراعاتها وقت الحرب . وإنما القصد منها ألفة نفوس الجند للطاعة ، والانقياد لأمر الرئيس . وقد فطن لهذا السر (رستم) قائد جيش الفرس ، حين رأى الصحابة خلف إمامهم ، يتحركون لحركته ، ويسكنون لسكونه وأمره بالصوم لما يأتى :

(١) ليس القصد من الصوم مجرد الإمساك عن الأكل والشرب وعن كل مفطر ، من الفجر إلى الغروب ، بل المقصود أثر ذلك . وهو كَفَّ النفس عن المضى في ميولها ، التى أمرنا بمجاهدتها بسلاح الصبر والتقوى . ولا يتحقق ذلك الأثر ، إلا بكف اللسان عن الهذيان والفحش ، والغيبة والنميمة ، والكذب والمراء ، وكف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه ، ومنع البصر من النظر إلى جميع ما ينافى خشية الله تعالى ، لقوله صلى الله عليه وسلم : **النَّظَرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سَهَامِ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ ! فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفًا مِنْ اللَّهِ آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ .** وإلى هذه الحكمة البالغة من الصوم ، يشير الله تعالى في كتابه الكريم بقوله تعالى : **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** أى تتخذون من الصوم وقاية تحول بينكم وبين الميول المرذولة ، والمنكرات وسائر الموبقات . وجاء في الحديث الشريف ما يبين مدلول الآية : إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم : **إِنَّمَا الصَّوْمُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ ، وَإِنْ أُمِرُوا قَاتِلُهُ أَوْ شَاتِمُهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ ،** ومعنى هذا ، أن الصوم

وقاية يتحصن بها الصائم من عدويه : (النفس والشيطان) فالنفس بكبحها عن مطاوعتها في ميولها ، ومتابعتها في غُلَوَاتِهَا ، والشيطان بقهره بمدافعة تلك الميول التي هي وسائله . وإنما تقوى تلك الميول بالأكل والشرب : وفي هذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ جَرَى الدَّمِ مِنَ العُرْوِ ، فَضَيِّقُوا بِجَارِيهِ بِالْجُوعِ » .

(٢) إن سبب الأمراض في الغالب الأكل والشرب ، وحصول فضلة الأخلاط في المعدة . وحسبك ما ينشأ عن الأمراض من تنغيص العيش ، ومقاساة الآلام الشديدة ، وعدم القدرة على أداء الواجبات الدينية والدنيوية ، وقد أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : «البَطْنَةُ أَصْلُ الدَّاءِ وَالْحِمِيَّةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ» فصوم شهر في السنة تطهير للمعدة مما تخلف فيها من فضلات الطعام طول العام .

وقد قال لقمان لابنه وهو يعظه : (يا بني ، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخَرَسَتِ الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة) . وقد وصف الحسن البصري رحمه الله تعالى في قصصه : نقص الإنسان بالطعام وغيره فقال : (مسكين ابن آدم : محتوم الأجل ، مكتوم الأمل ، مستور العلل ، يتكلم بلحم ، وينظر بشحم ، ويسمع بعظم ، أسير جوعه ، صريع شبعه ، تؤذيه البقّة ، وتنتنه العرقّة ، وتقتله الشرقة . لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً) .

(٣) إن من اعتاد قلة الأكل والشرب كفاه من المال قدر يسير ، ومن تعود الشبع جعل بطنه غريماً ملازماً له ، آخذاً بمخنقه كل يوم . يطالبه

بمطالبه المتنوعة التي قد تدفعه إلى السرقة ، أو القمار ، أو إراقة ماء وجهه ، أو ارتكاب ضروب الذلّة والدناءة وخسة النفس .

(٤) إن منع النفس من مشتيتها ، وكفها عن بعض رغباتها ، وسيلة إلى أن تسكن لربها ، وتخضع له ، ويتبين لها عجزها إذا ضاقت حيلها ، وأظلمت عليها الدنيا ؛ لشعورها بالحاجة الشديدة إلى يسير الطعام وقليل الشراب . والمحتاج إلى الشيء ذليل به . وفي هذا حث له على أن يخلع عن عاتقه رداء العكبر ، ويخضع لخالفه ورازقه ، ويعامل خلق الله بحسن الخلق ، ولين الجانب ، فتمّ الرأفة ، والمودة ، والمساعدة ، والمعاونة .

وقد أثبت الطبّ أن كثيراً من جراثيم الأمراض لا يقتلها سوى الصوم ، ولذلك يشير به الأطباء في كثير من الأحيان على المرضى .

(٥) الصوم سبيل تعود الصبر والثبات على المكاره ؛ فإن الصائم يكلف نفسه البعد عن مشتيتها : من الأكل والشرب وما إليهما ، ويذودها عن ذلك بعزم قوى وصبر جميل . فلورغبته بأعظم الرغائب على أن يتناول من الطعام ذرة ، أو من الشراب قطرة ، ما وسعه ذلك . ووجد لذلك في نفسه ما يكدر خاطره ، وينقص عيشه . ومن اعتاد مقاومة نفسه عند نزوعها إلى ميولها ؛ أصبح لعقله السلطان على بقية قواه . ومن السعادة أن يملك الإنسان نفسه ، لأن تملكه نفسه .

(٦) إن من يرعى الأمانة في هذه العبادة في سرّه وعلايته ؛ جدير بأن يؤتمن على أنفوس شيء وأعظمه . وفي ذلك من حسن السيرة ما به يكون صاحبه من أجلّ الناس قدراً ، وأشرفهم ذكراً ، وأعظمهم خطراً .

هذا إلى أن المحافظة على تأدية هذه العبادة في أشدّ الامكنة خفية ، وأبعدها

عن أعين الرائيين — دليل على كمال المروءة ، وعلو الهمة ، ووفرة الحياء .
وما المروءة إلا المحافظة على الأحوال التي تكون بها النفس على أفضل حال
وأكملها ، وقد استوعبها صلى الله عليه وسلم في قوله : « إِنَّ مَرْوَةَ الرَّجُلِ
مَشَاهُ ، وَمَدْخَلُهُ ، وَمَخْرَجُهُ ، وَمَجْلِسُهُ ، وَإِلْفُهُ ، وَجَلِيسُهُ » .

وما الحياء إلا ثلاثة أمور :

أحدها : امتثال أوامر الله عز وجل ، والكف عن زواجه ، وحفظ
الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وترك زينة الحياة الدنيا ، وذكر
الموت والبليل .

وثانيها : كف الأذى عن الناس ، وإطراح مجاهرتهم بالقبيح ، واتقاؤهم .
فلاخير فيمن لا يستحي من الناس . وإلى ذلك يشير بشار بن برد ، إذ يقول :
ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء * حياءً وحباً في السواد
امسك النفس بالعفاف وامسى * ذا كراً في غد حديث الأعداى
وهذا النوع من الحياء من كمال المروءة وحب الشاء . وإليه يشير الحديث
الشريف : « مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَاغِيَةَ لَهُ » . وذلك لفلة مروءته ، وضعفه
أمام ميوله .

وثالثها : حياء الإنسان من نفسه . بعفتها وصياتها في الخلوات ، كما قال بعض
الحكماء : « لِيَكُنْ اسْتِحْيَاؤُكَ مِنْ نَفْسِكَ ، أَكْثَرَ مِنْ اسْتِحْيَاؤِكَ مِنْ غَيْرِكَ » .
وكما قال بعض الشعراء :

فسرى كإعلانى وتلك خليقتى * وظلمة ليل مثل ضوء نهارياً

وجليّ أن من استكمل هذه الأمور الثلاثة من الحياء ، كملت فيه أسباب الخير ، وانتفت عنه أسباب الشرّ ، وصار بالفضل مشهوراً ، وبالجميل مذكوراً (٧) إن كف النفس عن مشتبهاتها ، ومنعها عن مبتغياتها ، مجاهدة عظيمة لها ، دالة على توافر الشجاعة الأدبية . والشجاعة الأدبية أساس الفضائل ، وعنوان محاسن الشئائل ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » : وهو جهاد النفس ، ومكافحة ميولها وأهوائها (٨) إن الصائم يعاني خلال صومه من حرارة الجوع ولظى الظمأ ، ما يدفعه إلى إعانة من رآه محتاجاً إلى طعام أو شراب ، لينقذه من مثل مذاق ألمه ، بخلاف من لم يصُِّمْ ، فإن من لم يقاس بلاءً ، لم يدرك عناء . وقيل ليوسف عليه السلام : « لَمْ تَجُوعِ وَأَنْتَ عَلَى خِرَائِنِ الْأَرْضِ ؟ » . قال : « أَخَافُ أَنْ أَشْبَعَ فَأَنْسِيَ الْجَائِعِ » .

مما تقدم يتبين لماذا رَغَّبَت الشريعة الإسلامية في الصوم ، وبالغت في الحث عليه ، وأكثرت من الوسائل التي توصل إليه : فقد جعلته في كفارة القتل ، وكفارة الأيمان ، وكفارة الظَّهَار . ولا عجب ! فالصوم جُنةٌ ، كما تقدم في الحديث .

المقصد الثاني

إعداد الفرد ليكون عضوا نافعا في المجتمع

ولذلك طريقان :

الأولى : الزكاة

(١) الإنسان بطبيعته يحب المال جبا جبا ، ووجه أحد أمراضها ، وعلاجه إزالة ما بها من علة البخل والشح ، وتدريبها في السماحة المؤدية للفلاح : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ لأن الشح يدعو إلى المطل ، ويحول دون البذل ، والسماحة تصد عن العقوق ، وتحث على أداء الحقوق ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : **دَسْتُ مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ شَحَّ هَالِعٍ ، وَجِبْنٌ خَالِعٌ** . وما يصد عن أداء الحقوق فأخلق به ذمًا ، وما يبعث على أداء الحقوق فأجدر به حمدا !

(٢) إن الزكاة مواساة للفقراء ، ومعونة لذوى الحاجات ، تكفهم عن البغضاء ، وتمنعهم من التقاطع ، وتبعثهم على التواصل ، لأن الأمل وُصُول ، والراجى هائب . وإذا زال الأمل ، واقتطع الرجاء ، واشتدت الحاجة ، وقعت البغضاء ، وتزايد الحسد ، فحدث التقاطع بين أرباب الأموال والفقراء ووقعت العداوة بين ذوى الحاجات والأغنياء ، حتى تفضى إلى التغالب على الأموال ، والتغريب بالنفوس ، وهذه أمور تحمل على إيقاد نار العداوة والبغضاء ، قتلهم المال والنفس والولد ، ويختل معها الأمن ، ويحل الذعر والخوف ، ويسوء من الأمة مصيرها . وبهذا نبنت أصول الاشتراكية في الممالك الغربية ، وأثمرت أغصان الفوضوية ، فجنى المثلون منها كل رزية .

(٣) تحصين أموال الأغنياء وتنميتها . لأن الفقراء إذا أيقنوا أن الغنى يصرف لهم شيئاً من ماله ، وأن ذلك يزداد بازدياد ثروته ، أحبوه وتمنوا بقاء نعمته وزياتها : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

(٤) إن إخراج الزكاة الباعثة الشفقة بالفقراء والضعفاء المعوزين ، فيه سد عوزهم ، وتنفيس كربتهم ، وقضاء دينهم ، وإدخال السرور عليهم . وناهيك قوله صلى الله عليه وسلم عندما سئل : أى الناس أحب إليك ؟ قال : (أَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ) . قيل : يارسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ قال : (إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ) قيل : وما سرور المؤمن ؟ قال : (إِشْبَاعُ جُوعَتِهِ ، وَتَنْفِيسُ كُرْبَتِهِ ، وَقَضَاءُ دِينِهِ) .

(٥) إن إخراج الزكاة شكر لله من الغنى على أن صانه عن السؤال ، وأنعم عليه بوافر الأموال ، ولم يجعله من مستحقى الصدقات ، وذوى الفقر والحاجات ، حتى استحق الحمد الأسمى ، والشكر الأوفى . ومن أذى الزكاة شكراً على نعمة المال ، وطلباً للزيد ، نال من الله ذلك : ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ .

(٦) إن الله جلت حكمته ، أراد أن يربط العالم الإسلامى أجمع ، ويربط قلوب المسلمين كلهم بعضها ببعض ، ويجعلهم أسرة واحدة رءوسها الأغنياء يحسنون على فقيرهم ، ويوسعون على المضيق عليه منهم ، حتى يكفهم تكففتهم الناس ، ويمنعوهم من ذل السؤال ، ويقنوا عليهم حياءهم ، ويجملوا حياتهم ، وفى

هذا الارتباط والاتحاد والتعاون .

(٧) إن إخراج الزكاة تثبيت للإيمان ، وكال في اليقين ، لأن المال شقيق الروح ، وبذله أشق شيء على النفس من بين سائر العبادات . فإذا ارتاضت النفوس يانفاق أحب الأشياء إليها - وهو المال - صارت خاضعة لصاحبها ، وقل طمعها في اتباعه لميوها ، وآثرت ما عند الله تعالى على ما عندها . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ ﴾ .

(٨) إن إخراج الزكاة صون للسال عما لا يليق به : من وضعه كله في يد غير محتاجة إليه ، وإخلاء أصحاب الحاجة إليه منه . فضلا عن أن ما فضل عن الحاجة الأصلية من الأموال ، إذا أمسك عن الصرف في وجوه البر ، بقى معطلا ممنوعا عن لأجله خلقت الأموال . وذلك منع من ظهور حكمة الله تعالى ، وتعطيل لها . وهو غير جائز : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

الثانية : الحج

تبارك الله سبحانه !

شرع لنا الدين فرائض وسننا ، وأجن في كل ما فرض وما سن حكمة بالغة ، وصلاحا وجدوى ؛ فهي بحملتها مدارج إسعاد ، وموارد نعمة ؛ بيد أن منها ما توضح لنا وجه الحكمة فيه ، ومنها ما استسر عنا كنهه ؛ فاستدلنا بما بان

لنا على ما لم يكن ، ، وآمنا بما قصرت عن دركه عقولنا لما أدركناه وعقلناه ،
إذ قد آتم الله علينا نعمة اليقين بأن هذا الدين القيم هدى للناس ورحمة ،
وأشربت قلوبنا الإيمان بأنه مامن مفروض أو مسنون إلا كان الخير
مله وطابه .

ذلك حج البيت الذى كتبه الله على من استطاع السبيل إليه ، قد حوى من
وجوه المصلحة ، وصنوف الحكمة ، ما إن يئانه ليكبر أن يستقل به يان ١ .
أجل ، فإن فيه حكما روحية شتى ، وحكما معاشية أخرى ، فهى فريضة
احدة ، ولكن يتخرج بها الإنسان فى كثير من الفضائل ، ويقضى بها
كثيراً من الحاجات .

أما أول ما يبدو من الحج ، فإنه سبيل إلى رابطة إنسانية عامة لا انفصام لها ،
ورسيلة يتعارف بها الناس فى مشارق الأرض ومغاربها : فى هذا اليوم ، يوم
الجمع الحاشد . بل يوم البعث الأصغر ، يلتقى الناس أجناساً مختلفة ، وأمم متباينة ،
وقبائل متباعدة ؛ فإذا هم قلوب متعارفة ، وآمال متواصلة ، وألسنة متفاهمة ،
بل إذا هم قلوب واحدنا بضع بتوحيد الله ، وأمنية واحدة متجهة إلى الله ، ولسان
واحد يهتف : لييك اللهم لييك !

وإن علماء الأخلاق ليفقدون مظهرها تتمثل لهم فيه مطالبهم الحكيمة ،
ومثلهم الإنسانية العليا ، إلا فى تلك اللحظة الرهية التى يجتمع فيه المسلمون
على متن الصحراء فى بيت الله ، إذ تنجرد الصدور مما ملكها من غل ، وماملأها
من إحنة ، وتخلص القلوب مما ران عليها من الأهواء والشهوات . فلا تبقى
إلا روح نقية لا تشعر بغير المعانى السامية ، وعين صافية تتجلى لها حقائق
الحياة ، لازيف فيها ولا بهرج . وأذن واعية يحتجب عنها ما يملأ جوانب

الدنيا من ضجيج وعجيج ، وما يرحمها من مشاغل ومشاكل !
 ألا وإن من النفوس نفوساً أماره بالسوء ، نزاعة إلى البغي ، أخذتها العزة
 بالإثم ، ونغلت أحناءها بجرائم الأثرة والاستطالة والتعالي . فأبى لها الجبروت
 إلا احتجازاً وأنفة ، وزهاها التعاضل أن تنخرط في سواد الناس . وليس
 كاللحج طهور لتلك النفوس الموبوءة . فالناس في مشاهد الحج صفوف متشابهة ،
 وأمشاج مختلطة ، لا فرق بين رب الخورنق ورب الشؤمية ، ولا فضل لسرى
 ذى حسب على مهمل ذى ضعة ، فلقد لفهم جميعاً زى ساذج يترامى فيه من
 يتخطف في الديباج ومن يتعثر في المزق ، ويشتب فيه من يجد الألوان بمن
 يفقد الكفاف ، فهم في مشاهد الحج أخوة متقاربون ، ورققة متماثلون ، وهم
 جميعاً متطامنون متعاطفون ، طارت عنهم كبرياء الألقاب ، وعزة الأنساب ،
 ومخيلة الأثواب

والحج بعد مجلى رائع تتجلى فيه عزة الخنيفة السمحة في أرجاء المعمورة ،
 وآيات مفصلات تصف نفوذ دعوة محمد صلوات الله عليه في شعاب الأرض ،
 فهذه الرحاب الفساح المقدسات تموج بالجمهرة الكبرى من خلق الله ، بينهم
 الهندي والصيني ، والعراقي واليني ، والشامي والمصري ، وبينهم مما وراء
 البحار طوائف وطوائف تنأى إليها داعى الله ، فأجابت داعى الله !
 والحق أن الحج مؤتمر شامل ، هو أروع ما نظمته الحضارة من أشقات
 المؤتمرات حتى اليوم ، فهذا مؤتمر يتباعث الناس فيه استجابةً لوصي العقيدة
 النازلة منهم منزل الشغاف ، السارية فيهم مسرى الدماء ، لا يتغنون من وراء
 ذلك فضل مال ، أو وجهة منصب ، أو بعدصيت وسمعة ، فما أنبل وما أشرف ،
 وما أجلّ وما أعظم !

والحج فوق ذلك معرض أى معرض لحضارة الدنيا ، وشئون الخلق ؛ ففي هذا المؤتمر الحافل تتزاحم أمم مختلفة ، وأناس أشتات ، بينهم المباء في كل علم ، والأطباء في كل جانب ، والصناع في كل صنعة ، والتجار في كل سلعة ، ورجال الفن في كل فن ، وكل أولئك يحملون إلى الحجيج تجاربهم المبتدعة في العلوم والفنون ، وأجلاهم الخاصة في التجارات والصناعات ، فيتدارسون جميعاً ما درسوا جميعاً ، ويطلع بعضهم بعضاً على شئون حضارتهم ، ووسائل رقيهم ، وأساليبهم الحسنى في الأحوال والعادات والأخلاق . فترجع طوائف الحجيج إلى أمهم بجرّ الحقائق مما وقعت عليه الأعين ، حاملة إليهم من أسباب العيش ما ينفع الناس ، ناقله إليهم من الأخبار والسير ما تجمل به القدوة ، وتحسن فيه الأسوة ؛ وبذلك يتداني ما بين العالم من مراحل التدابر والتنافر والاختلاف ، فتأخذ الألفة سيلها إلى الأمم . ويقرب التشابه بين الخلق ، فتجتمع الجبهة الإنسانية المتحدة التي هي أنبل أحلام الفلاسفة ، وأعلى درجة في مراقب الإصلاح !

ومعاني الحج أهلة بذكريات قدسية تطيب بها نفس الحاج المسلم ، وتروى قلبه من كثر الإيمان ، وناهيك بلاد هي منبعث عقيدته الشاملة التي تتأصل في نفسه لتُصَرَّفها حيث تهوى ، فالرغبة حيث تأمر والرهبة حيث تنهى ، فليس بدعا أن تنحني الأضالع لتلك البلاد على حب ، وتنطوى على تجلة . أجل ، فتلك بقاع مطهرة ، هي معاهد صبا الإسلام ، ومناجم جوهره ، وفي أرجائها نبتت الدعوة المحمدية واهتزت وربت ، ولا تزال أجواؤها تحفظ صوت محمد صلوات الله عليه وهو يقول : ربى الله ! فأجد أن يتمثل للحاج المسلم حين يطوف بالبيت العتيق كل ما أثره التاريخ في انبعاث الإسلام عن هذه

التربة ، وبزوغ شمس في هذه الجزيرة ، ثم ما كان وراء ذلك من جهاد وجلاد ، وغزو وفتح . وإن في تمثل تلك الذكريات له لما يملأ بالعبرة خاطره ، ويشغل بالتدبر فكره ، ويشب فيه عاطفة الهداية والتفاقة !

ولومضينا تتقصى معاني الحج ، ونفصل أسرارها ، لما وسعنا الوقت ، بل لانفسح مجال القول ، وتشعبت مذاهب الكلام ، وانقطع بنا الجهد دون الغاية . فنحن نجتزئ بهذه الكلمة العجلى ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق على أننا إلى العمل أحوج منا إلى القول ، ومامنا إلا مؤمن بالحج وخطره ، فالله المسؤول أن يوفقنا جميعا إلى النهوض بهذه الشعيرة السامية . إنه أكرم مسؤول . .

المقصد الثالث

إصلاح المجتمع

سلك الشارع لإصلاح المجتمع : سبيلين .

السبيل الأول : إنصاف المرأة ورفع شأنها

إجمال

مكان المرأة عند الأمم القديمة :

إن الآثينيين - وهم أكثر الأمم القديمة مدنية - عاملوا المرأة معاملة سقط المتاع ، فكانت تباع وتشتري في الأسواق كأنها سلعة ، بل سموها وجسا من عمل الشيطان ، وحرموها كل شيء سوى تنظيم البيت وتربية الأطفال ، وأباحوا التزوج بأى عدد من النساء يشاء الرجال . ، أما فى إسبَطة فعلى الرغم من أن الرجل كان ممنوعاً من الزواج بأكثر من واحدة إلا فى أحوال قاهرة ، لقد أيسح للبرأة أن تتزوج بأكثر من رجل واحد ، وأقبل معظم النساء على ممارسة هذه العادة المرذولة ، وتلك غاية الانحطاط ! لم يكن تعدد الزوجات مشروعاً فى أول الدولة الرومانية ولا فى آخرها . ومع هذا كان شائعاً فى بلادها . ولا أدل على ذلك من أن العاهل فالتيان الثانى ، أصدر أمراً عاهلياً ، أباح فيه لجميع رعايا الدولة التزوج بأكثر من واحدة إذا رغبوا فى ذلك . ولم يرو التاريخ أن الأساقفة أوروؤساء الكنائس استنكروا هذه الإباحة ، بل إن جميع الذين جاءوا بعده حذوا حذوه وقد ظل تعدد الزوجات بهذا الوصف فاشياً حتى جاء جوستينيان ، ووضع قوانينه

التي تحظر تعدد الزوجات ، فلم تمنع الناس من الاستمرار على هذه العادة . وكل ما دلت عليه قوانينه ، أنها كانت مظهراً من مظاهر التحول الفكري ، لطائفة قليلة من المتعلمين . أما السواد الأعظم فلم يحفل بها ، ولم يجد فيها ما يحول بينه وبين عاداته . أضف إلى ذلك أنه لما تغلبت القبائل الهمجية على غربي أوربة ، واختلطت آراؤهم بأراء أهل البلاد التي احتلوها ؛ حاولوا منع تعدد الزوجات ، فلم يفلحوا ، لأن دأب رؤسائهم على ممارسة هذه العادة ، وتساح رجال الدين في إباحتها للناس ، بترخيص يعطيه الأسقف أو الرئيس الديني ، كل ذلك حجب إلى الناس بقاءهم على ما اعتادوه . . . وحُبَّ للإنسان ما قد تعودا . . .

كان بعض طوائف اليهود يحتسبون البنت في مرتبة الخادم ، وكان لأبيها الحق في أن يبيعها وهي قاصر ، ولم تكن لثري شيئاً إلا إذا لم يكن لأبيها ذرية من البنين . وقد بلغ من انحطاطها عند بعض عرب الجاهلية ، الذين تأثروا بمساوى عادات الدول المجاورة لهم ، أنهم اعتدوا المرأة جزءاً من ثروة أبيها أو زوجها ، وكانت الأرامل يصبحن إرثاً لابن الرجل أو بنته ، وسرت هذه الرذيلة إلى قبائل اليمن التي كانت مزيجاً من اليهود والصابئين .

وجملة القول : أن مقام المرأة قد انحط في المجتمع الإنساني أيام دولتي الفرس والبيزنطيين ، فخرها المتعصبون من أهل الدين تحقيراً عظيماً ، وجعلوها مثار الشر والويل ، وفاتهم أن الشر والويل الذي نسبوه إليها ، إنما جاءها من سقوط المجتمع يومئذ في حمأة الرذائل ، إذ تعالت الأصوات من كل صوب بأن التجارب أثبتت فساد جميع النظم والشرائع القديمة . وظلت المرأة مغموطة الحق ، واهنة الشأن ، رازحة تحت أعباء ظالمة ، لم تلقها عن كاهلها إلا الشريعة . :

إذ جاء منقذ المرأة النبي العربي صلى الله عليه وسلم ، بكتاب كريم يقول :
﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾.

وقد سار أتباع النبي الكريم على احترام المرأة وإحلالها المكان اللائق بها ،
فسموا عائشة سيدة نساء أهل الجنة ، فدلوا بذلك على أنها كانت مثلاً أعلى
للرأة : في الصلاح والعفاف ، والتقوى والعلم . وجاء بعدها كثير من نسجن
على منوالها ، ودرجن في ظلها ، وأخذن يحظن كلامها ، وأحرزن في رحاب
العلم والفضل المقام السامى .

أكثر أعداء الدين الخفيف من رميه بسلب المرأة حقها ، وجعلها في درجة
أخس من درجتها اللائقة بها ، وحسبوا حجابها أمراً إذاً^(١) ، وخطبا جسيماً ،
ومعولاً هادماً لبناء المجتمع الإنسانى . ولو نظروا بعين الإنصاف في كتاب
الله تعالى وسنة رسوله ، وسيرة السلف الصالح ، لسارعوا إلى القول بأن
الشريعة السمحة ، أنصفت المرأة وبوأتها مكاناً سامياً ، بعد أن كانت في
الصين حبيسة ، وفي الفرس مجهولة القدر ، وفي مصر حقيرة ، وفي أوربة
مملوكة ، وفي البلاد العربية متاعاً يورث .

وحسبك أن الفرنسيين عقدوا سنة ١٨٦٠ للبلاد اجتماعاً في بعض ولاياتهم
ثم أخذوا يبحثون : أتعذ المرأة إنساناً أم غير إنسان ؟ وكان ختام البحث أن
قرر المجتمع أنها إنسان ، ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل !

وصفوة القول أن النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث في وقت كان وأد البنات
فيه عادة لبعض القبائل ، ولم يعرف في قطر آخر أى نظام يخول المرأة شيئاً

(١) إذا : فظيماً .

من حقها ، سواء أ كانت بنتا ، أم زوجة ، أم أتما . فأتى بشريعة منحت المرأة حقوقا ، لم تعترف ببعضها البلاد الغربية إلا في القرن التاسع عشر ، بعد كفاح شديد ، وإليك البيان :

تفصيل

أولا — المرأة في نظر الإسلام بوصفها بنتا

(١) كان العرب يشدون البنات ، فجاء الإسلام بتحريم وأدهن ، وبذلك أعطى المرأة حق الحياة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وقال تعالى في معرض التنديد بوأد البنات : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ . فلاحظ بعد هذا أن يحدثنا التاريخ ، بأن المرأة أصبحت من حزب محمد صلى الله عليه وسلم : تجاهد في نشر دينه ، وتسعى في إعلاء كلمته .

(ب) كانت العرب لا تورث النساء ولا الصبيان من أبناء الميت ، وإنما يورثون من يلاقى العدو ، ويقا تل في الحرب . فشرع الإسلام توريث المرأة . وكان ذلك شديدا على نفوس العرب ، فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما نزلت الفرائض التي بين الله فيها أنصبة البنات والزوجة والولد والأبوين ، كرهها الناس وقالوا : تعطى المرأة

الربع أو الثمن ، وتعطى البنت النصف ، ويعطى الغلام الصغير . وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يجوز الغنيمة !

ومن أجل هذا ، قررت الشريعة الإسلامية للبنت قبل زواجها ، ما يكفل لها ألا تكون كلاً على إختوتها ، أو أعمامها ، أو غيرهم من الأقارب : فجعلت لها نصيباً في الإرث لا يحتمل الجدل . قال تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ .

وحكمة جعل نصيبها على النصف من الابن ، أن الابن من شأنه أن يتزوج ويدفع مهراً من نصيبه في الميراث ، ويقوم بنفقة زوجته منه . أضف إلى ذلك أن ما يحتاج إليه البيت من الفراش وسائر الأمتعة وغيرها ، مما تتطلبه المعيشة الزوجية ، لا يجب شيء منه على المرأة شرعاً ، بل هو واجب على الزوج وحده ، كما تجب عليه نفقتها .

أما البنت فشأنها أن تأخذ مهراً ونفقة من زوجها ، وتضم ذلك إلى نصيبها في الميراث .

ومن هنا يتبين أن مال الابن مهتد بالنقص من نواح شتى ، ومال البنت محفوظ لها ، ولولا ما يقوم به الرجل من الكدح والنصب في طلب الرزق ما استطاع أن يستقل بأعباء المعيشة . فتفضل الابن على البنت في الميراث ، آت من قبل الواجبات المتنوعة التي ألقتها الشريعة الغراء على عاتقه ؛ فلا ظلم على البنت ولا غبن .

(ح) نفقة الابن الفقير تجب له على أبيه حتى يقدر على الكسب . أما البنت فلها النفقة على أبيها حتى تتزوج ، ثم يتحول الوجوب إلى زوجها . فإذا طلقت وعادت إلى بيت أبيها ، عادت نفقتها عليه بعد انتهاء مايجب لها من النفقة على مطلقها .

وليس للأب أن يلزمها طلب الرزق كالابن ، بل إذا اتفق أنها احترفت حرفة مشروعة من تلقاء نفسها ، وكان لها من الكسب مايسد حاجتها ، ارتفعت النفقة عن أبيها . وإذا لم يكفها كسبها وجبت عليه النفقة .

(د) جعلت الشريعة الإسلامية رضا البنت عند بلوغها سن الرشد ، شرطاً لصحة العقد عليها ، وليس لمخلوق كائننا من كان أن يرغمها على الزواج بغير من تشاء . وهذا حق أعطيته البنت المسلمة في القرن السابع لليلاد ، وحرمت البنت في أوربة حتى نهاية القرن السادس عشر .

ثانياً — المرأة بوصفها زوجة

(أ) كان الجاهليون يرثون النساء كرهاً : بأن يحجى الوارث ويلقى ثوبه على زوج مورثه وإن لم يكن منها ، ثم يقول : ورثتها كما ورثت ماله فيكون أحق بها من نفسها ، إن شاء تزوجها بلا صداق ، أو زوجها واستوفى صداقها ، أو حرم عليها الزواج ، ليرثها إذا ماتت . فنعت الشريعة الإسلامية هذا الحق الباطل ، والإرث الظالم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾

(ب) وكان العرب يعضلون النساء بضروب من العضل^(١) . فيمنع الوارث

(١) العضل : منع المرأة التزويج

امراً موزّته الزوج ، إلى أن تعطى ما أخذت من الميراث ، ويجب الرجل بنته حتى تتخلّى له عما تملك ، والمطلق مطلقته إلى أن يأخذ ما يريد منها ، ويمتنع الزوج إذا كره زوجته وأحب فراقها عن تسريحها ، ويسىء عشرتها حتى تفتدى بمهرها . فحظرت الشريعة الغراء ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ .

(ح) وكانوا يسيئون معاشرتهن : فلا يعدلون بينهن في مبيت ولا نفقة . فأمر الله بالإِنصاف بينهن في ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ .

(د) وكانوا إذا رغب أحدكم في الزوج بأخرى ، رمى زوجته بالفاحشة لتفتدى بما آتاها : فيسىء إليها في عرضها ومالها ، ثم ينفق مأخذها منها على التي رغب فيها . فحرم الإسلام عليهم البغي والعدوان بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ . ثم وبخهم على هذا الأخذ المثلثم بقوله تعالى : ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ .

(هـ) وكانوا يعدّون النساء من الأمتعة كأنهن سلع أو عروض ، فيتصرفون فيهن بما أرادوا وأراد ظلمهم . فكان الزوج ينزل عن زوجته لغيره إذا شاء ، بمعرض أو بغير عوض ، رضيت أو لم ترض .

من أجل ذلك كله ، استنقذت الشريعة العادلة المرأة من هذه البلايا ،

وجعلتها سيدة محترمة ، بل راعية مسيطرة . قال سيد الخلق عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » . ومن تأمل هذا الحديث الشريف ، وجد مكانة المرأة - في الترتيب - بين الإمام والرجل ، لا الرجل والخادم ، تنوينا بشرفها ، وتحقيقا لسيطرتها ، واعترافا بإنسانيتها .

ومن محاسن الشريعة الإسلامية ، أنها نظرت بعين الرأفة والرحمة إلى ضعف المرأة الطبيعي ، وتميز الرجل عليها بالقوى والقدرة على العمل ، فقضت عليه بأشق الحقوق وأعظمها : وهو إيتاء النفقة ، والقيام بحاجات المرأة . ولم تكلفها عمل شيء حتى إرضاع ولدها ، وقضت عليه بحفظها من مواقع الآفات وأزمته صداقا يؤديه قبل البناء بها ، إلا إذا اتفقا على تأخيرها . وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى مَا قَلَّ مِنْ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا حَقَّهَا خَدَعَهَا فَاتَ وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ » .

ومن تمام عطف الشريعة الإسلامية على المرأة ، أنها لم توجب عليها مقابل ذلك من الحقوق إلا شيئا يسيرا ، فقضت عليها ألا تأذن في بيت الرجل لمن لم يرضه ، ولا تخرج من المنزل بغير إذنه إلا لضرورة شرعية . فكل ماوجب عليها للزوج فهو ترك ليس فيه عناء ، بل فيه صون شرفها ورفعة منزلتها . وهذا المعنى يتحقق أتم التحقيق بالنظر في حال عصرنا هذا

الذى جز فيه اختلاط الجنسين : إلى ما نرى من شيوع الفساد .
ومن فضل الشريعة الإسلامية على الزوجة ، أنه إذا ولد للزوجين أولاد
فنفقتهم واجبة على أبيهم دون أمهم ؛ ولو كانت فائقة في اليسار . وجلى أن
النفقة على الأولاد واجب شاق ، وبخاصة في مثل هذا الزمان الذى تضاعفت
فيه النفقات المتنوعة .

ومن عناية الشريعة بالزوجة المسلمة ، أنها لا تفقد شخصيتها من جراء قرانها ،
بل تظل متمتعة بجميع الحقوق التى يتمتع بها كل حر مستقل الإرادة : فهى
صاحبة السلطان على ثروتها ، تتصرف فيها كما تشاء فى حدود القانون : فإن
كانت تاجرة فربحها لنفسها ، من غير أن يكون لزوجها أقل نصيب فيه ،
وإذا مات الزوج أخذت نصيباً فى تركته : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ
يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ﴾ .

وكذلك أثبتت الشريعة السمحة للمرأة الحق المطلق ؛ فى القيام بحضانة
أولادها خلال مدة معينة ، دون توقف على رأى القضاء ، وسوّغت لها حق
النفقة وطلب الطلاق ، إذا كان زوجها مصاباً بأمراض خبيثة ، أو غاب غيبة
منقطعة ، وأن لها مهر المثل إذا لم يُقدّر لها مهر عند عقد الزواج .

ثالثاً — المرأة بوصفها أمّاً

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ » . وروى أنس
رضى الله عنه ، أن شاباً كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يسمى علقمة . فرض واشتد مرضه ، فقيل له : قل لا إله إلا الله .
فلم ينطق لسانه ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل له

أبوان ؟ فقيل : مات أبوه ، وله أُمٌ كبيرة . فأرسل إليها الرسول ، فجاءت ، فسألها عن حال ابنها ، فقالت : كان يصلي كذا وكذا ، وكان يصوم كذا وكذا ، وكان يتصدق بجملة دراهم ما بدرى ماوزنها ولا عددها ؟ قال : فما حالك وحاله ؟ قالت : أنا عليه ساخطة واجدة . قال لها : ولم ذلك ؟ قالت : كان يؤثر على امرأته ، ويطيعها في الأشياء ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : سُخِّطَ أُمُّهُ حجب لسانه عن شهادة أن لا إله إلا الله ! ثم قال لبلال : انطلق واجمع خطبا كثيرا حتى أحرقه بالنار . فقالت : يا رسول الله ، ابني وثمرة فؤادي تحرقه بالنار بين يدي ! وكيف يحتمل قلبي ذلك ؟ فقال الرسول : يسرك أن يغفر الله له ، فارضى عنه . فوالذي نفسى بيده ، لا ينتفع بصلاته ولا بصدقته ولا بصومه ، مادمت عليه ساخطة . فرفعت يدها وقالت : أشهد الله تعالى في سمائه ، وأنت يا رسول ، ومن حضر ، أتى قد رضيت عنه . فقال الرسول : انطلق يا بلال ، فانظر : هل يستطيع علقمة أن يقول : لا إله إلا الله ؟ فلعل أمه تكلمت بما ليس في قلبها حياء من رسول الله ! فانطلق بلال ، فلما انتهى إلى الباب سمع علقمة يقول : لا إله إلا الله . ومات من يومه .

وفي هذا تبجيل أى تبجيل الأُم ، ورفع لمكانها بين أفراد الأسرة .
(ب) قُتِرَتْ لها الشريعة الإسلامية ، أنه إذا مات ولدها فلها نصيب معين من ميراثه ؛ لتأمن شر الحاجة في شيخوختها ، إذا كانت تعتمد في حياة ولدها على مساعدته إياها . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَا بُؤْيَ

لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ .

رابعاً — المرأة بوصفها عضواً في المجتمع الإنساني

(أ) نظر الإسلام إلى المرأة كالرجل ، فنحها حقوقاً ، وكلفها واجبات . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۝ ﴾ .

(ب) ساوت الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة في المعاملات المالية والعقوبات ، وفي طلب العلم أو التنبؤ إليه ، وفي كل ما فيه صلاح النفوس والعقول والأبدان ، وسلامة الدين . وأباح لها طلب الرزق الحلال إذا لم يكن لها من يعولها ، دفعا لحاجتها ، وصونا لشرفها ، ولم تفرضه عليها عند وجود العائل . وصفوة القول أن الشريعة الإسلامية ، منحتها ما منحت غيرها من الأفراد : فأعطتها مطلق الحرية في التصرف في ثروتها ، كما يتصرف أخوها وزوجها وأبوها ، وجعلتها سيدة تملك وتعتق ، ولها حق التعاقد والتعاهد مع من تشاء ، دون تدخل زوجها أو أبيها ، وأن تكون وكيلة عن غيرها في الخصومات

خامسا — موازنة بين الرجل والمرأة

مميزات الرجل عن المرأة :

(أ) جعلت الشريعة الإسلامية الإمامة العظمى من حق الرجل وحده لوفرة أعبائها ، بما فيها من وجوب النظر في شئون الرعية ، وسنّ النظم السياسية والإدارية ، وسوق الجيوش الجسارة إلى ساحات الحروب . وإن قيل : إن بعض النساء قمن بأعباء الإمارة ، وإن منهن من كن أجسَنَ من بعض الرجال رأيا وتديرا وحسن نظر ، فالجواب أنهن قليلات ، والمقول عليه في التشريع الكثير الغالب .

(ب) وجعلت الشريعة الطلاق بيد الرجل دون المرأة ، لأنه هو الذى يُلزم دفع المهر ، وما يصحبه من النفقات والهدايا . وليس من الإنصاف أن يكون عليه الغرم وليس له الغنم ، ولأن المرأة في طبيعتها سريعة الانفعال والاستسلام للعاطفة ، وليس من الحكمة أن تعطى في يدها عقدة الزوجية ، تحلها متى انفعلت أو تأثرت بأى مؤثر .

(ج) وجعلت الشريعة المرأتين بمنزلة رجل واحد في الشهادة ، لقول الله تعالى : ﴿أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ وقد أثبت العلم معجزة القرآن ومن نزل عليه ، أن المرأة كما وصفها القرآن . ومع هذا فقد قبل الإسلام عند الضرورة ، شهادة المرأة فيما لا يطلع عليه الرجال . كالولادة والبراءة ، وفيما يقع بين النساء في مجتمعاتهن التي لا يحضرها الرجال .

حقا إن الشريعة الإسلامية لما نظرت في الشهادة ؛ جعلت أهميتها في الحياة الاجتماعية ، هي المقياس الذى يرجع إليه : فإن كان لها أثر ظاهر كالأموال

والحقوق ، حسب شهادة الرجل بشهادة امرأتين ؛ لأن المرأة بطبيعتها ضعيفة الذاكرة ، ويغلب عليها النسيان : فاستكثر الله منهن حتى يجبر الضعف . ولم تنفرد الشريعة الإسلامية بالحكم على ضعف المرأة ، ففي القوانين الوضعية ما يؤيده :

فن ذلك ماجاء في القانون الرومانى ، من أن المرأة ليست أهلاً للتصرف مدة حياتها كالطفل ، ويجب أن يوكل أمرها لرب الأسرة .

وجاء في القانون الفرنسى ، أن المرأة ليست أهلاً للتعاقد بدون رضا زوجها وإجازته .

ومن ذلك يتبين أن المرأة في القوانين الوضعية ، لا تملك التصرف لنفسها والذي لا يملك التصرف لنفسه لا يملكه لغيره . ومعلوم أن الشهادة حجة يُبنى عليها حكم وانتهاء خصومة ، فلا يصح عدلاً أن تكون شهادة المرأة كالرجل سواء بسواء .

تأمل ما قاله العلامة بلينول في حق المرأة :

المتوقِّ عنها زوجها لها حق تأديب أولادها ، تحت مراقبة قريبين من العصابة ، وإن للأب حق إقامة أجنبي وصياً على أولاده ، وحرمان الأم هذا الحق ، وإن السند التجارى الموقع من المرأة غير التاجرة لا يساوى إلا وعداً مجزداً ، ولا ينتج ما يترتب عليه لو صدر من رجل .

سادساً — ما اختصت به المرأة دون الرجل

(١) فرض الإسلام على الرجل الجهاد دون المرأة ، إلا إذا دهم العدو بلاد المسلمين ، فإن الدفاع يصبح مفروضاً على المرأة ولو بغير إذن زوجها

- (ب) لا جزية على المرأة إذا غلب المسلمون على بلاد من بلاد أعدائهم ، وفرضوا عليهم الجزية .
- (ح) لا ترى الشريعة الإسلامية قتل المرأة المرتدة ، وإنما تقتل الرجل .
- (د) ليس على المرأة شيء من الدية إذا وجبت على العاقلة ^(١) إلا إذا اشتركت المرأة في القتل الموجب للدية .
- (هـ) لا قسامة ^(٢) على المرأة إذا وجبت القسامة على أهل قتل .
- (و) لا تجب صلاة الجمعة والعيد على المرأة ، بل على الرجل فقط .
- (ز) إذا كانت المرأة زوجة فنفتها ومطالب معيشتها الزوجية على الزوج وحده ، ولو كانت ميسورة ، وإذا كانت أتما ولها أولاد فقراء ، فنفتهم على أبيهم ، ومن ذلك أجرة الرضاع والحضانة ، وإذا كانت بنتا فنفتها على أبيها وعلى غيره من أقاربها ، مادامت خالية من الزوجية مهما تكن سنها ، وليس لاحد أن يجبرها على طلب المعيشة .
- مما تقدم يتبين أن الشريعة الإسلامية تكفلت بالمرأة ، بتأوزوجاوأتما ، وحاطتها بكثير من العدل والعطف والرحمة .

إباحة تعدد الزوجات

خليق بنحسوم الإسلام الجاهلين حكمه وأسراره ، الذين نَقَمُوا منه إباحة تعدد الزوجات ورموه بالقسوة — أن يحيلوا نظرهم في الأسباب الآتية التي تكاد تكون موجبة للتعدد ، لا مجيزة له فقط ، وفيما استوجه نفي التعدد في

(١) العاقلة : جمع عاقل وهو دافع الدية .

(٢) القسامة : الإيمان تقسم على أولياء القتل إذا ادعوا الله .

الأمم غير الإسلامية ، من الانغماس في حمأة الرذائل .
أما الأسباب فهي ما يلي :

(أ) قد تصاب المرأة بمرض مزمن أو معد ، فيضطر الرجل إلى اقتراف ما ينافي الشرف .

(ب) عدد النساء يربى غالباً على الرجال ، لأن الرجال يعانون الأعمال الشديدة التي تستوجب نهك القوى ، وإضواء الأجسام ؛ بل إزهاق الأرواح ولا سيما الحروب الطاحنة . فإذا امتنع التعدد ، أربى عدد النساء على الرجال ولا يجد بعضهن أزواجاً يخلصنهن ، ويقومون بإصلاح شئونهن ، ولا غنى لهن عن الرجال ، لضرورة الإحصان والتكفل بما لا بد منه للحياة ، وإن لم يتم لهن الإحصان كثر الفساد ، ولحق العار الأسر ، وتمكنت منها عوادي الدهر ، وغوائل الحياة .

(ج) كثرة النسل ونمو العدد : وبهما تقوى شوكة الأمم الإسلامية ، وتعلو سطوتها ، وتنفذ كلمتها ، فترهبها الأعداء ، وتتقيها الأمم . ومنع التعدد مفض إلى تناقص عدد الأمة بقلّة النسل . ومتى تناقص عددها لانت قناتها ، وطمع فيها أعداؤها ، وامتدت إليها الأيدي والألسنة بالسوء ، وسارت في طريق الاضمحلال والاندثار . ولا أدل على ذلك من أن عقلاء بعض الأمم الغريبة في أسف شديد . وإشفاق عظيم من سوء المنقلب ، بما عراها من نقص النسل ، لمنع أبنائها من تعدد الزوجات في حدود المعقول ، وما انضم إليه من إعراض كثير منهم عن الزواج بتاتا ، والاجترأ بالسفاح ، فرارا من حقوق الأهل ، وأعباء الأولاد .

ألم تر أنّ الدول الغربية يسعون السعى الخيث في ارتباط بعضهم ببعض بالمحالفات ، ويؤثرون رفق الارتباط بالعهود والمواثيق على حرية العزلة والانفراد ، طلبا لنيل فائدة التكاثر ، وليحرزوا قصب السبق في مضمار المجد والقوة ، وينالوا أوفر قسط من السيادة الدولية ؟

من ذلك يتبين أن الإسلام يباحته تعدد الزوجات ، سهل للمسلمين سبل التكاثر ، ودلهم على أن القصد به إرشادهم إلى أن القوة طريق العز والسيادة ، ووقاية من الذل والعبودية .

(د) دل الإحصاء في غير الأقطار الإسلامية ، على أن حظّر تعدد الزوجات أدى إلى وفرة الأولاد غير الشرعيين — مما حدا ببعض المفكرين إلى النظر في توريثهم — وإلى انتشار الأمراض الفتاكة ، التي أصابت الرجال والنساء والأطفال ، ولا قبل للطب بمكافحتها .

سابعا — أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم
أسباب تعدد أزواجه صلى الله عليه وسلم صنفان : عامة ، وخاصة .

الأسباب العامة

(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل للرجال والنساء ، ومن الأحكام التي يبلغها ما هو مشترك بين الرجل والمرأة ، ومنها ما هو خاص بأحدهما وكل يتطلب لتلقيه عددا ليس بالقليل ، لتفرق المرسل إليهم وكثرتهم ولقصر زمن الرسول ، ووفرة الأحكام . وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الآتم . على أن من أحكام النساء ما تستحي من الاستفهام عنه من

الرجل ، ويستحي الرجل من قوله للبرأة ، فن ذلك : « ماروى عن عائشة رضى الله عنها ، أن أسماء بنت يزيد الأنصارية ، قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : « خُذِي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً (يعنى قطعة قطن) . فتوضئى - ثلاثاً ، أى قال ذلك ثلاثاً ، وهو فى كل ذلك يقول : سبحان الله ! عند إعادتها السؤال ، ثم إن النبي استحيا ، فأعرض بوجهه . فأخذتها عائشة فجذبتها ، فأخبرتها بما يريد النبي صلى الله عليه وسلم .

من أجل ذلك وجب أن يتلقى أحكام النساء من الرسول عدد كبير منهن ، وهن يبلغن الأحكام إلى النساء ، ولا يصلح للتلقى عن الرسول إلا أزواجه ، لأن هن خصائص تمكنهن من معرفة غرض المصطفى عليه السلام ، دون تأقف واستحياء : يشير إلى ذلك قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « خُذُوا نِصْفَ دِينِكُمْ عَنْ هَذِهِ الْخَيْرَاءِ ^(١) » يريد الصديقة المبرأة .

(ب) أن المصطفى عليه الصلاة والسلام مرسل لاستجلاب الأفتدة ؛ واجتذاب القبائل والأمم ، ولأريب أن المصاهرة أمتن سبب ، وأقوى داع للتآلف والمناصرة . ودعوة الدين فى أول أمرها ، كانت فى حاجة إلى الإكثار من العشائر ، ليكونوا أعضادا وأنصارا ، يؤازرون المصطفى صلى الله عليه وسلم فى تبليغ الرسالة ، ويدودون عنه عوادي المضلين ، ويقولون حد عناهم ، ويكفون عنه أذاهم .

الخيراء : البيضاء . وهذا الاسم دعاها به النبي صلى الله عليه وسلم . والعرب تقول : امرأة حمراء

أى بيضاء.

تأمل ما كان من عتق بنى المصطلق ، وإسلامهم بتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابنة سيدهم على ما سيأتى بيانه ، وما روى من قوله عليه الصلاة والسلام فى حق ولده إبراهيم . «لَوْعَاشَ لَوَضَعْتُ الْجَزِيَّةَ عَنْ كُلِّ قِبْطِيٍّ ، وَمَعْنَى هَذَا : لَأَسْلَمَ أَخُوَالَهُ فَرَحَابَهُ ، وَإِكْرَامَالَهُ ، فَوَضَعْتُ الْجَزِيَّةَ عَنْهُمْ . وَمَا يُؤِيدُ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ تَعَدُّدِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ الْإِتِّفَاعُ بِنَتِيجَةِ الْمَصَاهِرَةِ - أَنَّ أَكْثَرَ أَزْوَاجِهِ كُنَّ مِنْ قُرَيْشٍ سَيِّدَةِ الْعَرَبِ أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَرُونَ أَنَّ أَعْظَمَ شَرَفٍ وَأَمْتَنَ قَرَبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، انْتِسَابُهُمْ لِنَبِيِّهِ ، وَتَقَرُّبُهُمْ مِنْهُ : فَمِنْ ظَفَرٍ بِالْمَصَاهِرَةِ فَقَدْ أَدْرَكَ غَايَةَ مَا يَرْجُو وَخَيْرَ مَا يَأْمَلُ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَسَفَ جَدَّ الْأَسَفِ ، حِينَ فَارَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنَتَهُ . وَقَالَ : لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بَعْدَهَا بِعَمْرٍ . وَلَمْ يَنْكَشِفْ عَنْهُ الْهَمُّ حَتَّى رَوَّجَعْتُ ، وَأَنَّ عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - عَلَى اتِّصَالِهِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَرِيقِ النِّسْبِ ، وَشَرَفِ اقْتِرَانِهِ بِالزَّهْرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - رَغِبَ فِي أَنْ يَزُوجَ النَّبِيَّ أَخْتَهُ أُمَّ هَانِئٍ بِنْتَ أَبِي طَالِبٍ ، لِيَتَضَاعَفَ شَرَفُهُ ، وَيَنْمُو سُؤْدُودُهُ . وَلَمْ يَمْنَعْهَا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا خَوْفُهَا أَنْ تَقْصُرَ فِي الْقِيَامِ بِحَقِّهِ الرُّسُولِ مَعَ خِدْمَةِ أَبْنَائِهَا ؟ ...

الأسباب الخاصة

أَمَّا سَبَبُ زَوَاجِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِالسَّيِّدَةِ جُوَيْرِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَهُوَ أَنَّ أَبَاهَا الْحَرِثَ بْنَ ضَرَّارٍ ، سَيِّدَ بَنِي الْمِصْطَلِقِ بْنِ خَزَاعَةَ ، جَمَعَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ لِمُحَارَبَةِ الرُّسُولِ جُمُوعًا كَثِيرَةً ، وَلَمَّا اتَّقَى الْجَمْعَانِ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ فَأَبَوْهُ حَتَّى هَزَمُوا ، وَوَقَعَتْ جُوَيْرِيَّةٌ - وَكَانَتْ تَدْعَى بَرَّةً - فِي سَهْمٍ ثَابِتٍ

ابن قيس ، فكاتبها على سبع أواق من الذهب ، فلم تر معنا لها غير المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فجاءت إليه مينة نسبها ، طالبة حريتها ، فتذكر النبي ما كان لأهلها من العز والسؤدد والقوة ، وما صاروا إليه لسوء تديرهم وعنادهم في الاستعباد ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها ، ثم تزوجها . فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بني المصطلق : إن أصحاب الرسول لا يُسترقون . واعتقوا من بأيديهم من سبيهم ، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكراً لله على الحرية ، بعد ذلك الكفر والاسر .

وأما زواجه بالمبرأة بنت الصديق رضى الله عنها ، فلأن أباها الصديق كان شديد التمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، مولعاً بالتقرب منه . فكان هذا التزوج قوة عين لها ولأبويها ، وغفراً لأقاربها . وكان عبد الله بن الزبير — والمبرأة — وهي خالته — يفاخر بها حتى بنى هاشم .

وأما زواجه من السيدة حفصة بنت الفاروق رضى الله عنها ، فإن زوجها توفي مجروحاً في موقعة بدر ، وكانت السيدة رقية بنت الرسول وزوج عثمان توفيت حينئذ ، فعرض عمر ابنته على عثمان ، فأعرض عنها رغبة في أم كلثوم بضعة الرسول ، ليستديم له بذلك الشرف ، وليكون ذا النورين ، فعز هذا الإعراض على عمر لحفاء سبيه . وأنفت نفسه منه ، فشكاه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأراد الله أن يعطى عثمان خيراً من ابنة عمر وابنة عمر خيراً من عثمان .

وأما زواجه من السيدة صفية رضى الله عنها ، فلأنها كانت بنت حبي ابن أخطب ، سيد بني النضير ، ووقعت ضمن عشيرتها في السبي ، وأجاز الرسول لدهية الكلبي أن يأخذ من السبي جارية ، فوقع اختياره عليها . فقيل

لرسول صلى الله عليه وسلم : إنها سيده قومها ولا ينبغي أن تكون لسواك . وهو صلوات الله عليه عظيم الرأفة خصوصا بمن ذلّ بعد عزّة . فأمر دحية بأخذ سواها ، ثم تزوجها رأفة بها ، وتحقيقا لأمل راجيه من المؤمنين .

وأما زواجه من السيدة زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها ، فلم يكن له سبب سوى التشريع والتأسي بأفعال المصطفى . وإليك البيان :

(١) قضت حكمة الله في شريعته السمحة ، بأن يجعل لما يريد تغييره من عادات الجاهلية المتأصلة في العرب ، الفاشية بينهم - توطئة وتمهيدا ؛ ليسهل عليهم تركها ، ويجعل للمسلمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين أسوة حسنة ؛ فيحصل التأسي ، ويكون الاقتداء .

فمن ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد أن تم الكتاب بينه وبين كبار مكة في غزوة الحديبية ؛ أمر المسلمين بالنحر والتحليق ثلاث مرات ، فلم يفعل ذلك أحد منهم ، فغضب المصطفى ، ودخل على زوجه أم سلمة وهو غاضب ، فسأله فلم يجبه ، ثم قال : هلك المسلمون ، أمرتهم بالنحر والحلق فلم يفعلوا . فأشارت عليه بأن ينحر بدنه ويحلق رأسه ، ففعل . فلما رأى المسلمون ذلك بادروا إلى النحر والحلق ، تأسيا واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك ما كان في وضع ربا الجاهلية ودمائها : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبة الوداع : وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أضعه ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

كل ذلك ، لأن دلالة الفعل في التشريع أقوى من دلالة القول .

(٢) ومن العادات التي كانت متأصلة في العرب: التبني، وتنزيل الدعي منزلة الابن الحقيقي. وكانوا لذلك يرون تحريم زوج الدعي على من ادعاه. فأراد الله إبطال هذا الاعتقاد، فجعل رسوله المصطفى أسوة حسنة في هذا الأمر، فسعى الرسول في تزويج زيد مولاة بعد أن أعتقه، ولم يكن - من حيث الثعرة^(١) العربية - كفتا العربية، بله^(٢) قرشية، كزئب الأسدية، ذات الحسب البارع والمجد الأثيل، فتأققت هي وأخوها عبد الله، وأبت أن تكون زوجة لدعي غير كفه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾. فرضيا بقضاء الله ورسوله، فرارا من العصيان والمخالفة - غير أنها ظلت في نفسها نافرة من هذا الاقتران، مترفعة عن زيد، ضائعة به ذرعا. ولما رأى زيد منها نفورها وترفعها، وعدم انقيادها لنصيحة رسول الله لها بالبقاء مع زوجها، آثر فراقها، فسأل الرسول الإذن به، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله. وأخفى في نفسه ما الله مبيده من تزوجه منها بعد زيد، وخشى الله واتق أن يقول الناس: تزوج محمد من زوجة ابنه. فأمر الله بالاعتصام على خشيته، إذ يقول له: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾. ولما لم يبق لزيد فيها شيء من الرغبة طلقها، فتزوجها الرسول، حفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى، ﴿لَكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا. وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بهذا التزويج (مفعولاً) مقصوداً.

(١) الثعرة: الكبد والعرة. (٢) لله: دع. وللغنى: فضلا عن قرشية

هذا ما قضى به الرحمن ، ونطق به القرآن ، وليس بعد بيان الإله بيان .
 مما تقدم يتبين بطلان ما تقوله غير المنصفين من أهل الغرب : من أن
 المصطفى عليه الصلاة والسلام ، قد خول نفسه دون أتباعه امتيازاً لا يسمح
 به الشرع ، فتزوج من أكثر من أربع ، وأنه بذلك قد اتصف (حاشاه) بما
 لا يليق بجلال النبوة وهم في ذلك يفترون الكذب وهم يعلمون . ولو أنصفوا
 أنفسهم ورجعوا إلى التاريخ ، لأدركوا الحقيقة ، ولعلوا الوجهة الإنسانية
 الاجتماعية التي حدثت النبي الكريم إلى تعدد زوجاته .

إنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم تزوج من السيدة خديجة وهو في مستقبل
 العمر ، وسنه إذ ذاك نحو خمس وعشرين سنة ، وكانت أكبر منه سناً ، وعاش
 معها خمساً وعشرين سنة ، عيشة هنية مرضية ، شعارها الإخلاص والوفاء .
 وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها ، من أكبر أنصاره على الكفار الذين
 سخرُوا منه ، وألحقوا به ضرراً شديداً من الأذى . قضى معها تلك المدة الطويلة
 وهو مثال الاستقامة والشرف ، كما أقر بذلك خصومه ، ولم يشأ التزوج من
 غيرها ، مع أن العرف عند قومه كان يُحْزَلُ حق الزواج من غيرها إن شاء ، بل
 ظل وفيالها حتى توفيت ، فحزن عليها حزناً شديداً ، وسمى عام وفاتها عام الحزن ،
 ولم ينقطع عن ذكرها طول حياته ، ثم تزوج بعدها من سودة بنت زمعة
 أرملة السكران بن عمرو ؛ الذي أسلم واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة ؛
 هرباً من اضطهاد الكفار . ولما ماتت صارت زوجته بلا معين ولا نصير ،
 وأصبح زواج هذه السيدة الوسيلة الفذة لحمايتها ومعوّثتها — وهى أرملة
 رجل مات في سبيل الدفاع عن الحق — فتزوجها المصطفى صلى الله عليه
 وسلم — وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة — وفاء لرجل فقد حياته

بعد أن غادر الأهل والأوطان ، احتفاظاً بعقيدته ، وشاركته هذه الزوجة في أهوال النفي والتغريب ، وتقاديا من سخطها على الإسلام الذي أفقدها زوجها ، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها ، لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم . وبما لا يقل عما تقدم في بلاغة الدلالة على أن المصطفى كان يتزوج لاقضاء شهوة ، ولا استجابة لنزوة ، بل للتوصل إلى إعلاء شأن الدين القويم ؛ أنه تزوج من ميمونة وعمرها زهاء خمسين عاماً ، فكان زواجه منها سبباً إلى دخول خالد بن الوليد في دين الله . وهو المجاهد الكبير ، والغازی المظفر ، والبطل العظيم ، وهو الذي غلب الروم على أمرهم فيما بعد . وله في الإسلام مواقف جديرة بالإعجاب

هذا إلى أن زواجها بالمصطفى يسر لذوى قرباها وسيلة للعيش : فطعموا من جوع ، وأمنوا من خوف ، وأثروا من فاقة

يقول فريق من غير المنصفين : لم تكن هناك ضرورة توجب على المصطفى أن يحمل نفسه مثلاً وأسوة في تعدد الزوجات ، أو يسمح بإبقاء هذه العادة ، بل كان عليه استئصالها بتاتا ، لأن السيد المسيح عليه السلام أهملها كل الإهمال . ونسى هؤلاء المتعنتون أو تناسوا ما اتفقت عليه كلة علماء الاجتماع قديماً وحديثاً : من أن عادات الأمم وأحوالها تتغير بتغير الأفكار ، وعلى حسب مقتضيات الزمان والمكان ، وأن ما كان يلائم زمن المسيح عليه السلام ، فليس يحتم من الحتم أن يلائم زمن محمد عليه السلام ، لتدرج الإنسان وارتقائه .

ألم تر أن السيد المسيح عليه السلام ، وجه العقول والأنظار إلى ملكة السماء ، حيث لا أنساب ولا علاقات اجتماعية ؟ فظهرت المسيحية في أول

نشأتها بمقاومة الزواج؛ واعتداده أمراً غير مستحسن، حتى رسخ في الأذهان أن ارتباط الرجل بالمرأة مهما يكن مقدساً أمر غير محمود، وأصبح الرجل الذى لم يتزوج، أرق بكثير ممن حط من قدر نفسه بالزواج !

ومما هو شبيه بهذا، مذهب إليه علماء الهند الأقدمون ومشتروعوهم، من أن الإنسان لا يستطيع تحصيل العلوم والمعارف دون أن يترك جميع روابطه الأسرية؛ لأنها تحول دون تحقيق غرض العزلة والتوحد. فانتقل هذا الرأى من أهل الأديان القديمة إلى من بعدهم. فدرجوا عليه دروج من يريد أن ينسلخ الإنسان عن إنسانيته بمقتضياتها. ويخرج من شرعة الاجتماع بنظمها وارتباطاتها والحق أن القول بأن الامتناع عن الزواج يجعل الرجل من عظماء المفكرين خطأ أصرح الخطأ، لأنه لو صح لكان المشعوذون ومن شاكلهم: من أهل الكمال، وكانت الحياة الكاملة معناها الانفصام التام من أسباب الحياة، والتتنجى عن جميع الروابط والأواصر البشرية. وهذا رأى مناف للفطرة، ومُفَض إلى فناء بنى الإنسان.

فالحق أن لكل عصر من العادات ما يلائمه، ومن الأخلاق ما يوائمها، وما يصلح لزمن ليس لازماً أن يصلح لغيره، وليس من الإنصاف الحكم على الزمن الماضى بمقياس زمننا الحاضر، وأن العمل بمقتضى ضرورات الزمان والمكان، لا يصلح أن يكون سبباً للحط من عظمة الأفكار وجلالها. أليس من الخطل والضلال أن تقول: إن عيسى عليه السلام كان رجلاً إذا أحلام لا يمكن تحقيقها؟ أليس من فساد الرأى أن تقول: إن حياة موسى وعيسى عليهما السلام كانت شاذة، إذا قيست بما يستحسن اليوم؟ بلى: إن حياة هؤلاء الرسل الكرام كانت ملائمة بالعضات والعبر، وهى أسوة حسنة لأقوامهم. ومن أجل

ذلك يتبين صدق قولنا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم مرسل إلى البشر طراً ، وإنه مثل في شخصه الكريم نمو الإنسانية ورقياً ، ولم يكن من الحكمة أن يغير الحالة الاجتماعية التي كانت وقت بعثته مرة واحدة ، وأن يقضى القضاء المبرم على العادات القومية ، والنظم السياسية والاجتماعية ؛ بل كانت سنته — وهي أحكم سنة — القضاء على الفاسد منها ، وتهذيب ما يقضى النظام العمراني ببقائه .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الآية (١) الشريفة التي حظرت على المصطفى زيادة عدد الزوجات وطلاقهن ، نزلت بعد أن انتشر الإسلام ، وثم له ما أراد من حكمة الإكثار من الأزواج ، مع أن أصحابه رضوا الله عنهم ظلوا أحراراً ، لا يمنعهم شيء من ذلك في حدود الشريعة السمحة .

ثامناً — إباحة الطلاق

(١) دلت التجارب على أن الطلاق فرصة للتخلص من ضرر أشد منه ، عند استفحال أسباب الشقاق ، وتعذر الألفة والوئام ، وقام الدليل القاطع على أن ما جاءت به الشريعة الإسلامية في شأن الطلاق ، أقرب إلى الإنسانية وأوفى بالعدالة ، مما جاء في غيرها من الأديان والشرائع . . . : ذلك بأن الأمم القديمة حُزمت على المرأة أن تطلب الطلاق بحال من الأحوال ، وظل الحال كذلك إلى عهد الدولة الرومانية ، إذ ضعفت روابط الزواج وفشا الطلاق . ولقد جرت على ذلك القوانين العبرية القديمة والآثينية .

(٢) ومن العجب أن بعض قصاص النظر من الباحثين يقولون : إن الدولة الرومانية في أول أمرها لم تلجأ إلى الطلاق ، مع أن قانونها أباح ذلك ، وفي

(١) قال تعالى : (لا يجز لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) .

هذا دلالة على أنها كانت أرفع خلقاً من غيرها من الأمم . وهذا قول باطل لأن الزوج في عهد هذه الدولة ، كان له الحق في قتل زوجته إذا أتت أمراً إذاً : كشرب الخمر ، وما مائله ؛ ولم يكن لها مع ذلك حق طلب الطلاق . فإذا حاولته عتد عملها موجبا للقصاص . وبالرغم من هذا كله ، شاع الطلاق في عهد الجمهورية الأخيرة شيوعاً كبيراً ، فكان سبباً في انحطاط مستوى الأخلاق بسرعة عظيمة .

(٣) لم يكن العرب في الجاهلية يرجعون إلى عدل أو رحمة في معاملة زوجاتهم ، فجاءت الشريعة الإسلامية مستهجنة عاداتهم ، مقوضة أركانها . قال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۚ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمُ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا اقْتَدَتْ بِهِ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۚ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا نَحْلُ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۚ ... الآية .

أضف إلى ذلك أن الشريعة الإسلامية أعلنت بلسان الحديث الشريف أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

وقد كان من حكمة الإسلام وتمايم ملاءمته للسنن الاجتماعية ، ومسايرته لها في كل عصر ، عدم تحريم الطلاق بتاتا ، لأنه ليس شرأ على إطلاقه ، بل هناك ضرورات تقتضيه ، ولذلك أيسح الطلاق بشروط ، وفي أحوال معينة . تأمل قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ تجسد الحكمة في جعل الطلاق مرتين إيجاد فرصة للصلح والتفاهم ، وتكوين أسباب الألفة والوئام ، والصلح خير . على أن الشريعة رأت إجراء التحكيم قبل الطلاق ، ليرتقى كل من الزوجين قبل الإقدام عليه والبت فيه ، وذلك احتياط يدل بادئ نظرة على منتهى الحكمة .

وهل ترى إنصافاً أكثر من أن الشارع الإسلامي ، يعلن أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، وأن الطلاق مرتان ، وأن التحكيم يسبق إنفاذ الطلاق ، وأن للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب شرعية ؟ كل ذلك ، لأن الإقدام عليه دون استيفاء شروطه مقوض لسعادة الأسرة ، مزلزل لأس الاجتماع ، وله أثر سيء أبلغ الإساءة في تربية الأبناء .

ومع أن بعض الفقهاء يرون أن إقدام الرجل على الطلاق تعسفا واقتدارا — عمل باطل ، إلا في الضرورة القصوى ، فإن جبهة من الحنفية والمالكية والشافعية — وهم الذين يعتد برأيهم — يرون إباحة الطلاق ؛ ويعتدون الطلاق الذي لا يستوفي الشروط الشرعية عملا بغيضا .

ومن العجب أنك ترى مع هذا ، أن خصوم الإسلام تجاهلوا القيود التي قيد الشارع الإسلامي بها هذه الرخصة ، تمشياً مع ضرورة الاجتماع ، وتغاضوا

عما قرر أولئك الفقهاء ، الذين فاقوا في أحكامهم السيدة فقهاء الأمم الغربية
 اتزاناً وعدالة وإنسانية . فقد رأى فقهاء المسلمين في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا
 فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ . تحذيراً لكل من الزوجين
 من الطلاق ، وتنبهاً لسوء مغبته ، ومنعاً من الإقدام عليه دون تروق وتأمل .
 ومن الخطأ : أن يستنكر (السيرموير) في كتابه (سيرة محمد عليه السلام)
 ذلك ، وفاته أن اشتراط اتخاذ زوج آخر قبل الرجوع إلى الأول ، أكبر
 مانع من إيقاع الطلاق عند قوم كالعرب ، عرفوا بشدة الغيرة والحمية ،
 وأقوى رادع لهم عن ممارسة هذه العادة ، التي كانت شائعة عند اليهود
 وعرب الجاهلية والنصارى ، فجاء القرآن بأكبر زجر لامة من أقوى أمم
 الأرض شعوراً ؛ فس منها مكان العزة والشرف ...

ولا جرم أن الناس في جملتهم متشابهون . فلانعرف أحداً - إلا من فقد الغيرة
 الإنسانية - يرتاح إلى أن يتزوج غيره من امرأته بعد طلاقها بدافع الغيرة والاثرة .
 ومن هذا الباب شدة تقبيح التحليل . قال عليه الصلاة والسلام : (أَلَا أُخْبِرُكُمْ
 بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟) قالوا : ما هو يا رسول الله ؟ . قال : (هُوَ الْمُحْلَلُ . لَعَنَ اللَّهُ
 الْمُحْلَلَ وَالْمُحْلَلَةَ) .

وبما هو جدير بالذكر القصة الآتية التي أوردتها صحيفة الضياء في ٢٢ من
 ديسمبر سنة ١٩٣٠ م بعنوان (بييع زوجته) وهي :

من أغرب القضايا التي نظرت في محاكم لندن في الشهر الماضي ، قضية
 رجل يدعى (المن واتهام) كان شديد التعس في حياته الزوجية ، فاتتهى به
 الأمر إلى أن يبيع زوجته بمبلغ خمسمائة جنيه انجليزي ، لتاجر يدعى (فيلبس) .

وقد قرر المستر (الإن وإتهام)، أن حياته الزوجية لم تكن تطاق؛ لأن أخلاق زوجته لم تكن تتفق هي وأخلاقه، مع حبها لهذا التاجر وموافقها على البيع.

وقال المحامي عن المتهم: إنه لا وجه لإقامة الدعوى على موكله. وقد ذكر في دفاعه فقره، يُستدل منها على أن القانون الانجليزي قبل مائة سنة كان يبيع بيع الزوجات، وأنه في سنة ١٨٠١ م كان ثمن الزوجة محدودا بمبلغ (ستة بنسات)، (أى نحو ٢٤ مليا تقريبا)، بشرط أن يتم البيع بموافقة الزوجة ومحض اختيارها.

فردت عليه المحكمة بأن هذه الفقرة صحيحة، وأن القانون الذى ذكره كان موجودا حقا — غير أن الحكومة أصدرت أمرا في سنة ١٨٠٥ م بإبطال بيع الزوجات، أو التنزل عنهن. وبعد المداولة حكمت المحكمة على بائع زوجته بالسجن عشرة أشهر.

تاسعا — الحجاب

لما جاء الإسلام كانت المرأة في درك انحطاط الخلق؛ ولذا كان من الحكمة نهى النساء عن التبرج تبرج الجاهلية الأولى، وأمرهن بالاستقرار في منازلهن، وليس في نص القرآن ولا في صحيح السنة، ما يفيد تشديدا على المرأة في الحجاب، كما نراه اليوم في البلاد التى ليس للإسلام فيها نفوذ، والتى لم تصل إليها نظم الإصلاحات الغربية.

تأمل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ

عَلَيْنَ مَنْ جَلَّابِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .
 وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ... ﴾ إلى ﴿ تَقْلِحُونَ ﴾
 يسهل فهم هذه الآيات ، وإدراك ما تتطوى عليه من مقاصد الإصلاح ،
 للذين درسوا الحالة الاجتماعية في العصور القديمة ، وفوضى الأخلاق التي
 أراد الله إرسال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن ينقذ العالم من شرورها ،
 حتى تنتظم أحواله بإصلاح حال المرأة ، وترقيتها في ملابسها وسلوكها ، فلا
 تصبح بعد ذلك مضغة في أفواه السفلة والرعا ع .

وقد قال أحد المنصفين من كتاب الغرب (هملتن) : إن أحكام الإسلام
 في شأن المرأة ، صريحة في وفرة العناية بوقايتها من كل ما يؤذيها ، ويمس سمعتها ،
 ويتناول كرامتها ، ولم يضيق الإسلام في الحجاب كما يزعم بعض الكتاب ،
 بل إنه تمشى مع مقتضيات الغيرة والمروءة .

وقال أحد الرحالة الغربيين في سفراته : إن العرب المقيمين في جاوة لم
 يلتزموا عادة الحجاب مطلقاً ، وإن نساء جاوة تمتعت بالحرية التي لإخوانهن
 في (هولاندة) . .

وإن التاريخ يحدثنا أن نساء النبي بعد أمرهن بالاستقرار في منازلهن ،
 ونهين عن التبرج . لم يكن معتكفات عن العالم ، كما يزعم بعض كتاب
 الغرب ، فإن السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، اشتركت في قتال عليّ
 كرم الله وجهه ، وقامت السيدة فاطمة الزهراء بنصيب وافر ، من الدعوة
 إلى إسماعد الخلافة إلى عليّ ، وأنقذت السيدة زينب بنت الحسين ابن أخيها
 اليتيم الصغير من الأمويين ، بعد مذبحة (كربلاء) .

وسير فضليات النساء مملوءة بما يدل على أثر الاسلام فيهن ، وإعداد هن للاشتراك في الحياة العامة .

بلغ انحطاط الأخلاق كما قدمنا عند عرب الجاهلية واليهود والنصارى ، مبلغاً استوجب إسعافه بالعلاج . وقد كان لأمر القرآن الكريم لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقرار في منازلهن ، واجتناب تبرج الجاهلية ، أثر حسن في رفع المستوى الخلقي ، لأنهن كنّ لنساء المسلمين خير أسوة ، وأعلى قدوة .

وما هو جدير بالذكر ، ما قاله الأستاذ (فون همر) : الحجاب في نظر الإسلام ، وتحريم اختلاط النساء بالأجنبي منهن ، ليس معناه انتزاع الثقة بهن ، وإنما هو وسيلة إلى الاحتفاظ بما يجب لهن من الاحترام وعدم التبذل ، فالحق أن مكانة المرأة في الاسلام قِيَّنة بأن تغبط عليها .
تأمل هذا ، ووازن بينه وبين ما يأتي :

(أ) قرر (ترترليان) في كتابه (وصف المرأة) : أنها باب الشيطان لأنها أفسدت آدم — وهو مظهر من مظاهر قدرة الله — بحمله على الآكل من الشجرة .

(ب) قال (لوفى) : إن المرأة شر لا بد منه ، ونكبة تنساق إليها النفوس ، وبلاء لامهرب منه ، وبرق خُلب ، ومرض عُضال .

(ج) قضت أوامر الكنيسة الأرثوذكسية بحرمان المرأة حقها في المجتمع ، فحظرت عليها حضور المآدب والحفلات ، وألزمت النساء الحجاب صامتات صابرات ، لاشأن لهن إلا طاعة أزواجهن ، والقيام بالغزل ، والنسج والطهي ، وإذا خرجن من دورهن سترن أجسامهن ، من

قصة الرأس إلى أنحصر القدم

وعما يجب ذكره أن نصيب المرأة من الحزية في الجاهلية عند العرب ، كان أكثر منه عند اليونان . وفي ذلك يقول (بيرن) : لم تكن النساء في الجاهلية تعسات : فكن يرافقن المحاربين إلى ميدان القتال ، ويثرن فيهم الحمية والبطولة ، وكان الفرسان ينزلون ميدان الوغى ، وهم يتغنون بذكر أجدانهم ، وزوجاتهم ومحبوباتهم . وكان إعجاب محبوباتهم بهم خير مكافأة يطعمون فيها ، وكان كرم الخلق والشجاعة من أسمى مكارم الرجل ، كما كان العفاف أحسن حلية تزين بها المرأة ، وطالما اشتعلت نار الحروب بين القبائل في أنحاء صحراء العرب ، من جراء إهانة نصيب المرأة من غير قبيلتها .

كان العرب يجلون المرأة بما غلب على طباعهم من خلق الفروسية والشهامة ، لسعة حيلتها ، ونفاذ رأيها ، وقوة تأثيرها في اهتياج أشجانهم ، وإثارة الحفيظة في نفوسهم ، إذا رأت منهم قراراً على الذل ، وإغضاء على القذى ، ونكوصاً على الأعقاب .

وهؤلاء نساء قريش ، خرجن مع الجيش في غزوة أحد يحملن الدفوف ويكين قتل بدر ، فيوقدن بذلك في صدورهم نار الأخذ بالتأثر . وما كان منهن حين انهزمت قريش في صدر المعركة ، وسقط لواؤها ، فقد تقدمت عمرة بنت علقمة ، ورفعته بيدها ، فاندفعت قريش إليها ، ودافعوا عن رايتهن ، وقتلوا المسلمين مستبسلين ، حتى ظفروا بهم ،

وقصة عُمَيْرَة وصيحتها في قومها ، بعد أن اطمأنوا إلى الذل ، ورضوا بالخسيسة — مشهورة معروفة .

من أجل ذلك شجع الإسلام هذا الخلق العظيم ، وأتى بأحكام ضاعفت

احترام المرأة وإعلاء منزلتها ، فتمت في أبنائها المسلمين خليفة إنقاذ الضعيف ، ودفع الضيم عن المظلوم ، وتلبية نداء الإنسانية في أي بقعة كانت : من مواساة البائسين ، وتفريج كرب المكروبين . وانتقل هذا الخلق بالقدوة والورثة من الخيام إلى القصور الشاهقة ، ومن الأسرة وهي وحدة المجتمع إلى المجتمع . ألم تقرأ ما رواه المؤرخون : من أن عبد الملك بن مروان كان جالسا على المائدة ، فعلم أن فتاة عربية تشكو ذل الأسر عند الرومان ، وتقول : النجدة يا عبد الملك ! فأقسم ألا يقرب لذائد الحياة حتى ينقذ الفتاة من أسرها ! وقد برز يمينه .

يقول بعض المنصفين من كتاب الغرب : كان عنزة أبا الفروسية ، وكان على كرم الله وجهه شعارها . فهو مثال الإقدام ، والشجاعة ، والحزم ، ولين الجانب ، والعلم . وكان شديد البأس ، وافر الشفقة . وكان للعرب في جملتهم الفضل في انتشار الفروسية في أوربة ، لأنها سرت من بلاد الأندلس إلى الأقطار المسيحية المجاورة لها ، فتعلم أبطال إيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، أناشيد الشرف والحب في الحروب ، من أساتذتهم في قُرْبَة ، و غُرْنَاطَة ، ومَالَقَة . ولم تكن آراء (بتراس) و (تاسو) و (شوسر) إلا ترديدا لصدى الفضائل الإسلامية ، وقبسا من نورها ، وهدى من دستورها ، ومع هذا فإن ما كان مركزا من الغلظة والصلف في طبائع القبائل الأوروبية الهمجية — جعل في بطولة أبطالها ضربا من الحشونة لا نظير له في البطولة الإسلامية .

ظلت المرأة في القرون الأولى في الإسلام إلى أن سقطت دولة العرب في الشرق ، رفيعة الدرجة ، سامية المكانة ، أرقى مما عليه المرأة اليوم في الدول

الغرية . وإليك بعض البراهين :

(١) شغلت زيدة زوج هارون الرشيد مكانة عظيمة في عصرها ، بفضل أعمالها الجليلة ، وفضائلها الكثيرة ، وأخلاقها السامية .

(ب) كانت السيدة سكينة بنت الحسين الدرة اليتيمة بين أترابها . وفي شأنها يقول بيرن : كانت سيدة عصرها ، إذ كانت موفورة الجمال ، كاملة الخصال . ولا غرو ! فقد رغبت في العلم والمتعلمين ، وجالست العلماء والأتقياء ، وشاركتهم في كثير من العلوم والفنون . . . !

(ح) كانت شهدة الملقبة بفخر النساء في القرن الخامس للهجرة تلقى الدروس على الجمهور في جامع بغداد ، في الأدب والتاريخ ، وكان يحضر درسها عدد غفير من أهل الفضل والعرفان ، ولها في تاريخ الإسلام ، ما لا عظم العلماء من سمو المنزلة والاحترام ، ولو ظهرت شهدة هذه في أوربة قبل اقتباس المدنية الإسلامية لأحرقوها ، بحجة أنها ساحرة . . . !

أبعد هذا كله يظل بعض المستشرقين يفترى على الدين الإسلامي الكذب والبهتان ، وعلى النبي العربي الكريم الذي يقول : « مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالنِّسَاءِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُحَرِّمُ طَلَّاقَهُنَّ » ، ١٤ !

من المسلم به ، أن المرأة قد وصلت بعد تسعة عشر قرناً إلى مقام نالت فيه نصيبها من الاحترام ، ولكن هل حصلت على مكانة شرعية أعز من مكانة المرأة في الإسلام ؟ كلا : إن المرأة المسلمة أعطيت من الحقوق ، ما لم تعطه أختها المفتونة بمحضرة أمتها ومدنيتها .

حسب الإسلام أنه جعل البنت مادامت غير رشيدة في كفالة والدها ، أو من يقوم مقامه ، وأنها متى بلغت سن الرشد خولها جميع الحقوق التي يحق لها التمتع بها .

بوصفها شخصاً مستقلاً عن غيره . وجعل لها الحق في تركه والديها ، وأن لا يستطيع أحد أن يزوجه بغير رضاها متى كانت بالغاً ؛ وإذا تزوجت لا تفقد شخصيتها ، بوصفها عضواً قائماً بذاته في المجتمع الإنساني . وأوجب على الزوج القيام بتدبير شئون زوجته جميعها إذا أرادت . ولم تبج الشريعة للزوج التدخل في أمورها ومكاسبها بغير إذنها . ومنحتها الحق في أن تقاضى من تشاء ، دون الاضطرار إلى الاستعانة بزوجه أو والدها أو أخيها . وأنها بوصفها أمّاً لها حقوق ثابتة لا تتوقف على قضاء .

وبما تقدم يتبين أن الشريعة الإسلامية أبلغت المرأة مكانة أسمى مما بلغته المرأة الغربية . وليس هناك من سبب لتأخر المرأة المسلمة عن المرأة الغربية . إلا قلة انتشار العلوم والمعارف بين الأمم الإسلامية ؛ وضعف التمسك بأنظمة شريعتهم الغراء .

وخلق بنا أن نورد المقال الآتي نقلاً عن (جريدة) المساء المؤرخة ٢٦ من فبراير سنة ١٩٣١ م ، وهو بحروفه :

النساء في الإسلام

من مقال قيم لجريدة الإسلام في باريس

في العاصمة الفرنسية جريدة تصدر بلغة تلك البلاد اسمها الإسلام . أسسها أربعة من المسلمين : مصرى ، ومراًكشى ، واثنان من الجزائريين . وقد اطلعنا فيها على فصل قيم في النساء المسلمات رأينا أن ننقله لقارئتنا فيما يأتي :

من الأمور المعروفة أن النساء لهن الحظ الوافر في تطور الشعوب ، وتقدم الأمم ، لهذا عمد الرجال ، من تلقاء أنفسهم ، إلى التمشي رويدارويدار ناحية المساواة (٢٠)

بين جنسهم وذلك الجنس اللطيف ، مسوقين على توالى القرون بحكم التطور
الأدبي والمادى .

ولم يبد التطور لأدبى الخلق على أشده إلا فى تاريخ الأمة العربية ، فالمعلوم
أن العرب عندما بلغوا أوج عظمتهم ، وملكوا دولتى السيف والقلم ، كانت المرأة
عندهم عدل الرجل سواء بسواء : فلها حرمة وكرامة ، ولكن حدث بعد ذلك أن
سامت العادات من جراء طغيان الحكام ، وتدخل الأجنبي ؛ فزالت تلك المرأة
العربية الحرة الشريفة ، ذات العزة والاحترام . وحلت محلها السرية والمحظية ،
من الطبقات الدنيا الغربية عن العنصر العربى : كخسيسات البيزنطيات والفارسيات ،
والجواري من الروم والصقالبة ^(١) وبني على هذا أن اختل حتى نظام الحياة
والأسرة : فكانت عيشة الكسل ، واللذو والإسراف ، والتبذير فى النفقة والتبرج
كان للمرأة العربية منزلة ذات شأن خطير : فهى فى المدينة الآمرة الناهية
فى المنزل والأسرة ، بل الخائضة بعقل وحصافة فى القضاء والسياسة .

ومن منا لا يذكر امرأة الحارث بن عوف ، التى أصلحت ما بين القبيلتين
بعد أن نذرت كل منهما لأختها الدماء والفناء ؟ ثم من منا لا يأسى ولا يأسف
بعد ذلك على طى ذلك العهد ، وما خلفه من عهد التمرى الذى يشبه ما كان
فى أثينا وإسبرطة ؟

وقد وضع النبى العربى الكريم من الأقوال والأحكام ، ماسوى به بين
المرأة والرجل فى حرية التصرف والكرامة فلبث العالم العربى ستة القرون
الأولى ولا حجاب بين النساء والرجال . فكان بعض الفضليات العظيمات
يعقدن مجالس العلم والأدب والمناظرة والمساجلة ، ويحكمن بين العلماء

(١) الصقالبة . أمة تسكن ما بين بلاد الخزر وقسطنطينية .

والآداب، فإذا ما شبت الحرب خرجن يشحن من همم الرجال، ويذكين من عزمهم، ويوقدن من حماسهم، ويواسين الجرحى، ويثنين على الشجعان. ولولا المرأة المسلمة ما تمشى الإسلام من فوز إلى فوز: فالسيدة خديجة كانت أول من شجع النبي صلى الله عليه وسلم بعد روعة الوحي، وكانت أول من قاسمه جهوده، وأعانته بالعطف والرأى والمسال.

وإذا عظم المسيحيون السيدة مريم، فالمسلمون على بكرة أبيهم يعظمون فاطمة الزهراء ابنة المصطفى: فقد فقد أولاده الذكور - رضوان الله عليهم - في حياته، فقال بعطفه وحنانه جميعاً إلى ابنته السيدة فاطمة: فأدبها فأحسن تأديبها؛ فكانت آية في الفضيلة والعرفان، وتزوجت وهي في السادسة عشرة من عمرها بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فكان منها الحسن والحسين. وهما سيدا شباب أهل الجنة

وعُرفت فاطمة - رضوان الله عليها - بأنها كانت لا تقصّر في شئون بيتها، فإذا ما فرغت منه وأدت الفرائض، جمعت الصحابة وأخذت تنثر فيهم الغوالي من الحكم والنصائح، والحض على الفضائل. وجاءنا كثير من قولها في المرأة ووجوب تعظيمها.

وهناك سكينه ابنة الحسين (رضى الله عنهما) وهي آية زمانها في العلم والآداب، وكانت دارها مثابة للعلماء والآدباء، ولقد بلغ من تأثيرها حتى في النساء، أنهن كن يقلدنّها في الملبس، والحركة، والإشارة.

واشتهرت سكينه بالنقد الصائب في الشعر، وفي الكرم والفضل على الشعراء. وفي العريات البارزات بعد ذلك الخيزران، امرأة المهدي الخليفة الثالث من بني العباس. وكانت هي الأميرة الناهية في البلاط وفي الدولة،

وكانت من العجائب في العقل والشجاعة والكياسة ، يقف يابها الوزراء والعلماء والشعراء . وبفضل هذه السيدة البازة ، ردت المهدي إلى الأمويين ما استصفاه العباسيون من أملاكهم .

وهناك زبيدة زوجة الرشيد . وليس في مسلي الأرض كافة من يجهلها : فهي التي أمدت مكة بالماء الصالح للشرب ، من العين التي عرفت باسمها (عين زبيدة) ، وهي التي أمرت ببناء اسكندرونة بعد أن دمرها البيزنطيون ، وكانت تقرض الشعر الجيد ، وتشير بالآراء الصائبة في السياسة والحروب . وبُورَان امرأة المأمون المشهور ، لم تقعد بها فارسيتها : فهي المسلمة التي جمعت بين الكياسة الفارسية ، والكرامة الإسلامية ، وعرفت بالذكاء ، وأقامت في بغداد المدارس والمشافي .

ومن المشهورات في الإسلام قطر الندى ، امرأة المعتضد بالله وأُم المكتفي . وكانت من العليمات الخبيرات بالشرع والقضاء : فقامت بالوصاية على ابنها قبل بلوغ الرشد ، وأدارت الأحكام ، وقضت بنفسها بين الناس . وأحاط بها كثير وكثيرات من الشعراء والشواعر ، والأدباء والأديبات .

وشجرة الدر امرأة نجم الدين أيوب . وقد أدارت بنفسها رحي الحرب على ملك الفرنسيين سان لويس ، واعترف لها الناس بأنها مليكة مصر .

وإذا التفتنا إلى الأندلس ، وجدنا المرأة المسلمة بلغت هناك الأوج ، وحلت الذروة . قال فون كريم المشهور في تواليقه : « إن العرب كانوا مفطورين على احترام النساء في قرطبة ، ومنها تعلم الأوروبيون احترام السيدات » .

وأقام « عبد الرحمن » على باب قصره تمثال امرأته الزهراء ، وشيد قصرا لتخليد ذكرها ، وأقام كثيرا من دور البر والإحسان .

وكثر في الأندلس عدد المسلمات المتعلبات ، وكن يصلين بجانب الرجال ، في جوامع قُرْبَة ، وَغَرْنَاطَة ، وَإِشْبِيلِيَّة ، وَمَالْقَة ، وَمَرْسِيَّة ، وغيرها .

ورقَى الأمير سليم بعد وفاة والده السلطان محمد أحمدَ الأكبر عرش فارس ؛ فتزوج بالسيدة مهر النساء ، وكانت تتقن العربية والفارسية وآدابهما ، ولها علم واسع بالموسيقى ، وكان زوجها يدعوها (نور محلّ) (نور القصر) ، ودعاها الشعب (نور جهان) (نور الدنيا) ، وتعاطت الأحكام حكيمة موفقة ، وكانت تعرض الجند ، وتستقبل الأمراء والحكام ، وكانت السكة في الدولة باسم الشاه وباسمها ، وكانت تتعاطى حتى الصيد على ظهور الجياد ومعها الوصيفات !

وحدث مرة أن زوجها وقع أسيرا في بعض الحروب ، فقامت على رأس الجنود فاستخلصته من قبضة الأعداء ، ولها فوق هذا في البر آيات : فكانت تربي اليتامى واليتيمات وتزوجهن ، وكانت موئلا المظلوم وملاذالمعدم ، وقلبا خلت مدينة حتى في الهند من مكان باسمها .

ويتدبر المؤرخون جميعا حركة التقدم عند العرب ، فيجدونها مرتبطة برقى المرأة : ففي عهد انحطاطها وقف ذلك التقدم ، ورجعت القهقري .

فإذا أراد المسلمون الآن استرداد ما كان لهم من تاريخ مجيد ، فسا عليهم إلا أن يعملوا على إنهاض المرأة المسلمة ، إلى المستوى الذي كان لها في صدر الإسلام ، اهـ .

هذا هو المقال البديع الذي نشرته في العاصمة الفرنسية جريدة الإسلام ، لأولئك الإخوان الأجماد ، الذين تصدروهم مصرى لإصدار هذه الجريدة الرشيدة

السييل الآخر لإصلاح المجتمع الإكثار من وسائل إبطال الرق تمهيد

ينبغي لنا قبل الخوض في هذا الموضوع أن نوضح معنى الرق ، وأن نتكلم
بإيجاز في الاسترقاق عند الأمم المختلفة ومنشئه :

معنى الرق :

الرق في اللغة : الضعف . ومنه رقة القلب . وعند الفقهاء : عجز حُكْمِيَّ يصيب
بعض الناس .

أما عند الفرنجة ، فهو حرمان الشخص حريته الطبيعية ، وصيرورته ملكاً لغيره
منشأ الاسترقاق :

ظهر الاسترقاق منذ كان حجاب الجهالة مسدداً على المجتمع الإنساني .
أسبابه :

(١) لما كان العمل من أصعب الضرورات وأضاهى للجسم ، بحث الإنسان
عما يستنقذه من عنائه وشقائه ، فوجد طلبته بين يديه ، وسخر القوى الضعيف
في القيام بأعماله ، ومن ذلك نشأ الاسترقاق .

(٢) ثم تولدت الأطماع ، وجاءت الحروب فنشرت الاسترقاق عند معظم
الأمم ، وصار الناس لا يقتلون العدو إذا غلب ، بل يبقون عليه ، ليعمل لهم .

(٣) لطبيعة الأقاليم — وهي من أقوى العوامل في تكوين الجماعات
البشرية — أثر عظيم في زيادة الاسترقاق واتساع نطاقه ، حتى بلغ عند الأمم

التي على الفطرة في جميع بلاد المشرق مبلغا عظيما ، لأن ثمن الرقيق كان زهيدا ، واتخاذهم مفيد في الصناعة والتجارة .

غير أنه في الشمال كان الاسترقاق أقل فُشوا منه في الجهات الجنوبية من المعمورة ، لأن تغذية الرقيق عندهم كانت تكلفهم نفقات جسيمة ، ولم يكن لعمله فائدة كبيرة .

وهذا يدل على أن الاسترقاق من الأمور الاقتصادية المتبعة على العمل والإشتغال .

الاسترقاق في الأزمنة القديمة

الرق عند قدماء المصريين

كان الرقيق عند قدماء المصريين آلة مسخرة للعمل ، ومن مشاهد الزيتة ومظاهر الآبهة : فكان الأرقاء في قصور الملوك وبيوت الكهّان والمقاتلين ، وكان الأسارى أرقاء للدولة ، يقومون بالأعمال التي تستدعيها حاجات القطر ، أو تتطلبها موجبات زخرفته ، وتحسين هيئته ، وفي غير الحالات التي تستدعيها المصلحة العامة ، كانت الأخلاق والعادات تقضى بمعاملة الرقيق بالشفقة والرحمة والدفاع عنه ، بل إن الشريعة تحميه من البغي والأذى ، فقد نصت على أن من قتل الرقيق يقتل به ، وكان يجوز رفع الأمة إلى مقام الزوجية .

الاسترقاق عند الهنود

قد جعلت شريعة مانو^(١) الناس طبقتين ممتازتين :

(١) هو مشرع هندي ينسب إليه الكتاب المسمى (مانا فاذا وما ساسترا) وهو كتاب واف في علم الأخلاق والشريعة

(١) الدويداس : وهم الذين تتألف منهم الطبقات العالية : البراهمة ، ومن إليهم .

(٢) السودرا : وهم الطبقة الدنيا المستخدمة .

ثم حددت درجاتهم بالقياس إلى البراهمة وغيرهم ، وجعلتهم في أحط منزلة ، ووضعت لهم القوانين الصارمة . ومن أمثلة ذلك ما يأتي :

(١) يجوز للبرهمن أن يُجبر السودرا على الخدمة . سواء اشتراه أم لم يشتريه ، لأنه رقيق ، ولأنه ما خلق إلا لخدم البراهمة .

(٢) بل إذا أطلق سيده سراحه لا تفارقه صفة الخدمة ، لأن هذه حالة طبيعية مرتبطة بوجوده .

(٣) إذا مس السودرا أحد البراهمة بأذى ، فلا مندوحة عن قتله .

(٤) إذا وجه رجل من هذه الطبقة الدنيا سبا فاحش إلى أحد الدويداس ، فجزاؤه سل لسانه .

(٥) وإذا ذكر أحدهم باسمه وبطبقته على سبيل الإزدراء ، فجزاؤه أن يوضع في فمه خنجر طوله عشر أصابع ، بعد إحماؤه بالنار إحماء شديدا .

(٦) إذا اجترأ على إسداء النصيح والمواظ للبراهمة فيما يتعلق بواجباتهم ، فعلى الملك أن يأمر بوضع الزيت المغلي في فمه وفي أذنه .

(٧) إذا سرق البرهمن من السودرا عوقب بالغرامة ، وأما إذا سرق السودرا فجزاؤه الإحراق .

(٨) إذا تجاسر السودرا على ضرب أحد القضاة ، فليعلق بسفود ، وليشوَ حياً ، وإذا ارتكب البرهمن مثل هذه الجريمة كانت عقوبته الغرامة وحدها .

والمقرر في الشرائع البرهمنية ، تقسيم جميع الأشخاص المزمين الخدمة إلى

قسمين : الخادمين ، والأرقاء . فالأعمال الطاهرة من خصائص الخادمين ، والأعمال النجسة على عواتق الأرقاء .

الاسترقاق عند الآشوريين والإيرانيين

يدل تاريخ مملكة آشور على أنها كانت أمة عريقة في الاسترقاق ، وأن الزق كان متأسلاً فيها ، فقد كانت القصور تغص بالنساء والأرقاء المخصصين للجمال والزينة .

أما مملكة الفرس التي امتدت سلطانها إلى حدود آسيا القديمة ، فقد استجمعت جميع أنواع الاستخدام المعروفة عند كثير من الأمم المختلفة : فقد كان فيها الأرقاء الرعاة ، والأرقاء المختصون بحاجات الزينة والثروة .

وقد أجاز العرف والاصطلاح في بعض البلاد أن يكون للأرقاء أوقات راحة ، كما اجتهد واضعو الشرائع في إنصاف الموالى ، وتخفيف وطأة الظلم عنهم . قال هيرودت : « لا يجوز لأى فارسى أن يعاقب عبده على ذنب واحد اقترفه ، بعقاب بالغ في الشدة والصرامة . ولكن إذا عاد العبد إلى ارتكاب الذنب ، فلهولاء أن يفقده الحياة ، أو أن يعاقبه بجميع ما يعرف من أنواع العذاب » .

الاسترقاق عند الصينيين

كان الاستخدام للمنفعة العامة شائعاً في الصين قبل التاريخ المسيحى بأجيال ، يقوم به المحكوم عليهم والأسارى . ثم نشأ الاسترقاق ، وكانوا يجلبون الأرقاء من الخارج بالحروب ، أو يأخذونهم من الصين نفسها كما كانت تفعل الدولة ذاتها ، لأن الفقير كان يُضطرّ لبيع أولاده بسبب الفاقة والاحتياج ، وكانت هناك أسر مستعبدة بسبب الشدة ، وكان للولى التصرف

المطلق في الرقيق : يبيعه ويبيع أولاده .

إلا أن الاسترقاق في بلاد الصين كان قليل الشدة ؛ فإن الشرائع والعرف والأخلاق كانت تساعد على تهوين حاله :

فقد أصدر الإمبراطور كوانججون — وكان عائشا بعد المسيح عليه السلام بخمس وثلاثين سنة — أمرين اثنين بوقاية حياة الرقيق وشخصه ، ضمنهما عبارات تشف عن كمال المروءة ، فقد قيل فيهما :

« إن الإنسان هو أفضل المخلوقات التي في السماء والأرض وأشرفها . فمن قتل رقيقه فليس له من سبيل إلا إخفاء جرمه . ومن تناهت به الجراءة فكوى رقيقه بالنار ، حوكم على ذلك بمقتضى الشريعة . ومن كواه سيده بالنار دخل في عداد الوطنيين الأحرار .

ولقد كان بعض الأرقاء يصادفه الحظ ، فترفع به المناصب ، وينال ثقة مولاه ، ويجد في بعض المكاسب طريقة ينال بها حزتيه ، ويتخلص من ربة الرق ، ولهذا كان الاسترقاق قليلا عند أمة الصين . التي امتازت بجودة الفكر ، وأصالة الرأي ،

الاسترقاق عند العبرانيين

وكان الاسترقاق قديما في هذه الأمة ، وكان الأرقاء في بني إسرائيل من أصول الثروة وأسباب الغنى ، عند أولئك الرؤساء الذين كان دأبهم الحلّ والترحال ، إلا أنه كان للأرقاء عندهم بعض الحقوق : كاستراحة سبعة أسابيع في السنة ، وعدم جواز ضربهم ضربا مبرحا . ومن فعل ذلك أخذ بعقاب فيه بعض الشدة ، وكذلك من بتر الرقيق أو كسر له عضوا أو سنا . ولهذا

يصح القول بأن العبرانيين كانوا يعاملون الأرقاء معاملتهم أنفسهم ، وكثيراً ما كان يتفق للبولى أن يميز إحدى إمائته ، فيتخذها حليمة ، بل أغرب من ذلك أن العبد كان يتاح له فى بعض الأحيان أن يتزوج من بنت مولاه ، إذا لم يكن للبولى أولاد ذكور ، وكان العبرانيون يتسرون غالباً جواريتهم .
والخلاصة : أن الاسترقاق عند العبرانيين وعند غيرهم من سائر أمم الشرق عدا الهنود ، كان مقروناً باللفظ والعطف ، اللذين لا يرى لهما مثيل فى اليونان والرومان ، وفضلاً عن ذلك فقد ورد فى شريعة سيدنا موسى عليه السلام : أن العبد إذا استحق القصاص فلا يصدر الحكم عليه إلا من القاضى ، حماية له ورحمة به من قسوة الموالى وانتقامهم .

الاسترقاق عند الإغريق

كان الاسترقاق قديماً متفشياً جميع بلاد اليونان ، وأثبت مشروعيته وصحته رأس فلاسفتهم أرسطو ، الذى عرف الرقيق بأنه : (آلة ذات روح ، أو متاع قائمة به الحياة) .

ثم قسم الجنس البشرى قسمين ، وهما : « الأحرار ، والأرقاء بالطبع » .
وقد قسم اليونان الرقيق صنفين متباينين ؛
(١) سكان الأقطار المفتوحة المغلوبة على أمرها : وهؤلاء تابعون لأرضهم بجزء منها .

(٢) أرقاء البيع والشراء : وهؤلاء كان للوالى عليهم السيادة المطلقة وأغلب الأرقاء من الصنف الثانى .

وكان سبيل الاسترقاق التلصص فى البحار ، واختطاف سكان السواحل ،

وكانت المستعمرات اليونانية ، وأثينا ، وقبرُس ، وساموس ، وصاقص ، أسواقا عظيمة ومراكز لبيع الأرقاء ، ويعمل العبيد لمواليهم أو لأنفسهم ، بشرط أن يدفعوا لسادتهم قدرا معيناً كل يوم ، وكثير من اليونان اشتروا العُبدان ، وخصصوهم للإجارة ، وكان هذا أفضل الوجوه في تمييز المال ، ولم يخل بيت في أثينا من عبد قائم بخدمته ، مهما يكن صاحبه فقيراً ، وكان المولى مطلق التصرف في عبده ، وإن لم تبلغ الشدة في معاملته عند اليونان ما بلغت لدى الرومان .

وعقاب العبد الجلد بالسوط ، وبالطحن على الرحي ، وكان يكوى الآبق (١) أو الوارد من البلاد المتبربرة بالحديد المحمى على جبهته . على أن حياة الرقيق وشخصه كانا مكفولين بالقانون . فما كان يُقتل إلا بعد صدور حكم القانون عليه .

وكان في أثينا أناس من العتق ، مُلزَمون الولاء لمواليهم مدى الحياة ، وعليهم واجبات مفروضة ، ولكمهم لم يكتسبوا الحقوق الوطنية ، بل مقامهم كالغرباء . كما كان هناك أرقاء تستخدمهم الدولة لحفظ المدن وحراستها ؛ والاستعانة بهم على استتباب الأمن ، وتوطيد دعائم الراحة في الاجتماعات العامة

الرق عند الرومان

كان العمل برومة موكولاً إلى العمال الأحرار؛ ولذلك انبثت روح الشهامة والرجولة في جميع سكان هذه المدينة التاريخية ، ولكن لما كثرت الحروب وتوسعت رومة في الفتوح ، وعم الترف ، اتكل الأغنياء على العبيد ، واستعملوهم في حراثة الأرض ، وأسندت إليهم الصناعات والفنون .

(١) الآبق : المارب .

وجوه الاسترقاق

كانت وجوه الاسترقاق برومة متعبدة :

- (١) الحروب ، وهي أعظم موارده .
 - (٢) العبيد بالولادة (المولودون من الأرقاء) .
 - (٣) أحرار قضى عليهم بعض نصوص القوانين بالوقوع تحت نير العبودية : كمدن لم يتيسر له وفاء دينه .
- وكثيراً ما كان يرافق النخاسون الجيوش ، ويبيعون آلاف الأسرى بأثمان بخسة : كما كانوا يسرقون الأطفال للبيع ، والنساء لاتخاذهن فيما ينافى الآداب .

وكانت العادة في رومة بيع الرقيق بالمزايدة : يمثّل على حجر ، ليراه كل الناس . وكذلك كانت العادة أن المشتري يطلب رؤية الأرقاء عراة للوقوف على عيوبهم الخفية .

وكانت أثمان العبيد المتعلين والمعدّين لتمثيل الروايات ، والجواري البارعات في الجمال ، غالية جداً . ولما عم الفساد واختلت قواعد الآداب ، صار بيع الحسان من أسباب الثروة والغنى .

أقسام الرقيق

كانت رومة شبيهة ببلاد اليونان في تقسيم الأرقاء إلى :

- (١) أرقاء يؤدون منفعة عامة ، وهم أحسن حالا من غيرهم : ويقومون بحفظ المباني ومساعدة القضاة والكهّان ، ويستخدمون سجنائين وجلّادين .
- (٢) أرقاء خصوصيين : وهؤلاء يقومون بخدمة مواليتهم وقضاء مصالحهم

قيمة الرقيق

ولم يكن الرقيق في نظر القانون شيئا : فليس له ملكية ، ولا أسرة . ولا شخصية . وهو تابع لأمه حرية ورقا حين الوضع ، لاحين الحمل . ولا حدّ لسلطان الموالى على أرقائهم : فيعاقب الرقيق على الهفوة بما يشع شهوة الموالى : من مشاق الحرائة والزراعة مكبلا بالحديد ، إلى الجلد بالسياط الذى قد ينتهى بالهلاك ، إلى تعليقه من يديه ، وربط الأتقال برجليه ، إلى مقاتلة الوحوش والحيوانات الضارية

ثم نُظِرَ إليهم بعين الرأفة والرحمة ، وسُنّ لهم أول قانون : وهو قانون (بترونيا) . وفيه أنه يحرم على الموالى إلزام أرقائهم مقاتلة الوحوش . على أن هذا الجزاء قد يصح أن يقع بإذن من القاضى . ثم جاء « أنطونان و كلوديوس » فنهيا عن سوء معاملة الأرقاء ، وشرعا أن السيد إذا قتل عبده عد مرتكبا لجناية القتل .

الاسترقاق فى القرون الوسطى

قوانين لأمم المتبربرة^(١) تشبه قوانين الرومانيين ، فى كونها تجعل الرقيق كالحىوان : يتصرف سيده فيه كما يشاء ، ويجوز له قتله ، لأنه شىء من الأشياء التى يملكها . وهذه الأمم فروع :

(١) الفرع الأول : الغاليون^(٢) . كان الأرقاء مكلفين حرائة الأرض

(١) هي أمم أغارت على المملكة الرومانية غير مرة لأسباب متنوعة . وهي تألف من ثلاثة أجناس كبيرة : الجنس الرومانى ، والعقل ، والسيقى .

(٢) هم سكان تلك البلاد القديمة باسم غاليا وهي غاليا الحقيقية : (فرنسا) وغالبا إلى أعلام جبال الالب : (إيطاليا الشمالية) ثم أقاليم الغاليا : (الجواثر البريطانية وفرنسا وإسبانيا القديمة) .

والزرع والحصد ، لأن هذه الأعمال كانت في عهد شيشرون^(١) من موجبات الاحتقار والهوان ، ينبغي ألا يزاو لها الأحرار .

(٢) الفرع الثاني : الجرمانيون^(٢) ينحصر الاستعباد عند الجرمانيين في أن يؤدَّى الأرقاء لمواليهم مقادير من القمح ، أو الماشية ، أو الملابس كؤجرين ، ولكل رقيق مسكن يديره كيف يشاء ، لأن مواليتهم كانوا مولعين بالقمار .

(٣) الفرع الثالث^(٣) : الفرنج . وصل الاسترقاق عندهم إلى نهاية الشدة ، فإن القانون السالى جعل سدا منيعا بين الأحرار والعبيد ، حتى إنه إذا تزوج أحد من رقيقة أجنبية وقع في الرق والاستعباد ، والمرأة الحرة التي تتزوج برقيق تفقد حريتها .

(٤) الفرع الرابع : الويزيقوط^(٤) . بلغت الشدة غايتها في معاملة الرقيق عند هذه الأمة ، حتى إن الحرة إذا تزوجت برقيقها أحرقت معه ، وهما على قيد الحياة ، ويُجلَّد كل منهما ، ويُفسخُ العقد . إذا لم تكن تمتلك العبد .

(٥) الفرع الخامس : الاستروقوط^(٥) واللبريديون . وضعت أحكام

(١) شيشرون أفصح خطباء الرومان . ولد سنة ١٠٦ ق م ، ثم درس البلاغة والفلسفة على أشهر أساتذة عصره . (٢) هم سكان جرمانيا التي هي الآن ألمانيا .

(٣) الفرنج أمة حرة مؤلفة من جملة أسر جرمانية سكنت بطنج نهر الرين الأسفل ، وهي من أشهر الأمم التي ظهرت في القرنين الثاني والثالث بعد المسيح عليه السلام ، وكانوا على جانب عظيم من المكر والدهاء والنهر ، لا يربون إلا ولا ذمة .

(٤) هم فرع من أمة القوط : وهي أمة فديعة بجرمانيا جاءت الأندلس .

(٥) الاستروقوط : فرع من الأمة المتقدمة ملك إيطاليا مدة من الزمن واللبريديون سكان لبردية من القرن السادس إلى الثامن بعد المسيح

صارمة عند هاتين الامتين ، حتى إن المرأة الحرة التي تتزوج برقيق تعاقب بالقتل .

(٦) الفرع السادس : الإنجلوسكسون ^(١) . كانوا يقسمون الرقيق إلى قسمين عظيمين :

(أ) الأرقاء المشبهون بالمتاع ، وهؤلاء يجوز بيعهم .

(ب) الأرقاء المشبهون بالعقار ، وهؤلاء لا ينفكون عن الأرض : يقومون بحراثتها ، ويلزمون زراعتها . ثم يسمح لهم بجمع رأس مال يتمكنون به من نيل حريتهم .

الاسترقاق في الأزمنة الحديثة

إن استرقاق الزوج في الأزمنة الحديثة ، يشبه استعباد الرومانيين من حيث الشخص المستخدم ، ولكن يخالفه مخالفة جوهرية ، من حيث أن فتوح المستعمرات لم يأت بتملك الأراضي مع العامل الذي يحرثها ؛ بل إن كشف الأرض تبعه إبادة الأهالي ؛ فاحتيج إلى جلب الزوج .

القانون الأسود

يطلق هذا الاسم في جميع البلدان ، على مجموع القواعد والأصول المدونة في شأن الاسترقاق : فقد صدر في ١٧ من مارس سنة ١٦٨٥ م مرسوم في فرنسا . بتنظيم أحوال الأرقاء والعقّ في المستعمرات الفرنسية ، ولكن صادفته معارضة قوية عند التطبيق ، أضاعت خيره ، وأبقت شره ، وقضى

(١) هو اسم جنس أطلق على الأمم الجرمانية التي أغارت على بريطانيا العظمى في القرن الخامس لليلاد ومنهم تناسل الانجليز .

على الرقيق بأنه لا نفس له ، ولا روح ، ولا إرادة . وهذه بعض مصائبه :
(١) إذا اعتدى الزنوج بأقل إكراه على ساداتهم ، أو على الأحرار ،
أو ارتكبوا أخف السرقات ، فالجزاء القتل .

(٢) وعقاب الإباق في المرة الأولى والثانية : صَلم الأذان ، والسكى بالحديد
المحمى ، وفي المرة الثالثة : القتل .

(٣) إذا ارتكب المالك أو الرئيس أية جناية على الرقيق ولو القتل ،
يكون للقضاة الحق في الحكم بالبراءة .

(٤) حرمان غير البيض الحضور إلى فرنسا ، للتغذى بلبان العلوم والمعارف
هذا في فرنسا .

وفي أمريكا أشد وأقسى

(١) فالهولى حق مطلق في بيع العبد ، وكرائه ، ورهنه ، والمقامرة عليه .
وعلى العبد الطاعة .

(٢) ليس للعبد حق في الذهاب والمجيء . وما كان له أن يخرج من الزرع
إلا بإذن السيد .

(٣) إذا اجتمع في الطريق العام أكثر من سبعة ، يعدون مخالفين .

(٤) لا يجوز أن يشهدوا في قضية إلا على الأرقام أمثالهم ، ولا ينبغي
تحليفهم اليمين صونا للقسم . أما فيما يتعلق بالواجبات المفروضة عليهم ، فهم
يعدون أحرارا ، متى كانت الحزية وسيلة إلى الجلد أو الإعدام .

(٥) ومن اجتراً على دفع الأبيض عن نفسه ، وقتل المعتدى عليه ، عُدَّ
مرتكباً لجريمة القتل .

(٦) تحريم السفر عليه ، وحظر إعطائه الجواز .

(٧) وكل من أشار على أحد الأرقاء ، أو على جماعة منهم بخلع الطاعة ، أو نشر كراسة أو رسالة في تحريض الأرقاء على عدم الامتثال ، أو أدخل بقله في أرض الحكومة صحفا ، أو كراسات ، أو كتباً مؤلفة في الطعن على الاسترقاق — يجازى أشد جزاء .

هذه أخص الأحكام المدونة في القانون الأسود ، قبل أن تثور الحرب المدنية التي خربت الولايات المتحدة ، و انتهت بفوز الزنوج بحريتهم .

الاسترقاق في الديانة المسيحية

لا تجد في الديانة المسيحية نصاً صريحاً ضد الاسترقاق ، ولم يأت به الحواريون^(١) ، ولا قالت طائفة من الطوائف النصرانية في الكنائس المختلفة بتحريم الاسترقاق ، إلا ما جاء في الإنجيل : من أن الناس كلهم يعتبرون إخواناً ، وأنه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضاً .

بل أوصى بولس^(٢) الأرقاء في رسالته التي بعث بها إلى الأفسسيين^(٣) ، أن يطيعوا مواليتهم مع الخوف والرعب ، كما يطيعون المسيح عليه السلام ، كما أوصاهم الحواريون بطرس^(٤) أيضاً بأن يكونوا خاضعين لمواليهم وأن يخشوهم .

وعلى أثرهما سار آباء الكنيسة ، فأباحوا الاسترقاق وأقزوه : أقتى بذلك

(١) الحواريون : أصحاب سيدنا عيسى عليه السلام .

(٢) القديس بولس : ولد في السنة الثانية لليلاد : من أبرين يهوديين في مدينة طرسوس .

(٣) هم سكان مدينة أفسس القدينة في آسيا الصغرى ، وهي شهيرة بيهكل ديانا الذي يعد من عجائب الدنيا السبع .

(٤) أحد الحواريين الاثني عشر ولد في بيت صيدا .

(سيريانوس^(١)) و (توماس^(٢)) الذى يقول : « إن الطبيعة خصصت بعض الناس ؛ ليكونوا أرقاء ، . وقال باي بصحة الاسترقاق ، معتمدا على ماورد فى الإصحاح الحادى عشر من سفر الخروج ، وفى الإصحاح الخامس عشر من سفر الأحبار .

وأقر بوفيه أسقف ألمان — عاصمة مقاطعة السار فى فرنسا — الاسترقاق واعتبر النخاسة تجارة مجللة . وأثبت الأب فوردنييه — رئيس دير الروح القدس — أن الاسترقاق من جملة النظام المسيحى .

وقال باتريس لاروك فى كتابه (الاسترقاق عند الأمم النصرانية) :
إن الديانة المسيحية لا تحزم الاسترقاق نصا ، ولم تلغه عملا .

ثم قال پيرلاروس (من كبار الأدباء فى فرنسا) : « لا يعجب الإنسان من بقاء الاسترقاق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم ؛ فإن ثواب الديانة الرسميين يقرون صحته ، ويسلبون بمشروعته ، .

والخلاصة : أن الديانة المسيحية ارتضت الاسترقاق ارتضاء تاما إلى يومنا هذا ، ويتذرع على الإنسان لإثبات أنها سعت فى إبطاله . ولقد ظل الأمر كذلك حتى جاءت الثورة الفرنسية ، التى نادى بأن جميع الناس متساوون أمام القانون .

الرق فى الإسلام

مما تقدم يتبين أن الإسلام جاء والاسترقاق منتشر فى العالم جميعه ، مع تشعب سبل الاسترقاق ، وفقد طرق التحرير ، ووجود التشديد القانونى على الأرقاء ، والانفصال التام بينهم وبين مواليمهم ، فلم يكن من الحكمة مفاجأة

(١) ولد بقرطاجنة من أبوين وثنيين فى أول القرن الثالث الميلادى ثم تنصر .

(٢) من مشهورى اللاهوتيين .

العالم بإبطاله جملة واحدة ، لأنه أمر تأصل في العالم ، بتقرير الشرائع السماوية والأرضية السابقة ، وتمسك الناس به أحقاباً وقروناً ، واتخذوه أصلاً من أصول مدنياتهم . ولو فاجأهم الشرع الإسلامي بذلك لأخرج صدورهم ، والجأهم إلى الاحتجاج بقواعد الشرائع الإلهية والوضعية ، ووقوفهم موقف المدافع المعاند .

يبد أن الإسلام ضيق من سبل الرق ، وحصرها في سبيل واحد ، وهو المحاربة الشرعية المنظمة لقوم كافرين ، بعد عرض الإسلام أولاً ، ثم الجزية . فإن أجاب الأعداء إلى أحدهما عصموا أنفسهم وأموالهم ؛ وصار لهم مالم للسلبيين وعليهم ما عليهم . وإن أبوا ودارت عليهم الدائرة ، صاروا أرقاء للغالبيين بعد إذن من الإمام .

على أن ذلك لا يحرمهم نعمة الرجوع إلى الحزبية إذا افتدوا أنفسهم بمال ؛ كما أن للحاكم أن يطلق سراحهم لوجه الله تعالى . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَمَا مِنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ .

سبل التحرير

أما سبل التحرير فكثيرة ، أهمها مايلي :

(١) تحرير النفس وسيلة لغفران الذنوب العامة : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه أعرابي فقال : يا رسول الله ، دلى على عمل يدخلني الجنة ، فقال : (عَتَقُ النَّسَمَةَ ، وَفَكَ الرِّقَبَةَ) . قال الأعرابي : يا رسول الله ، أو ليسا واحداً ؟ قال : لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها .

(٢) قررت الشريعة أن يتبع غير الحز من الأجزاء الحز منها : فمن أعتق بعض عبده سرى العتق إلى باقيه ، وكذا لو أعتق بعض الشركاء نصيبه في رقيق فإن العتق يسرى إلى الكل ، ويقوم على المعتق نصيب شركائه إن كان له مال ، وإلا سعى العبد لأداء نصيبهم ، فيخلص من الرق .

(٣) جعلت الشريعة العتق كفارة للقتل الخطأ : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ .

وسر ذلك أن القتل إعدام للحياة الجسمية ، والتحرير بالكفارة إيجاد للحياة المعنوية .

(٤) التحرير أفضل سبيل لغفران الحنث في الحلف بالله أو بصفة من صفاته (٥) إذا ظاهر^(١) الرجل من زوجته ، ثم عاد لما قال وأمسكها في عصمته ، وجب عليه أن يسلك سبيل التحرير وحده متى كان مستطاعاً ، فيحرر رقبة من قبل أن يتماسا .

(٦) من علم في مولاه^(٢) الخير ، فكاتبه^(٣) على قدر معين يؤديه في نجمين^(٤) أو أكثر ، لزمه العقد ، ونُدب الخط من مال الكتابة ، ويصبح المولى حراً بأداء النجوم أو الإبراء أو الاعتياض . وتسرى الكتابة إلى ولد المكاتب بعد الكتابة ، فيعتق بعثتها .

(٧) من نذر تحرير رقبة إن نال ما يرجوه ، أو سلم بما يخشاه ، لزمه

(١) ظاهر الرجل من امرأته ، إذا قال لها : أنت على كظهر أمي . يريد أنها حرام عليه كحرمة أمه . وكان الظاهر طلاقاً في الجاهلية ، نهوا عن الطلاق بلفظ الجاهلية وأوجب عليهم الكفارة تغليظاً في النهي . (٢) المولى : العبد . (٣) كاتب : عاقده (٤) قسطين

الوفاء بما نذره متى تم له مراده .

(٨) أباحت الشريعة زواج الأحرار بالإماء . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ثم جعلت أولاد الحرائر من الأرقاء أحرارا يرثون آباءهم . على حين كان المتبع عند الازيقوط (فرع من القوط . وهى أمة قديمة بجرمانيا) إحراق الحرة مع زوجها إذا تزوجت برقيق .

مميزات الرقيق

نظر الشرع الإسلامى نظرة عطف ورحمة إلى المستضعفين بالرق ، الذين لم تتم نعمة الله عليهم بالحربة الكاملة : فلم يجعل جرائمهم المشابهة لجرائم الأحرار متماثلة فى القبح والاستنكار ، بل جعل جريمة الرقيق لضعفه ونقص نعمة الحرية عنده ، أقل من جريمة الحر لقوته وتما نعمة ، وذلك بأن صير عقوبة الرقيق نصف عقوبة الحر إن لم يمنع من ذلك مانع : فعليه نصف ما على المحسن الحر من الجلد بالقذف مثلا . ولتعذر التنصيف فى عقوبة قطع اليد فى السرقة أبقى كاملا ، ولا سيما أن فيها حفظا للأموال ، وردعا للنفس الشريرة .

مزايا الإعتاق الاجتماعية

(١) وصلت الشريعة الإسلامية المولى بسيدته بعد فصله عنه بالإعتاق فأوجدت بينهما ولاء جُلّ فوائده للمولى لالسيد ، لأن هذا الولاء يصونه عن ضعف العزلة ويؤنسه فى الانفراد ، ويحبّه ما يحدثه فقد العصية من الخذلان

والإذلال : فالرقيق يؤتى به عادة إلى بلاد قاصية ، فلا يكون له عضد سوى مولاه . فإذا انفصل عن سيده انفصالا تاما آلمه انقطاعه عن جميع الناس في شخص سيده ، ولحقه ضرر كثير .

(٢) هذا الولاء يوجب على السيد القيام بحاجة المولى إذا عجز عن تحصيلها ، تأمل قصة زنباع مع غلامه : ذلك أن غلامه اقترف إثما ، فجدع زنباع أنفه فجاء الغلام إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم يشكو زنباعا ، فقال الرسول لزنباع : ما حلك على هذا ؟ قال : كان أمره كذا وكذا ، فقال الرسول للغلام : اذهب فأنت حر ؛ فقال : يا رسول الله ، فولى من أنا ؟ فقال : مولى الله ورسوله . ولما قبض صلى الله عليه وسلم جاء هذا الغلام إلى أبي بكر ، فقال : وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : نعم : تجرى النفقة عليك وعلى عيالك ، ثم قال مثل ذلك لعمر بن الخطاب حين خلافته . فقال : نعم : أين تريد ؟ قال : مصر ، فكتب إلى عامله بها أن يعطيه أرضا يأكل من ثمرها .

(٣) هذا الولاء يكسب المعتقة الرغبة فيها ، فإن من الناس من يأبى الاقتران بمن لا ولى لها من الأهل ، أو من يكونون بمنزلتهم . أضف إلى ذلك أن الولى قد يعرف الصالح لها دونها .

معاملة الرقيق

ما جعل الإسلام الاسترقاق موجبا للهوان ، ولا مسقطا للكرامة ، ولم يكن عند المسلمين ذلك الفرق الجسيم الذى تتصوره الآن بين الرقيق وسيده ، بل عاملوا المولى على أنهم أفراد الأسرة ، وخلطوهم بأنفسهم ؛ وأوجبت الشريعة معاملتهم بالرفق واللين ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ

شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) وروى على كرم الله وجهه ، عن النبي عليه
الصلاة والسلام : (اتَّقُوا اللَّهَ فِيْمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) وروى ابن عمر عنه
صلى الله عليه وسلم : (اتَّقُوا اللَّهَ فِي الضَّعِيفِينَ : الْمَمْلُوكِ وَالْمَرْءَةِ) . وروى أنه
قال : (إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ ^(١)) فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ
وَلْيَلْبَسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ) . وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : (مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ عِتْقُهُ) . وقد نهى رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن تحقير العبد ، وتذكيره مأهول فيه من الاستعباد ، فقد جاء
عن أبي هريرة أنه قال : قال عليه الصلاة والسلام : (لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي .
أَمْتِي . وَلْيَقُلْ : فَتَاىَ ، وَفَتَاتِى ، وَغُلَامِى) .

هذا إلى أن الإسلام حث على تعليم الرقيق وتهذيبه . فقد قال عليه الصلاة
والسلام : (مَنْ كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ فَعَلَّمَهَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا وَتَزَوَّجَهَا ، كَانَ لَهُ أَجْرَانِ
فِي الْحَيَاةِ وَالْآخِرَةِ : أَجْرٌ بِالنِّكَاحِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَأَجْرٌ بِالْعِتْقِ) .

وفي التاريخ مثل سامية لما وصل إليه الموالي من المنزلة التي قد تسمو إلى
أعلى مرتبة ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد ، على جيش فيه سيدنا
أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

اتضح من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأقوال الأئمة وشواهد

التاريخ ، أن الدين الإسلامي ضيق حدود الاسترقاق ، وبين وسائل الخلاص لمن وقع في أشراكه ، وبسط له جناح رعايته ولواء حمايته ، وأوصى بالرفق به ومعاملته بالحسنى ، وتأديبه وتهذيبه وعدم احتقاره ، وأن يزوجه الأرقاء تعجيلاً لتخليصهم من ربة الاستعباد .

ولا يضير الإسلام ما كان يشاهد في كثير من بلاد المسلمين : من خطف الزوج ، ويبيعهم ، واسترقاقهم : فما كان عمل الجاهلين حجة على الأديان في أى عصر من العصور .

المقصد الرابع

مقت البطالة ووجوب العمل

لكسب المال من الوجوه المشروعة

خلق الله تعالى هذا العالم الأرضي ، وجعل أعيانه كلها مسخرة للإنسان الذي زانه بالعقل . وحلاه بالفكر ، وسخره بالإرادة ؛ ليعمر الأرض تعميرا يوافق السنن الإلهي المطلوب في تنظيم العالم ، وتنسيق أشيائه ، واستخراج مواد معاشه على الوجه الأكمل . ولقد نطق الكتاب الكريم بذلك في كثير من المواضع : منه ما هو على سبيل الاستنارة ، ومنه ما هو على سبيل الحث على تجويد الأعمال .

قال تعالى في خطاب بني إسرائيل : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال في خطاب المسلمين : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ . وجاء في تذليل الأرض وتسخيرها لبني آدم : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ . وقال تعالى في السعي وطلب الرزق : ﴿ فَاتَّشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ . وقال في تقسيم الأعمال والمساعى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى غير ذلك من

الآيات البينات، والحجج القاطعات، مُوردة في معرض الأمثال تارة، والحث على السعى في طلب الرزق أخرى، حتى يتم استعمار هذا العالم، وصلاح هذه الدار التي هي مزرعة الآخرة. قال عليه الصلاة والسلام: (أُحْرَثُ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَأُحْرَثُ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا).

فالدنيا نعمة، واستصلاحها واجب، والشكر عليها واجب. قال عليه الصلاة والسلام في معرض الحث على العمل. والسعى على الرزق: (إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا يُكَفِّرُهَا إِلَّا الْهَمُّ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ). وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا وَتَعَفُّاً عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَسَعِيًّا عَلَى عِيَالِهِ وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَوَجْهَهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ يَتَّخِذُ الْمِهْنَةَ لِيَسْتَعْنِيَ بِهَا عَنِ النَّاسِ). وقال: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في الحث على العمل: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة.. والآثار والأقوال في باب فضل العمل والسعى واكتساب المال الحلال؛ يضيق عنها الحصر.

ولا احتياج الناس بعضهم إلى بعض، يسر الله كل واحد منهم لصناعة يتعاطاها، ينشرح بها صدره، ويؤثرها على غيرها من الحرف. ولولا التيسير الإلهي لاختار الناس بأجمعهم صناعة واحدة، فبطلت الأقوات والمعاشات. فحكمة الله تعالى هي التي صرفت الناس في سبل الأعمال المتنوعة: فمن الناس من هو راض بصنعتِهِ لا يريد غيرها حولا، ولا يبغي بها بدلا: كالحائك الذي

يرضى بصنعتة ويعيب الحجام ، والحجام الذى يرضى بصناعته ويعيب الحائك .
ومنهم من هو كاره لها يكادها على الكراهية ، كأنه لا يجد منها بدلا ، وعلى هذا
دل قوله عليه السلام : (كُلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ) . وقوله تعالى : ﴿ تَحَرُّ
قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ
فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ . وقال عليه السلام : (لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا فَإِنْ
تَسَاوَوْا هَلَكُوا) . والتفرقة والاختلاف فى نحو هذا الموضوع ، سبب الالتام
والاجتماع والاتفاق ؛ كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتفرقها ، فلولاها
ما حصل لها نظام . ولا استقام بها فهم وإفهام .

ومن ذلك يتبين أن الانقطاع عن العمل والتفرغ للعبادة جملة ، ليس من
المبادئ الإسلامية البتة : فالإسلام يكره الكسل ، ويحرم البطالة ، ويمقت
صاحبها ، ويفضل رجل العمل : وعظ لقمان الحكيم ابنه فقال : (يا بني ، استغن
بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما اقتر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال :
رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته . وأعظم من هذه الثلاث
استخفاف الناس به) . فالعمل والسعى واجبان لإنسان ، والاسلام يحث
عليهما ، ومن تعطل أو تبطل فى غير عجز ، فقد انسلك عن الإنسانية وصار
فى حكم الموتى .

ولقد كان للسلف الإسلامى عناية بالصناعات التى اشتغلوا بها ، واعتمدوا
فى رقيهم عليها ، بقدر ما وسعه تقدمهم ، وتحروا فيها الكمال والإتقان ، الذى
ندب إليه الشارع الحكيم عليه السلام : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الصَّانِعَ الْحَادِقَ) .
ولا معنى لهذا وأشباهه سوى حث المهم على تحرى الاستجادة ،

وإتقان الأعمال ، لنيل المزيد في الربح والرواج ، فضلاً عن بلوغها الكمال العمراني ، الذي هو أسمى ما يطلب من الإنسان ، بمقتضى فطرته ووظيفته في الأرض .

والصناعات البشرية التي يعتمد عليها أكثر الناس في تحصيل العيش والكسب كثيرة ، لكثرة فروع الأعمال المتداولة بين البشر ، على حسب بيئات بلدانهم وأقطارهم المختلفة في أوضاعها ومنتجاتها ، وأحوال ارتقائها . فلكسب العيش وتحصيل الأرزاق ، ولنيل العز والسعادة والغبطة في هذا العالم ، لابد للبرء في شريعة الاسلام من عمل يعمل فيه ، وحرقة يحترقها ، وصناعة يمارسها .

وخلاصة القول : أن العمل واكتساب المال على أنواعه من وجوهه المشروعة ، مع أداء الحقوق المفروضة على المرء فيه ، والاعتدال في الإنفاق ، وادخار المال للأيام وكبار الأعمال — هو القطب الذي تدور عليه رضى هذه الدنيا في عمارتها ، والغاية التي يقصد إليها الاسلام في آدابه العالية ، وتعاليمه السامية .

المقصد الخامس

حسن المعاملة

قالت الحكماء: «الإنسان مدنيّ بالطبع». فلا بد له من الاجتماع ببنى جنسه، ليأنس بهم ويأنسوا به، متكافلين في الأعمال، متضافرين في المساعي. وقد يشارك كثير من أنواع الحيوان الإنسان، على نوع ما في فضيلة العيش جماعات - غير أنها تختلف في الكيفيات والترتيبات، المبنية على قوة الفكر والعلم، والعمل المحكم: كالقردة، والفيلة، وبقرة الوحش، والقط، والفيل، والنحل.

ولقد نبه القرآن الكريم على هذا الاجتماع الإنساني وآدابه في كثير من المواضع. قال تعالى في تفاضل الشعوب: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾. وقال تعالى في التعاون الصحيح: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. وبين كذلك حال العشرة القريية في النسب والمصاهرات والقرابة.

وقال عليه السلام في أدب الاجتماع، وحقيقة مبدئه في التكافل والتعاون بين أبناء المجتمع الواحد: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد إذا اشتكى

عَضُونَهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُهُ بِالْحَمَى وَالسَّهَرِ .

وأول رباط في العشرة الزواج . وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنته . فقال : « النَّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي ، وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ سُنَّتِي فَقَدْ رَغِبَ عَنِّي » . والزواج أفضل ما يحفظ قوام المجتمع . فقد جاء في الحديث : « مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَزَ شَطْرَ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي » . وفوائد الزواج في المجتمع خمس :

(١) إيجاد الولد بقاء للنسل وحفظاً للجنس : وهو الأصل في حكمة الزواج ، حتى لا يخلو العالم من جنس الإنس . قال عليه السلام : « تَنَاحُوا تَنَاسَلُوا » . وقال تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

ولمراعاة هذا السنن الإلهي ، والواجب الطبيعي ، لم يرد في أحوال المسلمين ولا في شريعتهم أمر الرهبانية ، ولا العزوبة الدائمة ، إلا للعدو الشرعي . (٢) الحاجة الطبيعية : حتى تُكسر الشهوات ، وتُحصن النفوس من النزغات ، وتُلزم العفة المطلوبة شرعاً : ففي الزواج قهر غائلة النفوس ، وصيانتها من الوقوع في فساد الأخلاق والموبقات المفسدة لحال الاجتماع .

(٣) إدخال الراحة على النفس ، والهناء ، والسعادة ، وترويح القلب : حتى لا تنصرف حواسه عن غير حلاله ، وحتى ينشط للعبادة ، ويتفرغ لعمله المعاشي في نهاره ، والقيام بتكاليف الحياة المطلوبة . جاء في الخبر : « لَا يَسْكُونُ الْعَاقِلُ طَامِعاً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ : تَزُودٍ لِمَعَادٍ ، وَحِرْفَةٍ لِمَعَاشٍ ، وَلَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ » .

وقال الإمام على كرم الله وجهه : « رَوِّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً ؛ فَإِنَّهَا إِذَا أُكْرِهَتْ عَمِيَتْ . »

(٤) تدير المنزل : من الطبخ ، واللباس ، والفرش ، والكنس ، وتنظيف الأواني ، وتهئية كل مطالب البيت ، ولذلك يجب تربية الفتيات تربية منزلية صحيحة ، تعلمهن القيام بواجباتهن المنزلية عند ما يصرن نساء لرجال الأئمة . قال عليه السلام : « مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَأَنْفَقَ عَلَيْهِنَ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَ حَتَّى يُغْنِيَهُنَّ اللَّهُ عَنْهُ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ الْبَتَّةَ الْبَتَّةَ . » ورأس الإحسان إليهن حسن تربيتهن .

(٥) مجاهدة النفس وحها على زيادة التنشط في السعى على الأرزاق ، والكسب الحلال . وفي الحديث : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . » والآداب المطلوبة من الزوجين كثيرة ، فمنها :

(١) تحسين الخلق بين الزوجين ، لتصفولها المودة ، وتحسن بينهما العشرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ . وقال عليه السلام : « اكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَالْأَطْفَهْمُ بِأَهْلِهِ . »

(٢) الاعتدال في الإنفاق : هو مطلوب في كل شيء من الرجل والمرأة . (٣) الغيرة : وهي ألا يتغافل عن بواطن الأمور التي تخشى غوائلها ، مع عدم المبالغة في إساءة الظن : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ .

(٤) تعليم الزوجة المعارف الضرورية الدينية والدنيوية .

(٥) تأديب الأولاد وتربيتهم تربية اسرية كريمة .

(٦) إصلاح ذات البين فيما ربما يشجر بين الزوجين أو يستحكم من

الخلاف ، بتحکم الأهل في ذلك . قال تعالى : ﴿ فَابْتَئُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وإصلاح ذات البين بين الناس عموماً ، وبين الأزواج خصوصاً ، من أعظم ماحث عليه الشارع الحكيم ، وندب إليه .

(٧) العدل بين الزوجات إذا كان للبره أكثر من زوجة إلى أربع ، كما ورد به الجواز بشروطه — غير أن مسألة العدل بين الزوجات من أصعب الأمور وأشقها على النفس ، ولذلك كان الاقتصار على الزوجة الواحدة من أحكم ما يأتى امرؤ في حياته الاجتماعية ، إلا إذا ألجأته الضرورة الشرعية إلى التعدد .

أما حسن معاملة الوالدين والإخوة وسائر القرابة ، فما حث عليه الشارع وأوجبه ، وجاء به أدب الإسلام الشرعى ، إذ قد جاءت الآيات القرآنية حاثّة على ذلك ، أمره به ، وكذلك الأحاديث النبوية الكثيرة الواردة في برّ الوالدين ، وحسن القيام بحقوقهما ، والأدب معهما ، وصلة الأرحام ، والتجيب إليها ، تودّداً وتعطفاً . قال عليه السلام في حديث فضل صلة الأرحام :

« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ وَيُوسَّعَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ،

أما عقوق الوالدين ، وجفاء ذوى القرابة ، فمن أمقت الخصال ، وشر الرذائل والسخائم^(١) التي ورد النهى الشديد عنها .

أما معايشرة الإخوان خاصة وبنى الإنسان عامّة ، فلها حقوق وآداب جمّة ، يجدر بكل إنسان أن يتحلّى بها : « فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه » . وأعظم مؤثر في الألفة الاجتماعية على الإطلاق حسن الخلق ، وقد حث عليه الدين

(١) السخائم : الأحقاد ، واحداً سخيمة .

كثيرا ، لأنه موجب للتحاب والتآلف والتوافق . ولقد مدح الله نبيه بحسن الخلق فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . وفي الحديث الشريف : « أَكْثَرُ مَا يَدْخُلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » .

وجاء في الحديث : « أَحْسَنُ الْحَسَنِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ » .

فحسن الخلق من التقوى النفسية الملازمة للنفس ، الممتزجة بالأذواق الكريمة التي تحصل بالاتصاف بأجل الأحوال التعاملية : إما من طريق الدين ، وإما من طريق الآداب الاجتماعية . قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقال عليه السلام في مدح أصحاب الأخلاق الفاضلة : « أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوْطَنُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْتُونَ وَيُؤْتُونَ » . وقال أيضا : « الْمُؤْمِنُ أَلْفُ مَالُوفٍ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ » .

هذا هو الشأن في الإخاء القوي ، والمعاشرة الاجتماعية بالمعنى الأعم . أما الصداقة بالمعنى الأخص ، في المجتمع الإنساني ، فقد تكون أدق وأمتن ما يكون في هذا الباب ، من حيث اتحاد المشارب والأذواق ، تبعاً لتلك الخاصية أو الجاذبية في النفوس ، المعبر عنها بالمناسبة والمشاكلة ؛ لأن الناس أشكال وأمثال : « وشبه الشيء منجذب إليه » .

وللصحة حقوق وآداب ، يجب الوفاء بها ، وأداؤها على أكمل وجه ، ويمكن حصرها فيما يلي :

(١) الحق في المال : قال عليه السلام : « مَثَلُ الْأَخَوَيْنِ مَثَلُ الْيَدَيْنِ

تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى . يريد المعاونة في الشؤون المالية بالإقراض ،
ومد يد المساعدة حين الحاجة إليها ،
قال الشاعر :

إذا أنا أعطيت الكريم مودتي فليس لمالي بعد ذلك مانع
ولو وصلت الحال إلى الإيثار على النفس كما بلغت إليه حال المروءة الإسلامية
في عهد النبي عليه السلام . قال الله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

(٢) الإعانة بالنفس في قضاء حاجات الإخوان .
(٣) السكوت باللسان عن القدح في الأصحاب ، فيما يعد تنقصاً لشأنهم ،
وحطاً من كرامتهم ، أو اغتيالهم بما يكرهون في نفس ، أو عرض ،
أو مال ، قال تعالى : ﴿ أَحِبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ . وقال
عليه السلام : « لَا تَجَسَّسُوا ^(١) وَلَا تَحَسُّسُوا ^(٢) وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ،
وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .

(٤) النطق بحلو الكلام ، وتعود محاضرة الإخوان بما يُذيع المحامد
والمحاسن ، وينشر بين الأصدقاء لطائف الحديث . والسمر بأدب وحشمة
مع ترك هجر القول ، وبذاء اللسان .

(٥) الإغضاء عن الهفوات ، واعتقار الزلات : مما لا يخلو منه إنسان ،

(١) التجسس : تنصص الأخبار وتتبعها لمعرفة السوء منها

(٢) التحسس : الانبعاث للحديث الناس

ولا يوجب قطيعة ، ولا يقتضى هجراً :

ولست بمستبق أخاً لا تلته على شعث ، أى الرجال المهذب ؟
(٦) الإخلاص والوفاء : وهما من أقوى العوامل فى استدامة الصحة .
وتوثيق الألفة ، ومن الإخلاص ألا تُصرم جبال المودة وإن بعدت
الشقة ، ومن الوفاء الثبات على الحب حال الحياة وبعد الممات . قال عليه السلام
« قَلِيلُ الْوَفَاءِ بَعْدَ الْمَمَاتِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ حَالِ الْحَيَاةِ » .

(٧) التخفيف وترك التكليف من أجل الآداب وأعظم الأصول . قال
بعض الحكماء : من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره فقد أثم وأثموا ،
ومن جعل نفسه فى قدره تعب وأتعبه . ومن جعلها دون قدره سلم وسلوا .
ولن يتم التخفيف إلا باطراح التكليف .

وما يزيد الألفة بين الناس إفشاء السلام ، ولين الكلام ، وتجنب الأذى
باللسان والأفعال ، مصداقاً للحديث الشريف : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ
لِسَانِهِ وَيَدِهِ » . والتجاوز عن بعض السقطات ، وتوقير ذوى المقامات والأسنان
والبر ، والشفقة بالضعفاء والمساكين ، وإغاثة الملهوفين ، وإصلاح ذات
الدين (١) ، وإزالة المنكر .

أما المعاملات فى مطلق الشئون التعاملية ، فيجب فيها الصدق ، والأمانة ،
والعدل فى الأخذ والعطاء ، والوفاء بالعهود والوعود ، والانصاف من
النفس ، وأن يصحب المرء الناس بما يجب أن يصحبه به ، قال عليه السلام
لأبي الدرداء : « يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ ، أَحْسِنِ مَجَامَلَةً مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُوَافِقًا وَأَحِبَّ

(١) ذات الدين : العداوة . وإصلاحها تسكينها وعدم إثارتها .

لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا»

أما حقوق الجوار فهي من أشرف الحقوق ، وأجل الآداب الإسلامية
وفي الحديث الشريف : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ »
ولقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً بالجوار حتى كاد يورثه
كما أنشأ أصل الشفعة في الشريعة مراعاة لراحته عند بعض الأئمة . وقال عليه
السلام في حقوق الجار : « أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ ؟ إِذَا اسْتَعَانَ بِكَ أَعْتَهُ ،
وَإِنْ اسْتَنْصَرَكَ نَصَرْتَهُ ، وَإِنْ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ ، وَإِنْ مَرَضَ عُدْتَهُ ، وَإِنْ
مَاتَ شَبِعْتَ جَنَازَتَهُ ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَأْتَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ ،
وَلَا تَسْتَطِلَّ عَلَيْهِ بِالْبِنَاءِ فَتَحْجَبَ عَنْهُ الرِّيحُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَا تُؤْذِهِ ، وَإِذَا
اشْتَرَيْتَ فَأَكْهَةً فَأَهْدِلْهُ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا ، وَلَا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ
لِيَغِیْظَ بِهَا وَلَدَهُ ، وَلَا تُؤْذِهِ بِقُتَارٍ ^(١) قَدْرَكَ إِلَّا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا » .
ثم قال « أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَبْلُغُ حَقَّ الْجَارِ إِلَّا مَنْ
رَحِمَهُ اللَّهُ » .

(١) راحة الطعام .

المقصد السادس

إقامة العدل ومحق الظلم والحكم في الناس بما يصون حقوقهم كل ما في هذا الكون المحكم بعوالمه يقوم على نظام محكم وترتيب عجيب : **﴿ ذَلِك تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾** . فيجدر بالإنسان أن تكون كل أحواله وأعماله العامة جارية أيضا على نظام يدبر شئونه ، ويسوس أموره . ومن أجل ذلك اقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى إيجاد السلطان الوازع ، والشرع النافذ في خلقه منذ القدم ، وفي كل الشعوب والأمم : **﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾** . ولهذا قيل : « السلطان ظل الله في الأرض » .

بالعدل والنظام قامت السموات والأرض . ومبدأ القرآن فيما يتعلق بالنظام الاجتماعي دأب على محور إقامة العدل ، وحسن تدبير الشئون في سياسة الخلق . فسياسة المصالح وتدبير الأمور على حسب مقتضيات مادة وأدبا ، مطلوب من الراعي لرعيته . وتقرير النظام ، وبسط رواق الأمن ، وتمهيد سبل استغلال الثروة في المجتمع ، ونصب ميزان القضاء العادل بالشرع والقانون ، والذود عن حياض المملكة والدفاع عنها ، وتشجيع العلم والعلماء ، وتسهيل نشر المعارف ، والأمر بالمعروف بين الرعية — حقوق واجبة على الحكومة في نظر الإسلام ، حث عليها الشارع ، ونزل بها الكتاب ، وجرى بها العرف الصحيح .

فتوطيد دعائم الأمن ، وتأسيس المنافع ، وتسهيل سبل المرافق ، من

أجل ما حث عليه الشرع الإسلامى ، وأوجبته المبادئ الإسلامية في آداب الحكومة .

وبالعدل تنظم أحوال الرعية . ولقد نص الله تعالى في أكثر من آية من كتابه العزيز ، على إقامة قسطاس العدل في الشئون المختلفة ، وفيما يشجر بين الناس من الخصام في الحقوق وسائر المعاملات .

ولذلك وجب في نظام المجتمع الإسلامى وآدابه السامية ، اختيار القضاة والولاة والنواب وسائر العمال : من أهل العلم ، والتقوى ، والنزاهة . ولقد ورد في الحديث الشريف : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وَرُودِ الشُّبُهَاتِ ، وَيُحِبُّ الْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهَوَاتِ » .

والرشوة وما في حكمها هي : السحت ^(١) ، والربا المحرم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وهي إذا أخذت لإحقاق باطل ، كانت من أشأم الظلم والجور الذى لا يفلت صاحبه من عقاب الله ، وإذا تنولت لتيسير مصلحة بحق ، كانت من أعظم أكل أموال الناس بالباطل .

ومن الكذب على الله ، والاقتراء على الناس ، ما يقتضيه المحكوم للحاكم باسم الهدية ، وهي الرشوة بعينها :

جاء في صحيح البخارى ومسلم ، عن أبى حميد الساعدى قال : « استعمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلا من الأزد اسمه ابن اللثية على الصدقة ، فلما قدم قال : « هذا لكم ، وهذا أهدي إلى » ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَا بَالُ الرَّجُلِ نَسَعَمَلُهُ عَلَى عَمَلٍ بِنَا وَلَنَا اللَّهُ ، فَيَقُولُ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِي » .

إِلَى ؟ فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَنَظَرَ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا ؟ وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ : إِنْ كَانَ
بَعِيرًا لَهُ رِغَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خَوَارٌ ، أَوْ شَاةٌ تَعْرِ^(١) . ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا
عَقْرَ^(٢) إِبِلِهِ ، وَقَالَ : «اللَّهُمَّ ، هَلْ بَلَغَتْ ؟» .

فتبادى عمال السوء في أخذ الرشوة ، وخيانة الدولة ، من أعظم ما يفسد المصالح
القضائية والإدارية في المملكة . فاختيار العمال واجب ، وتقيدهم بالنظام لازم ،
وانتقاؤهم من ذوى الاستقامة المشهورين بالصدق والإخلاص والعفة والحزم
ضربة لازب .

ومن أصول دعائم قيام المملكة تنظيم الجند للحراسة ، والذود عن حياض
الدولة والأمة داخلًا وخارجًا . وهذا أمر مطلوب ومرغوب فيه ، وداخل
في حكم الآية الشريفة : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ .
فيجدر بالأمم الإسلامية أخذ الحذر ، والسهر والمداومة على انتقاء أحسن
التدابير العسكرية الفنية والعملية ، بماله أصل في الترغيب في القرآن الكريم :
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ﴾ . وكل
ذلك يقتضى إغداق الأرزاق على الجنود ، واختيار أجود العدد والسلاح
واللباس ، والمرانة على أساليب الحرب

قال الإمام الطُّرُطُوشِيُّ في كتابه سراج الملوك في فضل الجنديّة ، والحث
على القيام بشأنها : «الجنْدُ عُدَّةُ الْمُلْكِ وَحِصُونُهُ ، وَمَعَاقِلُهُ وَأَوْتَادُهُ ، وَهُمْ حِمَاةُ
الْبَسِيطَةِ ، وَالذَّابُّونَ عَنِ الْحَرَمَةِ ، وَالِدَافِعُونَ عَنِ الْعَوْرَةِ ، وَهُمْ جُنُودُ^(٣) الثُّغُورِ
وَحِرَاسُ الْأَبْوَابِ ، وَالْعُدَّةُ لِلْحَوَادِثِ ،

(١) تصحيح . (٢) أصل . (٣) حمزة الثغور .

المقصد السابع

تعميم الوحدة الأخوية بين جميع أهل هذا الدين الحنيف ذلك أن الله جلّ شأنه ، علم أن النفوس لا تتم ولا تعتز جامعتها ، إلا إذا كانت القلوب مطمئنة بعضها إلى بعض ، مرتبطة برابط حقيق محكم ، وليس أشرف من رابطة الاسلام ووصلته : تلك هي الأخوة المقدسة . ولا يوجد أحكم من نسجها ، ولا أقوى توثقاً من عروتها : فهي أقوى من البُنوة الصلبية ، لأنها لا تصل الانسان إلا إذا كانت مشفوعة بالبنة الشرعية وهي تنقطع بالكفر . فإذا كفر الولد انقطع عن أبيه ، وإذا كفر الوالدان انقطع عنهما الولد : فلا يرثانه ولا يرثهما — مع ثبوت البنة الصلبية في كلتا الحالتين . ومن هذا وجب أن نجزم بأن مرتبة الرابطة بالحكم الإلهي ، فوق مراتب ذوى القربى والأخوة ، ثم إن الله تعالى أوجد الأخوة الشرعية بين عموم المسلمين على اختلاف أجناسهم ، وتباين مواطنهم ، وتغاير قبائلهم . فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ . وقد عبّر بلفظ الأخوة الذي لا يقال إلا لأخوة النسب ، دون (الإخوان) الذي يشمل إخوة الصعبة والصدقة .

وقد أحكم الله بين المؤمنين هذه الوصلة الأخوية بما لا مزيد من الأحكام عليه . ووثق هذه الرابطة توثيقاً لا يرقى الوهن إليه ، فقال : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ . فهذا نسب مشروع بحكم إلهي ، لا تنقطع وصلته ، ولا تنفصم عروته ، ولا تنمى مرثته ، فقد حكم بينوة المؤمنين لأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين . وكان حقاً على المؤمنين أن

يعتقدوا ذلك، ومنكره جاحد . وقد أيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :
 ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِمَّنْزِلَةُ الْوَالِدِ عَلَيْكُمْ﴾ وقوله : «أَنَا جَدُّ كُلِّ تَقِيٍّ» . وقد أيد ذلك
 ما فعله النبي من إيجاب المؤاخاة حين الهجرة : فإنه آخى بين كل اثنين من
 المهاجرين : بين كل غني وفقير منهم ، حتى يتعاونوا على السراء والضراء ، وكذلك
 أمر بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

ولما كان تعالى والفخر بالنسب إلى القبائل والعشائر من أكبر موانع
 التأخى ، لأن النفس أياً كان صاحبها ، تطمح إلى المعالي ، وتأنف التسفل ،
 أمر الله جل شأنه بترك المنازعة بالألقاب ، والتفاخر بالأنساب ، فقال تعالى :
 ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ . فاللام للتعليل ، أى جعلهم كذلك
 ليتعارفوا ، لا ليتعالى بعضهم على بعض ؛ فإن الكل ينتهى إلى أصل واحد ،
 وهم أفراد أسرة واحدة ، نحاً كل قسم منها منحنى بحكم الحاجة والعمران ، ثم
 قصر الله وجهة الفخر والكرامة على التقوى لا غير . فقال : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
 عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُكُمْ﴾ . فلا يكرم الله إلا الاتقياء . وهذا ما يصح أن يفخر به ،
 وأما غيره فمقوت مهان : ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَعَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ . وقد أيد الله
 ذلك فى الآخرة ، فقال : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ
 وَلَا يَتَسَامَوْنَ﴾ . وقال : ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْضَلُ
 بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وقد ورد فى هذا المعنى من الأحاديث النبوية كثير . فقال صلى الله عليه

وسلم: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِيَةَ^(١) الْجَاهِلِيَّةِ وَنَحَرَهَا بِالْأَبَاءِ. مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ. وَلِيدَعْنِ رِجَالٌ نَحَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِيْمَا هُمْ خَمٌّ مِنْ خَمٍ جَهَنَّمَ أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِلْعَانِ^(٢) الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ». وقوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصِيَّةٍ».

ومن ذلك ما حدث به حُصَيْن بن عبد الرحمن بن عُقْبَةَ عن أبيه، وهو مولى فارسي حضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة أحد المشهورة، وضرب رجلاً من المشركين، وقال: خذها وأنا الغلام الفارسي! يريد أن يعتز بقومه، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «فَهَلَّا قُلْتَ: خذها مني وأنا الغلام الأنصاري؟». يشير بذلك إلى الوحدة الجامعة الدينية، وينها عن الاعتزاز بالعصية والجنسية. ويصدق هذه الرواية ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته المعلومة في حَجَّةِ الْوَدَاعِ أنه قال: «وَلَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لَأَحْمَرٍ عَلَى أَسْوَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى»، وذلك لأن جمهور السامعين كانوا من العرب، فنبههم، واكتفى عن التصريح بعدم فضلهم على غيرهم إلا بالتقوى.

وحسبك أنه عليه الصلاة والسلام قد وفد عليه وفد بني عامر، فقال أحدهم: أنت سيدنا. فقال صلى الله عليه وسلم: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». فقالوا: أفضلنا

(١) عِيَةُ الجاهلية: نخوتها.

(٢) الجلعان: جمع جمل، وهو أبرجران. والعامة تسميه (جران)

وأعظمنا طولا. فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجزينكم^(١) الشيطان. ولقد نهى حتى عن التعبير عن العبد والأمة بلفظ العبد. ونهى الموالى عن القول: ربى وربى. فقال: ولا يقولن أحدكم: عبدى وأمتى. ولا يقولن المملوك: ربى وربى. وليقل المالك: فتى وفتاتى. وليقل المملوك: سيدى وسيدتى، فإنكم المملوكون والرب الله. وأنه عليه الصلاة والسلام شد عرا الأخوة حتى بين الموالى والعبيد، فقال: إخوانكم خولكم^(٢) جعلهم الله تحت أيديكم.

وشدد كل التشديد على كل من يحاول تحقير أخيه المسلم، فقال: «كلُّ المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه. حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». وقال: «مامن امرئ يخذل أمرا مسلما في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته. ومامن مسلم ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته». وقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلبه^(٣) من كان في حاجة أخيه فإن الله في حاجته. ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة» قال تعالى: (أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) الآية. ولقد أوضح

(١) لا يستجزينكم الشيطان: لا تكونوا له أتباعا. (٢) خولكم: حكمكم وخدمكم.

(٣) يسلبه: يتركه للحوادث من غير مساعدة.

النبي صلى الله عليه وسلم معنى الغيبة ، فقال : « ذَكَرْتُ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ . قِيلَ
وإن كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ . قَالَ : « إِن كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبَتْهُ ، وَإِن لَمْ يَكُنْ
فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتْهُ ^(١) » . وزاد في التشديد والوعيد في هذا الأمر ، حتى
قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَزْنِي فَيَتُوبُ فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ
صَاحِبَ الْغِيْبَةِ لَا يَغْفِرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ . » وقال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى
يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ يَقُولُ : « وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ
يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ خَلَعٍ . »

فثبت بنص الكتاب العزيز والسنة السمحة : أن الإخاء في الإسلام هو

أُسُّ الْوَحْدَةِ وَمَسَاكُهَا ، وَهُوَ مَا دَتَّهَا وَمَلَاكُهَا

(١) بهته : نسبت إليه مالم يفعله .

المقصد الثامن

وحدة الرياسة الإسلامية .

وهي الانضواء تحت لواء رئيس واحد انضواء حقيقياً ، ولسانا ونية بحسب الاستطاعة ، والاعتصام به وجهه وطاعته وخدمته بما يقوى شوكته ، ويوقر سلطانه ، لقوله تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وقوله : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ومعنى هذا أن الدين الإسلامى ليس دين عبادة فحسب ، بل هو دين نظام دنيوى وأخروى . فكان من الواجب أن تقوم بأعبائه الكبرى الأئمة العظام . يتقلدون الوكالة العليا عن سيد الكونين ، وإمام الثقلين ، الذى أوجب على الأمة وحدة الوجهة ، فى كل زمان وعلى أى حال ، فى كثير من العبادات : كالجمعة ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، وأمثالها . وفى الأمور الدنيوية : مثل إعداد الجيوش ، ومقاتلة الأعداء ، والسعى فى ترقى الصولة ، ودرام ارتقاء عز الدولة ، وإعلاء كلمة الله ، وحسم كل خلاف يقع بين مؤمن ومؤمن ، وطائفة وطائفة ، وقبيل وقبيل ، من المؤمنين ؛ لأن كل ذلك يحتاج إلى إمام قوى عزيز ، جليل الشأن ، مطاع الأمر ، مسموع الكلمة ومن يتدبر المقاصد الإسلامية الحقيقية ، يصل إلى إدراك خطر الحكمة الإلهية فى توحيد الرياسة الدينية العظمى ، ويفهم ضرورة ارتباط الأمة المحمدية . وبخاصة إذا كان الأعداء محدقين بها من كل جانب ، ينتظرون لها الزلّة ، ويرتقبون الغرة ، فلا يقلون لها عثرة ، ولا يغفرون لها هفوة ، بل يتلصسون لها الباطل من الحق ، والضلال من الهدى .

المقصد التاسع

طلب الخير العام لجميع الناس على اختلاف المذاهب والأديان
الدين الإسلامى دين سبى سهل وهوى سركله ، فمأ هو إلا الشهادة وهى كلمة ،
والصلاة وهى عصمة ، والزكاة وهى رحمة ، والصوم وهى حكمة ، والحج
وهو نعمة ، لا يأمر إلا بخفض الجناح ، ولين الجانب ، والخير المحض ، وسائر
المحاب . فهو يحتم على المؤمنين أن يحبوا غيرهم مأ يحبون لأنفسهم ، وأن يدعوا
الناس إليه على شرط التزام العدالة وتجنب الشطط ، ويبلغوا الحق بأوضح
بيان وأسهل طريق ، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يأمر بمأ فوق
استطاعتها . ولا يستطيع الإنسان أن يعتقد أو يعمل بمأ جهل حتى يعلم ولا يلزمه
الجزم بمجرد الخبر حتى يطمئن إليه ، ويزول الشك فيه . وعليهم أن يلتزموا
خطة النبي فى ذلك ، فانه كان يدعو إلى الله بالبينات والذكر الحكيم ،
ويلطف ولباحث الذين يعرض عليهم الدين : فيتألفهم إذا نفروا ، ويمهلهم
إذا عجلوا ، ولا تأخذهم بهم حدة إذا شددوا ، ولا يغضبهم تهوؤهم قبل أن
يتحققوا ، ولا يرهقهم حتى تزول شكوكهم بالبراهين التى تناسب عقولهم ،
وتقبلها أذهانهم .

هذا مأ يجب عن أهل الدين أن يتبعوه ، ولا يضمرؤا لأحد سوءاً ، فان
النبي صلى الله عليه وسلم كان يعذر من جهل وشك وارتاب ، ويزيل ريبه
وشكوكه بالبيان الشافى ، والدليل الواضح . وكذلك يجب أن يكون الشأن فينا
معشر المسلمين فلندع الناس إلى ديننا بالتى هى أحسن ، فإن وجدنا منهم شكاً عذرناهم ،
ورأفنا بهم ، وأحسنأ النصح لهم ، ولا نزال نوضح لهم مأ أشكل ، ونبين لهم

مأبهم ، حتى يظهر الحق جليا ويغمرهم نوره : فإن رفضوه علواً واستكباراً ،
جاربنا أفكارهم وآراءهم ، لا ذواتهم وأشخاصهم ، وثابروا على رجوعهم إلى
طريق الصواب ، دون تعد وانتقام

ألم تر أن المشركين لما استشهد سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه في غزوة
أحد ، مثوابه تمثيلاً فظيلاً ، فلما أراد المسلمون أن يمثلوا كذلك بقتلى المشركين
منعهم النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك ؟ إذ ليس المقصود من الجهاد عداوة
لذوات الأشخاص المحاربين ، وإنما كان لإزالة تلك الغشاوة التي كانت تعمي
أبصارهم عن رؤية النور الساطع ، وتحول بينهم وبين الحق الأبلغ . والخير
العميم ، ولم يقع القتل إلا لأن هؤلاء الأشخاص كانوا مظهر العداوة للحق ،
وبعداوتهم له استوجبوا القتل

وأدل من هذا ، أن وَحْشِيَّ الحَبَشِيِّ الذي قتل حمزة رضى الله عنه ، لما
آمن لم يؤاخذه النبي ، بل صار من أصحابه الكرام رضوان الله عليهم
وما وقع من هند التي فعلت بحسد حمزة مالا حاجة لذكره ، من التمثيل
الفضيع ، حتى أخرجت كبده ولا كتها ، تريد أكلها حقدا وعداوة ، فأهدر
النبي دمها يوم غزوة الفتح ، فلما ضاقت عليها الأرض بمارحبت ، تنكرت
وأنت النبي فبايعته على الإسلام ، فلما أسلبت كشفت عن وجهها فعرفها ،
فلم يجد^(١) عليها ، ولا عاتبها على ما فعلت بعمه . وتلك لعمرى غاية في الصفح
الجميل تتفاصر عنها الغايات !

كل هذا كاف في الدلالة على أن الدين لا يؤخذ أحداً إلا بعد أن يتضح له
الحق بأجلى بيان .

(١) يجد : يغضب

ومن ذلك يتبين أن مقاصد الإسلام طلب الخير لكل الأنام ، ودفع الشر عنهم بكل ما تصل إليه يد الإمكان ، مع إطلاق حرية الضمير ، بشرط الإذعان للحق إن ظهر وعدم العناد . ولا يصح ترك المسترشد ، فإنه كالمریض دوائه الإرشاد والبيان ، وإهماله ضرر عليه يسأل عنه المهمل ، ويجب على العالم ألا يتخلى عن تعليم الجاهل ، الذى يتردى بجهالته فيما يضره ، ولا يصح للبدنى الحقيقى ، أن يحرم أحداً مشاركته فى نعمة تلك المدنية ، بل الواجب أن يشارك الناس بعضهم بعضاً فى منافعها ومزاياها .

المقصد العاشر

التسوية بمكارم الأخلاق

لما كان من مقاصد دين الإسلام تعميم الخير ، ودفع الشر ، والهداية إلى الحق ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — كان حقا على من تصبو نفوسهم لهذا الأمر الشاق المحفوف بالمخاطر ، أن يتجافوا عن الدنيا ، وينأوا عن مهاوى الشرور ، ولا يتدنوا إلى حضيض الفجور ، وأن يتصفوا بالأخلاق الفاضلة ، حتى تصفو نفوسهم بلزوم العدل المحض ، والاعتدال البحت (١) فإذا صلحت الأنفس وتعودت المبادئ الحقة القيمة ، وصارت لها ملكة ، كان أصحابها قدوة لمن يسمع قولهم ، ويطيع أمرهم .

وقد كان الأنبياء في مقدمة المتصفين بها ، وقد حث القرآن على ذلك في آيات كثيرة تتجاوز المئات وصرح النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » . وقوله : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذَرِّكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّامِتِ الْقَائِمِ » . وقوله : « إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا » . وقوله : « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا » وقوله : « مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم إذا نظر في المرأة : « اللَّهُمَّ : كَمَا حَسَّنْتَ خُلُقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي » ، وكان يستعيز من سوء الأخلاق ، فيقول : « اللَّهُمَّ ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ » .

(١) البحت : الخالص من كل شيء .

هذا إلى أنه إذا حسنت الأخلاق ، طهرت الأذواق ، وكلت آداب
الأنس والمعاشرة ، ولاق بالمرشد أن يوصل دعوته الدينية ، إلى من أراد
الله به خيراً من أفراد المجتمع ، فإن نأى عن هذه الفضائل نفر الناس منه ، ولم
يجد لإصداً ورداً . قال الله تعالى لنيه : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

فواجب المؤمن الداعي أن يكون هيناً ليناً ، حليماً كريماً :
فهنالك يُسْمَعُ مَا يَقُولُ ، وَيُشْتَقَى هـ بالقول منه ، وينفع التعليمُ

المقصد الحادي عشر

إقرار أن الناس طبقات ومنازل

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولكن جعلهم مراتب، ولكل مرتبة خاصة، ومنزلة وضع فيها. وقد كان النبي - وهو الإمام الذي يقتدى بفعله - لا يخاطب أميرا أو سيدا أو ذا وجهة في قومه بما يخاطب به من دونه ولا من فوقه: فلم يضع أحدا عما يستحقه من الكرامة، ولا رفعه عن استحقاقه، وإن كان جميعهم في الأوامر الإلهية والنواهي والحدود سواء: مؤمنهم وكافرهم. وضعهم ورفيعهم، ولم يكن - صلى الله عليه وسلم - حاشا ولا لعانا، ولا محقرا منتهكا للحرمان. فعلينا أن نحذو حذوه. ونستن سنته: فالعالم عندنا سواء في المعاملة: لكل حق لا يُحرمه، وحق لا يتعداه، وعليه واجب لا يهمله، والتفاضل فيما بينهم بالتقوى.

والله جل جلاله لم يسقط المزايا الخاصة بما أوجب الوصلة الإخائية، فقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. وقال في تفضيل الرجال على النساء: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ دَرَجَةً﴾ والله عزير حكيم. وقال في تفضيل الرسل الكرام بعضهم على بعض: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ الآية. وقال في الاصطفاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ و﴿يَا سَرِيمُ إِنَّ

اللَّهُ أَضْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ وَأَضْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . وفي تفضيل نسائه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ . وفي تفضيل الأمة المحمدية : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الآية . وقال في أهل الكتاب : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ الآية . وقال : ﴿ أَفَنَ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنَسِ الْمَصِيرُ ﴾ . وفي تمييز الطيب من الخبيث : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ . وفي منع تمنى ما فضل الله به بعض الأمة على بعض : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ . وقال في تفضيل المجاهدين : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ الآية . وقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ﴾ الآية . وقال في تفضيل المؤمنين على غيرهم : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى ﴾ الآية . والقرآن الكريم مشحون بمثل هذه الآيات . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » . وقال : « إِذَا

أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٌ فَأَكْرَبُوهُ . وقال : « النَّاسُ مَعَادُنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَهَّمُوا » . وقال : « أَرْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ وَعَنَى قَوْمٌ أَفْتَقَر » ، وقال في الحَض على تَخِير الأَنْسَاب : « تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ » ، وقال في ذلك أيضا : « إِيَّاكُمْ وَخُضْرَاءَ الدِّمَنِ » قيل : مَنْ خُضْرَاءُ الدِّمَنِ يارسول الله ؟ قال : « الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمَنْبِتِ السُّوءِ » . وقال في حفظ المقادير : « مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا فَلَيْسَ مِنَّا » وقال في توقيف العلماء : « وَقَرُّوا عُلَمَاءَ أُمَّتِي فَإِنَّهُمْ بِحُجُومِ الْأَرْضِ » . وقال في إكرام الشيوخ : « مَنْ إِجْلَالَ اللَّهُ إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ » . وقال في تفضيل الصحابة : « لَا تُسَبِّحُوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفُهُ ^(١) مِنْ سَبِّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صِرَافًا ^(٢) وَلَا عَدْلًا ^(٣) » . وقال : « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ » .

ومما يؤيد ذلك من أفعاله صلى الله عليه وسلم ، أنه بسط رداءه لو فد نجران حين زاروه ، وهم نصارى ، وأكرم عامر بن الطفيل وهو كافر ؛ لأن الوافدين النجراتيين كانوا أَعَزَاء قومهم ، وعامرا كان سيد قومه .

(١) نصيفه . نصفه . والمعنى ما بلغتم منزلة أحدهم ولا نصف منزلته .

(٢) صرافا : توبة .

(٣) عدلا : فدية .

ومما تقدم تعلم أن الناس سواء أمام القانون الإلهي ، والتفاضل فيما بينهم بالتقوى ، ولكن تختلف مراتبهم من حيث الصفات الخاصة . فهم بذلك ينقسمون قسمين عظيمين : مسلمين ، وغير مسلمين .

أما المسلمون فقد ربطت بينهم الأخوة ، المشفوعة بالأبوة العامة والبنوة الممتدة إلى ما شاء الله أن تمتد : وينقسمون إلى أسر خاصة ، ومن أخص الأسر ذريته صلى الله عليه وسلم : وهى أولاد السبطين رضى الله عنهما ، فإن لهما بنوة خاصة مع تلك البنوة العامة . والمسلمون مهما اختلفوا فى المنزلة وتباينوا فى المرتبة ، أمام الأوامر السماوية سواء : فالتفاوت لا يضع عن أحد واجباً دينياً ، ولا يسقط حداً من حدود الله ، فإن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول : « لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا »

أما القسم الثانى ، وهو غير المسلمين ، فإنهم ينقسمون إلى خمسة أقسام :
الاول - أهل الذمة : وهم الذين يخضعون للسلطة الإسلامية ، ولا يدينون بدينها : فإن لهم الذمة ، ولهم ما للمسلمين من العدل والحقوق ، وعدم التعدي على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم . ومن يفعل ذلك يجازى كما لو كان المتعدى عليه مسلماً .

الثانى - المعاهد : وهو الذى يكون بين الإمامة الكبرى (١) وقومه عهد وميثاق مبرم ، فهو عند عهده وأحكام ميثاقه : له من الحقوق وعليه من الواجبات والحدود ما هو مدون فى العهد ، ولا يزال كذلك حتى ينقض العهد : فإن كان النقص عمداً انسلك عن الأحكام المذكورة ، وبقي محفوظ

(١) الإمامة الكبرى : الخلافة العظمى .

النفس والعرض والمال ، حتى يتعدى إلى مضرة غيره ، وهناك يُحَكَّم عليه كما لو كان مسلماً .

الثالث — المهادن : وهو الذى بين جماعة المسلمين وقومه هدنة ، فهو عند شروطها .

الرابع — المؤمن الذى لا عهد له ، ولا هدنة ، ولا حرب ، ولا ذمة بين قومه والإمامة الكبرى : فإن جاء بلاد المسلمين لحاجة ، فله حق المؤمن على نفسه وعرضه وماله ودينه ، لا يُضَارُّ فى شيء من ذلك ، ويُكَلَّف عدم التعرض لمُضَارَّة المجتمع ، ويخضع لأحكام المسلمين مادام بينهم .

الخامس — المحارب : فإن أحكامه تختلف باختلاف الحروب وأسبابها : فهو تابع بمقتضى الحال حتى تضع الحرب أوزارها . وإذا كان يكون من أحد الأقسام الأربعة المتقدمة ، وإن أصبح أسيراً فعليه حكم الأسر بشروطه المقررة فى مواضعها . كل ذلك يرينا بأجلى بيان أن أسى مقاصد الدين الإسلامى تعميم الأمن والسلم ، وقصد الخير لجميع الطبقات ، وأنه يوجب على أهله جلب كل خير للمجتمع الإنسانى ، ودفع كل شر عنه .

والجهاد الذى فرض على المسلمين ، ورغبهم الله فيه بقوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ إنما كان لأمرين : أحدهما — الدفاع عن الجماعة المحمدية التى تحمل هذه الدعوة المباركة : دعوة تعميم الخير والوحدة فى الأرض .

والآخر — إزالة العوائق التى تقف فى سبيل نشر هذه الدعوة .

والإسلام لم يدخل فى حرب إلا بعد أن أعيتة الحيل ، فلم يجد مفراً منها ،

والمسألة ديدن المسلمين في كل شيء، منقادين إليها بقوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. وقد روى عن عائشة رضى الله عنها: (ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه). وقال صلى الله عليه وسلم: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا». وقد أوضح الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

مما تقدم يتبين أن مقاصد الدين الإسلامى اعتقاد الحق، وإقامة البرهان على المعتقد، حتى لا يحوم حول الحقيقة شك ولا ريب، وتعميم المعاملات والإخاء، وتخويل عموم الأفراد حرية محضة محدودة بحدود الحكمة، بحيث تكفل حفظ الحياة الاجتماعية مادام في الوجود موجود، وهى مانعة من الإفراط والتفريط، وهما الطرفان المذمومان. وهذه هى أقصى درجات المدنية. ثم أوجب حفظ المراتب والدرجات من الناس ورعايتها، ورفع بعضهم فوق بعض درجات بقدر ما يؤتونه من جليل الأعمال، وأباح لهم اشتراك غيرهم معهم فى هذه المدنية العظمى، والمنهج القويم: فقد كان سيد الخلق يعامل يهودياً، وتوثق ودرعه مرهونة عند يهودى، فاستخلصها منه سيدنا أبو بكر رضى الله عنه. فهل يتخيل متخيل حسن معاملة أجل وأعظم من هذه المعاملة؟ وما كان أغناه عن معاملة ذلك اليهودى! وقد كان أصحابه يفدونه بالمهج بَلَّة^(١) الأموال. فما عامل اليهودى، ولا خص اليهودى بذلك، إلا لأن هذه المعاملة تحوطها الأمانة، وتحرسها التسوية فى المعاملة التى هى من شعائر

الدين الخفيف . فما أسماه ! وما أحكم مقاعده !
ولم تقتصر تعاليمه على الأمر بالعبادة ، بل أردف ذلك بالاهتمام بأمر
الزراعة : « أَطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْ خَبَايَا الْأَرْضِ » . وفي هذا : الأمر ضمنا بالبحث
عن المعادن في الأرض ، وكنوز المناجم المطمورة في باطنها . وكذلك
الصناعة : فإنه أمر بتعلبها ، وتعلم العلوم أينما وجدت . وقد رأى نفع بعض
أعمال كفار الفرس فعمل مثلها : كعمل الخندق بإشارة سلمان الفارسي رضي
الله عنه ، وإنارة المسجد الشريف من قبل تميم الداري ، حين أوقد قنديلا
وأحضره معه ، وقد كان يضاء قليلا بإحراق الخشب ، وقد أمر أيضا بنشر
العلوم والمعارف ، وحسن الإخاء ، وتقدير الرجال ، وترتيب الجنود ، وتنظيم
القوى الدفاعية . وقرر وجوب حفظ الأبدان ، وأنواع الحكمة الطبيعية ،
وتتميم مكارم الأخلاق . وأوجب علم التاريخ ، والجغرافية ، والسباحة .
ولم يدع شيئا حتى علم النجم ، والحساب ، والفصص ، وآداب المحاضرات
والمسامرات ، ووظائف الأعمال الإدارية ، والاقتصاد الإداري والمالي ،
وكل ما يمكن أن يكون في الأمم المتمدنة .

أما التجارة ، فقد زاولها هو بذاته الشريفة .

هذا في الأمور الداخلية . أما الأمور الخارجية فقد دعا بالبلاغ المبين ،
وقرر أصول الحقوق الدولية والحقوق الملية ، وفرق بين طبقات العالم
وحدد واجباتها ، وأوجب أصول الحروب ، والهدنة ، والمسالمة ، والمعاهدة ،
 والمراسلة والمكاتبة ، ورعاية الموازنة السياسية ، والحقوق المتبادلة ، وحقوق
الجوار ، والمعاهدات على اختلاف ضروبها ، ومعاملات رعايا الأجانب وأهل
الذمة ، وتخويل كل فرقة حقا محدودا بالحكمة ، محوطا بالصواب . ولم يفرط

فى شىء ولم يُغفل أمراً من الأمور ، بل رغب فيه إذا كان نافعا ، ونهى عنه إن كان ضارا .

لا جرم أن الدين الإسلامى دين برهانى ، كفىل بإصلاح المعاش والمعاد ، ولذلك أوجب الله فيه لزوم الحكمة والحرية المشروعة ، ولم يجعل القهر والغلبة والاستعباد منه فى شىء ، ومنع سلطة الحكام واستعبادهم لعباده ، وربط معاملات الجميع بأحكامه الإلهية : فبين الحدود والحقوق والواجبات ، وقزر أصول الحرية والمساواة والأخوة المشروعة بين المسلمين ، وقام فيهم النبى صلى الله عليه وسلم بالرسالة والأبوة الشاملة . ولما كان لابد لتنفيذ الأحكام الربانية من قوة قاهرة ، مقتدرة على إجراء العدل الإلهى ، أوجب الدين نصب إمام عام يقوم بتنفيذ الأحكام ، وينوب عنه عليه السلام فى الأبوة العامة .

وعلى هذا الأساس قام الخلفاء العظام فى المسلمين : فكل واحد منهم ولى من لا ولى له ، وقيم من لا قيم عليه ، ووارث من لا وارث له ، وألقيت إليهم مقاليد الأحكام طبق الأوامر الإلهية .

لهذا وجبت معرفتهم وطاعتهم طاعة قلبية وعملية ، بحيث تطيعهم القلوب قبل الأبدان ، والإخلاص لهم فى النصيح لمعاونتهم على المصالح ، لأنهم أكثر الناس شغلا ، وأثقلهم أعباء .

وحبذا لو تمسك المسلمون بأهداب شريعتهم ، وعملوا بما أمرتهم به ، واتقوا عما نهتهم عنه ، وتواتوا وتحابوا . وأطرحوا من قلوبهم الحقد والبغضاء والحسد ، وطهروا سرائرهم ، وأخذ كل منهم بيد أخيه ، ونبذوا التواكل والتدابير ، وأحلوا محله الحب الخالص من قلوب مملوءة بالإيمان : لوفعلوا ذلك ، لعزوا بعدالذل ، واجتمع شملهم بعد أن تفرق ، وهابهم غيرهم ، ودانت لهم الرقاب .

المقصد الثاني عشر

إصلاح المجتمع إصلاحاً شاملاً

قرر الإسلام أن المجتمع الإنساني لا يصلح إلا إذا اجتمعت فيه أمور ستة :

الأول — دين متبع

لأن الدين هو الذى يصون النفوس عن ميولها ، ويصرفها عن إرادتها السيئة ، ويحتجزها عن نزعاتها الخبيثة ، ويقهر السرائر ، ويزجر الضمائر ؛ وهو الرقيب على النفوس فى خلواتها ، والناصح لها فى ملبأتها قال بعض الحكماء : « الأدب أدبان : أدب شريعة ، وأدب سياسة : فأدب الشريعة ما أدى الفرض ، وأدب السياسة ما عمر الأرض ، وكلاهما يرجع إلى العدل الذى به سلامة السلطان ، وعمارة البلدان ، لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ، ومن خرب الأرض فقد ظلم نفسه وغيره » .

قال سعيد بن حميد : (ماحةُ أبداننا بنافعة ، حتى يصحَّ الدين والخلق) .

الثانى — حكومة رشيدة

ذلك بأن الحكومة برهبتها تتألف الأهواء المختلفة ، وبهيبتها تجتمع القلوب المتفرقة ، ومن خوفها تنقمع النفوس المتعادية ، لأن فى طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه ، والقهر لمن عاندوه ، مالا ينكفون عنه إلا بمناجى قوى ، وراذع تنفيذى ، وأنواع الرادع أربعة :

العقل الزاجر ، والدين الحاجر ، والحاكم الرادع ، والعجز الصاذ :

ورهبته الحاكم أبلغ هذه الروايع وأشدّها زجراً ، وأقواها ردعا ، فقد جاء في الحديث الشريف : « إِنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ أَكْثَرُ مِمَّا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ حُرَّاسٌ فِي السَّمَاءِ ، وَحُرَّاسٌ فِي الْأَرْضِ ، حُرَّاسُهُ فِي السَّمَاءِ الْمَلَائِكَةُ ، وَحُرَّاسُهُ فِي الْأَرْضِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ أَرزاقَهُمْ وَيَذُبُّونَ عَنِ النَّاسِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « الْإِمَامُ الْجَائِزُ خَيْرٌ مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَكُلٌّ لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَفِي بَعْضِ الشَّرِّ خَيْرٌ » .

وقال بعض البلغاء وأبدع : « الحاكم في نفسه إمام متبوع ، وفي سيرته دين مشروع ؛ فإن ظلم لم يعدل أحد في حكم ، وإن عدل لم يجسر أحد على ظلم » . الحاكم : هو الذي يحرس الدين . ويبحث على العمل به من غير إهمال له ، ويدفع الأهواء عنه ، ويحفظه من التبديل فيه ، والتأويل له ، ويزجر من شذ عنه بارتداد ، أو بغى عليه بعناد ، أو سعى فيه بفساد .

وهو الذي يذب عن الأمة عدوا في دينها ، أو معتديا على أموالها وأرضها وأنفسها . وهو الذي يعمر البلدان باعتماد مصالحها ، وتهذيب سبلها ومسالكها ، وهو الذي يُجرى في أموالها جباية وإنفاقا على سنن الشريعة العادلة . وهو الذي ينظر في مظالم أهلها ، ويسوى في الحكومة بينهم . ويعتمد النصفة في فصل أحكامهم .

وهو الذي يقيم الحدود على مستحقها ، من غير تجاوز فيها ، ولا تنصير عنها ، وهو الذي يختار أعوانه ورجاله من أهل الكفاية فيها ، والامانة عليها . ومن استقل بهذه الشؤون حقا من الحكام ، فهو مستوجب لطاعة رعيته ومناصحتهم ، مستحق لصدق ميلهم ومحبتهم . ومن قصر عنها ولم يقم بحققها

وواجبها ، كان بها مؤاخذا ، وعليها معاقبا ، ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت ، يتربصون الفرص لإظهارها ، ويتوقعون الدوائر لإعلانها : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير أئمتكم الذين يُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ . وَشَرَّ أئمتكم الَّذِينَ تَبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَهُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَهُمْ » ، وهذا صحيح ، لأن الإمام أو الحاكم إذا كان ذا خير أحب رعيته وأحبوه ، وإذا كان ذا شر أبغض رعيته وأبغضوه .

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه : « إن الله تعالى إذا أحب عبدا حبه إلى خلقه . فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس » .

وسبب هذا أن خشية الله تبعث على طاعته في خلقه ، وطاعته في خلقه تبعث على محبته ، فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته ، وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته .

ومن الأمثلة العالية في رشد الحاكم ما روى أن عمر بن الخطاب قال لأبي مريم السلولي - وهو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب : - « والله إنى لأحبك حتى تحب الأرض الدم » . قال : « أفيمنعنى ذلك حقا ؟ » ، قال : « لا » . قال : « فلا ضير : إنما يأسى على الحب النساء » !

الثالث — عدل شامل

عن الإسلام بإقامة العدل عناية عظيمة ، لأنه أس الملك وقوامه ، وعدته ونظامه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ . وقال تعالى :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ ۙ (١) قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ .
﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ .

وسر ذلك أن العدل الشامل يدعو إلى الطاعة ، ويبعث على الألفة ، ويستوجب المودة ، وتعمُر به البلاد ، وتنمى به الأموال . وليس شيء أسرع في خراب الأرض ، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ، لأنه لا يقف عند حد ، ولا ينتهى إلى غاية ، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل . تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : «ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ : فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا . وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالْقَصْدُ فِي الْغَنِيِّ وَالْفَقْرِ . وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ : فَشَحْمُ مِطَاعٍ ، وَهَوَى مُتَّبَعٍ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ» .

وانظر قول الإسكندر لحكام الهند - وقد رأى قلة الشرائع بها - :
«لَمْ صَارَتْ سُنَنَ بِلَادِكُمْ قَلِيلَةً ؟» . قالوا : «لَا عِطَانَا الْحَقَّ مِنْ أَنْفُسِنَا ، وَلَعَدْلَ مَلُوكِنَا فِينَا» . فقال لهم : «أَيُّمَا أَفْضَلَ : الْعَدْلُ أَمْ الشَّجَاعَةُ ؟» .
قالوا : «إِذَا اسْتُعْمِلَ الْعَدْلُ ، أَغْنَىٰ عَنِ الشَّجَاعَةِ» .

وتدبر قول بعض البلغاء : «لَئِنْ الْعَدْلَ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي وَضَعَهُ لِلْخَلْقِ ، وَنَصَبَهُ لِلْحَقِّ : فَلَا تَخَالَفُهُ فِي مِيزَانِهِ ، وَلَا تَعَارِضُهُ فِي سُلْطَانِهِ . وَاسْتَعْنِ عَلَى الْعَدْلِ بِخَلَّتَيْنِ : قَلَّةِ الطَّمَعِ ، وَكَثْرَةِ الْوَرَعِ» .

(١) الشَّانُ : البنس . والمعنى : لا يحملنكم بنس قوم على ترك العدل فيهم

ضروب العدل

للعدل ضروب شتى :

منها : عدل الإنسان في نفسه ، وذلك بحملها على المصالح ، وكفها عن الفضائح ، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير ، فإن التجاوز فيها جور ، والتقصير فيها ظلم . ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، ومن جار عليها فهو على غيره أبلغ جورا
انظر إلى قول بعض الحكماء : " من توانى في نفسه ضاع " .

ومنها : عدل الإنسان فيمن دونه ، كالحاكم في رعيته ، والرئيس مع مرؤوسيه . وعدله فيهم يتحقق بأمر أربعة : اتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلط بالقوة ، وابتغاء الحق في السيرة ، لأن اتباع الميسور أდوم ، وحذف المعسور أسلم ، وترك التسلط أوجب للعبة ، وابتغاء الحق أبعث على النصرة . ومن لم تجتمع له هذه الأمور من الحكام أو الرؤساء ، كان الفساد بنظره أكثر ، والاختلاف بتدبيره أظهر .

تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مَنْ أَشْرَكَهُ اللَّهُ فِي سُلْطَانِهِ ، فَجَارَ فِي حُكْمِهِ » . وتأمل قول بعض الحكماء : « أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ صَرْعَةَ الظُّلْمِ ، وَأَنْفَذُ السَّهَامِ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ » . وقول أزدشير بن بابك : « إِذَا رَغِبَ الْمَلِكُ عَنِ الْعَدْلِ ، رَغِبَتِ الرَّعِيَّةُ عَنْ طَاعَتِهِ » . وقول أنوشروان لما عوتب على ترك عقاب المذنبين : « هُمُ الْمَرْضَى وَنَحْنُ الْأَطْبَاءُ ، فَإِذَا لَمْ نَدَاوَهُمْ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ ، فَمَنْ لَهُمْ ؟ » .

ومنها : عدل الإنسان مع من فوقه : كعدل المحكومين مع الحكام ،

والمرءوسين مع الرؤساء: وقوام ذلك إخلاص الطاعة، وبذل النصرة، وصدق الولاء: فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النصرة أدفع للوهن، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن. ومن لم تتم له هذه الأمور من المرءوسين. تسلط عليه من كان يدافع عنه، واضطُرَّ إلى اتقاء من كان يقيه. وفي هذا يقول البحترى:

متى أخرجتَ ذا كرم، تَخْطِئَ إليك ببعض أخلاق اللئام
وما أبدع قول بعض الحكماء: «إن الله لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه، وحقه شكر النعمة، ونصح الأمة، وحسن الصنعة، ولزوم الشريعة، ومنها: عدل الإنسان مع إخوانه ونظرائه: وآية ذلك ترك الاستطالة^(١)، واجتناب الإدلال^(٢) وكف الآذى: قترك الاستطالة أدعى إلى الآلفة، ومجانبة الإدلال أبقي للعطف والرحمة، وكف الآذى مروءة ونصفه.
تأمل بديع قوله صلى الله عليه وسلم: «الأنبياءُ بشرٌ أرَّ الناسُ؟»، قالوا: بلى. يا رسول الله، قال: «من نزلَّ وحده، ومنع رِفْدَهُ^(٣) وجلد عبده». ثم قال: «أفلا أنبئكم بشرٍ من ذلك؟» قالوا: بلى. يا رسول الله، قال: «من لا يرجي خيره، ولا يؤمن شره». ثم قال: «أفلا أنبئكم بشرٍ من ذلك؟». قالوا: بلى. يا رسول الله، قال: «من يغضُّ الناسَ ويغضونه». وانظر إلى قول بعض الحكماء في باب قبح الظلم في صورة المختلفة، ومعانيه المتغايرة: «الحاكم السوء بخيف البرى، ويصنع الدنىء. والبلد السوء

(١) الاستطالة: التطول والامتتان. (٢) الادلال: مجازة الحد في التجنى.

(٣) رِفْدُهُ: معوته.

يجمع السُّفل ، ويورث العلل . والولد سوء يشين السلف ، ويهدم الشرف ،
والجار سوء يُفشي السر ، ويَهتك السترة ، فما أنفع العدل ! وما أضر الجور !

الرابع — الأمن العام

في ظل الأمن العام تطمئن النفوس ، وإليه تهش السرائر ، وتطمئن الخواطر ،
وتنبعث الهمم ، ويسكن البريء ، ويأنس الضعيف : فلا راحة للخائف ،
ولا طمأنينة للوجل ، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ، ويحجزهم
عن تصرفهم ، ويحول بينهم وبين المواد التي بها قوام أودهم ، وانتظام حالهم
والخوف ضروب ، فمنه : الخوف على النفس . ومنه : الخوف على الأهل
ومنه : الخوف على المال . وقد يستوعب جميع الأحوال . ولكلٍّ من ضروبه
حظ من الوهن ، ونصيب من الحزن

الخامس — توفير أسباب اليسر

فيه تتسع النفوس في مختلف أحوالها ، ويشترك ذو الإكثار والإقلال ،
فيقل في الناس التغابن ، ويتننى عنهم تباغض الفقر ، وتجنح النفوس إلى التوسع ،
وتكثر المؤاساة والتواصل ، ويطرّد نموُّ التعامل ، فتفشى الأمانة ، ويكثر
السخاء ، ويستفيض الخير في الناس

تأمل ما كتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعري ،
إذ يقول : « لا تستقضين إلا إذا حسب أو مال ؛ فإن ذا الحسب يخاف العواقب ،
وذا المال لا يرغب في مال غيره »

من أجل ذلك لا يتسنى لمصلح أن يتم إصلاحه في أمة ، إلا إذا وفر لها

أسباب الثراء، ودرأ عنها دواعي الضيق والفقر، لأن ثراء الأمة من قواعد صلاحها، ودواعي استقامتها وفلاحها. وفوزها فيما تحاول، واطراد نجاحها فيما تقصد.

السادس - غرس الآمال في نفوس الناس

إن الأمل الفسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه^(١)، ويدعو إلى اقتناء ما ليس يُؤمل في دركه بحياة أربابه. ولولا أن الخلف ينتفع بما أنشأ السلف، حتى يصير به مستغنياً، لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه: من منازل السكنى، وأرض الحرث، ومرافق الحياة، وفي ذلك من الإعواز^(٢) والتعطيل، وتعذر الإمكان ما لا خفاء فيه.

الآمل الفسيح هو الذي حدا الخلق إلى عمارة الدنيا وإتمام إصلاحها، فأصبحت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن^(٣)، فيتم الثاني ما أبدأه الأول من عمارتها، ويرم الثالث ما تركه الثاني من شعنها، لتكون أحوالها على كر العصور ملتزمة، وأمورها على مرّ الدهور منتظمة. ولوقصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه، ولا تعدى ضرورة وقته، ولكانت تنتقل إلى من بعده خراباً لا يدرك منها حاجة، ثم تنتقل إلى من بعد بأسوأ من ذلك حالاً، حتى لا ينمى بها نبت، ولا يمكن فيها لبث: تأمل قوله صلى الله عليه وسلم: «الْأَمَلُ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِأُمَّتِي». وتأمل قول الشاعر:

والنفوس - وإن كانت على وجل - من المنيّة - آمالٌ تقويها
فالصبر يبسطها، والدهر يقبضها والنفوس تنشرها، والموت يطويها

(١) استيعاب الشيء: الاتيان عليه كله، وعدم ترك شيء منه.

(٢) الاعواز: الفقر. (٣) القرن: أمد زمان واحد. (٤) الشمع: الخلل

هذه هي الأمور الستة التي تصلح بها أحوال الأمم ، وتنظم جملة أمورها ، وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها .

ولا غرو : فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بشريعة أحاطت بجميع ما يكفل خير البشر . فما كان منه أمس حاجة وأشد لزوما ، فصلته وشرحته على أكمل بيان ، وما كان أقل في الاحتياج إليه وليس من الضروريات المعيشية أو التهذيبية ، رمزت إليه ، وأشارت إلى طرق تعلمه من أهله ، وسهلت السبيل إليه . ولهذا ظلت شريعته وستظل محفوظة الموارد ، مطردة القواعد : لا تختل منها قاعدة ، ولا ييطل منها حكم . ولو كانت من وضع البشر لاختلت ، وفسد نظامها ، كما تختل نُظم البشر على اختلاف العصور وتعاقب الأجيال .

دين ظهر للنصفين من المؤرخين والباحثين ، أنه لم ينتشر بالسيف كما يُرجف المرجفون . لأن محمداً عليه الصلاة والسلام ، لما قام بدعوى الرسالة كان واحداً وحده الحق الذي يدعو إليه ، فريدا لا عون له من الناس ، ولم يكن صاحب سلطان ، ولا متمكنا بعصية عشيرة قادرة ، بل إنه عند قيامه بتلك الدعوى بين جماهير الأمم ، كان من عشيرته أول من كذبه في دعواه ، وعاداه أشد المعاداة ، وسلط عليه أشرارها بالأذى وتسفيه الرأي . ومع ذلك ظل عليه الصلاة والسلام صابراً على أذى من آذاه : يدعو الخلق إلى الحق ، ويقيم لهم الأدلة ، ويظهر لهم محاسن دينه . ويوضح لهم معايب ما هم عليه ، حتى وضع الحق لمن أراد الله تعالى هدايته . فأخذت العقول السليمة تقبل دينه ، وتستحسن شريعته ، وهو حيثئذ لم يسَلَّ سيفاً ولم يأمر بإرافة قطرة من دم أجد ، بل كان يقول بلسان القرآن : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي

الَّذِينَ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) . (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ
مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) . (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) ،

أنبأنا التاريخ على لسان المنصفين ، أن دين محمد عليه السلام شاع قبل هجرته
من مكة إلى المدينة ، وقبل مشروعية الجهاد فيها ؛ وقبلته العقول السليمة ،
واستحسنه الطبائع الكريمة ؛ بلا خوف ولا رهبة .
وكذلك أنبأنا أن الناس دخلوا في دينه أفواجا بعد مشروعية الجهاد ،
وهم على خوف من أذى أعداء الدين .

وأنبأنا كذلك ، أنه لما لم تفلح الموعظة والبراهين في إقناع المخالفين
المعاندن ، الذين أرادوا صتد الدعوة واستتصالها ، وزادتهم معاملة الرفق
واللين طغيانا واجترأ على الدعوة وصاحبها .. شرع الله الجهاد ، وحاطه بقيود
تدراً الفسوة والتسكيل .

دين أحاط بكل حكمة باهرة ، واحتوى كل خصلة حميدة ، وكفل انتظام
حال البشر ، وصلاح أحوالهم ، وطهارة نفوسهم ، وعمارة ديارهم ، وكف
أشرارهم ، وجاءهم بعقائد — فضلا عن سلامتها من كل خرافة ودنية — تحت
الآخذين بها على التكمل ،

دين يأمر باتقاء كل مضر للإنسان في دينه ودنياه ، والإخلاص في العمل لله
تعالى ، والبر بالناس والإحسان في العمل ، والنصيحة لخلق الله تعالى ، والصبر
على الشدائد ومقاومة الأهوال والآلام ، والرضا بما يرضى الله تعالى ، وكظم
الغيظ عند الغضب ، وترك المجازاة للمذنب مع القدرة عليها ، مالم تكن حذاً
من حدود الله تعالى ، ويأمر كذلك بالاغتباط بعمل الخير ، وبالسخاء ، والكرم ،

والشجاعة والمحافظة على الحرم والدين، وبالثبات عند المخاوف، وبالرغبة الصادقة في الأناة بقدر ما يمكن، وبالتؤدة في التوجه نحو المطالب، وبالتأني في الخصومات والحروب، وبحسن الانقياد بما يؤدي إلى الجميل، وبمحنة ما يكمل النفس؛ وبالحكمة، والشكر، والخوف من الله تعالى، والرجاء فيه، وباتفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش، وبالوفاء، والرحمة بخلق الله تعالى، وبالإصلاح بين عباده، وبالأمانة، وإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، والحب في الله، والبغض في الله، وبحسن الظن، وبالمبادرة إلى عمل الخير، وبالصلابة في أمر الدين، وبالأنس في الله والشوق إليه، وبملازمة الأعمال الجميلة، والحرص على ما يوجب الذكر الجميل، وبالتحرج عن أى أذى يلحق الغير مطلقا، وبإكتساب المال من غير مهانة ولا ظلم، وإنفاقه في المصارف الحميدة، وتحرير النفس من ربة الشهوات، ومحاسبتها ومعاتبتها على ما تقع فيه من الموبقات إلى ما شئت من المكارم والمراحم.

دين ينهى عن الشرك بالله، والإضرار بالناس، والفسق، وعصيانه تعالى في أوامره ونواهيه؛ وعن اتباع الهوى، والرياء؛ وعن الكبر، والحق، والعجب، والحسد، والشهامة، والتهور؛ وعن الطيرة^(١) والتشاؤم الذي لا سند له من الشرع؛ وعن البخل، والشح، والإشراف؛ وعن الكسل والبطالة والعجلة في الأمور؛ وعن الفظاظة، وغلظة القلب، والوقاحة، وقلة الحياء؛ وعن الجزع وكفران النعم؛ وعن السخط والغضب؛ وعن الضعف في أمور الدين؛ وعن الطيش والخفة، وعن العناد والمكابرة في الحق، وعن الشره والطمع، وعن الحمية لغير دين الله تعالى، وعن القنوط من رحمة الله، وعن

(١) الطيرة : ما يشام به .

حبة الظلمة والفَسَقَة ؛ وعن النِّمِية ، وإفشاء السر ، والسخرية ، والاستهزاء بالناس ، واستصغارهم ، وعن اللعن ، والسب ، والتنازع ، ^(١) واللبز ^(٢) والتعير ، والمرء ؛ وعن الخوض في الباطل ، والمسألة لغير مضطر ، وعن الشفاعة السيئة ، والأمر بالمنكر ، والنهي عن المعروف ، وعن البحث في عيوب الناس ، والدعاء للظالم بالبقاء ، وعن كتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وقذف المحصنات الغافلات ، وتعمد الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ، وعن المن بالصدقة ، وكفران نعمة الخلق المؤدى إلى كفران نعمة الخالق ، والاستطالة في الأعراض ، وذكر الناس بما يكرهون في أنفسهم أو فيمن ينتسب إليهم ؛ وعن نقض العهد ، وخلف الوعد ، والخيانة ، والمكر والخديعة والفتنة ؛ وعن شرب المسكرات التي تذهب بالعقل ، وعن إنفاق السلعة بالخلف الكاذب ، وبخس الكيل ، أو الوزن أو الذرع ، وعن النجش ، ^(٣) وإنفاق المال في المحرمات ، وإيذاء الجار ولو كان مخالفاً في الدين ، وعن السرقة ، والغصب ، والربا ، وعن التدابر ، والتشاحن ، وعن أخذ الرشوة من محق أو مبطل ، ولو كانت في صورة هدية ، وعن خذلان المظلوم مع القدرة على نصرته إلى غير ذلك مما يضر بالمجتمع ، أو النفس ، أو المال ، أو العقل .

دين سنّ أحكام الزوجية على أكمل نظام : وأحفظه لحقوق كل من الزوجين عند الاجتماع ، وعند إرادة الافتراق ؛ وأباح لهما الفرقة ، تفادياً مما عساه أن يحصل لو أحدهما أو لهما إن منعانه ، وجعل سلطة الافتراق بيد الرجل ؛

(١) التنازع : التمايز بالألقاب . (٢) اللبز : عيب الناس في وجوههم .

(٣) النجش : أن تزيد في الثمن لتوقع غيرك .

لأنه هو المكلف الإنفاق عليها، فلا يرضى بفرقتها وضياع ما أنفق إلا إذا اضطرَّ غاية الاضطرار . وفرض على الرجل النفقة ، لأنه أقدر بطبيعته على الكسب من المرأة ، وعلى احتمال المشاق وركوب متن الأهوال . واستحسن للمرأة القيام بمصالح البيت الداخلية ، وتربية الأولاد ، ولذلك أمرها بالحجاب صونا لها ، ومحافظة عليها : كما يحافظ على الشيء النفيس الذي يُضنُّ به على الأنظار ومتى ألفت المرأة الحجاب وجدته محبوبا ، لاحتبس فيه ولا تضيق ، ولا يمنعها من زيارة أرحامها ، وغشيان أما كن العلم ، لتعلم ما تحتاج إليه من أمور دينها ودنياها .

دين جاء والرق منتشر بين الأمم ، والرقيق يعاني أنواع الظلم والقسوة ، فنهى أشد النهى عن إيذائه ، وتوعد من يؤذيه بالعقاب الأخرى ، ورغب في تحريره بمحصول الثواب الجزيل ، وشرع وسائل كثيرة تكفل تحريره ، وتقصر مدة الاسترقاق ، وكفل مساواة معيشته بمعيشة سيده .

وقصارى القول : أن الباحثين مهما يطل استقصاؤهم محاسن هذا الدين ، وفضله على بنى الإنسان في معاشهم ، لا يجدون إلى ذلك سبيلا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

البَابُ الْيَابِغُ

محمد صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق

خص الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بخصائص وفيرة،
ومحامد كثيرة، جعلته أفضل الخلق على الإطلاق، وأرفع الناس درجة،
وأقربهم زلي، وأكرمهم منزلة عند من يعلم السر وأخفى. وفضله على
خاصته وأحبابه، وأعلى في الدارين مقامه حتى قرن اسمه باسمه، وذلك لعمري
تشریف ليس فوقه زيادة لمستزيد
وحسبك شاهداً على ذلك ما يلي :

(١) آتاه الله الكمال في الخلق والخلق، والأقوال والأعمال : فجعله بالسكينة
الباغثة على الهيبة والتعظيم، وكساه حسن القبول، فاستمال القلوب، وانقادت
النفوس لموافقته، وثبتت على محبته ومناصرته، وأمدته برجاجة العقل، وصدق
الفراسة، ومنحه زهداً في الدنيا وإعراضاً عنها، واكتفاءً بالبلاغ منها،
وتواضعاً للناس وهم له أتباع، وخفض الجناح لهم وهو فيهم مطاع، ووهبه
الحلم والوقار، فها هزه طيش، ولا استفزه خرق، وأفاض عليه العلوم
الجمّة الباهرة، والحكم البالغة، وجعله أفصح الناس لساناً، وأوضحهم بياناً،
وأوجزهم كلاماً، وأجزلهم ألفاظاً.

(٢) خصه الله جل شأنه بخمس لم يعطهن أحداً من خلقه — تأمل
ما رواه جابر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي : كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُعْثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً

وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ^(١)، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ فَإِذَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ (رواه البخاري وفي رواية الإمام أحمد: (وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، فَأَخْتَرْتُهَا لِأُمَّتِي: فَهِيَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا).

وفي حديث مسلم: «أُعْطِيتُ سِتًّا، بِزِيَادَةِ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ^(٢) وَخُتَمَ بِي النَّبِيُّونَ».

(٣) تصرمت معجزة كل نبي وانقضت ، ومعجزة سيد الأولين والآخرين — وهى القرآن الكريم — باقية إلى يوم الدين .

(٤) أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين: آدم فمن بعده ، أن يؤمنوا به وينصروه ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ^(٣) إِصْرِي، قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ . ففى هذه الآية من التنويه بمحمد صلى الله عليه وسلم والتعظيم لقدره ، ما ليس وراءه مطمع

(١) كل أحمر وأسود: جميع الناس ، عربهم وعجمهم .

(٢) أى قلة اللفظ وكثرة المعنى . (٣) الاصر: العهد .

ولم شئ من ذلك يشير الشيخ الأكر محي الدين في قوله : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، هو الذى أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم فى عالم الأرواح ، حتى ظهر بجسمه صلى الله عليه وسلم .

(٥) أتى الله تعالى على خلقه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا غاية الثناء .

(٦) أخبر الله جل شأنه أنه وملائكته يصلون على النبي ، وأمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه ، وليس هناك شرف ورفعة فوق هذا : العناية الأزلية القديمة أفاضت عليه الرحمة ، والملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم يلهجون بالاستغفار له ، والمؤمنون يضرعون به إلى العلى الكبير (٧) حوت الكتب القديمة السالفة ، حوت من البشائر بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم مالا سبيل إلى إنكاره .

(٨) انقطع الكهنة عند مبعثه ، كما انقطع استراق السمع . وفى هذا قضاء على الدجل والشعوذة ، وإماتة الشرك الخفى .

(٩) أوتى صلوات الله عليه الكتاب العزيز وهو أسمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بمدرسة ، ولا تخرج فى كلية ، ولا انتظم فى جامعة ، وحفظ الله كتابه المنزل عليه من التبديل والتحريف ، فقال جل شأنه : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . فلم يستطع أحد تغيير حرف منه ، مع تضافر طوائف الملاحدة ومن نحا نحوهم على إبطاله أو إفساده ، فلم يجدوا إلى

ذلك سبيلا .

أضف إلى ذلك أن الله تعالى يَسِّر حفظه لمتعلميه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ . وما عرف ذلك لكتاب غيره ، وأنه مشتمل على جميع ما اشتملت عليه التوراة والإنجيل والزبور ، وفضل بالمفصل^(١) والمثنى والسبع الطول . أما المفصل فآخره : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . وأوله — على ما رجح النواوي — سورة الحجرات . والمثنى هي سورة الفاتحة^(٢) ، كما جاء في البخارى من حديث أبي هريرة . وأما السبع الطول : فأولها البقرة ، وآخرها الأنفال وبرامة جميعا ، لأنهما كسورة واحدة ، ولذلك لم يفصل بينهما بالبسملة . أو هي من البقرة إلى الأعراف ، والسابعة سورة يونس .

(١٠) أقسم الله بحياته صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ لَهُمْ لَنِي سَكَّرْتَهُمْ يَعْصُونَ ﴾ . والإقسام بحياته يدل على شرف حياته وعزته عند الله العزيز الحكيم .

(١١) شريعته صلى الله عليه وسلم أكمل من جميع شرائع الأمم المتقدمة ، وأتمها إحاطة بمصالح الدنيا والدين .

فقد كانت شريعة موسى عليه السلام شريعة شدة وقهر : أمروا بقتل أنفسهم ، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات ، وحرمت

(١) سمي بالمفصل لكثرة فصوله أى سورته (٢) سميت الفاتحة بالمثنى لأنها ثنى في الصلاة أى تكرر أو لاشتغالها على ما مر ثناء على الله

عليهم الغنائم ، ويُجَلَّ لهم من العقوبات ما يُجَلَّ ، وَحُمِّلُوا من الآصار (١) والأغلال ما لم يحمله غيرهم ، وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله تعالى هبة ووقاراً ، وأشدَّهم بأساً وغضباً لله تعالى ، وبطشاً بأعداء الله ، وكان لا يستطيع النظر إليه

أما عيسى عليه السلام فكان في مظهر الجلال ، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان ، لا يقاتل ولا يحارب : تأمل قول الإنجيل : (من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك) .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فكان مظهر الكمال الجامع للقوة والعدل ، والشدة في الله ، واللين ، والرأفة ، والرحمة . فشريعته أكمل الشرائع ، وأتمه أكمل الأمم ، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات ، ولذلك أتت شريعته بالعدل فرضاً ، وبالفضل ندباً ، وبالشدة في موضع الشدة ، وباللين في موضع اللين ؛ فتذكر الظلم وتحزمه ، والعدل وتأمر به ، والفضل وتندب إليه : تأمل قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ . فهذا عدل . وقوله تعالى :

﴿ فَنَنْعِقُوا نَعْفًا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ . فهذا فضل . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ . وهذا تقييح للظلم وأهله . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ . وفي هذا إيجاب للعدل ، وتحريم للظلم . وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ . وهذا ندب إلى الفضل . حرمت الشريعة السمحة كل خبيث وضار ، وأحلت كل طيب ونافع

فالتحریم علی أمة محمد رحمة ، وعلى من كان قبلهم لم یخل من عقوبة ، تمشیاً مع کل حال بما یناسبها ، سنة الله فی خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

هذه أمة محمد ، جعلها الله خیر أمة أخرجت للناس ، فکمل لهم من المحاسن ما فرقه فی الأمم ، کما کمل لنبيهم الکریم من المحاسن ما فرقه فی الأنبياء قبله ، وکما کمل فی کتابهم من المحاسن ما فرقه فی الکتب قبله . فأتباع محمد المجتوبون قال (تعالی) : ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(١٢) لا تکاد تخلو سورة من القرآن الکریم من ذکره صلوات الله علیه بتنويه أو تفضیل :

إن الله سبحانه وتعالی أرسل محمداً رحمة للعالمین ، وبعثه داعياً إلى الله یأذنه وسراجاً منيراً ، وأنزل علیه الفرقان فی تبيان کل شیء ترغیباً وتحذیراً ، وشرح له صدره ، ورفع له ذکره ، وبذلك فضله علی الأنبياء والمرسلین تفضیلاً وشرفه عليهم تشریفاً .

وحسبه شرفاً أنه لا تکاد تخلو سورة من سور القرآن من ذکره - کما قلنا - بضرب من ضروب الفضل والإنعام .

ولا یتسع المقام لاستقراء الآيات الدالة علی مناقبه ومفاخره ؛ فقد أفرد لذلك بعض المؤلفین المقدمین کتاباً استوعبت جمیع ما ورد فی القرآن من هذه الآيات ، وحسبنا أن نجتزئ بما یلی :

١ - ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة : ٢٨٥)

٢ - ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٢١، ٣٢)

٣ - ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا
مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

٤ - ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)

٥ - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾
(النساء: ٤١)

٦ - ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣)

٧ - ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ
تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

يَاذَنَّهُ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٥٠﴾

٨ - ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

(الأعراف : ١٩٩)

٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنْتُمْ تُخْشَوْنَ

(الأنفال : ٢٤)

١٠ - ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال : ٣٣)

١١ - ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ
مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة : ٢٣)

١٢ - ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ
إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ
وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة : ٢٩)

١٣ - ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ٦٠ و ٦١)

١٤ - ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٨٧ و ٨٨)

١٥ - ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٨ و ١٢٩)

١٦ - ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٤ - ٩٩)

١٧ - ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ (البقرة: ٢٥)

الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿

(الإسراء: ١)

١٨ - ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩)

١٩ - ﴿فَأَيُّمَا يَسِّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدَّا﴾

(سرم: ٩٧)

٢٠ - ﴿طَلَّهٗ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه: ١ و ٢)

٢١ - ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٦٧)

٢٢ - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقْلُبُكَ

فِي السَّاجِدِينَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠)

٢٣ - ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينِكَ إِذَا

لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨)

٢٤ - ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الروم: ٣٠)

٢٥ - ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾

(الاحزاب: ٦)

٢٦ - ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿ (الاحزاب: ٢١)

٢٧- ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (الاحزاب: ٣٦)

٢٨- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمُ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (الاحزاب: ٤٥-٤٧)

٢٩- ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلُّوا تَسْلِيمًا ﴾ (الاحزاب: ٥٦)

٣٠- ﴿ يَس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (يس: ١-٤)

٣١- ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص: ٨٦-٨٨)

٣٢- ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر: ٣٣ و ٣٤)

٣٣- ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ

قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا
أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ *
يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿الاحقاف : ٢٩ - ٣١﴾

٣٤ - ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَتُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا
عَزِيزًا﴾ (الفتح : ١ - ٣)

٣٥ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ
نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْلُ نَفْسِهِ أَجْرًا
عَظِيمًا﴾ (الفتح : ١٠)

٣٦ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ
وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ *
إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
لَلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(الحجرات: ١ - ٥)

٣٧ - ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾
(الطور: ٤٨ و ٤٩)

٣٨ - ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتَأْمُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾
(النجم: ١ - ١٨)

٣٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المجادلة: ١٢)
٤٠ - ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾
(الصف: ٦)

٤١ - ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مَتِّمٌ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ۚ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٨ و ٩)

٤٢ - ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۚ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ۚ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۚ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۚ
تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحاقة: ٣٨ - ٤٣)

٤٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ۚ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ
أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ١ - ٤)

٤٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۚ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: ١ - ٣)

٤٥ - ﴿سُنُقِرُكَ فَلَآ تَنْسَى ۚ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۚ
وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى ۚ فَذَكَّرْ إِنَّ نَفْعَتِ الذِّكْرِى﴾ (الاعلى: ٦)

٤٦ - ﴿وَالضُّحَىٰ ۚ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۚ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۚ
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۚ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۚ أَلَمْ يَجِدْكَ
يَتِيمًا فَآوَىٰ ۚ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۚ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۚ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا
تَقْهَرْ ۚ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۚ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١ - ١١)

- ٤٧ - ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الانشراح: ١ - ٨)
- ٤٨ - ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۖ إِنَّ شَاتِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ١ - ٣)
-

الباب العاشر

محمد صلى الله عليه وسلم أجدر الناس بالإيمان به
ومحبته واتباعه وطاعته

أبنا في القول السابق أن محمداً صلى الله عليه وسلم تردُّ إليه الفضائل جميعها ،
وأن الله جمع له المعارف الوافرة ، والعلوم التي لم تزل عن وجوه الهداية
سافرة ، وخصه بورود عين اليقين ، وأطلعه على جميع مصالح الدنيا والدين ،
ولقنه مُحاجة كل أمة من الكفرة ، ومعارضة أهل الكتاب بما في كتبهم
المسطرة ، فأعلمهم بمخباتها وأسرارها ، والمكتوم والمغير من أسفارها ،
والخفي المكنون من أخبارها .

وجوب الإيمان به

من أجل ذلك كان الإيمان به واجباً . والإيمان به : هو الشهادة له بالرسالة ،
وتصديقه في جميع ما جاء به ، إيماناً يجمع بين التصديق بالقلب والشهادة
باللسان ، لأن الإيمان محتاج إلى العقد بالجنان ، كما أن الإسلام يقتضي
النطق باللسان .

وجوب طاعته

وكذلك تجب طاعته ؛ لأنها لطاعة الله مصاحبة . فمن أطاعه هُدى إلى
سواء السبيل ، ومن امتثل أمره أوتي جزيل الثواب ، ومن خالفه استوجب
شديد العقاب .

وطاعته التزام دينه . والتسليم بما جاء به ، ورفع كلمته ، واتباع سنته السنية

واقْتفاء سيرته الزكية. ومحاكاته في الأخلاق والأفعال والانتقياد لأوامره في جميع الأحوال، والتأسي به في حربه وسلبه، والأخذ بقوله، والرضا بحكمه، والسعي في نشر شريعته، وبث روحها في نفوس الخلق، حتى يفقهوا أن من انتصر بها فهو منصور، ومن سار عليها وفق في سائر الأمور، ومن اعتصم بها نجا من النار، ومن حافظ على برها حشر مع الأبرار، ومن تمسك بها في زمن الفساد فله أجر مائة شهيد، ومن آثرها على نفسه نال غاية الأمل، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ماتولى، وأصلاه نار الكافرين.

تَقُلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. وقوله جل شأنه: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وقوله جلت حكمته: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. وقوله تعالت حكمته: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وجوب محبته

أما محبته صلى الله عليه وسلم، فلأنه قد جاء بالرفقة والرحمة، وعلم الكتاب والحكمة. وبشر وأنذر، ونهى عن التعسير ويسر، وبالغ في النصيحة، وسلك المحجة الصحيحة، وآتى بالهداية، وأنقذ من العماية، ودعا إلى الفلاح

ومهد سبيله ، وبين سبيل النجاح ، وأقام دليله .
 فأى كرم أجزل من كرمه ؟ وأى نعم أكمل من نعمه ؟ وأى إفضال
 أعم من إفضاله ؟ وأى نوال أتم من نواله ؟
 من أجل ذلك كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المنزلة التي
 يتنافس فيها المتنافسون ؛ وإليها يشخص العاملون : فهي قوت القلوب ، وغذاء
 الأزواح ، وقرّة العيون . وهي الحياة : فمن حُرّمها فهو في عداد الأموات .
 وهي النور : فمن فقدّها ضرب في تيه من الظلمات . وهي شفاء : فمن عَدِمه حلّت
 بقلبه ضروب السقام .

ولا عجب فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ؛ فإذا كان الإنسان
 يحب من منحه من دنياه مرة أو مرتين معروفاً فانياً منقطعاً ، أو أنقذه من
 هلكة أو مضرة لا تدوم ، فما بالك بمن منحه منحة لا تبيد ولا تزول ، ووقاه
 العذاب الآليم ، ودله على النعيم المقيم ؟ .

وإذا كان المرم يحب غيره لما فيه من أخلاق جميلة ، وسيرة حميدة ، فكيف
 بهذا النبي الكريم ، والرسول العظيم ، الجامع لمحاسن الأخلاق ، المانح الخلق
 جوامع المكارم والفضل العميم ، والذي أخرجهم من نار الجهل إلى جنات
 العرفان والإيقان ، وهو الوسيلة إلى البقاء الأبدى في النعيم السرمدي ، وليس
 لأحد بعد الله ، منة على خلقه سواه .

من أجل ذلك استحق أن يكون حظه من محبتنا له . أوفى وأزكى من محبتنا
 لأنفسنا ، وأولادنا ، وأهلنا ، وأموالنا ، والناس أجمعين . بل لو كان في منبت
 كل شجرة منا محبة تامة له - صلوات الله وسلامه عليه - لكان ذلك
 بعض ما يستحقه .

انظر قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ » . وفي رواية أخرى : « حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ » .

درجات الناس في محبته

الناس متفاوتون في محبته : فمنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى ، ومنهم من إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اشتاق إلى رؤيته ، بحيث يؤثرها على أهله وماله وولده ، ويذل نفسه في الأمور الخطيرة ، ويجد رجحان ذلك من نفسه وجدانا لا ترد فيه :

وسبب تفاوت المحبين في محبته صلى الله عليه وسلم ، هو استحضار ما وصل إليهم من جهته : من النفع الشامل لخير الدارين ، والغفلة عن ذلك ، ولا شك أن حظ الصحابة رضوان الله عليهم في هذا المعنى آثم ؛ لأن هذا ثمرة المعرفة وهي فيهم تامة غير منقوصة . تأمل مايلي :

(١) كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مولى يسمى ثوبان، وكان شديد الحب له نافذ الصبر عنه ، فأتاه يوما وقد تغير وجهه ، ونحل جسمه ، وظهر الحزن في وجهه ، فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن حاله ، فقال : يا رسول الله ، ما بي من وجع - غير أني إذا لم أراك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك ؛ لأنني إن دخلت الجنة ، فأنت تكون في درجات النبيين فلا أراك . فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا . وليس المراد أن يكون الكل في درجة واحدة ؛ لأن الله لا يسوّى بين الفاضل والمفضول ، وإنما المراد أنهم في الجنة مع التمكن من الرؤية والمشاهدة ؛ لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً .

(٢) روى ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد ، فأخبروها بذلك ، فقالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : بحمد الله هو كما تحبين . قالت : أرونيه حتى أنظره ، فلما رأيته قالت : كل مصيبة بعدك صغيرة .

(٣) لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه ، قال له أبوسفیان ابن حرب : أنشدك الله ^(١) أيازيد ، تحب أن محمداً الآن مكانك تُضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمداً مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وإني لجالس في أهلي فقال أبوسفیان : ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

(٤) أن بلالا رضى الله عنه لما حضرته الوفاة ، كان أهله يقولون : واكرباه ! وهو يقول : وأطرباه ! غدا ألقى الأحبة : محمداً وصحبه . فخرج مرارة الموت بحلاوة اللقاء ، وهي حلاوة الإيمان التي جاءت الإشارة إليها في قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ لَا يُحِبَّ الْمَرْءُ مَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهَ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يُعْودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ﴾ .

(١) أنشدك الله : سألتك به مقسماً عليك

من أجل ذلك كان عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول : « ما كان أحد أحب إليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، . وكان على كرم الله وجهه يقول : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحب إلينا من أموالنا ، وأولادنا وآبائنا ، وأمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظمأ » .

تأمل قول ابن عطاء الله : « إن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى تنعم بملذوذات المعالي ، كما تنعم النفوس بملذوذات الأطعمة » .

أولئك هم الذين قوت أعينهم بمحبة محمد صلى الله عليه وسلم وسكنت نفوسهم إليه ، واطمأننت به قلوبهم ، فجعلوه إمامهم ومعلمهم ، وتأدبوا بآدابه ، وتخلقوا بأخلاقه .

أمارات محبته صلى الله عليه وسلم

لمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم دلائل جمة ، أهمها ما يلي :

(١) نصر دينه بالقول والفعل ، والدفاع عن شريعته ، والتخلق بأخلاقه في الجود ، والإيثار ، والحلم ، والصبر ، والتواضع ، وغيرها . فنجاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان ، ومن وجدها استلذ الطاعات ، وتحمل المشاق في الدين ، وآثر ذلك على أعراض الدنيا الزائلة .

(٢) العطف على أمته ، والبر بهم ، والنصح لهم ، والسعى في مصالحهم ، وبذل الجهد في نشر دينه ونصرته ، والتأدب بآدابه وأحكامه ، وإيثار شرعه على الهوى ، وعدم مبالاة سخط الناس في رضا الله ورضاه ، والتخلق بخلق الله ، والتطبع بطبعه ، واجتناب كل أمر يخالف شرعه والوقوف عند حدوده ، ورفض أقوال شائته وحسوده ، وبذل النفس والمال دونه ، والميل إلى من أحبه .

(٣) تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره: فقد كان أصحابه الأبرار لفرط محبتهم له يعظمونه كثيراً ، ولا يكادون يملثون عيونهم منه إجلالا وتوقيراً ، يستمعون لكل لفظ ينبس به ، ولا يتعجلون بقضاء أمر قبل قضائه فيه ، ولا يرفعون صوته فوق صوته ، وينادونه بأشرف ما يحب من أسمائه ، وقد سمحوا في الدفاع عنه وعن دينه بأموالهم وأنفسهم ، وجاء السلف الصالح من بعدهم ، فعظموا حديثه الحسن الصحيح ، وتلقوا ما وصل إليهم من سنته الشريفة بكل صدر فسيح ، وأنصتوا إلى سماع أقواله ، وتأدبوا بصفاته وأفعاله فمنهم من ارتدى بالخضوع والخشوع ، ومنهم من جرت من عينيه شآبيب^(١) الدموع ، ومنهم من لم يكتب الحديث إلا وهو طاهر ، ومنهم من امتنع أن يقرأ حديثه وهو مضطجع أو سادر^(٢) . وكان حالهم في توقيره والاستجابة إليه ، كالوكانوا وهو حي وهم بين يديه ؛ لأنهم عرفوه حق قدره ، فاستوت لديهم حياته وعماته .

(٤) محبة آله الأطهار ، وعترته الأبرار ، وذريته الأخيار ، وسائر المهاجرين والأنصار ، وإكرام أمهات المؤمنين أزواجه ، وإجلال من سلف من أصحابه ، ومن لازمه منهم في ذهابه وإيابه ، والاقتران بأفعالهم الصالحة ، والاقتراس من أنوار معارفهم الواضحة .

(٥) الاستغفار لأصحابه صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال ، والإمسك عما شجر بينهم من الأقوال والأفعال . وإظهار سيرتهم الحميدة ، وتبيان فضائلهم الوفيرة ، والاهتداء بهديهم ، ونبد من عاداهم من ضلال المبتدعة

(١) شآبيب الدموع : الدموع المتدافعة .

(٢) السادر : المتحير والمعنى غير متب .

تأمل قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾. وقوله وهو أصدق القائلين: ﴿رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾. وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام - وهو ما يتشرف به السمع وتشرف به الصحيفة - : «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» .

من أجل ذلك كان من أحسن الثناء عليهم بريئاً من النفاق ، ومن أحبه نال في ميدان الإيمان جائزة السباق ، ومن حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة ؛ لأن الله فضّلهم بصحبة سيد المحسنين ، واختارهم على العالمين - سوى الأنبياء والمرسلين .

(٦) الإكثار من ذكره صلى الله عليه وسلم ، لأن علامة المحبين كثرة الذكر للمحبوب على طريق الدوام : لا ينقطعون ، ولا يملون ، ولا يفترّون .
(٧) لمظهار الخشوع والخضوع عند ذكره : كما كان كثير من الصحابة رضى الله عنهم إذا ذكروه خشعوا ، واقشعرت جلودهم ، وكما فعل كثير من التابعين ومن بعدهم .

تأمل ما روى من أن جعفر بن محمد رضى الله عنه ، كان كثير المزاح والدعابة فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم أخذته بهتة واصفرّ لونه ، وأن عبد الرحمن ابن القاسم ، ابن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، كان إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، جفّ لسانه في فمه هيبة للرسول ، وتغير لونه كأنه تزف منه الدم ، وأن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، كان إذا ذكر عنده النبي

صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينه دموع .
وغير هؤلاء كثير ممن كانوا إذا ذكر عندهم المصطفى صلى الله عليه وسلم
خضعوا ، وخشعوا ، وسكنت حركاتهم ، وتمشت في قلوبهم الهيبة والإجلال
كما لو كانوا بين يديه .

(٨) حُبُّ القرآن الكريم الذى أتى به وتخلق به ، فإذا أردت أن تعرف
ما عندك وعند غيرك ، من محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فانظر محبة
القرآن من قلبك ، إذ من المعلوم أن من أحب محبوباً ، كان ما يحبه به من
الحديث أحب شيء إليه ، وأعزّه عليه .

انظر قول عثمان بن عفان رضى الله عنه : « لو طهرت قلوبنا ما شيعت
من كلام الله (تعالى) . وكيف يشيع المحب من كلام محبوبه ، وهو غاية مطلوبه ؟ »
وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه :
(اقرأ على . قال : اقرأ عليك وعليك أنزل ! قال : فإنى أحب أن أسمع من
غيرى . فاستفتح وقرأ سورة النساء ، حتى بلغ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
بشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ، قال : حسبك . فرفع رأسه ، فإذا عينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان الدمع) .

وتأمل قول الله تعالى فى حق القسيسين والرهبان : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ
إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾
وسر ذلك أن السماع تارة يثير حزناً ، والحزن حار ، وتارة يثير شوقاً ،
والشوق حار ، وتارة يثير ندماً والندم حار ؛ فإذا أثار السماع هذه الصفات
من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين ، خشع قلبه ، فبكى ، ودمعت عيناه .

الباب الحادى عشر

محمد (صلى الله عليه وسلم)

أوفى مظهر للقرآن الكريم

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة (رضى الله عنها وعن أبيها) فسألتها عن أخلاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : كان خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) القرآن . ولا غرو فقد أدبه القرآن بمثل قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) وقوله : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) وقوله : (وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وقوله : (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وقوله : (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) وقوله : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) وقوله : (أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) وقوله : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) وقوله : (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا)

ومن ذلك أنه لما كسرت رباعيته ، وشج يوم أحد ، فجعل الدم يسيل عن وجهه

يمسح الدم ويقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » أنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تأديبا له (صلى الله عليه وسلم) . وأمثال هذه التأديبات فى القرآن كثيرة ، لأنه (عليه الصلاة والسلام) المقصود الأول بالتأديب والتهديب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق ، فهو أدب بالقرآن ، وأدب الخلق به . ولذلك قال (صلى الله عليه وسلم) : « بعثت لأتم مكارم الأخلاق » . وقال : « إن الله يحب مكارم الأخلاق ويغض سفسافها ، وفى ذلك قال على (رضى الله عنه) : « يا عجا لرجل مسلم ، يحميه أخوه المسلم فى حاجة ، فلا يرى نفسه للخير أهلا ، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ، لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق ، فإنها مما تدل على سبيل النجاة » فقال له رجل : أسمعته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ فقال : نعم ، وما هو خير منه . ذلك أنه لما أتى بسبا ياطيه وقعت جارية فى السبي ، فقالت : « يا محمد ، إن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط : أنا ابنة حاتم الطائى ، ا فقال (صلى الله عليه وسلم) : « يا جارية ، هذه صفة المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق . وإن الله يحب مكارم الأخلاق ، فقام أبو بردة بن نيار ، فقال يا رسول الله : « آله الله يحب مكارم الأخلاق ؟ » فقال : « والذى نفسى بيده ، لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق » . وعن معاذ بن جبل عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : « إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال » . ومن أظهرها ما تخلق به المصطفى (صلى الله

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤٠٣

عليه وسلم) من حسن المعاشرة ، وكرم الصنيعة : ولين الجانب ، وبذل المعروف ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، وعيادة المريض ، وحسن الجوار ، وإجابة الطعام ، والدعاء عليه ، والإصلاح بين الناس ، والجود ، والكرم ، والسماحة ، والابتداء بالسلام ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، واجتناب ما حرم الإسلام : من اللهو ، والباطل ، والغيبة ، والكذب ، والبخل ، والشح ، والجفاء ، والمكر ، والخديعة ، والنميمة ، وسوء ذات البين ، وقطيعة الأرحام ، وسوء الخلق ، والتكبر ، والفخر ، والاختيال ، والاستطالة ، والبذخ ، والفحش ، والتفحش ، والحقد ، والحسد ، والطيرة ، والبغى ، والعدوان ، والظلم . وفي ذلك يقول أنس (رضي الله عنه) : « لم يدع النبي الكريم نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها ، وأمرنا بها ، ولم يدع غشاً ، أو قال : عيياً ، أو قال : شيئاً ، إلا حذرنا ، ونهانا عنه . » وكل ذلك مظهر قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية تأمل قول معاذ : أوصاني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : « يا معاذ ! أوصيك باتقاء الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح . » وأنهاك أن تسب حكماً ، أو تكذب صادقاً ، أو تطيع أثماً ، أو تعصى إماماً عادلاً ، أو تفسد أرضاً . وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر وصدور ، وأن تحدث لكل ذنب توبة : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية . » وهكذا أثمر تأديب القرآن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) أخلاقاً وأفعالاً لم تجتمع لبشرى قط قبله ، ولا تجتمع

لبشرى بعده : إذ أننا كما أسلفنا فى الباب الأول ، لم نسمع لأحد قط صبراً كصبره ، ولا حلماً كحلته ، ولا وفاء كوفاته ، ولا زهداً كزهده ، ولا جوداً كجوده ، ولا نجدة كنجدته ، ولا صدق لهجة ، كلهجته ، ولا تواضعاً ، ولا علماً ، ولا ثباتاً ، ولا عفواً ، كتواضعه ، وعلمه ، وثباته ، وعفوه .

وكذلك تجلى أدب القرآن فى كلامه :

تأمل ما نحن مودوده من الآيات والأحاديث ، يتبين لك أن أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصدق ترجمان لهذه الآيات ، وخير دستور كفيل بإصلاح الأفراد والأمم . وهى على أربعة أضرب :

الضرب الأول - فضائل ذاتية :

الأولى : وجوب التماس رضا الله ، وإن سخط الناس .

تأمل قوله (تعالى) :

(اتَّخَشَوْهُمْ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ١٣ التوبة (فَلَا تَخْشَوْا

النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) : ٤٤ المائدة .

(اتَّخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) : ٣٧ الأحزاب

ثم تدبر قوله (صلى الله عليه وسلم) :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

« من أَرْضَى سلطاناً بما يسخط به ربه ، خرج من دين الله ، رواه الحاكم .

وعن ابن عباس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله

عليه وسلم) « من أسخط الله فى رضا الناس ، سخط الله عليه ، وأسخط

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤٠٥

عليه من أرضاه في سخطه . ومن أرضى الله في سخط الناس ، رضى الله عنه ، وأرضى عنه من أسخطه في رضاه ، حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينه ، رواه الطبراني بإسناد جيد قوى .

الثانية : قول الحق ، واجتناب الزور

اقرأ قوله (تعالى) :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ : ٨ المائدة ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ٣٠ ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ٣١ الحج .

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ٢٨٣ البقرة .

وتفهم قول النبي (صلى الله عليه وسلم) :

عن أبي بكر (رضى الله عنه) قال : « كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثا) قلنا : بلى ، يا رسول الله ! قال : « الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، فقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : « ليته سكت ، رواه البخارى ومسلم .

الثالثة : الأمر بإقامة العدل وتوعد أهل الظلم

قال (تعالى) :- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ : (٩٠) النحل
﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَعْهَدُ اللَّهُ أَرْفُوا﴾ : (١٥٢) الأنعام
﴿وَأَمَرْتُ لَأَعْدَلَ بَيْنَكُمْ﴾ . (١٥) الشورى

فانظر قول الرسول (عليه الصلاة والسلام)

عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال :
«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في
عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه
وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ،
ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر
الله خاليا ففاضت عيناه» رواه البخارى ومسلم

وعن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
وقال : «كيف أتم إذا وقعت فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم
أو تدركون ، ما ظهرت الفاحشة في قوم يعمل بها فيهم علانية ، إلا ظهر فيهم
الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم . وما منع قوم الزكاة إلا منعوا
القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا . وما بنحس قوم المكيال والميزان إلا
أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان . ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل
الله إلا سلط عليهم عدوهم ، فاستنفدوا بعض ما في أيديهم . وما عطلوا كتاب
الله وستة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم» رواه البيهقي والحاكم بنحوه من حديث

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤٠٧

(بريدة) وقال : صحيح على شرط مسلم

الرابعة : الثناء على الصدق ، وذم الكذب

قال (تعالى) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠)
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ : (٧١) الأحزاب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
رِجَالٌ صدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ. وَمَا
بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ : (٢٣) الأحزاب

وجاء في الحديث الشريف :

عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
« عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وما يزال
الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ،
فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال العبد
يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » رواه البخاري ومسلم
وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
قال : (أربع إذا كن فيك ، فلا عليك مما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ،
وصدق حديث ، وحسن خليفة ، وعفة في طعمة » رواه أحمد والطبراني
بأسانيد حسنة .

الخامسة : الإشادة بذكر أنصار الدين

قال (تعالى) : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ : ٢٨ الكهف .

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ : (٦٤) يونس .
﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ :
(٣٤) الأنفال .

وجاء فى الحديث : فى رواية للبخارى قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «إن الله (تعالى) قال : «من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وماتقرب الى عبدى بشئ أحب الى من أداء ما اقترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيدنه » .

السادسة : الأمر بتناول الكسب الحلال

قال (تعالى) : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ : (١٦٨) البقرة
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ : (١٧٢) البقرة .
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٣٢) الاعراف

وورد فى الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) قال :
قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله قسم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤٠٩

إلا من يحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه . والذي نفسى بيده لا يُسلم أولاً يُسلمُ عبد ، حتى يُسلم أو يُسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه - قالوا : وما بوائقه ؟ - قال : غشه وظله ، ولا يكسب عبد ما لا حراماً فيتصدق به فيقبل منه ، ولا ينفق فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله (تعالى) لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن . إن الحديث لا يمحو الحديث ، رواه أحمد من طريق حسن .

السابعة : الحث على شكر النعم .

قال (تعالى) : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

لَشَدِيدٌ﴾ (٧) إبراهيم .

﴿فَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ :

(٤٠) النحل .

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ : (١٥٢) البقرة

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ : (٦٠) الرحمن

وجاء في الحديث : عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن استجار بالله فأجيروه ، ومن أتى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له ، حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » . أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه . وروى أحمد بسند رواه ثقات : « إن أشكر الناس لله (تبارك وتعالى) أشكرهم للناس » ، وفي رواية « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » ،

الثامنة : امتداح سلامة الصدر

الآيات : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ :

٨٨ : الشعراء

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ٩ - ١٠ الحشر

وورد في الحديث : عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » : رواه مسلم .

التاسعة : إعلاء مقام الصبر عند المصيبة ، والرضا بالقضاء والقدر

جاء في الذكر الحكيم : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ١٥٥ - ١٥٧ البقرة .

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧) البقرة .

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤١١

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ (٣٥) الحج
﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾
(٧٥) الفرقان

وجاء في الحديث : روى الطبراني : وإن الله ليجرب أحدكم بالبلاء ، كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار ، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، فذلك الذي حماه الله من الشبهات ، ومنهم من يخرج كالذهب الأسود ، فذلك الذي افتن (١) .
الضرب الثاني — فضائل اجتماعية :

الأولى : الأمر ببر الولدين ، والنهي عن عقوقهما

تأمل قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (٢٥) الإسراء

وانظر قوله (صلى الله عليه وسلم) عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «لا يجرى ولد والده ، إلا أن يجده مملوكا فيشتريه ليعتقه» رواه مسلم وأبو داود
وفي رواية لمسلم قال : أقبل رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

(١) أصله من الفتن ، وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته .

فقال «أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغى الأجر من الله . قال: فهل من والديك أحد حتى ؟ . قال : نعم قال : «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما، وعن ثوبان (رضى الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: ثلاث لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، رواه الطبراني في الكبير الثانية: إيجاب صلة الرحم وتحريم قطيعته

ففي الذكر الحكيم : ﴿وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ . (٢٦) الإسراء

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢١) النساء

وفي الحديث الشريف : عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» رواه البخارى ومسلم .

وعن أنس (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : «من أحب أن يُيسّط له في رزقه ، ويُنسأ له في أثره ، فليصل رحمه» رواه مسلم والبخارى الثالثة: إيجاب طاعة أولى الأمر

فقد جاء في الكتاب الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

وورد في الحديث : عن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «على المرء المسلم السمعُ والطاعة فيما أحب وكره ،

إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . أخرجه الخمسة .

وعن عمر (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
«ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم ؟ خيارهم الذين تجبونهم ويحبونكم ،
وتدعون لهم ويدعون لكم ، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ،
وتلعنونهم وبلغنونكم ، أخرجه الترمذى

الرابعة : إيجاب إكرام الجار ، والنهي عن إيذائه .

ففي الذكر الحكيم : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ
وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
مُخْتَلًا نَفْرًا ۚ﴾ : ٣٦ النساء

وفي الحديث الشريف : عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى
الله عليه وسلم) قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ،
ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » ، رواه البخارى ومسلم
وعن أبي شريح الكلبي (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى
الله عليه وسلم) : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » قيل : يا رسول
الله لقد خاب وخسر ، من هذا ؟ قال : « من لا يؤمن جاره بوائقه » قالوا :
وما بوائقه ؟ قال : « شره » . رواه البخارى .

وعن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « المؤمن من أمنه الناس ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ،

والمهاجر من هجر السوء ، والذى نفسى ييده ، لا يدخل الجنة عبد لا يؤمن جاره بوائقه ، رواه أحمد وأبو يعلى والبزار .

وعن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «ما زال جبريل (عليه السلام) يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه» رواه البخارى ومسلم .

الخامسة : الأمر بالاتحاد والنهى عن التفرق

فى القرآن الكريم : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣) آل عمران .

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) الأنفال

وفى الحديث الشريف : عن أبى هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : «ياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسبوا (١) ، ولا تجسبوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا» . رواه مسلم .

السادسة : الحث على الإصلاح بين الناس

جاء فى القرآن الكريم : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا

(١) التحسب بالماء : الاستماع لحديث الناس ، والتجسس بالجيم البحث عن عيوبهم

بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ
اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿
(١٠) الحجرات

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ، أَوْ مَعْرُوفٍ، أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
(١١٤) النساء

وجاء في الحديث الشريف: عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين من الحالقة». رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث صحيح. قال: وروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

السابعة: الأمر بالدفاع عن بيضة الدين

جاء في القرآن الكريم: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) النساء

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١) الأنفال

وجاء في الحديث : عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : «لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها» . رواه البخارى .

وعن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : «والذى نفسى بيده لا يكلم أحد في سبيل الله (والله أعلم بمن يكلم في سبيله) إلا جاء يوم القيامة واللون لون دم ، والريح ريح مسك» . رواه البخارى ومسلم .
وعن أبي موسى (رضى الله عنه) قال جاء رجل الى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : «الرجل يقاتل للبختم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟» قال : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله» . رواه البخارى .

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤١٧

الثامنة : الإنذار بالويل لمن ضعف في الدفاع عن الحق

ففي الذكر الحكيم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى قِتْلَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

(١٦) : الأنفال

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ قِتْلَةً فَانْبِئُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) : الأنفال

وفي الحديث الشريف : عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : «اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : «الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، أخرجهم الشيخان وروى أحمد بسند مختلف فيه : «من لقي الله عز وجل لا يشرك به شيئا ، وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه محتسبا ، وسمع ، وأطاع ، فله الجنة . (أو دخل الجنة) . وخمس ليس لهن كفارة : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، وبهت مؤمن ، والفرار من الزحف ، ويمين^(١) صابرة يقطع بها مالا بغير حق ،

التاسعة : الدعوة إلى إنفاق الأموال في إعلاء كلمة الحق

جاء في القرآن الحكيم : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ

(١) يمين الصبر التي تلزم ويحبر عليها حالها

حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ البقرة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضاعفه له أضعافًا كثيرة وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥) البقرة
 وورد في الحديث : عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله
 (صلى الله عليه وآله وسلم) : «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا :
 يا رسول الله ، ما منّا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : فإن ماله
 ما قدم ، ومال وارثه ما أخر ، رواه مسلم والبخارى

وعن ابن مسعود (رضى الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال :
 «لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ،
 ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها» . وفي رواية : «لا حسد الا في
 اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه
 الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار ، رواه البخارى ومسلم
 العاشرة : رفع مكانه التحاب في الله ، والتباغض في الله

فقى القرآن الكريم : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾
 (٧١) التوبة

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ :
 (٢٩) الفتح

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ
 كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ : (١٣) الممتحنة

وجاء في الحديث الشريف : عن أنس (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » رواه البخاري . وفي رواية : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب في الله ويبغض في الله ، وأن توقد نار عظمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئاً » رواه البخاري ومسلم . وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله (تعالى) يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ » (١) اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي ، رواه مسلم

وعن أبي أمامة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله . ومنع الله — فقد استكمل الإيمان ، رواه أبو داود

الحادية عشرة : الإفاضة في الحث على الزكاة

ففي كتاب الله الكريم : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (١٠٣) التوبة

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) الْمُؤْمِنُونَ (٥) قَالُوا مَنْ أَفْلَحَ (٦) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٧) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٨) ﴾

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)
وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) الليل

وجاء فى الحديث الشريف : عن أنس بن مالك قال : (أتى رجل من
تميم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إني ذو مال كثير ،
وذو أهل ومال وحاضرة ^(١) ، فأخبرنى كيف أصنع ؟ وكيف أنفق ؟ فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ،
وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والجار والسائل ... الحديث) رواه
أحمد ورجاله رجال الصحيح

وعن أبى أيوب (رضى الله عنه) قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرنى
بعمل يدخلنى الجنة ، قال : « تعبد الله ، ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ،
وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم » رواه البخارى ومسلم

الثانية عشرة : تبيين حق المسلم على المسلم

جاء فى القرآن الكريم : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧١) التوبة
﴿وَلَا إِذَا حُيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها . إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
حَسِيرًا ﴾ (٨٦) النساء

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) : (٦٠) الرحمن
(وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) : (٣٤) فصلت

وورد في السنة : عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) قال : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ،
واتباع الجنازة ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » ، رواه البخاري ومسلم
وروى مسلم : « حق المسلم على المسلم ست . قيل : وما هن يا رسول الله ؟
قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ،
وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » ، رواه
الترمذي والنسائي

الثلاثة عشرة : الأمر بأداء الأمانات ، والوفاء بالعهود
ففي آي الذكر الحكيم : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا
الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)
(٩١) النحل

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) : (٣٤) الإسراء
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) (١) المائدة
(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) (٤٠) البقرة
وفي الحديث الشريف : عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه)
أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً

خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها :
إذا أوتى من خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ،
رواه البخارى ومسلم

وعن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهر له » : رواه الطبرانى
الرابعة عشرة : امتداح الإيثار

شاهد ذلك من الآيات قوله (تعالى) : ﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَقِّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٩) الحشر
﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (٨) الإنسان

ومن الأحاديث : قوله (صلى الله عليه وسلم) عن أبي هريرة (رضى الله
عنه) قال : « جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : إني مجهود ،
فأرسل الى بعض نسائه فقالت : لا والذي بعثك بالحق ما عندى إلا ماء .
ثم أرسل الى أخرى فقالت مثل ذلك ، حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا ، والذي
بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . فقال : من يضيف هذا الليلة رحمه الله . فقام رجل
من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فانطلق به الى رحله ، فقال لامرأته :
هل عندك شيء ؟ قالت : لا ، إلا قوت صياني . قال فعللهم بشيء ، فإذا
أرادوا العشاء فتوهمهم ، فإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج وأريه أنا نأكل . .
(وفى رواية إذا هوى ليا كل فقوى إلى السراج حتى تطفئيه) قال : فقعدوا
وأكل الضيف وباتا طاويين . فلما أصبح غدا على رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) فقال : قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما ، زاد فى رواية : (فنزلت هذه

الآية : «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» : رواه مسلم

الخامسة عشرة : الصدق في المعاملة

دليل ذلك من الآيات الكريمة : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾ الشعراء

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥) الإسراء

ودليل ذلك من الأحاديث الشريفة : عن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : «أقبل علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا معشر المهاجرين ، خمس خصال كيف أتم إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركون : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المونة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا . ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلبوا أنفسهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أمتهم بكتاب الله وتخيروا^(١) فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » رواه ابن ماجه واللفظ له والبخاري

وروى عن أنس (رضى الله عنه) أنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

«التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة» رواه الأصبهاني وغيره

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : « الحلف منفقة للسلعة ، محقة للكسب ، رواه مسلم والبخارى وأبوداود إلا أنه قال : « محقة للبركة ،

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة ييغضهم الله : البياع الحلاف ، والفقير المختال ، والشيخ الزانى ، والإمام الجائر ، رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

السادسة عشرة : الحث على إنظار المعسر ، وتفريج المكروب
فى كتاب الله : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾ : البقرة .

وفى الحديث الشريف : روى مسلم وأبوداود والترمذى واللفظله وحسنه والحاكم وصححه على شرطهما : « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ،
وروى مسلم وغيره : « من سره أن ينجيّه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه ،

الضرب الثالث — زواج ذاتية :

الأول : تقيح الخيانة

شاهد ذلك من الآيات الكريمة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) : النساء

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَأَعْلُوا أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) : الأنفال

ومن الأحاديث ماروى الدارقطنى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « يد الله مع الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خان أحدهما صاحبه رفعها عنهما ،

وعن النعمان بن بشير (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «من خان شريكا فيما ائتمنه عليه ، واسترعاذه ، فأنا برىء منه ، رواه أبو يعلى والبيهقى

وفى الحديث المتفق عليه : «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان . وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر،

الثانى : النهى عن أكل الربا وإطعامه وكتابته

جاء فى الذكر الحكيم : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقِهَا ، فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٧) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رَمُوسٌ أَمْوَالُكُمْ لَا تَنْظِلُونَ وَلَا تَنْظِلُونَ ﴿٢٧٨﴾ : البقرة

وجاء فى الأحاديث الشريفة : عن سمرة بن جندب (رضى الله عنه) قال : قال النبى (صلى الله عليه وسلم) : «رأيت الليلة رجلين أتيا فأخرجاني إلى أرض مقدسة . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم ، وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذى فى النهر ، فاذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فردّه حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان ، فقلت : ما هذا الذى رأيت فى النهر ؟ فقال : آكل الربا ، رواه البخارى .

وعن جابر بن عبد الله (رضى الله عنه) قال : لعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء . رواه مسلم وغيره

وعن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : « ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة ، رواه ابن ماجه والحاكم وقال : صحيح الإسناد

الثالث : تحريم الخمر والمقامرة

ففي الذكر الحكيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَعِنُونَ ﴿٩١﴾ : المائدة

وفي الأحاديث الشريفة : روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله الخمر وشاربها ، وساقيا ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه ، رواه ابن ماجه وزاد ، وآكل ثمنها وروى الطبراني : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر ،

وعن جابر (رضى الله عنه) أن رجلا قدم من جيشان (وجيشان من اليمن) فسأله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له « المذرة ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « أو مسكر هو ؟ قال : نعم . قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « كل مسكر حرام ، وإن عند الله عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال . قالوا : يا رسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : « عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار ، رواه مسلم والنسائي

الرابع : تقييح الماطلة .

ورد فى الحديث قوله (صلى الله عليه وسلم) :

عن عمرو بن الشريد (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لى : «الواجد يحل عرضه وماله» رواه ابن جبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد . وعن على (رضى الله عنه) قال : «سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : لا يحب الله الغنى الظلوم ، ولا الشيخ الجهول ، ولا الفقير المختال ، . وروى عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب (رضى الله عنها) قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قوتها غير متعنع ، ثم قال : من أنصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض ، ونون الماء ، ومن أنصرف غريمه وهو ساخط كتب عليه فى كل يوم وليلة وجمعة وشهر ظلم ، رواه الطبرانى فى الكبير الخامس : استهجان المن بالصدقة .

ورد فى القرآن الكريم : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(البقرة ٢٦٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَنُفِّلَهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَاصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَ صُلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(البقرة ٢٦٤)

وجاء في الحديث الشريف : روى أحمد ومسلم وغيرهما : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ، ولهم عذاب أليم : المسبل لإزاره ، والمنان الذي لا يعطى شيئاً لإمانته ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب »

السادس : النهى عن تتبع سيئات الناس وعيوبهم .

دليل ذلك من القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (١٢) الحجرات .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ : (٣٦) الاسراء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَتَمُّ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . (١٩) النور .

ومن الأحاديث (قوله صلى الله عليه وسلم) : عن ابن عمر (رضي الله عنه) قال : « سعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المنبر ونادى بصوت رفيع : يا معشر من آمن بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع عورته يوشك أن يفضحه ، ولو في جوف رحله » رواه الترمذى .

وعن معاوية (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ، فقد حل لهم أن يفتقوا عينه :

أخرجه الشيخان .

السابع : ذم النفاق والتلون .

قال الله (تعالى) : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ قَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) النساء (١٤٦) ﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُّ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْصُونَ ﴾ (١٥) البقرة .

وفي الحديث : عن أبي هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « تجدون الناس معادن : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدّهم له كراهية ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، أخرجه الشيخان .

وعن محمد بن زيد : « أن ناساً قالوا لجدّه عبد الله بن عمر (رضى الله عنه) : « إنا لندخل على سلطاننا فنقول بخلاف ما تكلم إذا خرجنا من عنده ، فقال : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) » رواه البخارى الثامن : تقييح الكبر والعجب والخيلاء .

قال (تعالى) في كتابه الكريم ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلِّ ذَلِكِ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ﴾ الإسراء

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصَوَاتِ لَصُوتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ : لقمان

﴿سَافِرُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٤٦) الأعراف

وفي الحديث الشريف : عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر ^(١) بطر الحق و غطت الناس ، رواه مسلم والترمذى

الضرب الرابع - زواج اجتماعية

الأول : النهى عن موالاة أهل الظلم .

جاء في الذكرا الحكيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَنسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾ الممتحنة .
﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولِيَاءٍ ثُمَّ لَا تَنصُرُونَهُ (١١٣)﴾ هود

(١) بطر الحق : التكبر عنه وعدم قبوله

وجاء فى الحديث الشريف عن أنس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المجلس الصالح كمثل صاحب المسك ، إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل المجلس السوء كمثل صاحب الكير ، إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه ، رواه أبو داود

الثانى : عدم معاونة المبطلين

ورد فى القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِماً (١٠٧) ﴾ النساء

﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ

فُرطاً ﴾ (٢٨) الكهف

وجاء فى الحديث الشريف : عن عبد الرحمن بن عبيد الله بن مسعود عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « مثل الذى يعين قومه على غير الحق ؛ كمثل بعير تردى فى بئر فهو ينزع منها بذنبه ، رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه

قال الحافظ المنذرى : ومعنى الحديث أنه قد وقع فى الإثم وهلك ، كالبعير إذا تردى فى بئر فصار ينزع بذنبه ، ولا يقدر على الخلاص .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لكعب بن عجرة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء ، قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدى لا يهتدون بهدى ، ولا يستنون بستى ، فن صدقهم

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤٣٣

بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ولا يردن على حوضي ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك منى وأنا منهم وسيردون على حوضي . يا كعب بن عجرة : الصيام جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة والصلاة قربان ، أو قال : برهان ، يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فبتاع نفسه فعتقها ، وبائع نفسه فوبقها ، رواه أحمد واللفظ له والبخاري ورواهما محتج بهم في الصحيح .

الثالث : تحريم قتل النفس

قال (تعالى) : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُلَ مَظْلُومًا قَدَّ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ (٣٣) الإسراء
﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٣٢) المائدة

وجاء في الحديث الشريف : عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما ، رواه البخاري - واللفظ له - والنسائي ، إلا أنه قال : من قتل قتيلًا من أهل الذمة .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلة لقي الله وهو مكتوب بين عينيه : آيس من رحمة الله (تعالى) ، رواه ابن ماجه .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً أبداً ، ومن تحصى سما فقتل نفسه ، فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، » رواه البخارى ومسلم .

الرابع : توعد من أكل أموال اليتيم ووعد من كفله ، وأخذ بيد الأرملة قال (تعالى) : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (٢) النساء .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿ (١٠) النساء .

وجاء فى الحديث الشريف : عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « الساعى على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد فى سبيل الله تعالى ، وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر ، وكالصائم لا يفطر » رواه البخارى ومسلم . وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) : « أن رجلا شكأ إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قسوة قلبه ، فقال : « امسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين ، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وعن ابن عباس (رضى الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : « من قبض يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه ، أدخله الله الجنة البتة ، إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر » رواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح .

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤٣٥

وروى عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله ، وصام نهاره ، وغدا وراح شاهراً سيفه في سبيل الله ، وكنت أنا وهو في الجنة إخواناً ، كما أن هاتين أختان ، وألصق إصبعيه السبابة والوسطى ، رواه ابن ماجه . وفي حديث المعراج عن مسلم : « فإذا أنا برجال قد وكل بهم رجال يفكون لحام ، وآخرون يمحون بالصخور من النار فيقذفونها في أفواههم ، فتخرج من أديبارهم ، فقلت : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال : الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً . »

الخامس : النهي عن الغصب

قال (تعالى) في الذكر الحكيم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَلِأْتِيَهُ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩١) النحل .

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٨٧) المائدة

وعن يعلى بن مرة (رضى الله عنه) قال : سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : « أيما رجل ظلم شبراً من الأرض ، كلفه الله عز وجل أن يحفره حتى يبلغ سبع أرضين ، ثم يطوقه يوم القيامة حتى يقضى بين الناس ، رواه أحمد وابن حبان في صحيحه .

السادس : النهي عن السرقة وقطع الطرق

قال (تعالى) : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا

تَكْلَامًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣٨) المائدة

﴿لَمَّا جَزَاهُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَمْ خِزَى فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) المائدة
وقال (صلى الله عليه وسلم) : ولعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الجمل فتقطع يده ، رواه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة

السابع : التنفير من الخصومة بالباطل

قال (تعالى) في حكم كتابه : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٦) الأنفال

﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٢٠٦) البقرة

وقال (صلى الله عليه وسلم) : «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» رواه البخاري وأخرجه الترمذي وقال : غريب .

وعن ابن عباس (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
«كنى بك ألا تزال مخاصماً»

الثامن . تقييح الرشوة

قال (تعالى) : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤٣٧

لَتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة ١٨٨)
(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّعْثَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (٦٣) المائدة

وعن عبد الله بن عمر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : «الراشئ والمرثئ في النار ، رواه الطبراني ورواته ثقات معروفون
وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : «لن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الراشئ والمرثئ في الحكم، رواه الترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم زاد : «والرائش (يعني الذي يسعى بينهما)

التاسع : تحريم الغش

قال (تعالى) : (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا
فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) (٥٨) الأحزاب

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
«مر على صبرة طعام فأدخل فيها يده ، فنالت أصابعه بللا فقال : ما هذا ،
يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق
الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا ، رواه مسلم وابن ماجه .

وعن صفوان بن سليم أن أبا هريرة (رضي الله عنه) مر بناحية الحرة ، فإذا
إنسان يحمل لبنا يبيعه ، فنظر اليه أبو هريرة فإذا هو قد خلطه بالماء ، فقال له
أبو هريرة : «كيف بك إذا قيل لك يوم القيامة خلص الماء من اللبن ؟ ، رواه
البيهقي والأصبهاني موقوفا لا بأس به

وعن حذيفة بن اليمان (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، ومن لا يصبح ويمسي ناصحا لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولإمامه ، ولعامة المسلمين ، فليس منهم » رواه الطبرانى من رواية عبد الله بن أبى جعفر

العاشر : تحريم هجر المسلم بدون عذر شرعى

فى رواية لآبى داود ، قال النبى (صلى الله عليه وسلم) : « لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، فإن مرت به ثلاث فلياقه فليسلم عليه ، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا فى الأجر ، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم وخرج المسلم من الهجرة »

وعن جابر (رضى الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن فى التحريش بينهم » رواه مسلم

قال الحافظ المنذرى : قال أبو داود : « إذا كانت الهجرة لله ، فليست من هذا بشىء ، فإن النبى (صلى الله عليه وسلم) هجر بعض نساءه أربعين يوما ، وابن عمر هجرا ابنا له إلى أن مات »

الحادى عشر : النهى عن السخرية بالخلق والتناز بالالقاب والغيبة .

قال (تعالى) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْبِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى مظهر للقرآن الكريم ٤٣٩

الظَنُّ إِيْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا فَفَكَّرَ هُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) الحجرات
وجاء في الحديث الشريف : عن أبي هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ،
ولا تحسبوا ، ولا تجسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ،
ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم . المسلم أخو المسلم لا يظله
ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ههنا (ويشير إلى صدره) بحسب امرئ من الشر
أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله . .
رواه البخارى ومسلم واللفظ له

وعن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر ، رواه البخارى
وعن أبي الدرداء (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) : إن العبد إذا لعن شيئا سعدت اللعنة إلى السماء ، فتخلق أبواب السماء
دونها ، ثم تأخذ يميناً وشمالاً ، فإن لم تجد مساعاً رجعت إلى الذى لعن ، فإن
كان أهلاً ، وإلا رجعت إلى قائلها ، رواه أبو داود

الثانى عشر : النهى عن النيمة واللبز والاختلاق

قال (تعالى) : ﴿ وَلَا تَطْغُ كُلُّ حَلَالٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ ﴾ (١١) القلم
﴿ وَيَلِ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُزَّةٌ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ
أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ

(٦) اَلَّتِى تَطْلُعُ عَلٰى الْاَفْئِدَةِ (٧) اِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ
(٩) اَلْهَمَزَةُ

وجاء فى الحديث الشريف : عن حذيفة (رضى الله عنه) قال : «سمعت
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : «لا يدخل الجنة قتاتٌ»^(١) رواه البخارى
ومسلم. ورواه مسلم بلفظ تمام

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « لا يبلغنى
أحد من أصحابى عن أحد شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر »
رواه أبوداود

(١) القتات : من يسمى بين الناس بالقطيعة والنميمة

الباب الثاني عشر

إدحاض مفتريات بعض المؤلفين

على المعصوم سيد المرسلين

لاشك أن بعض النقاد الأوربيين قد حادوا عن الصراط السوي، وتكبووا وعُر السبل، واتهجوا طريقاً بعيداً عن الإنصاف حين تعرضوا للبحث في سيرة سيد المرسلين، فهم دائماً يتلبسون ماعساه أن يشين سمعته، أو ينتقص كرامته، ويحاولون أن يلصقوا به المعاييب، ويرموه بالمثالب، ويلوح أن القاعدة عندهم قبول القدح والذم فيه من غير بحث أو تمحيص ! ومن أمثلة هذا المسلك في النقد الجائر ما جاء في كتاب « اتساع رقعة الإسلام، لمؤلفه مستر كاش الذي اختتمه بأربع صفحات جمع فيها شواهد بما أسماه « جرائم القتل، التي حرص عليها النبي، في زعمه، ولقبه من أجلها بالمخادع القاسي القلب :

وقد اعتمد المؤلف في قدحه هذا على كتاب « سير ولیم، في حياة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يبذل أقل جهد في البحث والتمحيص. وكان أولى به وأجدر أن يتحرز ويشفق على نفسه وعلى قرائه قبل أن يدين محمداً، ويلصق به أشنع التهم، وينسب إليه أفظع الجرائم، على حين أن أربعائة (مليون) من الناس يتخذونه بحق نموذجاً أعلى للفضيلة، ومثالاً أكمل للرومة والكمال وحرى بنا قبل ذكر هذه المفتريات وتفنيدها، أن نقدم بين يدي القارئ كلمة يتبين فيها كيف تحمل المسلمون الأذى في سبيل الدعوة :

قام النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى دين الله ، و سبر على كفار قريش ومن على شاكلتهم صبر الكريم الحليم الذي يريد لأمته الهداية والصلاح ، والسعادة والنجاح ، والرقى والفلاح ، حتى لم يبق في قوس الصبر منزع للصبر ، ولا للبدارة موضع ؛ فإنه بذل النصح فقبول بالتعنيف ، وأرشد فاستهزئ به ، وأنذر فأردى . وقال : اتقوا الله . فقالوا : مجنون . وقال : اعبدوا الله ، قالوا : أتجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ وأتى بالمعجزة فقالوا : ساحر . وقرأ عليهم القرآن فقالوا : شاعر . فصبر كما أمره الله تعالى بقوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ ودعاهم إلى الدين القويم ونبد الوثنية المردولة ، فما كان منهم إلا القسوة والتألب عليه وعلى أصحابه وتبييت الشر لهم مدة إقامته بينهم ثلاث عشرة سنة ، حتى اضطروا إلى الهجرة فراراً بدينهم ، وخوفاً على أنفسهم .

وأول ما يسترعى النظر في هذه المفتريات أن خمساً منها خاصة باليهود ، وهم أهل كتاب آمن به المسلمون ، وجاء ذكره في القرآن في كثير من آياته لذلك كانوا أحق الناس بالتسميح ، وأجدرهم بالعطف . وإذا كان المسلمون لم يقتربوا هذه الجرائم - كما هو معروف في السيرة - مع المشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله ، واضطهدوا النبي وأنصاره . وآذوه أشد الإيذاء . وفرقوا جماعتهم . فهاجروا من أوطانهم . فكيف يتصور إقدام المسلمين على مثلها مع اليهود . وهم أهل كتاب ودين ؟ اللهم إن محمداً ما كان يطلب ملكاً . أو يريد مالا . ولكنه النبي المصلح لا يبغي من وراء دعوته إلا إصلاح ما فسد من أمرهم ، وجمع ما تفرق من شملهم ، وهدايتهم إلى أقوم الطرق ، بعد أن فسدت عقائدهم ، وطمست معالم دينهم .

إدحاض مقتريات بعض المؤلفين على المعصوم سيد المرسلين ٤٤٣

وقد قرر المؤلف - ومن حذا حذوه - أن جميع هؤلاء الذين وقعت هذه الجرائم عليهم قد قتلوا بغير حق ، سوى أنهم نظموا الأشعار في هجو المسلمين ، ولعلمهم نسوا أو تناسوا أن الشعر والهجو به لم يكن خاصاً باليهود ، بل هو من خصائص العرب جميعاً ، فقد كان ديوانهم ، وسلاحهم الذين يدفعون به عن أنفسهم ، وقد اتخذهم كثير منهم أداة للتشهير والإضرار بالإسلام والمسلمين ، فنظم بعض الشعراء قصائد في الهجاء ، ولجأ المسلمون إلى النبي يستأذنونهم في الدفاع عن أنفسهم والذود عن حياضهم ، فلم يزد على أن أذن لحسان في الرد عليهم بشعر مثله

إن القرآن الكريم قد أمر المرسلين بالصبر على احتمال الأذى ، واليك آية نزلت في وقت كان المسلمون خلاله في حرب خصومهم : ﴿ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ هذه آية من سورة انطوت على إشارة إلى موقعة أحد التي كانت في العام الثالث للهجرة ، فلا بد أن يكون نزولها بعد ذلك ، ومن العجب أن يدعى المفترون في ذلك الوقت وقوع ما نسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم زورا وبهتانا

وبديهى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أول من يأتمر بأمر ربه ، ويلتزم نص كتابه المنزل عليه ، وهو القدوة لقومه ، والمثل الأعلى لتابعيه وأنصاره ، ولما كان القرآن لم يكتف بأمر المسلمين بتحمل الأذى والصبر عليه ، بل نهاهم عن مقابلة الشر بمثله - كان مما لا يعقل أن يجرؤ مسلم على قتل شخص لم

يقترب إثمًا ، أو يرتكب جرما إلا أنه هجا المسلمين ، وإذا كان بعض المؤرخين قد ذل ونسب إلى النبي بعض تلك الجرائم من غير سند صحيح ، أو حجة واضحة ، فلن نقيم لكلامه وزنا ، لأن كتاب الله - وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - يأمر بغير ذلك ، ولا يتصور من الزعيم الديني الذي كان القرآن الكريم دعواه وحجته أن يستفتح دعوته بمناقضة نفسه ، ومخالفة ما يدعو إليه

ولنتناول الآن تلك المسائل ، ونعالج تمحيصها ، لكي نصل من وراء البحث إلى الصواب :

(١) ذكر الناقد قتل عصماء بنت مروان ، معتمدا على ما جاء في بعض السير ولخصه فيما يلي :

كانت هذه اليهودية من بني خطمة ، وكثيرا ما كانت تعيب الإسلام وأهله ، وتسب النبي صلى الله عليه وسلم ، لاسيما بعد قتل أبي غفك اليهودي ، ومن شعرها :

أطعمتم أناوى من غيركم • فلان مراد ولا مذحج

ترجون بعد قتل الرءوس • كما يرتجى مرق المنصج

فرد عليها سيدنا حسان بقوله :

بنو وائل وبنو واقف • وخطمة دون بني الخزرج

متى مادعت سفها ويحها • بعولتها والمنايا تبج

فهل لاقى ماجدا عرقه • ككريم المداخل والخزرج

فضرجها من جميع الدماء • بُعيد الهدو فلم يخرج

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك : ألا رجلا يكفيننا هذه ؟

فقال عمير بن عدى (وكان من قومها) : « أنا أ كفيكما يا رسول الله ، وهم

٤٤٥ إحداهن مفتريات بعض المؤلفين على المعصوم سيد المرسلين

بقتلها، فذهب إليها ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقتلت ابنة مروان؟ قال نعم: فهل على في ذلك من شيء؟ فقال صلى الله عليه وسلم: لا ينتطح فيها عزان، فإنها أهدر دمها، ثم أثنى عليه وسماه البصير وكان كفيفا، ثم رجع عمير إلى قومه، فوجد بنينا في جماعة يدفنونها، فقالوا: أقتلت عصماء؟ قال: نعم: أنا قتلتها فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون، فوالذي نفسي بيده لو قتلتم بأجمعكم ما قاتلت لضربكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم! فلما رأى المستضعفون من قومها - الذين أخفوا إسلامهم اتقاء شرها - أن الإسلام عز بعد قتلها أظهروا إسلامهم

ثم علق الناقد على هذه القصة بأن هذه المرأة قتلت شر قتلة، وأن الذي اقترف هذه الجريمة مسلم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتف بالقتل جزاء على الهجاء، بل أثنى على القاتل، وما كنا بحاجة إلى الرد على مثل هذه الفرية بعد أن قدمنا أن القرآن ينهى عن مقابلة الشر بمثله، فأولى ألا يديح القتل. وهو أشد العقوبات وآلها - لمثل هذا الذنب الصغير، ولكننا سنورد عليك ما يقوض أركان هذه الأراجيف، فهناك البخاري - وهو الثقة الذي لا يشك في روايته أو تنقض حجته - قد عقد بابا أسماه «كتاب الجهاد - قتل النساء في الحروب»، جاء فيه عن ابن عمر ما يأتي: «أن امرأة وجدت قتيلا في إحدى الغزوات التي حضرها النبي صلى الله عليه وسلم، فبني النبي عن قتل النساء والأطفال، فهل بعد ذلك يقال: إن النبي أمر بقتل امرأة لأنها هجمت المسلمين؟ أيهى النبي عن قتل امرأة خاضت غمار الحرب، وصوبت سهامها إلى صدره، وسلت سيفها في وجهه. ثم هو يجيز - بل يستحسن - أن تقتل امرأة لم تكن

جريرتها سوى السب ، أو نظم قصائد في الهجاء ؟ قد يقال : إن بعض أصحابه فعل ذلك ، ولكن هذا أيضا اقترأ ؛ فإنهم جميعا كانوا عارفين بأوامره منفذين لأحكامه ، فقد حدث أنه عندما اعترضت زوجة سلام بن أبي الحقيق بين المسلمين وزوجها أغمد الصحابة سيوفهم المشرعة ، وتركوه فلم ينالوه بأذى لأن النبي ينههم عن قتل النساء ، إذا لاجدال في أن هذه الرواية مختلقة قد قصد بها الخط من سمعته ، والنيل من كرامته . على أن هذا الذي سقناه لك قد أخذه بعض الأئمة ، وحرّموا لذلك قتل النساء حتى في الحروب ، فعند مالك والأوزاعي لا يجوز قتل النساء والأطفال مطلقا ، فلا يصح أن تقتل امرأة في حال ما ، حتى لو احتوى المقاتلون بجماعة من النساء والأطفال أو لجئوا إلى حصن أو سفينة بهما نساء وأطفال ، فلا يرمى هذا الحصن أو تحرق هذه السفينة . فيتضح من ذلك أن هذا الذي قالوه محض اقترأ على النبي صلى الله عليه وسلم لا تقوم الحجة به ، وتقضه نصوص القرآن ، وصحيح السنة (٢) أما الحادثة الثانية التي يرويها «كاش» فهي اغتيال أبي غفك (اللاحق اليهودي) وقصته كما نقلها عن بعض السير ما يلي :

كان أبو غفك مسنا بلغ مائة وعشرين سنة ، ولكنه كان يحرض على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ويهجو به شعره ، فقال صلى الله عليه وسلم يوما : من لي بهذا الخبيث ؟ فقال سالم بن عمير (رضي الله عنه) : على نذر أن أقتله أو أموت دونه . وظل ينتظر غرة منه حتى استراح بفناء منزله ، فذهب إليه ووضع سيفه على كبده ، ثم اعتمد عليه حتى نفذ إلى ظهره ، فصاح عدو الله ، فحضره قوم ممن كانوا على موافقته في الكفر والتحريض ، فقبروه هذه القصة أيضا وإهية الأساس ، متصدعة الأركان ، فقد ثبت أن النبي

إدحاض مفتریات بعض المؤلفین علی المعصوم سید المرسلین ٤٤٧

صلی الله علیه وسلم نهی عن قتل الشیوخ کأنهی عن قتل النساء والصبیان : فقد أخرج الستة إلا النسائی عن ابن عمر رضی الله عنهما : «أن امرأةً وَجَدَتْ فِی بَعْضِ مَغَازِی رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقْتُولَةً، فَهَبَتْ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبَّانِ» وأخرج أبو داود عن أنس أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال : « انْطَلِقُوا بِأَسْمِ اللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا قَانِيًا وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا تَغْلُوا ^(١) وَضُمُوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ،

وهذا كاف فی أنه محرم علی المسلمین أن ینالوا الشیوخ بأذى، فهل بعد ذلك ینسب إلی النبی قتل شیخ لم یمد الیه یده بأذى، بل کل ما فعل أنه فاه ببعض آیات من الشعر لن یتجاوز صداها مرتبط ناقتة؟

علی أنى أسوق الیک حادثة أخرى قد تكون أوضح فی الدلالة، وأؤكد فی البیان: أرسل أبو بكر رضی الله عنه أول خلفاء النبی صلی الله علیه وسلم أسامة ابن زید علی رأس جيش إلی الشام وقد أوصاه بوصیة لم تستطع الدول المتمدنة الآن مع حرصها علی تخفیف بلاء الحروب ودعواها العریضة فی خدمة الإنسانية والانسان ومراعاة حقوق العمران - لم تستطع مع ذلك - أن تقید جیوشها بقاعدة من قواعدھا. والیک الوصیة :

«لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شیخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تُنْقِرُوا نَحْلًا وَتَحْرِقُوهُ، وَلَا تَقْطُوا شَجَرَةً مُشْرَمَةً، وَلَا تَنْذِجُوا شاةً وَلَا بَقرةً وَلَا بَعيراً إِلَّا لِلْأَكْلِ. وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم

(١) غل غلوا : خان ، كَاغْل ، أَرْخَاص بِالْفَتْحِ.

في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم فخصوا
أوساط رموسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فاختفقوهم بالسيف خفقا
(٣) الفرية الثالثة قتل ابن سنينة . وقصته كما رواها الطاعن عن بعض السير
أن ابن سنينة كان تاجرا من تجار اليهود يلبسهم ويبيعهم ويعينهم بالمال
الكثير للاستمرار في مناوأة المسلمين ، وقد سمع الأصحاب من حضرة النبي
صلى الله عليه وسلم قوله : « من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه ، وكان ممن سمع
هذا محيصة بن مسعود ، فلقى ابن سنينة فقتله ، وكان لمحيصة أخ أسن منه تأخر
عنه في إسلامه يسمى حويصة ، فلامه على قتله ابن سنينة وقال له : أما والله
لرب شحم في بطنك من ماله ! فقال محيصة : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني
بقتلك لضربت عنقك . فقال حويصة : أو الله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني ؟
قال : نعم . فقال حويصة : والله إن ديناً بلغ بك هذا العجب ! ثم أسلم حويصة
وليس لنا رد على هذا الافتراء إلا أن نورد عليك ما جاء في الهداية من
أن الشخص لا يقتل إلا إذا كان مقاتلاً محارباً ، فقد جاء فيها : « لا يجوز لهم قتل
امرأة أو طفل أو رجل مسن أو رجل لم يشترك في القتال أو رجل أعمى
لأنه لا يجعل قتل النفس مشروعا في شريعتنا سوى الاشتراك في القتال »
فهذه قاعدة فقهية بنيت على قول ذلك النبي الكريم . فقد روى أبو داود عن
رباح : « كنا مع النبي في غزوة فرأى الناس يجتمعون فأرسل رجلا
يستفسر عن سبب اجتماعهم فعاد الرسول وقال : هناك امرأة قتيل . فقال النبي
الكريم : ولكنها لم تقاتل ! فقول النبي إنها لم تقاتل دليل لا يتطرق إليه الشك
على أنه لا يجوز أن يقتل سوى الذين اشتركوا في القتال والحرب ، فإما أن
يعترف مختلقو هذه الأكاذيب بأن ابن سنينة كان بين صفوف المحاربين ، فقتل

إدحاض مفتريات بعض المؤلفين على المعصوم سيد المرسلين ٤٤٩

دفعاً لشره ودرداً لضرره ، وإما أنه لم يكن من المحاربين وأنه لم يقتل بأمر النبي صلى الله عليه وسلم . هذا هو منطق الإسلام وروحه

(٤) حادثة كعب بن الأشرف اليهودي

أما هذه الحادثة الخاصة بكعب ، فقد تحدثت بها ثقات الرواة ، ووردت في صحيح الأحاديث ، لذلك نورد تفصيلها ، ونذكر لك أساسها ، لتبين كيف يسيئون إلى النبي ويرسمون صورته في الأذهان بألوان قاتمة :

أصل كعب بن الأشرف عربي من بني نهبان (بطن من طي) وكان أبوه أصاب دماً في الجاهلية ، ولما نزح أبوه إلى المدينة أصبح حليفاً لليهود بنى النصير . ولما صار ذا ثروة وجاه تمكن من أن يتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق ، وهو زعيم يهودي ، فكان كعب هذا ثمرة هذا الزوج وصارت صلته وثيقة بالعرب واليهود لنسبه ونشأته

هاجر النبي إلى المدينة ، وعقد مع اليهود الموائيق ، وكان على المسلمين واليهود بمقتضاها أن يعيشوا أسرة واحدة ، لا يعتدى بعضهم على بعض ، ولا يحالف أحدهما عدواً للآخر ، أو يعين محارباً له ، وأن يظل كل فريق محتفظاً بدينه ، متمسكاً بما يريد من مبادئه ، وأن يتعاونوا إذا هوجمت المدينة ، ويدفعوا عنها العدو ، بما يملكان من قوة ومال ، واتفقوا أيضاً على أن يكون النبي حكاماً فيما يعرض من خلاف ، أو ينشأ من نزاع .

ولما زحف أهل مكة على المدينة في العام الثاني للهجرة اضطروا المسلمون لملاقاتهم على أفراد ومع أنهم كانوا أقل منهم عدداً وعدداً فقد أوقعوا بهم هزيمة منكرة في « بدر » فزاد ذلك حقداً لليهود ، وضغينة على المسلمين . وجلى أن كتاب الله لا يأمر بالعقاب على غل خفي أو حقد دفين . ولذلك لم يحرك

أحد من المسلمين ساكناً . فلم يعتدوا على أحد من اليهود ، ولكن كعباً على ارتباطه بعهد مع المسلمين أطلق للمكتة الشعرية العنان ، وأثار على المسلمين حرباً شعواء ، ولم يقف عندهما الحد بل سار نحو مكة ، وعاهد أعداء المسلمين جهرة ، وحرص قريشاً على مهاجمة المدينة ، وأقسم في الكعبة ليحاربن المسلمين ولينقضن عهودهم ، وليكونن عضداً للشركيين إذا نشطوا من عقالمهم ، وخرجوا لمحاربة النبي في المدينة .

وليتهم اكتفى بنقض العهود ، والاتقاض على المواثيق ، والجهر بذلك في مكة ، وإعلان استعدادهم لمقاتلة المسلمين ، بل بيّث الشر للنبي ، ودبر مكيدة لإزهاق روحه والاعتداء على حياته .

هذه حقائق غفل عنها سير ولیم في كتابه « حياة محمد » . ثم تناول أدق تفصيلات قتل كعب ، ولقد تم بهذا على دخيلة نفسه إذ يقول : إن انتشار الإسلام في بدء الدعوة كان مما لا يحسد عليه إذا ووزن بتقديم المسيحية في يده أمرها ، فالذين دانوا بالمسيحية إنما دانوا بها لما شاهدوا من تجلدهم تحمّلوا الموت بسبب تلك العقيدة ، ولكن الذين دخلوا في الإسلام إنما دفعهم إليه ما هالهم من جنوح المسلمين إلى الفتك بمن لا يدخل في دينهم ، ففي الحالة الأولى كان التحول يودي بحياة المتحول ، ويوقعه في الخطر ، وفي الثانية كان التدين بالإسلام الوسيلة الوحيدة للنجاة من الهلاك .

بهذا الأسلوب يخفي « سير ولیم مویر » الحقائق التي يتبين منها أن كعباً قد تحول من حليف إلى محارب . فإن الحرب كانت قائمة بين المسلمين وغيرهم دون شك في ذلك . فإذا كان كعب قد عقد أواصر الصداقة بينه وبين الأعداء وعزم على مناوأة المسلمين ، ونقض عهودهم . والتحلل من مواثيقهم ، فقتل

إدحاض مفتريات بعض المؤلفين ، على المعصوم سيد المرسلين ٤٥١

لذلك فهل يعتبر ذلك قسوة أو خيانة ؟ وإذا كان بيت النبي وعزم على اغتياله غدراً فجوزى على عمله بالقتل ، فهل يسمى ذلك بغياً واعتداء ؟ ذلك ما كان من كعب ، وهاك طرفاً مما يثبتته :

« لقد توجه إلى قريش وبكى قتلاهم في « بدر » . وحرصهم على حرب المسلمين (الزرقاني جزء ٢ صفحة ١٠) فقال النبي : إن كعباً قد أظهر عداوتنا جهرة وتكلم عنا بالسوء . وقد ذهب إلى المشركين الذين كانوا في حرب المسلمين وجمع جموعهم لقتالنا (الزرقاني جزء ٢ صفحة ١١) » . « ويقول الكلبي : إنه قد تعاهد مع قريش أمام أستار الكعبة على أن يحارب المسلمين (الزرقاني جزء ٢ صفحة ١١) » .

« ولقد أعد وليمة وتآمر وبعض اليهود على أن يدعوا النبي حتى إذا حضر فتكوا به (الزرقاني جزء ٢ صفحة ١٢) » .

ويذكر صاحب فتح الباري شرحاً على حديث البخاري الذي ورد فيه قتل كعب ذهاب كعب إلى مكة ، وتحريضه قريشا وتعاهده أمام أستار الكعبة معهم على حرب المسلمين . ثم يذكر قول النبي إن كعباً أظهر العداوة له ، ودبر قتله بدعوته إلى وليمة ، ويعتبره محارباً .

وأبوداود يسرد لنا هذا الحادث ، ويبين أن كعباً أبدى العداوة للمسلمين وناصر أعداءهم ، وقد علق الشارح على ذلك بقوله : « ولا يجوز ذلك في حالة عدو منح الأمان ، أو عقد معه الصلح . . . ولكن يجوز في حالة من ينقض العهد ، ويناصر الآخرين على قتل المسلمين » .

ويحدثنا أبو سعد بأنه عند ماشكا اليهود إلى النبي قتل قائدهم ذكرهم بأعماله وكيف أنه حرص قريشا ، وحثهم على قتاله . ثم يضيف إلى ذلك : « أن النبي

قد دعاهم لعقد اتفاق معه وأن هذا الاتفاق كان بعد ذلك في حوزة علي ،
فهل بعد هذا يدعى المشوهون للحقائق أن قتل كعب كان بغياً وعدواناً ؟
لا جرم أنه نقض العهد وناصر أعداء النبي عليه ، فعد محارباً ، أما غيره من
اليهود الذين سالموا النبي ، وحفظوا ما عاهدوه عليه فقد عاشوا بجواره آمنين ،
مع أنهم لم يكونوا أقل من كعب نشاطاً في التحدث عن النبي بالسوء ،
وغاية ما ألزموه هو أنهم عاهدوه على ألا يساعدوا أعداء المسلمين ،
ولا يحاربوا المسلمين .

لقد أنكر الطاعنون على المسلمين قتل كعب غيلة ، وأول ما نريد أن
ننبه إليه هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُشَرِّبها . فهو من المؤاخذة عليها
براه إن كان ثم مؤاخذة .

وماذا فعل المسلمون بكعب ؟ ! إنهم أرسلوا إليه سرية (فصيلة من الجيش)
فاختار قائدها أيسر السبل للقضاء على عدوه ، فقد كان عليه أن يسلك إحدى
سبيلين : فإما أن يقاتل القبيلة جميعها ويعمل فيها سيفه ويتركها بعد ذلك
جثثاً هامدة وأشلاء متناثرة ، وإما أن يقتل غريمه ويثار من عدوه ، ولا
يأخذ الأبرياء بذنب المجرم ، فاختار الطريق الأخير حقناً للدماء ، وحفظاً
للأرواح .

وبعد ، فهؤلاء الذين ينسبون إلى النبي هذه المفتريات يقضى قانونهم بقتل
من يتجسس للأعداء ، وهم مع ذلك يأخذون على المسلمين قتل من نقض
عهدهم ، وناصر أعداءهم ، وجاهر بعداوتهم ، وبيت الشر لنبيهم ، فهم يجرمون
على الناس ما أوجبوه على أنفسهم !

(٥) قتل سلام بن الحقيق النضرى :

يقول « موير » تحت عنوان « اغتيال أبي الحقيق النضرى »
لقد أقامت جماعة من بنى النضير بعد نفيهم مع إخوانهم في خير ، ثم اتصل
أبو الحقيق زعيمهم بالقوى المتحالفة التي حاصرت المدينة وأخذ يشجع
بعض القبائل من البدو على السلب والنهب ، فجردت حملة - بقيادة علي - على
يهود خير ، ثم صمم محمد صلى الله عليه وسلم على وقف عدوانهم ، فلم يجد بدأ
من أن يتخلص من محرضهم المزعوم زعيماً لليهود ولكن قتل
أبي الحقيق لم يبدد مخاوف محمد من يهود خير ، لأن أسير بن رزام الذي
خلفه في الزعامة أبقى علاقته مع غطفان ، وقيل إنه أخذ يرسم الخطة للزحف
على المدينة .

ومن المعروف في السير أن بنى النضير (وهم قبيلة يهودية) سكنوا المدينة
وكانوا في حلف مع المسلمين ، ولما سلكوا سيلاً شاتناً باتصالهم بالقبائل
المعادية ، وكان من أثر ذلك هجوم إحدى القبائل العربية المتحالفة لهم وقتلهم
كثيراً من المسلمين غدرآ - طلب إليهم النبي أن يرعوا عهودهم ويكفوا عن
مناصرة أعداء المسلمين ، فلم يستجيبوا إلى طلبه ، فأخرجوا من المدينة ،
فلجثوا إلى خير ، وهى حصن اليهود المنيع ، وأصبحوا بذلك مصدر فتنة
ومبعث شر للمسلمين ، لأنهم دأبوا على تحريض القبائل المجاورة ، وبث روح
العداوة والبغضاء للمسلمين ، ثم اشتركوا في محاربتهم .

وكان أبو الحقيق هذا قائداً في موقعة الأحزاب التي اجتمع فيها كثير من
القبائل العربية واليهودية ليستأصلوا شأفة المسلمين ويناوئوا النبي ومن تابعه ،
وأعدوا ما استطاعوا من قوة ، وجمعوا ما وصلت إليه أيديهم من عدد واعد

ولكن الله نصر المسلمين وشد أزرهم ، وارتد الأحزاب مهزومين مخذولين .
ولكن أبا الحقيق لم يكف عن مناصرة القبائل العربية التي تعيش حول المدينة
ولم يمتنع عن بث روح العداء على المسلمين

ومن ذلك يتجلى أن يهود خيبر عامة ويهود بني النضير وزعيمهم خاصة
أعداء للمسلمين يتربصون بهم الدوائر ، فلا بد من تأديبهم ، وخضد شوكتهم ،
والحد من سطوتهم ، فرأى المسلمون حقناً للدماء وحفظاً للأرواح أن يطفئوا
جذوة الشر ، فأرسلوا جماعة للقضاء على مصدر الفتنة ، وهو أبو الحقيق ، فقد
ينقطع الشر ، ويصفو العيش للمسلمين .

فذهبت تلك الجماعة وقتلت هذا الزعيم المناوئ ، ولكن ذلك لم يؤد إلى
الغرض المنشود ، فكان لابد من إرسال جيش لفتح خيبر

هذا رجل قاتل المسلمين وحرص عليهم القبائل وناصر أعداءهم وتزعم
محاربيهم ، فهل إذا بعث إليه المسلمون بمن يثار منه لاموهم على ما فعلوا
ووصفهم بالقسوة والغلظة ؟

أما أسير بن رزام فإنه قام وحرص اليهود ، وسار إلى غطفان ، وجمعهم وهم
أن يذهب بجمعه إلى المدينة ليغزو النبي صلى الله عليه وسلم في عقر داره
ويلبغ ما يريد ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما هو فيه ، استطلع الخبر ،
فعلم بما أراد من تسيير الكتائب ، فأرسل له النبي صلى الله عليه وسلم عبدالله
ابن رواحة ، في سرية نحو الثلاثين من الأصحاب ، فقدموا عليه وقالوا : نحن
آمنين حتى نعرض عليك ماجئنا له . فقال : نعم ، ولى منكم مثل ذلك . فقالوا :
نعم . فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا إليك لتخرج إليه يستعملك
على خير ويكرمك . فشاور قومه فخالفوه ، فقال : إنا مللنا الحرب ، وخرج

إدحاض مقتريات بعض المؤلفين على المعصوم سيد المرسلين ٤٥٥

مع المسلمين ومعه ثلاثون من اليهود مع كل واحد رديف من المسلمين ، وحمل عبد الله أسيراً معه ، حتى إذا كانوا بقرقرة ندم أسير على خروجه ، وهم ليفتك بعبد الله فقطن له وهو يريد السيف فدفع بعيره ، وقال : غدرأ يا عدو الله ! غدرأ يا عدو الله ! وضربه بالسيف ، فسقط عن بعيره ؛ ومال كل واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى صاحبه من اليهود فقتله . وعلى الباغي تدور الدوائر ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه !

فبمثل هذا كان الغدر من المنافقين وأعداء الدين ، وكان الفتك والقتل من المسلمين انتصاراً لدين رب العالمين

(٦) فرية هتك النساء .

حاول مستر كاش إلصاق تهمة شنيعة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهي أنه أباح هتك نساء بني المصطلق ، وقد ادعى أن جميع كتب الآثار قد وزد بها هذا الخبر ، وهو افتراء جرى ، وهتان عظيم ، إذ لا يحوى كتاب واحد من كتب الحديث شيئاً يصلح أو يمكن أن يصلح أساساً لهذه التهمة ، وكل ما عثرنا عليه في هذه الكتب رواية لأبي سعيد ، أن بعض الرجال من جيش المسلمين أرادوا أن يعقدوا صلوات زوجية مؤقتة مع بعض النساء من أسرى الحرب ، على أن يستعملوا طريقة لمنع النسل ، وليس هناك ما يشعر بأن النبي قد أجاز لهم ذلك أو أنهم فعلوه ، مع أن الزواج المؤقت كان مباحاً قبل الإسلام ، ثم حرمه الإسلام بعد جرياً على سنته في اتباع طريق التدرج في الإصلاح ، وإذا كانوا قد تزوجوا من بعض الأسرى فأحكام القرآن صريحة في إباحة التزويج منهم ، والآية الآتية برهان واضح على ما نقول :

(وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَمْلَكَتُ

أَيَّمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
فَانْكَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ
وَلَا مُتَخَدَّاتٍ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى
الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿سورة النساء﴾

أما فيما يتعلق بمعاملة نساء بنى المصطلق خاصة ، فكل المصادر التاريخية تحدثنا
بأن النبي قد أعتق لإحداهن وهي جويرية بنت الحارث ثم تزوجها ، فلما علم
الناس بذلك قالوا : أصهار رسول الله ، فأعتقوا ما بأيديهم من السبي . قالت
عائشة رضى الله عنها : قد أعتقوا مائة أهل بيت بتزوج رسول الله صلى الله
عليه وسلم إياها ، فلا أعلم امرأة أعظم بركة على أهلها منها

فهل رأيت بهتاناً أعظم وحديثاً أكثر اقراء من تلك الأحاديث التي اقروها
على النبي في سيرته ، ذلك النبي الكريم الذي قاتل خزاعة فلم يلبث أن صاهرها
ورفق بها وأصبح من أنصار أهلها ، بعد أن كان بالأمس من أعدائها ؟ ! الحق أنه
رحمة لانتقمة ، فما عرف عنه صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه قسوة ولا مُثَلَّة
بل كان صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعدل الناس وأشد الخلق رحمة وشفقة ،
ولم يحملهم على قتل المشركين الذين كفروا بالله إلا الأمر عظيم ، فكانوا أشد
ما يكون إيذاءً وتحريضاً وهجواً لحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه
رضى الله عنهم . فهل تعد قسوة قتل سيدنا على لمثل غزوك اليهودى الذى كان
يشخن فى الأرض ، يأخذ المسلمين على غرة ، فيقتل من يصل إليه ، ويرمى ببنبله

من بعد عنه ، وما قیء يفعل ذلك لیل نهار حتی کمن له أبو تراب وشد علیه فقتله ، وفر من كان معه ، وكنی الله المسلبین شره . ولم لا يكون مثل هذا دفاعا ومنعا للأذى ؟ وما جزاء المنافق المؤذی الذی یحرض ویوقع الفتنة والضرر إلا القتل ؟ وكيف ینسب الیهم القسوة ، والنبی صلی الله علیه وسلم یوصیهم دائماً بتقوی الله وینهاهم عن قتل النساء والولدان والمسمن من الرجال ، ویأمرهم بقتال من كفر بالله وألا یمثلوا ولا یغدروا ؟ فهاك أبا دجانة رضی الله عنه قد حمل بسيفه علی رأس إنسان وجده یحمس الناس حمسا شديدا ، فصمد الیه فلما حل علیه بالسيف ولول فتین أنه امرأة فكف عن قتلها ، فلم فی ذلك ، فقال : أكرمت سيف رسول الله - صلی الله علیه وسلم - أن أضرب به امرأة

وقیل إن هندا جاءت مع نسوة فی سفح الجبل وأخذن یغنین ویحرضن المشركین فحمل علیهن أبو دجانة بالسيف فنادت هندی الصخر ! فلم یجها أحد فانصرف عنها وقال : أكرمت سيف رسول الله صلی الله علیه وسلم أن یقتل امرأة لا ناصر لها . والشواهد علی ذلك كثيرة جدا غاصه بها كتب المغازی والسير ومما یشهد لهم علی حفظ كرامة المرأة ، ومنع الضرر والأذى عنها ، أن امرأة من قینقاع خرجت إلى السوق لتبیع شیئا وجلست عند صائغ یهودی فطلب منها كشف وجهها فأبت ، فحاول الاساءة الیها فصاحت ، فوثب علیه رجل من المسلمین فقتله . فشدت الیهود علی المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمین علی الیهود . وكان الیهود إذ ذاك أظهروا البغی والحسد ونبذوا العهد بعد غزوة بدر حتی نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانَبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ وعلی هذا كان التعدی والبده بالعداوة من المشركین مما یهیج غیظ الحلیم

الباب الثالث عشر

موجز السيرة النبوية

ليس الغرض من هذا الباب بسط القول في السيرة النبوية ، فذلك له كتبه :
ولأنما القصد الإمام بطرف من سيرته عليه الصلاة والسلام ، ليرجع إليه
من يريد الحقائق التاريخية .

نسب النبي صلى الله عليه وسلم

(أ) نسبه من جهة أبيه

هو سيدنا أبو القاسم محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ،
ابن عبد مناف ، بن قصي ، بن حكيم ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب
ابن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس
ابن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان ؛ ويتنهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم
عليهما السلام .

(ب) نسبه من جهة أمه

هو سيدنا محمد بن آمنه ، بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، بن حكيم .
فتمت مع عليه السلام في جده حكيم .

أدوار حياة الرسول

لحياته عليه السلام ثلاثة أدوار :

(١) من ولادته إلى النبوة . (٢) من النبوة إلى الهجرة .

(٣) من الهجرة إلى وفاته .

(١) الدور الأول — من حملته إلى النبوة

تزوج أبو الرسول (عبد الله بن عبد المطلب) - في الثامنة عشرة من عمره - آمنة بنت وهب ، فحملت منه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى وهي حامل به أوبعد وضعه بشهرين ، وكانت ولادته ليلة الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول عام الفيل ، حين طلوع الفجر (وقت البركة) ، في زمن الملك العادل كسرى أنوشروان ملك فارس ، ولم يرث عن أبيه إلا خمسة جمال ، وبعض نعاج وجارية ، وأرضعته حليلة السعدية ، فدرت البركات عليها وعلى أهل بيتها ، مدة وجوده بينهم .

وفي السنة السادسة أخرجته أمه إلى أخواله بالمدينة ، فتوفيت بالآبواء (قرية قريبة من المدينة) ، فحضنته أم أيمن ، وكفله جده عبد المطلب مدة سنتين ، ثم توفى فكفله عمه أبو طالب .

وفي السنة التاسعة من عمره ، سافر إلى الشام أول مرة مع عمه هذا . وفي السنة العشرين من عمره حضر حرب الفجار (حرب كانت بين قريش وحلفائها ، وقيس وحلفائها ، في موضع يسمى «نخلة» بين مكة والطائف) . وفي السنة الخامسة والعشرين من عمره ، سافر إلى الشام بتجارة لخديجة بنت خويلد لاماته وصدقه ، مع غلامها ميسرة ، فباعا واشترى ، وربحا أعظم ربح ، وبعد شهرين من رجوعه من الشام ، خطبته خديجة لنفسها ، فتزوجها ولها من العمر حينئذ أربعون سنة .

وفي السنة الخامسة والثلاثين من عمره ، صدع سيل جارف جذران الكعبة بعد توهين من حريق كان قد أصابها ، فشارك الرسول قريشاً في بنائها . ولما

اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود حتى كادوا يقتتلون ، أدركهم الله بالرسول الفطن ، فبسط رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب . ثم وضع الحجر فيه ، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه الرسول ووضع فيه . ولما بلغ الأربعين أكرمه الله بالرسالة .

معيشته قبل النبوة

نشأ عليه الصلاة والسلام مفطوراً على محاسن الأفعال ومحامد الأعمال ، رعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية ، ولما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها بأجر ، ولو أراد ثراء المال كان له وفر ، ولا سيما بعد أن استأجرته خديجة ، واختارته زوجاً لها . لكنه لم تغره زخارف الدنيا . بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الناس ، ونما فيه حب العزلة والانقطاع إلى الفكر والمراقبة والتأمل . ولم يزل يناجي الله ، ويتوسل إليه ، حتى أكرمه بالنبوة .

(٢) الدور الثاني — من النبوة إلى الهجرة

ولما أحب الرسول الانقطاع عن الناس ، كان يتعبد في غار حراء (جبل بمكة) عشر ليال أو أكثر . وأول ما فتح له من الدلالات الرؤيا الصالحة الصادقة . ولما بلغ عليه السلام أربعين سنة اختاره الله لرسالته . وأنزل عليه الروح الأمين وهو في غار حراء . ليعلمه كيف يهدي قومه والناس أجمعين . وفي الثالثة والأربعين من حياته الشريفة ، بلغ ما أنزل إليه من ربه . وكانت الدعوة سرّاً . فأجابها كثير من الأشراف والموالى .

فترة الوحي

انقطع الوحي مدة أربعين يوماً ، ليشتد شوقه عليه السلام إليه ، فيكون

استعداده لتلقيه أكثر . ثم تتابع نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم .
وأول ما علمه جبريل ملك الوحي من الآيات قوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ
الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ .
عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

الدعوة سرّاً ثم جهراً

ابتدأت الدعوة سرّاً خوفاً من مفاجأة الناس بأمر غريب . ثم أمره الله
بالجهر بقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . فلي داعي الله ،
وخاض غمرات الدعوة ، ودعا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده ، وأن يركوا
ما كان عليه آباؤهم : من الشرك ، والكفر ، وعبادة الأوثان . ودعاء الأصنام .
فمنهم من هدى ، ومنهم من حقت عليه الضلالة .

وقد لاقى من أجل ذلك أذى عظيماً من قومه ، وكان يشتد أذاً له إذا
ذهب إلى الصلاة عند البيت ، ولم يزل صابراً على أذاهم حتى صرع الحق الباطل .

السنة الخامسة من النبوة وما بعدها

في هذه السنة أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر أناس منهم
لم يكن لهم عشيرة تحميهم ، أو قبيلة ترد عنهم كيد أعدائهم ، فراراً بدينهم وهي
أول هجرة من مكة ، وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة . ثم رجعوا بعد
ثلاثة أشهر . وفي ذلك الوقت أسلم حمزة عم الرسول ، وعمر بن الخطاب ، رضي الله
عنهما ، وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلاً ، وإحدى عشرة امرأة .
وفي السنة السابعة أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة للمرة الثانية .
وعدة أصحابها نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة . فلما رأت قريش

استقرار المهاجرين في الحبشة ، أرسلوا إلى ملكها النجاشي رسولين بهدايا وتحف ، رجاء أن يرد من هاجر إلى بلاده من المسلمين ، فأبى وردهما خائبين ، ثم أسلم النجاشي لما دعاه النبي للإسلام ، بالكتاب الذي بعث به إليه مع عمرو بن أمية الضمري ، كما تقدم . وكذلك أسلم من رحل مع عمرو من الحبشة إلى المدينة : من القسيسين والرهبان ، ستة سبع من الهجرة ، لما سمعوا من النبي سورة يس . ثم مات النجاشي مسلماً ، وصلى عليه رسول الله لما أعله جبريل بوفاته . وهذه هي أصل صلاة الجنائز على الغائب

وفي السنة العاشرة من بدء الوحي وفد على النبي وفد من نصارى نجران ، فأسلموا .

وفي تلك السنة توفيت خديجة زوج الرسول ، وبعد وفاتها بنحو شهرين توفي عمه أبو طالب ، وكان يدرأ عنه الأعداء ويمنعه من يريد أذاه ، ولذلك نالت قريش من الرسول ما لم تقدر على نيله في حياة أبي طالب ، واشتد أذاهم له وتعصبهم عليه ، فلما رأى ذلك هاجر إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة ، فأقام بها شهراً يدعو بني ثقيف إلى الله تعالى ، ليعينوه على قومه ، ويساعدوه حتى يتم أمر ربه ، فلم يجيبوا ، وآذوه إذاء شديداً ، فرجع إلى مكة ، ودخلها في جوار المطعم بن عدي .

وفي السنة الحادية عشرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج ، وفي المعراج فرضت الصلوات الخمس .

بدء انتشار الدين الإسلامي

لما حالت قريش بين الرسول وتأدية الرسالة ، خرج في مواسم العرب ، وعرض نفسه على القبائل ، ومن كلهم النبي نفر من عرب يثرب (المدينة

المتورة) من الأوس ، عرفوا وصفه الذى كانت تصفه به اليهود ، فأمن منهم ستة كانوا سبب انتشار الإسلام فى المدينة .

فلما كان العام القابل لقيه اثنا عشر رجلاً : عشرة من الأوس ، واثان من الخزرج . وفيهم خمسة ممن قابلوه فى السنة الأولى ، فأمنوا عند العقبة — وهى العقبة الأولى — وبأيعوه على ما أحب ، ثم انصرفوا إلى المدينة ، فأظهر الله فيها الإسلام .

وفى العام التالى (الثالث عشر للنبوّة) وفد على الرسول منهم سبعون رجلاً وامرأتان ، فأسلموا وبأيعوه عند العقبة — وهى العقبة الثانية — ثم نقّب عليهم الرسول اثني عشر نقيباً منهم : لكل عشيرة نقيب .

ثم انصرفوا إلى المدينة فانتشر الإسلام فيها بين أهلها رضى الله عنهم .

(٣) الدور الثالث — من الهجرة إلى وفاته

الهجرة إلى المدينة

لما ازداد الأذى على المسلمين أمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة ، فصاروا يتسللون خوفاً من أن تمنعهم قريش ، ولم يبق فى مكة إلا القليل ، وإذ ذاك أجمع قريش أمرهم على قتل الرسول ، وجمعوا من كل قبيلة شاباً . حتى يتفرق دمه فى القبائل ، فأعلم الله نبيه بما دبره الأعداء من الكيد ، وأمره باللاحق بدار هجرته التى ينتشر فيها الإسلام ، فصعد بالأمرو سنة ثلاث وخمسون سنة ، وخرج من مكة فى الليلة التى فيها التف الشبان حول داره لاغتياله ، فألقى الله عليهم النوم فلم يره أحد ، وخلف مكانه على بن أبى طالب ، ليؤدى ودائع للناس كانت عنده .

وقد صحبه فى هذه الهجرة أبو بكر ، فأسرعا فى السير حتى وصلا إلى غار

ثور^(١). ولما علم المشركون بفساد مكرهم هاجوا لذلك، وأرسلوا الطلاب إلى كل جهة، وجعلوا لمن يأتي به أو يدل عليه مائة ناقة، وقد وصلوا في طلبهم إلى الغار، فأعمى الله أبصارهم عنهما.

وبعد ثلاث ليال جاءهما الدليل براحتين، فساروا قاصدين إلى المدينة، فوصلوا إلى قباء^(٢) يوم الاثنين. لا تثنى عشرة خلت من شهر ربيع الأول. وكان التاريخ من ذلك. ثم رُدَّ إلى المحرم، وهو أول تاريخ جديد لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة، وقد بنى رسول الله وهو في قباء مسجدها الذي وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم، وقد صلى فيه الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار، ثم برح الرسول قباء، فأدر كته الجمعة في الطريق، فصلاها بمن معه من المسلمين، وكانوا مائة — وهذه أول جمعة صلاها — ثم توجه بعد الجمعة إلى المدينة والأنصار يحيطون به وهم متقلدون سيوفهم، فسرَّ أهل المدينة أيما سرور، وقد خرج لملاقاته فيمن خرج النساء والصبيان والولائد يُنشدن:

أشرق البدر علينا من ثنَّيات الوداع^(٣)
 وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
 أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
 السنة الأولى من الهجرة

فيها بنى مسجده الشريف، وقد عمل فيه الرسول بنفسه ترغيباً للمسلمين في العمل. وفيها شرع الأذان، ليجتمع الناس متى حان وقت الصلاة.

(١) ثور: جبل بمكة. (٢) قباء: موضع بقرب المدينة على بعد ميلين جنوبها.

(٣) ثنَّيات الوداع: بالمدينة. سميت بذلك لأن من سافر إلى مكة كان يودع هناك. والثنية العتبة.

ولما رأت اليهود أن قدم الإسلام قد رسخت في المدينة ، هاجتهم العداوة والحسد ، فتحزبوا على المسلمين ، فعقد الرسول معهم عقداً على أن يتركوا أذاه ، ويترك محاربتهم .

مشروعية القتال

لم يقيم الدين بالسيف وإنما قام بالدعوة والتبشير ، فعارض الرسول مَنْ عارضه ، وآذاهُ مَنْ آذاه بغيا وحسداً ، وكان هو ومن آمنوا معه صابرين على الأذى ، حتى فرج الله عنهم بالهجرة ، وشدَّ أزرهم ، وأباح لهم أن يأخذوا بثأرهم من أعدائهم قريش ، وغيرهم من العرب واليهود ، ثم صار الأمر بالجهاد عاماً فيحارب كلُّ من أراد المسلمين بسوء .

بدء القتال

لما أُذِنَ للرسول أن يقاتل أعداءه ، أرسل سرية (وهي كل غزاة لم يكن فيها رسول الله) برياسة عمه حمزة لاعتراض عير لهم (جمال تحمل الطعام وغيره) قادمة من الشام ، ولم يحصل حرب ، ثم أرسل سرية أخرى لاعتراض عيرهم ، وكان الرمي بالنبال إلى أن هرب المشركون .

السنة الثانية

فيها غزوة بدر الأولى^(١) وتسمى غزوة سفوان^(٢) خرج إليها الرسول في طلب كرز ابن جابر الفهري ، لأنه أغار على سرح^(٣) المدينة وهرب ، ولم يكن قتال ؛ لفرار كرز وفي هذه السنة أيضاً أرسل الرسول عليه السلام سرية برياسة عبد الله ابن جحش ، لاعتراض عير قريش القادمة من الشام ، فأصابوها ورجعوا . وهي أول غنيمة في الإسلام .

(١) اسم بئر بين مكة والمدينة كانت الواقعة قرية منها . (٢) واد من ناحية بدر .

(٣) السرح : المال ، كالغنم ونحوها

وفي هذه السنة أيضاً تحوّلت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، بعد أن مكث المسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً .

صوم رمضان وزكاة الفطر

في شهر شعبان من هذه السنة فرض صوم رمضان ، وكان عليه السلام ، قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر . وقد أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر ، وجعل قبول الصوم معلقاً على بذلها لمستحقها .

زكاة المال وحكمتها

وفي السنة الثانية أيضاً فرض الله على الأغنياء من الأمة الزكاة ، التي هي النظام الوحيد ، والسبب الأقوى ، لدفع غائلة الفقر عن الأمة ، إن هي صرفت لمستحقها : فياكل الفقراء والمساكين والعجزة واليتامى ، الذين ليس لهم من يقوم بحاجاتهم ، ولا ما يقيم أودهم من مال لإخوانهم الأغنياء ، بلا ضرر ولا ضرار^(١) .

غزوة بدر الكبرى — وهي الثانية

وفي هذه السنة خرج الرسول ومعه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وتعرضوا لإحدى قوافل قريش المارة بالمدينة ، وهي راجعة من الشام ، فعلت قريش بذلك ، وخرجت إليه في تسعمائة وخمسين رجلاً ، وتقابل الفريقان على ماء بدر وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً .

صلاة العيدين ، وزواج علي بفاطمة ، وتزوج النبي عائشة

في هذه السنة أيضاً سنّ الله صلاة العيدين : عيد الفطر ، وعيد الأضحى - وفيها تزوج علي بفاطمة رضي الله عنهما ، وكان منها عقب رسول الله صلى الله

عليه وسلم .

(١) ضرار : مضارة

وفيه تزوج النبي عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .

السنة الثالثة من الهجرة — غزوة أُحُد^(١)

في هذه السنة سارت قريش في ثلاثة آلاف محارب لحرب المسلمين ؛ أخذوا
ميثاقاً من قتل من أشرافهم يوم بدر ، فجاء النبي تسعمائة رجل ، وتقابل الفريقان
بجبل أُحُد ، وكاد ينتصر المسلمون ، لولا أن شُغل الرماة بالغنائم ، وتركوا
أما كنهم ، فقتل كثير من المسلمين ، وجرح النبي عليه السلام .
وفي هذه السنة تزوج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وزينب
بنت خزيمة .

تحريم الخمر

وفي هذه السنة أيضاً حرم الله الخمر قطعاً ؛ لما فيها من الأضرار الجسيمة :
في العقل ، والمال ، والجسم

السنة الرابعة من الهجرة — غزوة ذات الرقاع^(٢)

فيها خرج الرسول ومعه سبعمائة مقاتل ؛ لمحاربة بني محارب ، وبني ثعلبة ،
المتهمين لقتال المسلمين ، فهربوا وتركوا نساءهم . وفي هذه الغزوة نزل جبريل
عليه السلام بصلاة الخوف ، ثم برخصة التيمم .

السنة الخامسة من الهجرة — غزوة الخندق وهي الأحزاب

فيها حرضت قريش القبائل على قتال النبي ، فاجتمع عدد منها وحاصروا
المدينة ، ولكن المسلمين كانوا قد حفرُوا حولها خندقاً ، فلم يستطع الكفار
دخولها ، ولما طال مكثهم بدون فائدة اختلفوا فيما بينهم ، وهبت عليهم ريح
عاصفة ، فقتلت شملهم ، وعادوا من حيث أتوا .

(١) جبل بالمدينة (٢) سميت بذلك : لأن المسلمين رجعوا راياتهم ، أولفوا على أرجلهم فيها النحر

في هذه السنة أيضاً نزلت آية الحجاب . وفيها أيضاً فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً ؛ ليجتمع المسلمون في مكان واحد ، فيجددوا عهود الإخاء والولاء ، ويدعوا الله عز وجل أن يؤيدهم بنصره ، ويمكن قواعد الألفه بينهم . وفي ذلك من الفوائد السياسية والدينية ما لا يخفى على ذى بصيرة كما تقدم .

السنة السادسة من الهجرة — غزوة الحديبية

فيها خرج الرسول معتمراً في ألف وأربعمائة رجل ، سيوفهم في أغمادها ، فجمعت قريش الجموع ، لتصدم عن البيت الحرام . ولم تقع الحرب ، بل حصل صلح الحديبية بين الفريقين كما سبق بيانه .

السنة السابعة من الهجرة — غزوة خيبر^(١)

أراد النبي أن يؤدب اليهود ، لاشرأ بهم مع أعدائه في حصار المدينة . وكانوا قد تعهدوا بالتزام الحيدة ، فغزاهم في بلادهم (خيبر) وفتحها ، وغنم المسلمون منها غنائم عظيمة .

السنة الثامنة من الهجرة — غزوة الفتح^(٢)

غزا النبي المشركين في معقلهم (مكة) وفتحها ، وهدم الأصنام في الكعبة ، فغضت له قريش واستسلمت ، فقابلها بالصفح ، وعفا عن آذوه مع قدرته على الانتقام منهم ، فضرب لهم مثلاً عالياً يزيدهم إيماناً بكريم خصاله . وأسلمت قريش جميعها يوم الفتح . وبذلك علت كلمة الإسلام .

نشر الإسلام خارج بلاد العرب

لما علت كلمة الإسلام ، وأمنت الطرق من قريش ، أنفذ النبي رسله إلى مختلف الأقطار ، وأرسل البعوث إلى ملوك الفرس ، والروم ، ومصر ،

(١) بلدة شمال المدينة ذات حصون ومزارع ، (٢) فتح مكة

والحبشة ، فأسلم بعضهم ، وردّ البعض ردّاً حسناً . كالمقوقس عظيم القبط ، فانه أرسل إلى النبي جملة هدايا . ومنهم من أبى واستكبر ، وأهان الرسل ؛ فكانت عاقبته الخسران المبين .

السنة التاسعة من الهجرة

غزوة تبوك^(١)

تعرف بغزوة العسرة ، لانهما كانت في زمن عسرة الناس ، وجذب الأرضين ، وشدة الحر

وسببها أن الروم جمعت الجوع بالشام مع هرقل ، تريد غزو المسلمين في بلادهم . فعلم الرسول بذلك ، فسار بجيش عدده ثلاثون ألفاً ، من مكة والمدينة وقبائل العرب . وقد استقبل المسلمون فيها سفراً بعيداً ، ومفاوز مهلكة ، وعدوا كثيراً . حتى إنهم كانوا ينحرون البعير فيشربون مافي كرشه من الماء ، ولما وصلوا إلى تبوك ، لم يروا فيها جيشاً كما سمعوا ، فأقاموا بها عشرين ليلة من غير حرب ؛ ثم رجعوا

السنة العاشرة

بعثات إلى اليمن

في هذه السنة أرسل الرسول علي بن أبي طالب في ثلاثمائة فارس إلى قبيلة بني مذحج من أهل اليمن ، وعقد لواءه يمينه ، وعمه يده ، وقال له : « سرحتي تنزل بساحتهم ، فادعهم إلى قول : لا إله إلا الله . فإن قالوا : نعم . فرهم بالصلاة ، ولا تبغ منهم غير ذلك . ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس . ولا تقا نلهم حتى يقتلوك » وقال أيضاً : « إذا

(١) مكان معروف في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق

جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ، . فسار على حتى انتهى إليهم ، ولقى جموعهم فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا . ثم أجابوا بعد قتالهم وهزيمتهم ، وبايعه رؤسائهم ، وطلبوا منه أن يأخذ زكاة أموالهم ، وأن يكونوا على من ورائهم من قومهم .

ثم رجع على - رضى الله عنه - بأصحابه فوافى الرسول بمكة ، وقد قدما للحج في السنة العاشرة ، وقد كان الرسول أرسل إلى أهل اليمن من يعلمهم شرائع الإسلام . وكانت الين كُورَين (إقليمين) : فبعث مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إلى الكورة العليا من جهة عدن ، وبعث أبا موسى الأشعري إلى الكورة السفلى : وقال لهما : « يَسْرًا وَلَا تَعْسَرًا ، وَبَشْرًا وَلَا تَنْفَرًا » ، ثم انطلق كل منهما إلى عمله ، فكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ، أما أبو موسى فقدم على النبي في حجة الوداع .

حَجَّةُ الْوَدَاعِ

في السنة العاشرة من الهجرة حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وخطب في عرفة (في اليوم التاسع من ذى الحجة) خطبة الوداع ، بين فيها أهم أصول الدين وفروعه ، وقد تقدم ذكرها . وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ وبذلك أكمل الرسول شعائر الإسلام وأتم رسالته على أكمل وجه ، ثم عاد إلى المدينة .

مرض الرسول عليه السلام

بعد أن عاد الرسول من الحج إلى المدينة ، مرض ثلاثة أيام ، ولما اشتد عليه المرض ، استأذن نساءه أن يمرض في بيت إحداهن ، فأذن له بيبت عائشة ، ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة . قال : « مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ »

ثم خرج متوكئا على عليّ والفضل ، وتقدم العباس أمامهم ، والنبي معصوب
يخط برجليه ، حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر ، فثار إليه الناس ، فمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال : «أيها الناس ، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم . هل
خلد نبي قبلي فيمن بعث ، فأُخْلِدَ فيكم ؟ ألا وإنى لاحق بربي ، ألا وإنكم لاحقون
بي . فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم . فإن
الله تعالى يقول : ﴿ وَالْعَصْرَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خَاسِرٌ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ . وإن الأمور تجري بإذن الله
فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله . فإن الله عز وجل لا يعمل بعجلة
أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ
أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ . وأوصيكم بالأنصار خيراً .
فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم : أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم
في الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم في الديار ؟ ألم يوثروكم على أنفسهم وبهم الخاصة ؟
ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئتهم .
ألا ولا تستأثروا عليهم . ألا وإنى فرط لكم ^(١) . وأنتم لاحقون بي . ألا وإن
موعدكم الحوض . ألا فمن أحب أن يردّه على غدا فليكفف يده ولسانه لإفيا
ينبغي . يأيتها الناس : إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم : فإذا برّ الناس برّهم
أتمتهم ، وإذا فجرُوا عقوقهم ،

وفاة الرسول عليه السلام

اشتد وجع الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الأحد . ولما كان يوم الاثنين
الثاني عشر من شهر ربيع الأول الذي هو تمة عشر سنين للهجرة ، فارق الرسول
(١) فرط لكم : متقدمكم . وأصل الفرط من تقدم الورد في طلب الماء . لبي لم وسائل الورد من الدلاء وغيرها

دنياء ، ولحق بمولاه ، واختار الرفيق الأعلى على زهرة الحياة ؛ بعد أن أدى الأمانة حق أدائها ، وهدى الناس الصراط المستقيم ، ودعاهم إلى عبادة الله العظيم . فلقى من أجل ذلك مشقات جمة . وأهوالاً عظيمة . ثبت أمامها غير هيب ولا وجل ، حتى صرع الحق الباطل . وانتشرت أشعة الدين الخفيف . فأنارت البصائر والأبصار ، فنطقت الألسنة بالشكر له والثناء عليه .

وبوفاته حزنّت النفوس حزناً شديداً على فراقه فاللهم آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه الله المقام المحمود الذي وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد
دفنه عليه السلام

بقى عليه السلام في بيته حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة لهم ثم غسل وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قيص ولا عمامة ، ووضع على سرير في بيت عائشة وصلى عليه المسلمون جميعاً بلا إمام : الرجال ، ثم النساء ثم الصبيان . وحُفر له لحد في بيت عائشة ، حيث دفن ليلة الأربعاء في جوف الليل ، تاركاً للمسلمين شيئين لا يضرهم أحد ما تمسكوا بهما . وهما :

(١) كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(٢) والاحاديث التي حفظها عنه الثقات ، وكانت تشريعاً وتثبيتاً للأحكام ، وتبيناً لمقاصد القرآن الكريم

. وعاش عليه السلام ثلاثاً وستين سنة : أربعين قبل النبوة . وثلاث عشرة سنة في مكة بعدها ، وعشر سنين في المدينة بعد الهجرة

نسأل الله القدير أن يتوفانا على ملته ، ويقدرنا على العمل بشريعته ، ويثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

انتهى



العالم الإسلامي

المرحوم الأستاذ محمد أحمد جاد المولى (بك)

عميد تفتيش اللغة العربية والدين (سابقًا)

(1883 - 1944)

★ ولد في أبريل سنة 1883 ببردونة الأشرف مركز بنى مزار محافظة المنيا .

★ تعلم القرآن بمكتب القرية وحفظه وهو دون العاشرة من عمره .

★ سافر إلى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف وكان من الأوائل ، واختير للدراسة بدار العلوم حيث أتم دراسته بها وحصل على دبلوم دار العلوم بامتياز .

★ اختارته وزارة المعارف سنة 1907 ليدرس في إنجلترا حيث نال شهادة الدبلوم في التربية بامتياز من جامعة ريدنج سنة 1910 .

★ عين في وظيفة أستاذ مساعد للغة العربية بجامعة أكسفورد لمدة ثلاث سنوات .

★ درس أثناء عمله بإنجلترا ونال شهادة في الجغرافيا من جامعة أكسفورد سنة 1913 .

★ عاد إلى مصر سنة 1913 وعين بقلم الترجمة بوزارة الأشغال وبقي بها ثلاث سنوات .

★ اختير سنة 1916 للعمل بالديوان العالى السلطانى وأنعم عليه برتبة البكوية من الدرجة الثانية .

★ عين بوزارة المعارف سنة 1922 مفتشاً للغة العربية بعد أن أنعم عليه بنيشان النيل .

★ عين عام 1934 مراقباً لمجمع فؤاد الأول للغة العربية واستمر به ستين نفل بعدها مفتشاً أول للغة العربية بالوزارة .

★ عين عام 1938 عضواً بالمجلس الأعلى لدار الكتب المصرية .

- ★ بلغت سنه الستين فى أبريل 1943 ولكن الوزارة رأت استبقاءه سنتين ، غير أن مرضاً فاجأه ولم يمهله سوى خمسين ساعة فلقى ربه فى 8 فبراير سنة 1944.
- ★ كان رحمه الله عاملاً فى كثير من الجماعات الخيرية يمدّها بأرائه ويمدّها بمحاضراته .
- ★ لم ينقطع عن التأليف والنشر إلى آخر لحظة من حياته فترك عديداً من المؤلفات أهمها:

■ مؤلفات خاصة :

- * محمد (ﷺ) المثل الكامل .
- * « عظمة محمد » مترجم إلى اللغة الفارسية .
- * « الخلق الكامل » من أربعة أجزاء .
- * إنصاف عثمان .
- * مذهب حماة الإسلام .
- * القرآن الكريم وأثره فى اللغة والدين والاجتماع - مؤتمر المستشرقين - سنة 1928.
- * انشقاق القمر معجزة لسيد البشر .
- إلى جانب مخطوطات معدة للنشر .

■ مؤلفات مشتركة :

- * قصص القرآن .
- * قصص العرب .
- * أيام العرب .
- * مذهب رحلة ابن بطوطة .
- * تهذيب المزهر للسيوطى .
- * المنطق المشجر .

■ كتب تعليمية :

- * قائمة فى علوم القرآن الكريم والدين وأدب الإسلام والمطالعة العربية وقواعد اللغة العربية .

